

جورجي أمادو

JORGE AMADO

حرب الأوهام

الفارابي


مكتبة
طريق العلم

جورجي أمادو

حرب الأوهام

روايـــة

ترجمها عن البرتغالية:

عوني الديري

دار الفارابي

الكتاب: حرب الأوهام

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل

O Sumiço Da Santa

المؤلف: جورج أمادو

ترجمة: عوني الديري

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)

ص.ب: 11/3181 ـ الرمز البريدي: 2130 1107

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: حزيران 2015

ISBN: 978-614-432-326-7

حرب الأوهام

أو اختفاء القديسة

إنها مشروع روائي أُعلن عنه قبل عشرين سنة من إنجازه بعنوان"حرب الأوهام".. أو "اختفاء القديسة". رواية ولدت من الربط بين ثلاث قصص بعملية مزج ثقافي في "باهيا"، تواجه مع الحكومة العسكرية، حاملاً طيّه، ما ميَّز دائماً أعمال جورجي أمادو، من تأكيد على الامتزاج الثقافي نتيجة التمازج البيولوجي بين سكان البرازيل، والقريحية، والروحية الباهيانية، والواقعية البرازيلية الساحرة. بالإضافة إلى سحر الكلمة، والوضوح، والحركة الدؤوب، المتّزنة، وهي ميزات الأسلوب المتميّز، والمتفرّد، للكاتب البرازيلي الكبير.

من مرسى دي سيليستان، وفي دفء زيليا، إلى رامبا دو مركادو...

إلى ستة شعراء في هذا العالم:

ميريام فراغا في لارغو دو بيلورينيو، وفرناندو أسيس باتشيكو في بارديليو، وفرنسيس كومبس في مكان ما في باريس، وجورج موستاكي في جزيرة سان لويس، وجوزي سارني في جزيرة سان لويس دو مارانياو، ورينيه دوبيستر، في جاكميل هايتي، هذه القصة من السحر...

صفحة مخصّصة للتوريات،

والإيجازات، والإشارات...

– أمر الملك باستدعائي
ليزوّجني من ابنته،
أما المهر الذي سيمهرني به،
فهو أوروبا، فرنسا، وباهيا.

"كركرداس الاغراس"

– باهيا،
إن الآلهة بيننا...
الآلهة
الذين حُكم عليهم بالظلمة زمناً طويلاً

عن: "نور باهيا"
فرنسيس كرمبي

– باهيا جميع القديسين
هناك بقيت أفريقيا حيّة في المنفى...

عن: "باهيا جميع القديسين"
جورج موستاكي

– وذهب في رحلته المبحر بلا ميناء
في مياه باهيا جميع القديسين

هربرتو ساليس

– وصلت يانسان إلى الصخرة، فأبرقت وأرعدت...

عن: "يانسان امرأة شالنغو"
زورا سلجان

– الربّان مانويل وماريا كلارا وصفاء سواء
كارثة المبحر بلا ميناء

عن ليلة المجد لجوان سيلفا
أبيا ميتوتداس كوستالينا

– إنه عالم متغيّر

فرناندو أسيس باتشيكو إرسالة

اختفاء القديسة

أو حرب الأوهام

هـــذه هي الحكاية الصغيرة، عن أداجيزا ومانيلا وبعض سليلي عشق الإسباني فرنسيسكو روميرو بيريز إي بيريز، مع أندريزا دا أنونسياساو، الرائعة أندريزا بنت يانسان، الخلاسية الفاحمة. وفيها توصف، لكي تخدم مثالاً يحتذى، وإنذاراً، أحداث هي بلا شك غير متوقعة، وفضولية، وقعت في مدينة باهيا – وفي أي مكان آخر لا يمكنها أن تقع.

إن أهمـــية التاريخ هي أهمية نسبية، ولكن، هنا، يستحق الأمر معرفة أن كل شـــيء قد حدث في زمن قصير مدته ثمان وأربعون ساعة، ولكنه طويل بالحياة التي واكبـــته، وذلك في أواخر الستينات أو في أوائل السبعينات تقريباً. لم يتم التفتيش عن تفسير لها، لأن الحكاية تُروى ولا تُفسَّر.

إنـــه مشروع رواية أُعلن عنه منذ حوالى العشرين عاماً، وتحت عنوان حرب الأوهام، ولكن، فقط الآن، في صيف وخريف 1987، وفي ربيع وصيف 1988 في بـــاريس وضعت الهيكل على الورقة. وبينما أكتبها، تمتّعت، فإذا تمتّع بقراءتها أحد أكثر مني، سأكون سعيداً بذلك.

ج. أمادو

العبور

الإبحار

عـــند عصر ذلك اليوم، وفي ساعة غير مرتقبة، ألقى "المبحر بلا ميناء" مراسيه في باهـــيا جمـــيع القديسين آتياً من ريكونكافو مرفوع الأشرعة – البحر معطف أزرق، قال الحبيب لحبيبته. غريب أن يبدو غير مسموع، مع همهمة الريح، صوت ماريا كلارا المتموِّج واهناً في شكواه عبر أغنية حب قديمة.

هكـــذا كان يحدث، لأنه ما عدا الحمولة العادية التي تفوح رائحة ما فيها من الأنانـــاس والكاجـــو والمانغـــا، فـــإن المركب الشراعي تلقّى في سانتو أمارو دا بوريفيكاسياو عبء مسؤولية نقل تمثال القديسة بربارة، أم الرعد، الشهيرة بجمالها وعجائبيـــتها، والتي أعارتها الأبرشية مع تشديد، غير قابل للإخفاء، قام به الكاهن ليـــتمّ عـــرض التمـــثال في معرض رسمي للفن الديني في العاصمة، حيث سيغطّي الحـــدث، شـــعراً ونثـــراً، الصحافة، والمثقفون: إنه حدث العام الثقافي، وكانت الصحف قد أشارت إليه. ولكي يستجيب للمهمة المقدسة الموكولة إليه، فإن الربان مانـــويل كان قد ألغى الرحلة الصباحية مؤخراً إياها مدة اثنتي عشرة ساعة، ولكنه فعل ذلك بطواعية ورضى: فالأمر يستحق العناء، والسيدة كانو لا تطلب، بل تأمر.

أحـــسّ الكـــاهن بنفسه أقل همّاً لأن قساً وراهبة سيشتركان في الرحلة، وبدا القـــس شـــاباً عصرياً أطلق شعره للريح وارتدى رداءً مدنياً، أما الراهبة فقد بدت مسنّة، نحيلة، شاحبة برداء أسود. لكن العناية الإلهية التي لا تخطئ جعلتهما يبحران مع القديسة:

– اسهرا عليها خلال الرحلة، وانتبها جيداً، وبنوع خاص عند مصبّ النهر، فالمياه هناك متحركة صاخبة والريح تعصف بشدة. فليرافقكما الله.

وإذ عكـــف الكـــاهن والـــشماس والسيدة كانو على المساعدة بين صلوات وتـــصفيق مجمـــوعة قلقة من منتسبات الأخوية، فإن القس والراهبة بدآ الاحتفال بالإبحار،

وعند المنحدر السريع الانحناء، داخل المركب، فضلا أن يوكلا بمحمل التمثال المزيّن، إلى أيدي الربان مانويل وزوجته ماريا كلارا اللذين وضعاه باحتراز واحترام في مؤخّر المركب. وهناك، واقفة، مكثت الصورة الإلهية الجليلة للقديسة الكاثوليكية فوق المحمل شبيهة بمقدمة سفينة: كيانية، وثنية، وصورة قديسة مطوّبة وحارسة.

الراهبة والقس

عند المغيب الذي هبط على الأشرعة المرفوعة، انطلق المركب بالقديسة؛ وعلى الدفة، ابتسم الربان مانويل للمحترم والأخت الطيبة: لا تقلقا، فالقديسة بربارة لا تتعرّض للخطر.

وبينما كانت تجلس قرب المحمل، اهتمّت ماريا كلارا بتثبيت التمثال مانعة تماوجات المركب عن تهديد التوازن. "كونوا مطمئنين"، قالت ذلك، لتجعلهم يطمئنون لكل شيء، بينما كانت تتفحّص وتمجّد النزق الموضوع على المحمل المزيّن بشراشيب مطرّزة، موشاة بالحرير وكلها من إنجاز المنتسبات إلى أخوية سيدة الموت الهنيء، في بلدة مجاورة لكاشويرا، وهنَّ كناية عن عجائز تقيات ذوات أيدٍ ماهرة وممتلئة. آه... لو أن المسألة كانت منوطة بهنّ لكانت القديسة قد سافرت مكسوّة بالذهب والفضة، ذهب قديم، وفضة حقيقية، ولكن مدير المتحف رفض ذلك جازماً: لقد منع في جملة ما منع استعمال المحمل المقدس العائد للأخوية - فيا للسماجة!

مع كل التأكيدات الجديرة بالثقة، تأكيدات الربان مانويل وامرأته، فإن الراهبة المختبئة في ردائها المشدود القاسي، خافت على أمن القديسة طيلة مدة العبور عند مصبّ النهر، وكذلك عند تهدب سطح مياه الخليج، ولكنها لم تقل شيئاً، ولم تترك للقلق أن يبدو عليها، واكتفت بالصلاة، وهي تعدّ حبات السبحة، وتكرِّر: وكان النسيم الذي يحيط بالتمثال يأتي ليطمئن على نفسه بين يديها الناتئتي العظم. بالنسبة إليها كانت السفرة طويلة ومقلقة، ولم تتنفّس بارتياح إلا حين انعطف المركب الشراعي إلى رامبا دو مركادو: كل شيء مضى بسلام، فليتبارك اسم الله! وبعد قليل فإن القديسة مع "خرج" الأشعة والرعود ستكون في

متحف الفنون المقدسة حيث المدير، الأخ الألماني، الأستاذ الشهير، العليم ثلاثاً، الكاتب المكرّس، ذو الجبّة البيضاء، الرائع، ينتظرها بفارغ الصبر – وقد حول أصالة المنحوتة الشهيرة كان قد حرّر أطروحة جريئة ومثيرة. وإذ تحرّرت من كل درجات الخوف، عندئذ، فقط، أغمضت الأخت أيونيسي عينيها، وأفلتت تنهيدة تطفئ نيران القلق، وتمكّنت أخيراً من أن تتحسّس نعومة الغروب.

لم يكن القس يبدو قساً، فهؤلاء المحترمون غدوا ابتكاراً في هذه الأيام. كيف يمكن معرفته إذا كان يرتدي الجينز وقميصاً ملونة، مزهرة، مشرعة للريح، وإذا لم يكن ممكناً رؤية قصة التاج في مؤخرّ جمجمته، لذلك الشعر المطلوق للريح؟ إنه شاب جميل يجتذب أنظار النساء. إن الثوب لا يصنع الكاهن هذا ما كان الشعب يعلمه في زمن قديم، وأقدم بكثير من هذه التبدلات في الملابس والسلوك، وهو على حق. وعلى الرغم من الإهمال الظاهر في الملابس وتسريح الشعر، وفي عدم ارتداء الجبّة وقصة التاج، لم يكن ممكناً القول إنه هيبي في طريقه إلى جماعة السلام والحب في أرمبيبي، ولكنه قسٌّ مأمور، وفيٌّ في دعوته ورسالته، ومتفانٍ في أداء مهمته التي قَبِل بها ومارسها. وفي رعيته البعيدة كان أبناؤه فقراء، ليس لهم غير الله، وعبيداً للأغنياء، وخاضعين لشريعة العنف العتيقة.

بالنسبة إليه بدت السفرة أكثر طولاً، بل كأن لا نهاية لها، لأنه كان قد سافر مع الخطيئة والظلم وكان على حق أن يفكّر في أنه لم يستدعَ إلى العاصمة لتلقّي البركات والتهاني. كان قد سمع عن مفاجآت وتهديدات. وقرأ أنباء في الصحف مع روايات مختلفة: إن الحقراء قلبوا الحقائق، واستنبطوا، ووسخوا، وأساؤوا إلى السمعة – يا للكفر والنذالة، فكر القس، فهو عن باتريسيا لم يعرف غير الصوت الرخامي، ولغز الابتسامة، ودلال النظرة. وفي خبث النوايا ذاك، فإن الأشقاء كانوا يحاولون إخفاء الجثث المتعفّنة في منطقة الضفاف النهرية العميقة. الأب يسافر الآن ليفيد عن القتلة الثلاثة، فهو يعرف من أمر بقتلهم، وكلهم يعرفون، ولكن لا يفيد بشيء معرفة ذلك، فالذين أمروا المسلحين هم من المولودين "معصومين"، ولا يمكن الوصول إليهم؛ إنهم أعلى من الخير والشر، وللأرض أسياد قليلون، يمكن عدّهم على أصابع اليد، ومع قلّتهم، لا يمكن مقاومتهم.

معلومة متواضعة وحذرة عن باهيا

علـــى الرغم من عدم سماع صوت ماريا كلارا يذكّر بقسم الحب، وبالأفراح والأحـــزان، فماريـــا في الحقـــيقة، قرب التمثال، كانت تنشد الأناشيد الاحتفالية الموضـــوعة، امتـــيازاً، للقديسين والمشرفين من الآلهة. و لم تكن الترنيمة لتصل إلى الراهبة والكاهن ولكنها كانت تستدعي أفواجاً من الأسماك الخضراء لتحيط بهيكل المركب. في المزهريات المكتنـــزة، فإن الزهور الزرقاء المقطوفة حديثاً كانت منحنية تحية للقديسة بربارة، أم الرعد. إن لنهر باراغواسو عبقاً طيباً وطعماً حلواً، وها هو المركب يعبر بين قنا السكر وأغراس التبغ المائي.

في الخليج، أسراب السمك تستقبل المركب الشراعي: السلمون والترس ترافقه في سكّته، والشمس ترمي بالذهب في سماء باهيا جميع القديسين.

إن باهـــيا جميع القديسين هي باب العالم كما هو معروف. في امتدادها تقع مجـــتمعة موانـــئ ومراسي البرازيل الرحبة كلّها، ويبقى هناك مكان لأساطير العالم كلّها. أما ما هو متعلق بجمال باهيا، فليس هناك جمال يمكن مقارنته بها ولا يوجد كاتب بقادر على وصفه.

قطـــيع من الجزر، وكل واحدة أكثر إمتاعاً وإبهاراً، ترعى في بحر الحلم هذا. تـــرعاها الجزيرة الكبرى، الرئيسة، جزيرة إيتا باريكا، المزروعة بالقوافل الإسبانية والهولـــندية وقبائل الهنود والأمم الأفريقية. وفي أعماق المياه، في مملكة أيوكا، ترقد هـــياكل السفن الحربية المحطّمة في الحروب، ومعها نبلاء برتغاليون وقادة بحريون، بوتافيون، مستعمرون وغزاة طردهم الوطنيون البرازيليون الشجعان. إن إيتا باريكا، أم الوطن الحديث، هي ساحة الحرية في معارك الاستقلال وأعياد كانون.

يأمـــر الاحتراز بعدم التحدث عن أمجاد باهيا دوس سانتوس، ومما هو موصى بـــه، الالتـــزام بالصمت لتجنُّب الانقباض ووجع الأكتاف: إن شهرة باهيا هي في أفـــواه الـــبحارة، وأغنـــيات الشعراء الغنائيين، وفي رسائل وتقارير الربابنة... و لم تُخـــصَّص لأمجاد باهيا محلّة كبيرة، و لم تُنشد المدائح للاحتفال بها لأن التواضع هو إرث العظمة.

عـــند منفـــرج الخليج، ومتصل شبه الجزيرة، مزروعة في الجبل، تقوم باهيا، واسمهـــا الكامـــل "مديـــنة مخلـــص باهيا جميع القديسين"، التي رفع شأنها اليونان

والطـــرواد، الممجّـــدة شعراً وقصائد منثورة، العاصمة العامة لأفريقيا، الواقعة في شرقي العالم، على طريق الهند والصين، في البحر الكاريبـــي، المليئة ذهباً وفضة، والمعطّـــرة بالقـــرفة النحاســـية اللون، زهرة الخلاسية، مرفأ الكتمان، ومنارة التفاهم.

ولـــولا التواضع والحذر لأمكن القول في باهيا أكثر بكثير، وإلى موانئها المليئة بالحكايـــات والأغـــاني يتّجه "المبحر بلا ميناء"، وعلى دفّته المعلم مانويل، وامرأته منصرفة إلى العناية بمحمل القديسة، ومن المسافرين يأتي معه بكاهن وراهبة وتمثال القديـــسة بـــربارة، أم الـــرعد، التي تركت مذبحها العلوي في مقر سانتو أمارو دا بوريفيكاسياو، لتشارك في معرض الفنون الدينية في العاصمة. وينطلق صوت ماريا كالارا إلى حيث يسبح السمك، ويحلّق سنونو البحر.

الطبّال

عـــند مـــرتفع رامبا دو مركادو، جالساً فوق صفيحة نفط أبيض فارغة، فإن زنجـــياً حسن الهندام يرتدي ملابس نبيل أبيض وربطة عنق ملونة وينتعل حذاء ذا لـــونين يلمع تحت وهج القنديل، كان يمارس عند الغروب الضرب على البارمباو الخـــشبي ويغنّـــي وحده مقطوعات غنائية لجمهور صغير من تجار الفواكه وفتيان الرمال الشجعان وثنائيي العشق. ولم يكن هنالك حلقة رقص فولكلوري أفريقي، فالزنجي يعزف لمجرد التمتع بالعزف وكان اللحن يأتي من الماضي السحيق في القدم، من أعماق أكواخ العبيد، ليروي عن رعب العبودية.

عندما نظر باتجاه متن البحر، فإن الموسيقي، متفاجئاً، عرف تمادي "المبحر بلا ميـــناء"، من بعيد، ورآه متقدّماً ببطء لدى الغسق الأول بدلاً من الوصول كالمعتاد عـــند انـــبلاج الفجر عندما كان يأتي معه عند أعلى سارية الشراع بنجمة الصباح وبصوت ماريا كلارا الذي يوقظ الشمس:

"نادت حورية الماء على البحار الجميل،
وأخذته، ....
جميل أن تموت في البحر،
مغموراً بأمواجه الخضراء"...

سـواء أكان شفقاً أو فجراً، فكلاهما وقت جميل للوصول والرحيل، والحياة مصنوعة مما هو غير منتظر، ومن مفاجآتها تأتي النعمة، أليس كذلك! أوقف الزنجي الضرب على البارمباو، وأرهف سمعه، وسمع صوت البوق معلناً انتهاء الرحلة. أين ضاع صوت ماريا كلارا، ولماذا لا يسمع أنشودة البحارة المفضلة؟

"سأعطيك مشطاً لتسرِّح شعرك،
وسأعطيك البحر والسماء..."

في صوت البوق الجليل ينطلق إعلان بظفر، فأي خبر سعيد يعلن المعلم مانويل على المدينة والناس؟ رائحة فواكه مسكرة تلفّ الميناء، وعطر جاكا ناضجة يعبق في الأنوف.

في نعـومة المغـيب، ومع وهج الغروب، الأحمر، فإن المياه والأسماك جعلت المـركب الشراعي المحمل، وروعة القديسة في ميناء الوصول، أكثر تألقاً، واصطدم المـركب بإسمـنت المرفأ. نهضت ماريا كلارا، وذهبت تجمع الأشرعة بينما المعلم مانويل كان ينـزل الحبل والحجر الكبير الذي يستعمله كمشكاة.. وجمد "المبحر بـلا ميناء" في مكانه، والشمس قد انفجرت في السماء، في سماء غروب باهيا، مع تماوجات اللونَ الأحمر، الوردي، المبتل.

الإنزال

ساعد الأب أبيلاردو الراهبة على الوقوف، وتنفّس الاثنان بارتياح، ونزل كل واحـد بما أمكنه من سرعة. كانا قد سهرا على سلامة القديسة خلال الرحلة، ولم يعـد وجودهما ضرورياً لأنهما قرب المرفأ شاهدا "الكومبي" سيارة المتحف، واقفة بالانـتظار لاسـتلام التحفة الثمينة. فإن المدير اختار "أديسون فاز" العليم بأصول الـسلالات، والـشاب الموهـوب، والمساعد الموثوق. المدير نفسه لم يستطع أن يـذهب. ففي تلك اللحظة بالذات كان يترأس مقابلة جماعية مع الصحافة الناطقة والمكـتوبة، لإعطـاء تفاصيل عن المعرض الكبير الذي سيتم تزويقه خلال اليومين المقبلين: وكان، بين الموجودين، صحفيون من باهيا، ومراسلو المؤسسات الصحفية المهمة جنوبي البلاد؛ ولإدراك سدرة المنتهى، كان هناك مبعوث مؤسسة هي كناية عـن مجموعة من الصحف البرتغالية، يدعى فرناندو أسيس باتشيكو. عندما وصل

المركب الشراعي إلى رامبادو مركادو، كان المدير قد بدأ الحديث عن التمثال الرائع للقديسة بربارة، أم الرعد.. إنه عمل فني متكامل وخلال دقائق سيكون هنا لينير الصالة، ويبهر أصدقائي الأعزاء السادة الصحفيين! أما حول الأشعة والرعود، التواريخ والأمكنة، وباعة التحف، والنحاتين، فإن علماء الآثار والتحف والمؤرخين والنقاد الفنيين، بعضهم يؤيد، والبعض الآخر يعارض، والجميع مؤهلون، وأكثر منهم أهلية هو المدير بجبّته البيضاء المتكاملة، وشكله الساروفيمي، جاعلاً من نفسه في بعض اللحظات منحطاً وخبيثاً.

وقبل أن يذهب المعلم مانويل وماريا كلارا ليهتمّا بنقل التمثال بعدما أكملا رسو المركب الشراعي، فإن القديسة خرجت عن المحمل الذي وضعت عليه، ومشت خطوة إلى الأمام، ورفعت رُدْني معطفها وانطلقت. وبهزّة من ردفيها، فإن القديسة بربارة، أم الرعد، مرّت بين المعلم مانويل وماريا كلارا وابتسمت لهما ابتسامة حنان وتفاهم.. وضعت القديسة يديها المفتوحتين أمام صدرها بحركة تعبّد مألوفة وقالت: إيباري أويا! وعندما التقت بالقس والراهبة، فإنها أومأت إلى الراهبة بابتسامة لطيفة، وغمزت الكاهن.

وذهبت القديسة بربارة، أم الرعد، وصعدت رامبا دو مركادو، وهي تسير بمحاذاة مصعد لاسيرتا. كانت على عجلة من أمرها لأن الليل كان يقترب وقد فات وقت صلاة المساء إلى إيشو. الزنجي أيضاً، وقد وقف وقفة تأهّب، انحنى لدى رؤيته القديسة فلامس الأرض بأصابعه ثم رفعها إلى رأسه وردّد: إيباري! كان الزنجي كامافيو دي أوشوسي، وكان في زمن سابق رئيساً "لأفوشيه فيليوس دي غاندي"، و لم يكن هو نفسه يعلم ما إذا كان قد انوجد هناك صدفة أو للقيام بعمل للمشرفين من الآلهة. وقبل أن تنطفئ الأضواء على عواميد الكهرباء، اختفت الإلهة "يانسان" بين الناس.

المقابلة الصحفية العامة

الانتظار

بيـــنما كان يتحدّث ببرتغالية تكاد تكون خالية من اللكنة، ملاطفاً الحضور بعـــبارات غير منتظرة يطلقها بلغة مصطنعة قاسية حول الموضوع المطروح – كان يتحدّث عن بحوث في الوثائق، الوطنية والأجنبية، ويعلّق على دراسات اختصاصية، ويظهـــر ولع عالم الآثار فيه – فإن دون ماكسيميليانو فون غرودن، مدير متحف الفـــنون الدينية، كان يراقب عبر النافذة باب الدخول الرئيسي، منتظراً؛ إن تأخر "الكومبي" بدأ يقلقه.

في بـــدء المقابلـــة كان قد قام بمبادرات موجزة مظهراً نفسه بمظهر الراهب اللامـــع، الأنـــيق، المحاط بالصحفيين، محيياً الجميع معبِّراً بمودة عن اهتمام بالمبعوث الخاص للصحافة البرتغالية، وكانت وفود التلفاز تستعدّ للخروج – إن وقت التلفاز يـــساوي ذهـــباً ويقـــاس بعدد الثواني. واحتاج الدون ماكسيميليانو إلى استعمال الحذاقـــة – ولم تكـــن تنقـــصه فهو ظريف وأكثر من أي ظريف عالي الكعب – ويعـــرض القـــيام بتوزيع جديد للويسكي، للإبقاء على الموجودين في الصالة، ثم مـــتوجِّهاً إلى الفنيين والمصورين: فقط بعض اللحظات، يا أصدقائي، حتى تتمكّنوا مـــن تصوير وصول التمثال الذي هو في طريقه إلى هنا، وقد تمّ إخراجه من الميناء. إنها كذبة، فهو لم يتلقَّ أية أنباء من إديميلسون عن الحمولة الثمينة، ولكن، ما أهمية كذبـــة بريئة عندما تقال لسبب عادل؟ والسبب في هذه الحال عادل وملحّ، وذلك بغية تمكين ملايين المشاهدين في كل الوطن من رؤية أخبار الساعة الثامنة التي تبثّها كـــل الـــشبكات الوطنية، والدون ماكسيميليانو فون غرودن قرب تمثال القديسة بـــربارة، أم الرعد، الكنـــز الوحيد في الفن البرازيلي ولا يمكن أن يماثلها إلا بعض الأعمال الإبداعية لأليجادينيو. كانت تلك التحفة الثمينة تكاد تكون مجهولة، وأقل مـــن ذلك، موضوعاً للدراسة، وكان دون ماكسيميليانو قد أنهى دراسة عن أصلها ومنـــشأها، وميـــزتها التاريخية، والتواريخ الدقيقة، ومبدعها، وعلى الأخص ما هو

الأكثــر احتمالاً أن يكون قد أبدعها - كل ذلك بأطروحة مكتوبة، أصلاً، باللغة الألمانية، ترجمت إلى البرتغالية وطبعت في كتاب سيتمّ نشره في اليوم السابق لمعرض الفنون الدينية الذي سيتمّ افتتاحه يوم الجمعة المقبل. وتمّ طبع نسخة للأصل الألماني في ميونــيخ، جــاءت طباعتها قمة في الذوق الطباعي، وقد رقدت النسخ، كأنها منــسية، علــى طاولــة عريــضة، عريقة في القدم، هولندية، أصلية - والمحققون الصحفيون أنفسهم، القليلو التأثر عادة بشؤون المتاحف والتحف القديمة تنبهوا إلى التــناغم المتوازن بصورة متكاملة في الغرفة، إلى صحة الأصالة والثمن النادر لكل القطع الفنية المعروضة هناك، من تماثيل ولوحات وأثاث.

علــى غلاف الكتاب تمّ طبع صورة القديسة بالألوان. ويكفي تناول الكتاب عن الطاولة للرجل بحركة اعتيادية وتصفّحه أمام آلات التصوير: التتويج، والإطراء الكــبير على العمل المظفر للرجل الموقر. رجل موقر؟ عفواً، إنه ليس التعبير الدقيق عــن عــالم الآثــار الشهير، الباحث القدير، الكاتب والمؤرخ، العلاّمة، الأستاذ الأســطون المعروف في زوايا العالم الأربع، الدون ماكسيميليانو فون غرودن. كان كل ذلك وأكثر - لم يكن الكاهن المحترم، فحسب.

المبعوث الخاص

أصــغى الــدون ماكــسيميليانو إلى سؤال البرتغالي الملتحي، فأغمض عينيه الــزرقاوين، وابتــسم. ما عدا آلات التصوير التلفازية، ومراسلي المحطات الإذاعية الــذين كانــوا قــد هيأوا آلات التسجيل، فإن الصحيفتين كانتا قد اكتفتا بتهيئة الأوراق والأقــلام. وإذ كــسا نفسه بالتواضع والوقار، وبشعره الكثيف، ووجهه الشاحب، وجبّته النظيفة، فقد بدا الدون ماكسيميليانو نفسه تمثالاً في المتحف كأنما صُنع من الشمع. سؤال محرج، يتناول التفاصيل، ومن علم باستنتاجات الأطروحة ترك مجالاً للشكوك ولأخطاء محتملة.. وبينما يمدّ ذراعيه كأنه يبارك مثيراً للشغب، فإن الراهب فتح عينيه وأجاب بصوت متماوج عطوف:

- بعــد دقائــق سيتمكّن صديقي العزيز من الحكم، بعينيه، على أن الله قد منحك نعمة لترى وتعلم: وأفضل برهان على ذلك هو التمثال، وكل ما يقال، من دون رؤيــته، لا يعــدو كونه تصوراً وكلاماً. وأنا إذ أعطيت مجد الله، أستطيع أن

أعلـــن أن استنتاجات أطروحتي قد أمليت عليَّ من قبل القديسة بربارة، أم الرعد، بشخـــصها، من هناك، من مملكة السماء حيث تقيم.. - وهنا سمح لنفسه بضحكة تهتّك. هل فهمت، يا شيّق الحديث؟

إن الحقـــيقة الفجّـــة، مـــع ذلك، بدأت تذرّ بقرنها فقط عندما سمع السؤال العدائي، المسيء، وأدرك مناقضة الصحفيين له، المحتملة، وإمكانية إعطاء رأي ضده يمكـــن أن يفقده مصداقيته أمام الصحافة.. لم يكن قد اعتراه أي شك عندما، قبل أيـــام، وصل المراسل الليشبوني ومعه حزم من الإطراءات والتبجيلات: إنه صحفي ذو شهرة عريضة في شبه الجزيرة، ويكاد يكون معروفاً في مدريد كما في ليشبونة، وصـــاحب تحقيقات شائعة عن الفن والأدب في كل القارة الأوروبية، وقد أدرج اسمـــه على قائمة الأسماء الثقافية في جريدة لوموند: فرناندو أسيس باتشيكو الذي كان بالإضافة إلى كل ما سبق شاعراً اعترف به النقد. ومن قدّمه بهذا الحجم الكبير مـــن التبجـــيل كـــان ذا سلطة ليفعل ذلك، كأن يكون مواطناً برتغالياً وصاحب علاقـــات واســـعة، و لم يكن غير الناقد الفني أنطونيو سيليستينو صاحب "الزاوية الثقافية" من جريدة المساء في طبعة يوم السبت.

بالمناســـبة، فـــإن الدون ماكسيميليانو، المتشرِّف بحضور ومشاركة الصحافي الـــبرتغالي الآتي من ليشبونة، في المقابلة المقرّرة سلفاً مع الصحافة لتقديم التمثال، لم يـــدخل في التفاصـــيل - علمـــاً أنهـــا لا تقبل النقاش - التي تحتوي على البراهين التآمـــرية.. يكفـــي، مـــع ذلك، سؤال واحد، طرحه قبل الأوان بصورة سحرية، الموندرونغـــو الـــبرتغالي بينما كانوا ينتظرون وصول محمل القديسة لكي يكتشفوا الخـــيوط الـــرفيعة للتمثال النصفي ويفكّوا عقدها، ويثيروا الفضيحة المختبئة وراء صـــورة المتآمرين، صورة المكروه غير الممكن شفاؤه ج. كويمبرا غوفيا، المخيف، الخـــصم الوقح، الذي كانت متعته في الحياة تبدو وكأنها معاكسة دراسات الزميل الباهياني "المولود في بافاريا".

فـــرناندو أسيس باتشيكو، الصحفي الكبير، والشاعر الكبير الموجود ليجعل الانقباضـــات ثقيلة على صدره، لم يكن في صالة مدير متحف الفنون الدينية، بل كـــان يتلمّظ الويسكي المستورد بسبب سوء الطالع الذي رافق سفرته إلى البرازيل في إجازة، وفقاً لما كان قد أكّده في الزيارة السابقة، وهو ليس سوء طالع على كل

حـــال، بسبب الفضولية الثقافية الظاهرة المتعلق بمنشأ التمثال وواضعه، وأم الأشعة والرعود. وكان الدون ماكسيميليانو، عندما قدّمه إلى الزملاء الوطنيين، قد أعطاه لقـــب المـــبعوث الخـــاص ليعطي للمقابلة الصحفية قيمة كبرى. أن يكون مبعوثاً خاصـــاً، فهذه مسألة لا تقبل الشكوك، ولكنه ليس مبعوث الصحافة الثقافية، بل مـــبعوث المراوغ ج. كويمبرا غوفيا، الذي كان في تلك الساعة يحكّ خصيتيه وهو مستوٍ على كرسي وثير في غرفة مدير متحف دابينا: إن رؤية البرتغالي بهرت نظره.

المخابرة الهاتفية

إن الـــنوايا المبيّـــنة، والمخططات السرية هي التي جاءت باللعين باتشيكو إلى باهيا في الساعة نفسها للنصر الأكبر الذي كان سيظفر به الدون ماكسيميليانو فون غـــرودن، في حين كانت فئة المثقفين، الوطنية، تنحني باحترام أمام الأستاذ الكبير الـــذي أقفـــل الخـــلاف الـــذي دام أجيالاً، ووضّح بصورة نهائية حاسمة مجموعة التساؤلات المتعلقة بصورة القديسة بربارة، أم الرعد. والمنحرف أسيس كان يحاول أن يفسد سمعته بسبب فوران الحسد فيه – ورفع الدون ماكسيميليانو طرف جبّته ليردّ عنها عين الحسد.

لقـــد علم الآن لماذا سعى المخادع سيليستينو إلى الحصول مسبقاً على نسخة من الأطروحة متذرّعاً بضرورة كتابة مقال يجب نشره قبل أن توزّع على الجمهور: ادّعـــى أنـــه يريد أن يكون أول من يحيي الحدث ذا المعنى الكبير في الحياة الثقافية اللوزيتانـــية – البرازيلية. وصدق الدون ماكسيميليانو – من هو الفاني، قولوا لي، القديـــر على البقاء حيادياً إزاء سيل من المدائح؟ وإذا كان هناك واحد، فهو ليس الدون ماكسيميليانو فون غرودن. وراح سيليستينو يقلب صفحات النسخة – كان واحـــداً مـــن خمـــسة مبعوثين من إحدى دور الإعلام – يشوي على نار هادئة، ولاحـــظ أن الإهداء دافئ، فلم ينل ماكسيميليانو الصفات الإطرائية، وظلّ منتظراً ظهور المقال.

كان بعيداً عن فكرة وجود مؤامرة إلى درجة أنه لم يتذكّر روابط الصداقة بين سيليـــستينو وكويمبرا غوفيا، عندما أعلن نفسه أول تابع متواضع من أتباع غوفيا. وقـــد استـــضاف الأخـــير في مقر إقامته الفخم في إحدى محيّاته إلى باهيا ليناقش

محـــتويات الكنائس والأديرة والأبرشيات. وفي إحدى الولائم العامرة فإن البرتغالي كان قد أعلن عن اكتشافات يمكن أن تحدث ثورة في عالم الرفاهية والمخيلة. لم ينل شيئاً من كل هذا عندما وقع ذلك السيل من التبجيلات في الإهداء الذي كتبه على النـــسخة إلى صاحب الروحية الحيّة أنطونيو سيليستينو، الممثل الأكبر للنقد الفني، وكان قد أرسل النسخة إلى البرتغال، وفي اليوم نفسه، بالبريد الجوي، كيما يسرِّحه الشهير غوفيا بمشط فني ليوم الحفلة.

بعـــد أسبوع، وعندما ظهر سيليستينو قاطراً معه الصحفي اللوزيتاني، فإنه لم يشكّ في أي شيء. وفتح ذراعيه للواصل الجديد، مرحّباً: لقد رأى نفسه يلمع على صـــفحات صحف ليشبونة وبورتو، مطالباً بأقصى مستويات السلطة، وغير قابل للمعارضة، مما يليق بشهرته كعالم - وهو أكثر علماً من فأر في كنيسة، كان يقول عنه الأستاذ أودو كنوف الاختصاصي في الزخرفة، وكانا صديقين لدودين.. وكان السؤال الخبيث ضرورياً لوضعه أمام الحقيقة القذرة في أثناء التحقيق. فأحسّ بنفسه كملاكم، في اللحظة التي أعلن فيها فائزاً بالبطولة، يتلقّى ضربة على معدته بشكل غـــادر. وما أن يبدأ بالتحرك وينتصب واقفاً حتى تراه في ارتباك يريد معه أن يجهز دفعة واحدة على الخصم، وإذا بابتسامة الحردان تطلب الجواب الفوري والحاسم.

لم يتـــسنَّ لـــه الوقت ليتذوّق طعم الارتباك وجعل البرتغالي إياه ينحرف عن سكته: إذ رنَّ الهاتف، والدون ماكسيميليانو، من دون أن يخفي دهشته، اتّجه نحو الطاولـــة، مـــستعداً للإصغاء لخبر انطلاق "الكومبي" التي تحمل الصورة. وفي تلك اللحظـــة بالذات ابتدأ سوء القدر يعصف بمدير متحف الفنون المقدسة، وذلك قبل يـــومين من افتتاح معرض الفنون الدينية.. وظلّ سوء الطالع بمشقّاته عاصفاً طيلة يومين، ولكنهما يومان كأنهما قرن كامل.

المنبر

إذ كـــان لا يـــزال فرحاً وهو يرد على الهاتف - أنا الدون ماكسيميليانو يا إديميلـــسون، قل ما عندك - فإن الصحفيين استفادوا من الفرصة السانحة، بعضهم لرمـــي نفـــسه إلى الخـــارج، والبعض الآخر لملء الكؤوس أو تحسين محتواها، من جديـــد. تناكب الصحفيون، في تجمُّع انفرادي، وتدافعوا أمام المنبر الذي تحوّل إلى

مشرب، وذلك بممازحة من دون ماكسيميليانو الذي خبّأ فيه زجاجات الويسكي المستورد وقناني النبيذ المعتق.

إنـــه ظريف، هذا ما هو، مشيراً إلى مدير متحف الفنون المقدسة في باهيا. من تمتم بذلك وأشار إليه هو الأستاذ زيناتو فراز، مدير متحف الفنون الحديثة، الموجود هناك، وهو يتلمظ بجرعة مضاعفة من الويسكي الأسكتلندي المقدس - الصافي، مع قطعتين صغيرتين من الثلج. وتصوّر لو لم يكن الأستاذ متكتماً وصموتاً.

أمـــا ما هو متعلق بالمنبر الباهظ الثمن، ذي الحجم الكبير الفنيّ اللمسات كما كتب ذلك في مقال صحفي حول: كنوز متحف الفنون المقدسة في باهيا، المنوّه به أنطونيو سيليستينو وكان مصدره الشوارع الشعبية التي سكنها حفارو الخشب في القـــرن الـــسادس عشر، من شارع بيوليو أو من منفرج الأزقّة الضيقة، من مدينة برتغالية في براني، أو من زواريب التجار في البرتغال، فهو قطعة فنية أصيلة لا شائبة فـــيها. وإذا كان قد وضع في صالة الإدارة، فإن قطعة الأثاث الثمينة التي حافظت علـــى نفـــسها ذات نفع، وعلى الأقل استخدمت لوضع الكحول الثمينة بدلاً من صور القديسين، وتلك أيضاً مواضيع ذات تقليد عريق راق.

كـــان كـــبير نقاد الفن يتلمّظ كأساً من نبيذ بورتو المعتق، رشفة صغيرة إثر رشفة، وتنهيدة إثر تنهيدة. وسمع تعليق الأستاذ فراز الحار كمن يتذوّق طعام الآلهة الـــذي يمـــنح الخلود - يا له من مساح جوخ! - لم يفسح له الأستاذ بالموافقة أو الاعتـــراض: قدير، عليم، ظريف، صاحب عادات طريفة، إلخ... إلخ... ولكن لم يكن أحد ينكر على الدون ماكسيميليانو أهليته ومبادرته وسلطته.

بقية ضوء تقع على كأس النبيذ المعتّق في يد سيادة المعلم سيليستينو.. مشاعل الـــشفق أحاطت بالكنيسة والدير، وتسلّلت أضواؤها عبر النوافذ، وألقت بنفسها ذهباً على الجدران الحجرية، وانهدّت الشمس انهداداً فوق أكاسيا الحديقة.

الفضولي

مـــاذا؟ كأنما كان صراخاً فلفت السؤال انتباه غيدو غييرا، الكاتب الشاب في بدايـــة المهـــنة الصحفية والأدب، الذي يفتّش عن موضوع مثير يجعل اسمه يتجاوز بـــشهرته حدود الولاية. بعينين حائرتين، وفم مفتوح، أصغى الدون ماكسيميليانو

فـون غرودن، وقد أُصيب بالدهشة، ولكنه جمع نفسه عندما لاحظ اهتمام معلّق صحيفة "دياريو دي نوتيسياس"، فأطبق فمه، وأغمض عينيه، وراقب نفسه. وتناخب الصحفيون على شرف الوصول القريب جداً للقديسة التي حكي عنها الكثير. – لست أفهم جيداً.. كرِّر ما تقول.. ابقَ هادئاً، وكرِّر ما تقول – يكاد صوته يكون مسموعاً، وبطرف عينيه يحاول أن يتبيّن ردود فعل الجمهور، فلاحظ أن غييرا المرتعص باستمرار لا يزال منتبهاً: كلا، من الأفضل أن تنتظرني حيث أنت، وسأصل في الحال.

عاد إلى الإصغاء، وهو يحاول أن يبتلع صبره، لقد استنتج كل شيء، الأمر صارم:

– انتظرني حيث أنت، وسأصل فوراً.

أقفل الخط، وحدّق في المجموعة التي أحاطت به، وكانت كل كلمة تكلّفه جهداً ولكنه حين تكلّم فإن الصوت انطلق هادئاً وكاد يكون متموجاً، معبِّراً عن حميمية، وتمكّن الدون ماكسيميليانو من أن يبتسم:

– أطلب منكم المعذرة. لقد دعوتكم كي نستقبل معاً التمثال الذي لا مثيل له للقديسة بربارة، أم الرعد، التي تغادر للمرة الأولى مقرّها في سانتو أمارو كي تشارك في معرضنا. وقد علمت لتوِّي أن شيئاً غير منتظر تسبب في تأخير صغير عن المواعيد المحدّدة، وغداً، فقط، سنتمكّن من استضافة ضيفتنا السماوية – وهنا تمطّت ابتسامته.

– غداً، في أية ساعة؟ – كان هنالك سبب لقلق ليوكاديو سيماس. فهذا عليم بعادات دون ماكسيميليانو في لقاءاته مع الصحافة، في المتحف، ويعلم أن الدون كان يقدِّم الويسكي مساءً، وعصير الفواكه صباحاً وكلها أنواع رائعة متعدّدة من عصير الكاجا، والجوافة والكاجو، وضمنها عصير بيتانغا، المتعة.

– لا أستطيع أن أعيِّن الساعة، الآن، ولكني سأتصل بأقسام التحرير ما أن أحصل على المعلومات الأكثر دقة.. وبحركة متكتمة، أمر حارس الدير بإقفال باب الديوان قبل أن يعود ليوكاديو، الوجيه الإسفنجي، ليملأ كأساً جديدة.

– وما الذي حدث بالتحديد ليكون سبباً في التأخير؟ – أراد أن يعرف غييرا، الفضائحي ، ذو الأنف الشبيه بمنقار الببغاء، وحاسة شمّ الكلب المدرب، الذي لم يكن يستهلك الويسكي مفضلاً عصير الفواكه المدارية: ولكنه سابقاً كان قد استهلك!

مـــا الذي حدث؟ هذا ما كان الدون ماكسيميليانو يريد أن يستجليه في أسرع وقت. مشى باتجاه الفضولي، وابتلع الصبر والارتباك، ودماغه قد اشتغل بأكثر نسبة من الـــبخار فـــيه تفتيـــشاً عن تبرير ذي قيمة قادرة على احتواء الوشوشات، وعدم ثقة الرومنطيقي الخطير. إنه خطير ويعيش واضعاً أنفه في ما لا يعنيه: ألم يكن هو نفسه من اكتـــشف الـــثقب في صناديق تعاونية الذرة الصفراء وتحدّث عنه بتحقيق صحفي منذ زمـــن طويل، مسبباً بفضيحة كبيرة؟ أخذه الدون ماكسيميليانو من ذراعه، وأبعده عن الآخرين، لم يكن يعرف حتى الآن ما يقول، ولكي يربح الوقت أسرَّ في أذنه:

– إذا أخبرتك بالأمر فإن الصحف ستتحدّث ويمكن...

– إني أعدك بعدم نشر أي شيء، إلا إذا كان بموافقتك.

عَـــصَرَ الدون ماكسيميليانو تلافيف دماغه فلم يجد تفسيراً جديراً بالتصديق، ولكن الصحفي وقد حوّل نفسه إلى محرٍّ، انطلق في مساعدته عندما ألمح:

– أليس بسبب إلحاح جديد من إلحاحات المطران؟

فكّـــر غيدو في التحدث الفاضح في جريدته عن العقبات التي وضعها مطران ســـانتو أمـــارو، وسوف يكون، مع ذلك، في وضع ظريف وهو ينتقد ما سيسمّيه التصرف الضحل والمتخلف الذي تصرّف به الكاهن الأكبر معارضاً إعارة التمثال. واســـتفاد الدون ماكسيميليانو من شرود غيدو، وتقدّم إلى الأمام – إنها حماقة كما لاحظ سابقاً.

– احـــتفظ بالخـــبر لنفسك، إني سأخبرك سرّاً ولكن بعد أن تعدني بأنك لن تنشر السر.

– أعدك.. يشهد الله.

– إذاً: المطـــران لم يكـــتفِ بالتأمين والكفالات التي قدّمها المتحف، فطلب الحـــصول على وثيقة جديدة. وكَونُ التمثال ثميناً جداً فإني لا أنكر عليه السبب.. أنتم رجال الصحافة تسيرون تفتيشاً عن أكاذيب تلفّقونها حول المتحف وحول هذا الفقير من فقراء الله أمامك الذي يدير المتحف، والنتيجة هي هذا.

– أكاذيب ملفّقة يا دون ماكسيميليانو؟ وأية أكاذيب؟

– ألم يكـــن هناك من قال إنه، لدى إرجاع صورة القديس بيدرو أربينديدو إلى كنيسة مونتي سرات، سلّمنا نسخة عنها، واحتفظنا باللوحة الأصلية في المتحف؟

- وهل هي كذبة يا دون ماكسيميليانو؟

ابتسم الدون ماكسيميليانو، وهزّ رأسه من دون أن يوافق على الإثارة، ولكن غيدو غيبيرا غيرمرتو أراد أن يعرف أية وثيقة جديدة طلب المطران:

- كفالة يقدّمها المتحف التاريخي.

اخترع ذلك في اللحظة نفسها ولا يعرف كيف. ثم أراح يده على كتف المراسل الصحفي بحركة وديّة:

- رجاء يا غيدو، لا تقل كلمة واحدة حول الموضوع، فالمطران قد يرى نفسه مهاناً. إني أعطيت سرّي لصديق، ولكني لم أعطِ نبأً صحفياً. وإني أتّكل عليك. مهاناً؟ المطران، وهو يفور أفظع فورة من سوء النية، سيمسح الأرض به إذا بلغته الكذبة البريئة - وسيكون عدواً إضافياً، عدائياً إلى جانب مجموعة الذين كانوا يرغبون في حضور مأتم ماكسيميليانو.

- كن مطمئناً يا معلم، فأنا موضع سرّ عميق.

المظهر الخارجي يدلّ على النية، وبدا المظهر وقوراً: إن فيه ملامح قديس لو لم يكن بشعاً ككلب. لم يكن الدون ماكسيميليانو قط على عجلة من أمره كما هو الآن، ومع ذلك تأخّر في مصافحة صحفي لصحفي، متأسفاً على الوقت الضائع لأفراد البعثات التلفازية الذين كانوا قد أتوا مع تلك الآلات المكدّسة من أجل لاشيء. إنه أمر مؤلم، وألم حقيقي كبير: فالدون ماكسيميليانو فون غرودن قد ولد ليعرض نفسه في الفيديو، وآلات التصوير تعطي قيمة لقامته وأناقته. عانق الشاعر البرتغالي الذي بدا وكأنه لم يعلم بالنوايا الضيقة التي قرّرت أن تقود خطواته.

- سنعود للمحادثة معاً يا عزيزي أنطونيو ألسادا باتيستا.

ومع كل ما هو ضاغط عليه، فإنه تمكّن من أن يمون على المتبدل، مبدّلاً له هويته: إن الشعراء حساسون، وكبرياؤهم مرسومة على صفحة جلودهم. - سنوضّح الشكوك كلّها.

انتظر ليراهم يجتازون الأبواب الخارجية، ونهاية التزاحم بآلات التلفزة، قبل أن يلقي بنفسه على الدرج: يا إله السماء، ماذا حدث؟ على الهاتف، كان إديميلسون يبدو ضائعاً ولم يكن يقول الأشياء بالتفصيل، بل يكرّر السخافات.

العيد

دخلت أويا إلى المقر مرتدية ألوان الغسق، وعلى جبهتها نجمة المساء، وعلى ثدييها الصلدين عطر البحر الأخضر. لم يكونوا ينتظرون قدومها، ولكن لم يرافق وصولها أي اندهاش أو ارتباك، وارتفع قرع الطبول، ثم في حلقة القديسين قام الأبناء الصغار من الإيبومين، والزوجات والخطيبات الفتيات من الإيكيدس والأياوس بانحناءات الاحترام. في طريقها إلى هناك كانت أويا قد حصدت المظالم والمساوئ ووضعتها في خرج جلدي تحت مضغطها الأيسر، بينما حملت بيمناها البروق والرعود.

وإذ ترجّلت ماريا كلارا والربان مانويل وخادم الإله "شانغو كامافيو دي أوشوسي"، من سيارة تاكسي، فقد تراجعوا ليفسحوا في المجال لمرور أويا: إيباري أويا، وانحنى السائق لها ملقياً السلام. كان ذلك السائق يدعى ميرو يعيش للضحك، وبالتسكع، وكان يعلن نفسه ابن الإله "أوغون"، ولكن الألسنة السيئة كانت تشيع سرّاً أن حامي رأسه وسيده هو الإله "إيشو"، ولا تنقصه المؤشرات والبراهين على ذلك. الملاطفات والمغازلات استمرّت في حلقات الكسل والتهتك، وكل واحد حرّ في أن يصدّق ويؤمن.

مستندة على الوركين بعدما مرّت في استنادها على الخصرين، فإن الآلهة أويا تمدّدت بعد ذلك عند قدم الأم مينينيا دي غانتويس، أم الطيبة والمعرفة، وملكة المياه الواسعة، الوقورة الجليلة. هكذا كانت كبيرة لترمي في أعماق الوديان وإلى أعالي القمم الشاهقة بالحسرات والآلام، مستجيبة لتضرّعات أبنائها وبناتها من شعب باهيا. وبينما كانت تجلس فوق عرش متواضع هو كناية عن كرسي ذي مذرعين، ومتكأ عالٍ للظهر، فإنها كانت تأخذ بيدها بدف نحاسي: أما بناتها، من صلبها، كارمن وكليوزا، فإنهما كانتا جالستين واحدة عن يمينها والأخرى عن يسارها، بينما أبناؤها الآخرون كانوا موزّعين في العالم الخارجي. إنها مينينيا دي غانتويس، الأوشون الأروع، التي لا مثيل لها، وعند قدميها تمدّدت أويا.

لمست الأيالوريشا جبهتها، وأخذتها من كتفيها العاريتين، ناهضة بها، وضامّة إياها إلى صدرها. عندئذ استدارت أويا كلياً، وأدارت جسدها، ثدييها وعورتها، فكان طيباً اشتهاؤها والنظر إليها. ولكن صرخة الحرب فرضت الصمت وجعلت

الأكثـر شـجاعة هـناك يرتعد، وسمعت الصرخة عند أقصى المدينة: لقد جاءت لـتحارب، ولـيكن هـذا بعلم الجميع. اليدان في الزنار، أوقفت الحلقة والفرقة الموسـيقية، وبعـدها اختارت بعض الوجهاء والقدماء، ووقفت أمامهم لمعانقتهم صـدراً إلى صـدر وقلباً إلى قلب. تمجيداً لها، غنّى ميكيل سانتانا أوبا آري نشيداً منسياً في الماضي السحيق، لم يكن يتذكّره غير القليلين:

"أيـا لو وا إي دو أناه تاه أ – ي مي أ – ي أريبي أو ليندي بوشيري"، وإذ رقـصت أمام أوبا آري، فإن أويا تعجّبت من ألاّ يكون الكاهن، خادم الإله إيفا، جالـساً في المكان المخصّص له قرب أم القديس. وكان قد تسلّق إلى هناك وتمسّك بالمكـان واحد من أولئك الأفريقيين المحدثين، مصنوع من أوراك بارزة، ذو معرفة تافهـة، كأنه يحمل أطناناً من السخافات والترهات، مؤكداً صحة معلومات بليدة تختـصرها مجمـوعة مـن السطحيين الذين يغمرونه بسيل من الأسئلة عن الزهد والتصوف، والسوداوية، والبارابسيسيكو – لوجيا.

لمـاذا يجلس فوق طرف مقعد مخصّص للزوار العاديين وليس فوق كرسي من القش؟ حاول مسؤول الصالة أن يعطي تفسيراً. ووافقت أويا على النظرة الصحيحة ولكـنها لم تتجاوب مع العذر لتبرير الإهمال الذي لا يغتفر. وبحركة قامت بها في الهـواء فإنهـا رمت أرضاً المتجرِّئ الذي تجرّأ على أن يشغل ذلك المكان. ورأى المجـندل نفسه متدحرجاً بعنف – إن أويا ريح تقتلع الأشجار وترميها بعيداً – وإذ وقف من خبطاته المتعثّرة واستوى فوق الأرض، أحسّ بلكمة على صدره، وأخرى علـى بـاب معدته بالإضافة إلى صفعتين على وجهه. ثم عاد ووقف مستسخفاً، يتـنفّس بـصعوبة: فجمـع فرقة التافهين الذين كان قد جاء بهم كدليل سياحي، وهرب معهم إلى قدره.

أويـا، النـسيم الذي يرطّب بنعومته وجوه الأطفال والمسنين، بخطوة أنيقة خطّـتها، وبانحناءة احترام، اقتادت ميكيل سانتانا أوبا آري، الكاهن الجليل الذي أعلنـته الأم أنينيا التي لا تنسى، وجعلته يجلس حيث يجب أن يجلس بلياقة. وبينما هـي تبتسم مسرورة، فإن الأم مينينيا سلّمت الدف إلى الكاهن الذي حرّكه منادياً بخشخـشاته الصاخبة على المشرفين. وهنا اكتسب الاحتفال وقعاً أكبر، وغمرت الجمـيع سعادة من الضحكات المكبوتة والتصفيقات الحادة، لأن ما حدث لم يمر

كـــسحابة بيضاء بالنسبة إلى القادرين على أن يروا ما وراء الأشياء، أولئك الذين كانوا مباركين بالبركة الأصلية وليس فقط بسلام الليلة السعيدة.

وقـــبل أن تدخل أويا إلى الحلقة، فقد اقتربت منها فتاة بيضاء، أربعينية، ذات شـــعر مؤكسد، جميلة. وتكلّمت الفتاة واضعة روحها في فمها لشدّة ارتباكها في تلك اللحظة:

– إني أفـــتّش عنك منذ أسبوع، وقد جئت من ساو باولو من أجل هذا. إن الأخـــت غـــرازيا، طلبت مني أن أسألك: أين هو خاتمي؟ إن الأخت غرازيا هي وســـيط مع الأموات، وقد استشارت الكابوكلو فقال لها إنه حين أعثر على الخاتم فإن كل شيء سيُحَل، اذهبي إلى باهيا، قالت لي، وفتّشي في الكوندومبليه عن فتاة نجمـــة المـــساء، وهي ستقول لك أين هو الخاتم... وجدّت في إثرك إلى هنا، وقد فتّـــشت عنك في أكثر من عشرة مرتحلات، وكدت أصاب باليأس وأتخلّى، مزمعة على أن أستقلّ حافلة الركاب غداً صباحاً في طريق العودة... ولكني أخذت علماً بهذا الاحتفال... إن الخاتم هو من الفضة وعليه رأس أسد.

– إن خاتمـــك موجود مع ذلك الرجل الذي يعتمر القبعة البيضاء – أجابت أويـــا مـــشيرة بإصبعها إلى كامافيو دي أوشوسي، الذي كان قد جاء ليضع نفسه قرب ميكيل وركضت الفتاة الباوليستا إليه.

– أين خاتمي؟ قل لي... – وراحت تصف الخاتم.

– إنـــه معـــي، أجل، يا سيدتي. لقد استلمت مجموعة من العقود والأساور والخـــواتم، جيء بها من لاغوس، وبعت كل الخواتم ولم يبقَ سوى خاتم واحد هو هـــذا الـــذي تصفينه. مرّي غداً بالسوق وسأعطيك إياه. إسألي عن كامافيو دي أوشوسي، وهناك يعرفني الجميع.

– وكم سيكلّفني هذا؟

– لـــن يكلّفـــك شيئاً، إنه هدية من الإلهة يانسان، إذا رغبت فجيئي معك بحمامة بيضاء، هدية لها، وأطلقيها في الميناء.

كـــان في نـــيّة أويا أن تمتطي جوادها، بينما في الحلقة أربعة مستعدون لوضع أنفـــسهم بتـــصرّفها، وهي لا تزال جالسة مع الزائرين، عندما لمحت مارغاريدا دو بوغـــون، امـــرأة الكـــاهن أوريليو سودري، وينسان أواس وهي يانسان وينيف،

اكـــتفت أويا بالرقص وسط بنات القديس لتزيد من غبطة أوشالا، أومولو، إيواه، شـــانغو، أوشـــون، أوشوسي ويمنجا - وهذه الأخيرة، يمنجا، هي أكثر دلالاً من ماريـــا كلارا، وحتى اليوم لم تعلن أي منهما عن ظهورها في ميدان الكاوندومبليه، سواء في باهيا، أنغولا، كوبا أو بينين.

قـــبل أن ينتهي الاحتفال انصرفت أويا، إذ كان لديها الكثير لتقوم به. كانت قـــد جاءت إلى مدينة باهيا لتنهي مهمة كانت قد بدأتها في كانون الثاني/يناير يوم خمـــيس القديس بونفين، وكانت قد جاءت بعرض وقرار: تحرير مانيلا من الأسر وإطـــلاع أداجيـــزا بكم من القضبان الخشبية يُصنع الهودج. إن أويا كانت تمتطي جـــيادها من دون أن تسرجها، ولكنها ستضع على ظهر أداجيزا هودجاً وتمتطيها لتعلّمها التسامح والفرح: أطيب طيبات الحياة.

الكلب السائب

رؤى إديميلسون

استمرّ إديميلسون في تكرار السخافات أمام الدون ماكسيميليانو فون غرودن، المرتبك، المذهول، الذي يكاد يخرج من جلده. ولكي لا يسترعي الانتباه فإن المدير كـــان قـــد جاء بسيارته الشخصية الفولكسفاغن الصغيرة، متجنّباً استعمال سيارة المـــتحف. وأوقف سيارته قرب الكومبي الفارغة – التمثال، قل لي! أعلمني بسرعة عن التمثال!

بهيئته النحيلة وكتفيه المنحنيتين فإن إديميلسون كان تائهاً في صحراء الميناء. في الحقيقة كان الاثنان تائهين، بينما دون ماكسيميليانو يلحّ، ويطالب بالوقائع الثابـــتة – توقف عن هذه السخافات – والمساعد ساهم في وجومه، يحرِّك يديه عشوائياً فتبدوان كأنهما قطعتا خشب ربطتا إلى بعضهما، وراحت واحدة تدور فـــوق الأخرى تحت الأضواء الكهربائية التي لم يكن نورها الخافت قادراً على تـــبديد العتمة الكثيفة في تلك الليلة الرطبة والمليئة بالأسرار. وكانت تصل إلى هـــناك ضجّة آتية من بعيد ومعها محادثات وضحكات من لاديرل دا مونتانيا، حـــيث الـــشبق إلى الحياة كان قد بدأ في المشارب وبيوت الدعارة.. وأضاءت نجمة فوق البحر.

إديميلـــسون، على حافة الانهيار العصبي، كان يقسم بالله وبجميع القديسين إنّه رأى التمثال مرتفعاً فوق المحمل عند مؤخّر المركب الشراعي عندما رسا "المبحر بلا ميناء" في ميناء رامبا دو ميركادو. وبالرغم من أنه قد رآه عند انعكاس أشعة شمس المغيب، عندما كانت لا تزال صور وأشكال فريدة تطوف في السماء، ثم تنطفئ في البحر، فإنه قد تعرّف إلى القديسة بربارة، أم الرعد، وهو كان قد رافق عدة مرات الـــدون ماكسيميليانو إلى سانتو أمارو، قائماً بمهام المساعد والسائق، وأخذها بين ذراعيه، مندهشاً:

– لقد كانت هي نفسها، أجل، هي نفسها. وإني أضع يدي في النار.

في نـــار جهنم إذا اقتضى الأمر. والمسألة، كما كان يروي في تقرير لا يمكن تبيُّن أساس له أو جوهر، هي أن التمثال أخذ فجأة يكبر، ويتحوّل، وعندما تنبّه إلى ذلـــك، تبـيّن أنـــه انقلب إلى سمراء فاتنة، مخلوقة من لحم وعظم، ترتدي ملابس باهيانية، ترجّلت من المركب إلى اليابسة وانصرفت. وكان يقسم على ذلك بجراح عيسى وعذرية القديسة مريم.

أن يفسر، مع كل هذا، فإن إديميلسون كان عاجزاً عن ذلك مع كل ما بذله ليـــستجيب لطلـــب الدون ماكسيميليانو المفترس، والمهدِّد بالويل والثبور: لم يكن ممكناً تفسير ما لا تفسير له. كانت يداه ترتجفان، ويتصبب منه العرق، ويحسّ بالبرد والخـــوف، وقـــد أوشـــك على البدء بالبكاء. إنها أعجوبة من الله، أو تجربة من الشيطان، إنه رآها - هذا لا يقبل الشك، لقد رآها: ولتُفقدني القديسة لوزيا نظري إذا كـــنت لم أرها! كان يؤكد ويعيد التأكيد، ويقسم بروح أمه التي توفيت قَسَماً غلـــيظاً! ومـــا هو أكثر غموضاً على التفسير هو أنه رآها ولم يعجب بها. كيف يستطيع ذلك؟ إنه التقمص الشيطاني يا دون ماكسيميليانو، وليس من تفسير آخر.

لم يكـــن الـــدون ماكسيميليانو فون غرودن يؤمن بالشيطان. وفي زمن الثقة بينهما، كان إديميلسون قد أخبره بأنه عندما كان طفلاً فإنه كان يرى رؤى: فعند هـــبوط اللـــيل كانـــت الأشجار تتحوّل إلى نساء عجائز قبيحات يضعن المناديل السوداء فوق أكتافهن ويطفن في الحديقة مشيعات الشرور.. إن التعليم الجامعي لم يـــشفه، وكذلك لم يشفع له اطلاعه على المادية الجدلية التي درسها خفية بتأثير من الأستاذ جوزي لويز بينا، الأستاذ المساعد والماركسي الشهير.

الراهب والسكان

حـــول المـــرفأ، بالإضافة إلى التائه إديميلسون مع حكايته الخرافية، كان مدير المـــتحف مـــستَنفَرةً قواه لا يجد من يساعده، أو حيّاً قديراً على أن يعطيه توضيحاً قيِّماً. إن النيّة الحسنة لا تعطي غير محادثة رخوة: إن الريان مانويل، وماريا كلارا، بـــرفقة كامافـــيو دي أوشوسي - إن سيادتك تعلم من هو، ألست تعلم؟ الجميع يعـــرفون كامافـــيو، حتى المحافظ - كانوا قد ذهبوا في سيارة تاكسي. إنها سيارة مـــيرو، ذلـــك المتصالح مع الحياة باستمرار. الآخرون الذين كانوا موجودين هناك

لدى وصول "المبحر بلا ميناء"، من باعة الفاكهة، ونقباء الرمال، والعشاق، كانوا قد انصرفوا كل واحد باتجاه. كان ذلك عندما تمكّن من المعرفة: في السوق كانت المحلات قد أقفلت أبوابها الأخيرة. أما عن الكاهن والراهبة فلم يكن هناك أي خبر.

كــان الكـــاهن، حين اتصل به هاتفياً ليعلمه بانطلاق المركب الشراعي، قد أخـــبره عـــن القـــس والراهبة، وهذان، مسافران عهد إليهما بالسهر على التمثال العلـــوي - والحمد لله أن العناية الإلهية كانت لا تزال ساهرة على القديسة.. كان الأمـــر يقـــضي بالعثور على الكاهن والراهبة، وهذا هو التدبير الأول الذي يجب اتخـــاذه. إن الاحتمال كبير في أن يكون التمثال مع أحدهما في مأمن. وإذا لم يكن، فـــإن الـــدون ماكسيميليانو سيذهب ليسمع بنفسه من أفواه الأشخاص المسؤولين تقريـــراً جدّياً عما حدث فعلاً لدى وصول المركب الشراعي. ولكن كيف يمكن تحديـــد مكانـــيهما إذا كان يجهل اسميهما وعنوانيهما، ويجهل دير الراهبة، ومطافة الكاهن؟

إنـــه لا يريد مجرد التفكير في الاتصال بكاهن سانتو أمارو طلباً للتوضيحات، وإطلاعه بالتالي على ما تعاقب من أحداث - يا صديقي العزيز، إن تمثالنا الذي لا يقـــدَّر بـــثمن قـــد اختفى، حانقاً! - إنه لا يريد حتى التفكير في هذا الأمر، لأن الغـــضوب المذكور وصاحب السلطة سوف يجن، ويضع لسانه في العالم، ويرسم كبش الفداء، ويسلح أكبر عملية إشاعات وضيعة تتناقلها ألسنة العامة. إن الكاهن قـــد رأى في إعـــارة التمـــثال خطراً لم تخفّف من عدم الثقة فيه لا الكفالات ولا التأمين، فكلها لم تخفض من نسبة استنتاجاته. قاوم بقدر ما استطاع، ثم ما لبث أن استسلم للأمر بتمتمات متواصلة تحت ضغط الكاردينال الذي أعطاه أمراً لا بدّ من الانـــصياع لـــه. ومـــع ذلك، لم يخف معاكسته للفكرة، فأشار إليه في خطبة يوم الأحـــد: إن معارضته لإرسال التمثال تعكس المشاعر الموحّدة لكل سكان المدينة. إذاً، الاتصال الهاتفي بالكاهن مسألة مستحيلة، وهو ليس مجنوناً، للقيام بها كان لا بـــدّ من توضيح الموضوع، واستعادة التمثال، ومن دون أن يبلغ نبأ اختفاء التمثال مدينة سانتو أمارو، سواء الكاهن، أو السكان.

هل يخرج من دير إلى دير تفتيشاً عن راهبة، أو الذهاب إلى أبرشية ليرى بأي كـــاهن كـــان الأمر متعلقاً؟ هل يطلب مقابلة الكاردينال مباشرة؟ هل يذهب إلى

الشرطة ليعلمها بما حدث؟ هل يتكلّم مع مانولو من بيت موريرا يطلب منه الاتصال بتجار التحف؟

يائساً، هام الراهب الشهير على وجهه في الميناء الفارغ، مستنجداً بالسماوات. رافقه كلب سائب خلال دقائق، وبعد ذلك عضّه الكلب من جبّته ونبح ثم عاد إلى ظلمة البحر - كان ذلك مظهر التعاون الوحيد الذي تلقّاه.

الشياطين

أية جرائم قد ارتكب، وأية خطايا مروعة قد اقترف ليعاني عقاباً بهذا الحجم، ويخضع في حياته لتجربة مخيفة إلى هذا الحد؟ الرحمة، يا الله! كان دعاء الراهب المختنق قد امتزج بنباح الكلب في صمت الليل، وظلام الميناء.

إديميلسون، الملاك المعرّض للضياع، لمح، على ضوء نيران اشتعلت في المقبرة، حشداً من الشياطين تحمل على أكتافها خطايا دون ماكسيميليانو. وفي موكب ديني ترافقه المشاعل اتجهت إلى قمة سيراط، حيث، لدى مدخل الكنيسة، وقرب جرف الماء المقدسة، استقبل القديس بطرس النادم الزائرين - هل تكون النسخة التي جاؤوا بها هي الأصلية التي صنعها الأخ أغوستينو دا بييدادي، أو نسخة عنها موجودة في المتحف بطلب من دون ماكسيميليانو فون غرودن؟ ومَن يدري؟ حتى إديميلسون نفسه، الموظف صاحب الثقة، يستطيع أن يتأكّد. وتعاقب الشياطين في رقصة الخطايا الفولكلورية، وها هو الدون ماكسيميليانو قد حنى كتفيه لأن العبء ثقيل.

اعترف أيها الخاطئ، هل كانت خطاياك عرضية أم مميتة، ولكن ماذا تعني التجربة، والضعف، والوقوع في الخطيئة بالنسبة لمن فعل أفعالاً بهذا القدر، ولا يزال يفعل، بالنسبة لمجد الله ومملكته الأرضية؟

بما في ذلك هذه الأرض في باهيا إلى حيث قادك القدر لتعيش وتعمل. أرض يمتزج فيها كل شيء ويذوب، حيث لا يستطيع أحد أن يفصل بين الخطيئة والفضيلة، وأن يميّز بين الأكيد والعبث، وأن يرسم الحدود بين الدقّة والكذب المصطنع، بين الحقيقة الواقعية والحلم. في أراضي باهيا، فإن القديسين والمؤمنين يستغلّون العجائب والسحر، والعلماء الماركسيون لا يتعجّبون لرؤيتهم تمثالاً على مذبح كاثوليكي يتحوّل إلى خلاسية معتزّة بنفسها، عند هبوط الليل.

سوط الجلد

أداجيــزا عــند باب الشارع مع جراح المسيح الخمسة - زعاق أداجيزا هزّ أركان جادة أقي ماريا:

- إلى الداخل فوراً أيتها الفالتة القليلة الحياء! كلبة!

فاستدارت مانيلا في الحال، واختفت عن أنظار الخالة - عندما كانت أداجيزا قــد حرّكت ذراعها – كي لا تتلقّى الصفعة، فإنها دخلت مباشرة عبر باب داميانا المــشرع باستمرار - وبسبب ذلك كانت دار داميانا كأنها مبغى مع ذلك السيل المستمر من الناس، واحدهم خارج والآخر داخل. عند الصباح، كانت داميانا تهيِّئ القصاع الكبيرة من المعجنات لتصنع منها الفطائر، وحين تختمر كانت مجموعة من الفتيان تتاجر بها عصراً من باب إلى باب وتبيعها لزبائن أكيدين.. كانت حلويات دامــيانا المصنوعة من الرز المحلّى عمل ماهرة خبيرة، وبمجرد تذكّرها كان اللعاب يـــسيل، ولم تقتصر شهرتها على محلة بارباليو لأن الزبائن كانوا منتشرين في أركان المديـــنة الأربعـــة، كمـــا أنه خلال شهر حزيران/يونيو في احتفالات القديس حنا والقـــديس بطرس فإن الطلبات على الكانجيكا، والنشاء، والمهلبية لم تكن تتوقف. دار ســـعيدة كـــتلك، مع ما فيها من عمل ناجح، فإن تشبيهها بخدر عاهرة كان يقتـــضي الكثير من سوء النيّة، ولكن أداجيزا لم تكن تستعمل الجوارب النصفية، ومـــع هـــذا، فإنهـــا لم تكن تعرف شيئاً عن بيوت العاهرات، داخل الأبواب أو خارجهـــا: وإذا حدث أن التقت بعاهرة في عرض الشارع فإنها كانت تبصق تعبيراً عـــن قـــرفها ورفضها وامتعاضها. كانت تعتبر نفسها سيدة لا مجرّد تابعة أهواء: وللسيدات مبادئ يعرضنها على الملأ.

بارعـــة في اســـتعمال اللغـــة العامية، فلم تخفض نبرة صوتها عندما تكلمت، وراحت تمطّ الكلمات لتسمعها جارتها:

- أقـــسم بجراح المسيح الخمسة أني سأُجهز على هذا العشيق، حتى لو كان إجهـــازي عليه آخر شيء أفعله في حياتي. وليمنحني الله القوة لمواجهة هذا الداعر

الـــذي يريد أن يقود طفلة إلى طريق السوء والضياع. إن الله معي، ولست أخاف أحـــداً، ولا يأخـــذني شـــيء، ومعي لا يفيد السحر الأسود، فأنا لست من نفس القماشة، ولا أعاشر أياً كان من البشر. سأنزع الرذيلة عن جسد الفتاة ولو كلّفني هذا ما بقي لي من صحة.

كانت تعيش وهي تشتكي من صحتها الضعيفة، بالرغم من مظهرها الصحي، وتعتـــبر أنهـــا مصابة بدوخات مستمرّة وأن وجع الرأس الملحّ، يطول ويستمرّ ليل نهـــار، معكّراً مزاجها وواضعاً إياها خارج نفسها. وتضع مسؤولية ذلك على أهل لهـــا ومعـــارف، وعلى مجموعة الجيران، وبالأخص، الحفيدة والزوج اللذين كانا يـــضطهدانها ويسيئان معاملتها بالمعاكسات. إن السيدة أداجيزا بيريز كوربيا، ذات الـــدم الإسباني المعلن من ناحية الأب، وذات الدم الأسود الأفريقي من ناحية الأم، هي: الكابوس، ورعب الشارع.

أوراك أداجيزا وبقية جسدها

لم تكـــن وإن شارعاً. إن جادة أقي ماريا لا تعدو كونها زاروباً دون مخرج، كـــناية عـــن قفا كيس، وفقاً للتعبير التفخيمي للأستاذ جوان باتيستا دي ليما إي ســـيلفا الـــذي كان، حتى ذلك التاريخ، لا يزال عازباً بالرغم من الأربعينات التي بلغهـــا، يسكن البيت الأخير من المحلة، وهو أصغر البيوت على كل حال. عندما سمـــع أصداء انفعال أداجيزا، ذهب إلى النافذة وخفض نظارتي القراءة وأراح نظره على وركي جارته المرتبكة في غضبها. مرتبكة غضباً، ولكنها موحية، ولكل شيء مكافأتـــه. في المنظـــر المعتدل الجمال من الزقاق الخالي من البساتين والحدائق، فإن أكـــبر مكافـــأة كانـــت قفا أداجيزا لتؤكّد من جديد جمال العالم. مشيئة فينوس، الراقصة، وحرارة أفروديت، هو قفا أداجيزا الجدير بلوحة لغويا، وكل هذا بتعابير الأستاذ الوقحة والإباحية - وهو أيضاً مقال كما يمكن ملاحظته.

الباقي من أداجيزا لم يكن أقل تقديراً، وعلى العكس من ذلك، كان الأستاذ يـــؤكّد ويتمتّع. الثديان كبيران وصلدان، الفخذان مرتفعتان، وملامح زنجية تحيط بالوجه الإسباني الحنطي حيث تضيء عينان من الغضب، دراماتيكيتان.. أما الملامح العدائـــية فيؤســـف لهـــا: وفي اليوم الذي تتخلّى فيه أداجيزا عن التصرف الحانق،

تـــصرف المسيطرة والمحتقرة للآخرين، وبهيئة استعلائية، وعندما تترك بسلام جراح المـــسيح الخمسة وتبتسم دون حقد، ودون شماتة، فيا لله! إن جمالها سيلوِّع القلوب ويوحـــي إلى الشعراء. وفي ساعات الليل المتأخرة كان الأستاذ جوان باتيستا يسنّ المبرد وكانت تماثيله غير أداجيزا: كانت عشيقات في زمن مراهقته السرجيبية.

مـــن جهة الأب فإن عائلة بيريز إي بيريز التي منها أداجيزا انحدرت ووصلت مـــع المواكب الدينية في الجمعة العظيمة حاملة صليب المسيح - وكانت تعير هذه الناحية كل الاهتمام، ولا تريد أن تعرف أية ناحية أخرى إذا كانت هناك ناحية.. لم تكن تعتزّ بأوراك غويا المرسومة، وإذا كانت تعرف شيئاً عن فينوس فهو جمالها ولكنها مقطوعة الذراعين، أما عن أفروديت فلم تسمع شيئاً أبداً.

الشريك الأصغر

إن الحادثـــة الحاقدة من التهديدات بلغت أوج الغضب عندما عرفت أداجيزا، خلـــف مقود سيارة التاكسي المتوقفة أمام المحلة، السائق ميرو، الكلب اللعين، يشير بـــيده - ســـاخراً، وقحـــاً، فقيراً، ومنحرفاً! وإذ كانت تحسّ بنفسها مراقَبة من الأســـتاذ، المـــواطن المحترم، الكاتدرائي، الصحفي، فإنها حيَّته بلباقة، ورأت نفسها مضطرة إلى شرح توقدها وتفسير العادات السيئة:

- إني أحمل صليبـــي، وأدفع ثمن خطاياي. ماذا يفيد أن تربِّي ابن الآخرين: إنهـــا مسألة مسؤولية واستهلاك. هذه التعيسة تأكل من لحمي، وتجهز على صحتي وتقودني إلى المقبرة. أين يمكن أن ترى فتاة لم تبلغ بعد السابعة عشرة من العمر...

- إنها مسائل شباب.. - حاول الأستاذ أن يعذر دون أن يدري ما هو جرم مانـــيلا، ولكـــنه كان يشكّ في مسألة دعارة مع العشيق: هل يمكن أن تكون قد أعطت؟ صبية في السابعة عشرة؟ إن الخالة عمياء: إن الخالة هي حقاً عمياء لأنها لا تلمح فيها المرأة الناضجة، المثيرة، المغرية، ذات الجسد الشهي، الجاهزة للفراش. ألم تكـــن مرشّحة لملكة جمال شيء ما؟ - من الضروري أن يكون الواحد صبوراً مع الشباب.

- أكثـــر مـــن الـــصبر الذي أحمله؟ إنك لا تعرف شيئاً يا أستاذ.. لو أنني أخبرتك... إذا لم تكن قد استسلمت بعد، فإنها ذاهبة في إضاعة الوقت، خصوصاً

أن الـــصيدليات تبـــيع حبوب منع الحمل دون وصفة طبية. إن فتيات اليوم، وقد تحرّرن من خوف الحمل، أصبحن يعشن السنة بألف، وبسرعة خيالية، لأن أذيالهن مشتعلة. إنهن لم يعدن يكترثن بنموذج أداجيزا الرصينة، الشريفة.

وكمـــا تعب الجميع لكثرة ما سمعوا أداجيزا تردِّد، فإن هذه لم تعرف عشاقاً قبل أن تتعرّف على دانيلو، الأول والوحيد، الذي أخذ بها إلى مذبح الزواج المقدس عذراء طاهرة. عذراء...؟ يمكن أن تكون، وأما طاهرة فمسألة تستدعي الشكوك. فلـــيس هناك مناقب بقادرة على أن تمضي عاماً من الخطوبة دون أن تُمسّ، وتنتهي الأمور دائماً إلى بعض الأعمال الجريئة مهما تكن قليلة: اليد على الصدر، والعصا في أذن الفخارة. أما دانيلو كوربيا، المتواضع ولكنه موظف نشيط في مكتب صرافة ويلـــسون غـــيمارايس، ولاعـــب كرة قدم سابق، وخصم حذق للأستاذ في لعبة الشطرنج، فإنه الزوج السعيد، وصاحب تلك الأوراك وبقية أداجيزا، غير المنازع، و أداجيزا هي السيدة الشريفة، العفيفة – فيا للأسف!

كان الأستاذ جوان باتيستا دي ليما إي سيلفا مخدوعاً بوجهة نظره: لقد كان يعرفها شريفة ولكنه لم يتكهن أنها كانت باردة إلى هذا الرفض المطلق. ودانيلو هو الـــشريك الأصـــغر – فمن كان يأمر على جسد أداجيزا، ويخطّ لها الحدود على الفراش، كان معبودها الأعلى.

مجيء مانيلا

لم تكـــن مانـــيلا قـــد وصلت من سفيليا في موكب زياح السيد الميت، يوم الجمعـــة العظيمة. كان مجيئها قد تمّ يوم خميس القديس بونفين، أو بالأحرى، يوم مـــياه الإله أوشالا، وهو أكبر يوم احتفالي في باهيا، والوحيد في العالم. لم تكن قد أتت متلبّسة بعقدة الندم والعقاب، ملتحفة بالجبّة السوداء، وهي تغنِّي النشيد الديني علـــى ألحـــان المطارق الرتيبة. إنها خطيئتي! كانت تنوح الخالة أداجيزا وهي تقرع علـــى صدرها. كانت مانيلا قد جاءت ملتفّة بالزهو والرغبة في الاحتفال، ترتدي زي باهـــيا الأبيض المتألق. في رأسها، المتوازن فوق عنقها الجميلة، كانت قد أتت معها بوعاء مليء بالمياه المعطّرة لتغسل الكنيسة، وكانت قد جاءت لترقص وتغنِّي أغنيات كرنفالية على ألحان القيثار الكهربائي التي لا تقاوم.

في ذلك العالم، وللمرة الأولى تنكّبت مانيلا مكانها بين الباهيانيات. ولكي ترافق الموكب، خفية عن خالتها، وليس من الضروري قول هذا، فإنها استعاضت عن محاضرة اللغة الإنكليزية خلال الدورة الصيفية في معهد الأميركيين. استعاضت عن تلك المحاضرة بتدبير قامت به الزمرة المتحدة التي اتصلت قبل يوم بالأستاذ "بوب بورنيه" وأعلمته بعدم مجيئها إلى الصف بغية المشاركة باحتفال الغسيل. وإذ كان الأستاذ فضولياً لمعرفة عادات الباهيانيين، فإن الشاب بوب لم يكتفِ بالموافقة على الفكرة، بل اقترح أن يرافقها، وقام بالمرافقة فعلاً وبفعاليته المعروفة: لقد رقص السامبا دون توقف تحت وهج شمس كانون الثاني/يناير، وامتلأ جوفه بالبيرة. فيا له من شخص ظريف.

بدّلت مانيلا ثيابها في بيت خالتها الأخرى، جيلديتي، في توروررو. عندما توفي إيوفرازيو ودولورس، في حادثة اصطدام سيارة، كانا عائدين فجراً من احتفال بزواج في دي سانتانا، إذ إن إيوفرازيو، بيده الأخرى، لم يتمكّن من أن يحيد عن الشاحنة التي كانت محمّلة بصناديق البيرة – وبعد الحادثة تنكّبت أداجيزا مسؤولية مانيلا، بينما تنكّبت جيلديتي مسؤولية ماربيتا التي تصغر أختها بسنة. وبالرغم من كونها أرملة وأمّاً لأولاد ثلاثة، أرادت جيلديتي أن تبقي معها على الاثنتين. ولكن أداجيزا لم توافق: كونها شقيقة دولورس، فإنها خالة بقدر ما هي شقيقة إيوفرازيو، وتقوم بواجباتها، وتؤدّي التزاماتها. إن الله لم يعطها أولاداً، فقد نصّبت نفسها لتجعل من مانيلا سيدة كبيرة، سيدة مبادئ، مثلها تماماً.

تحفّظت على ما كانت تفكّر به فيما هو متعلق بقدر ماريبتا، المرفهة، في محيط كانت تعتبر عاداته جديرة بالمراقبة، ولم تعد أداجيزا تضيع فرصة مراقبة. وكانت جيلديتي أرملة تاجر في السوق، ومعلمة رسمية، ولم تكن سيدة مع كونها إنساناً رائعاً، فأبقِ عينيك مفتوحتين. ولكي يتمّ إخفاء شيء، فإن الأمر يستحق الإشارة إلى الرأي العام، المعبَّر عنه بمعارف وأصدقاء لها، وهي آراء متوافقة مجمعة على الاحترام الذي جاء من كون ماريبتا قد ربحت الجائزة الأولى في يانصيب اليتامى.

بدأت مانيلا التألق في تعلُّم أساليب الحياة الطيبة عند منحدر كنيسة الحبل بلا دنس في برايا، وهذا مقر إقامة الإلهة يانسان. جاءت في الصباح الباكر برفقة عمتها جيلديتي، وشقيقتها ماريبتا وقريبتها فيوليتا، واختلطن جميعاً مع عشرات الباهيانيات

بانتظار أن يتشكّل الموكب. مَن قال العشرات؟ كن مئات من الباهيانيات مجتمعات عند منحدر المعبد، وكلهن في أناقة الأزياء البيضاء الرسمية: التنورة مستديرة، والجوارب العالية ملتصقة، والصنادل بالكعوب الواطئة. وكن يعلّقن في أذرعهن وأعناقهن الأقراط الفضية والعقود والأساور الملونة بألوان القديسين، ويضعن على رؤوسهن الجرار، والآنية المليئة بالمياه المعطّرة. أمهات وبنات كل الأمم الأفريقية الباهيانية – ناغو، جيجي، إيجيشا، أنغولا، كونغو – وكلهن في الفرح والدلال. وكانت مانيلا، الأكثر روعة، تتنقل غنجاً وحيوية.. وعند أعلى الشاحنات كانت الطبول تقرع منادية على الشعب. وفجأة انفجرت موسيقى غيتار بين كنيسة الحبل بلا دنس في برايا، وحتى باسيلية القديس بونفين، عند الهضبة المقدسة، كانت المسافة تقدَّر بعشرة كيلومترات، أقل أو أكثر، والمسألة متعلقة بتوفُّر الكاشاسا والوليمة. آلاف الأشخاص، كأنما الموكب بحر من بشر يمتدّ إلى أبعد من النظر. السيارات، والشاحنات، والعربات، والخيول المزيّنة بالزهور وأوراق الشجر، كلها تحمل معها براميل مليئة: ليس مسموحاً بنقصان المياه المعطّرة. في الشاحنات مجموعات حيوية، وعائلات برمّتها، والموسيقيون يحملون آلاتهم، من كمنجات، وأوكورديونات، وطبول، وباريمباوات. ومن المؤلفين الموسيقيين والمغنين: تياو موتوريستا، ريا شاو، شوكولاتي، باولينيو كامافيو. ويعلو صوت جيرونيمو، وصوت موررايس موريرا. ويبتسم باتاتينيا مجتازاً الطريق ومرتدياً زياً أبيض وصدرية حرير فيأخذون بيده، وينادونه باسمه ويغمرونه. شقراء – أميركية شمالية، إيطالية، باوليستا؟ – جاءت راكضة نحوه وقبلته على وجهه الأسود الجميل.

الفقراء والأغنياء يختلطون متكاتفين. في مدينة باهيا الخلاسية توجد كل تموجات الألوان على جلود الأحياء: وتمتدّ تلك الألوان من الأسود، الأزرق الكحلي لشدّة ما فحم، إلى الأبيض الحليبي المقارب للثلج، ومجموعة الزنوج التي لا نهاية لها – وكلهم يظهرون هناك. ومن لا يؤمن بالقديس بونفين، وعجائبه التي لا تنتهي، ومن لا ينقاد إلى أوشالا، وأتباعه المخلصين؟

القائد العام للمنطقة، وقائد القاعدة البحرية، وقائد القوة الجوية، ورئيس المجلس، ورئيس محكمة التمييز، مصرفيون، مزارعو كاكاو، وزراء، أعضاء مجلس شيوخ، نواب... بعضهم يمرّون بسيارات سوداء فارهة، والبعض الآخر، مع ذلك،

المحافظ، رئيس البلدية، ونقيب صناعة التبغ والسجائر، وماريو برتغال، يرافقون الشعب مشياً. وهنالك أيضاً رهط الديماغوجيين، المرشحين للانتخابات المقبلة. يرافقون بالكيلومترات الطويلة المجتازة، يوزّعون العناقات والابتسامات والغمز اليدوي لظهور الناخبين المحتملين.

الموكب يتماوج على موسيقى القيثارات بأناشيد دينية ورقصات سامبا واهتزازات كرنفالية. ويزداد الموكب على الطريق، ويتضخّم حجم الجموع: ينضم إلى هناك أناس من الجوار، ويفرغ معرض سان جواكيم، ويترجّل متأخرون من الزوارق البخارية والمراكب السريعة أو يصلون بمراكب شرعية. وعندما يصل أول الموكب إلى منحدر لاديرا، عند الهضبة، فمن التربو الكهربائي الذي يقوده دودو وأوسمار يرتفع صوت معروف ومحبوب - فيخيِّم الصمت، ويتوقف الموكب، فكايتانو فيلوزو قد خرج بالنشيد الأكبر للسيد بونفين.

في البداية تسلّقت الجموع المنحدر على قرع الطبول، وغناء الأوفوشي، إنها مياه أوشالا. جموع الشعب اتجهت إلى الباسيلية المغلقة بقرار من الأبرشية. ففي السابق كانوا يغسلون الكنيسة كلها بأوشالا على مذبح المسيح، وسيعود الأمر يوماً إلى ما كان عليه. الباهيانيات يشغلن المنحدر ويبدأ الغسل، ويتمّ تنفيذ الواجب للبدء بالكوندومبليه: إيشي - إي - باباه!

في زمن الاستعمار، وفي ركن بائس من سفينة نقل لوزيتانية، وصل من البرتغال إلى البرازيل بونفين، ووصل من شواطئ أفريقيا في زمن الاتجار بالزنوج، على ظهر عبد، دام، من لفح السياط، الإله أوشالا. والاثنان الآن يحلّقان فوق الموكب، ويلتقيان على صدور الباهيانيات، ويغوصان في المياه المعطرة ويمتزجان كأنهما كيانية إلهية برازيلية واحدة.

نشرة أخبار "الواحدة" في التلفاز

كانت أداجيزا تصغي إلى الإذاعة طيلة اليوم بأكمله، وتعرف غيباً المواعيد الدقيقة للبرامج الرئيسية، ولم تكن تفوِّت فرصة للإصغاء إلى التمثيليات الساخنة، والموسيقى الريفية، وهي المفضلة لديها. لم تفارق المذياع المتنقل، فتحمله معها من مكان إلى آخر: من حمام الصباح، ومرآة التزين وتسريح الشعر في غرفة النوم،

والمطبخ حيث كانت تعدّ الغذاء، إلى أعلى ماكينة الخياطة في الصالة. وكانت تقفله فقط ليلاً لمشاهدة مسلسلات التلفاز، وكانت تتابع اثنين منها، المسلسل الأول برفقة زوجها، الذي كان هو الآخر من هواة المسلسلات، وعندما تنهي واجباتها المدرسية كانت مانيلا تنضم إليهما.

إن التلفاز جهاز ثمين ونبيل، ولم يكن يقتضي المصروف نفسه والخدمة نفسها التي يقتضيها مذياع يعمل على البطارية: ولم يكن بمقدورها أن تنقله من غرفة إلى أخرى، وتعير انتباهها إلى البرنامج بينما هي تهتمّ بمشاغل البيت. كانت تقدّره حق التقدير، ليلاً: مسلسلات، حلقات متكاملة، أفلام، بث مباشر عن الأحداث المهمة. كان دانيلو يفضّل البرامج الرياضية، ومتعصباً لكرة القدم، فهذه الرياضة هي ولهه الأكبر. كان قد لعب لايبارينغا نادي تولهه وحبه الأول والوحيد. انضمّ إليه وهو لا يزال غلاماً وفيه أصبح مشهوراً، بركلته الشعبية الشهيرة. كان قد رفض عروضاً مغرية للعب مع باهيا وفيتوريا، ولكنه لم يبدِّل قميصه.

وميزة أخرى من ميزات الزوج: لم يكن يفوِّت فرصة الأخبار السياسية، بما في ذلك نشرة الساعة الواحدة بعد الظهر: ومن الطاولة التي كان يجلس إليها ليتناول غذاءه كان يشاهد ما يحدث في البرازيل والعالم بدءاً بأخبار باهيا. وكانت أداجيزا تصغي إلى النشرة السياسية غير منتبهة، بلا اكتراث، لأن التقلبات السياسية السيئة وسكك العالم كانت تهمّها قليلاً، ولكن ذلك يستثني منه استعراضات الأزياء والأنباء المتعلقة بالقصور الأوروبية، من إسبانيا إلى موناكو وإنكلترا: وكانت شديدة الإعجاب بالعائلة الملكية الإنكليزية. يا للروعة! وكانت تبدي التعجب عندما تشاهد بواسطة الفيديو الملكة - الأم.

وحدث، أنه في ذلك اليوم، عندما شغلت، كالمعتاد، جهاز التلفاز ليسمع دانيلو نشرة الأخبار، فإن أداجيزا كادت تنهار لدى رؤيتها حفيدتها مانيلا مشاركة في احتفال خميس القديس بونفين، أثناء عملية الغسل. إن المنحرفة كانت تنقّط المياه المعطرة على رأس ووجه متسكع ما: بعد أيام أعلن المتسكع عن نفسه سائق تاكسي بسيارة واقفة أمام الدار وزمورها لا يكفّ عن الانطلاق.. ومن حسن الحظ أن أداجيزا تمكّنت من الجلوس. وأطلق دانيلو تعجّبه: ولكنها مانيلا.. انظري

يـــا "دادا"! كأن تعيس الحظ قد رأى نعمة في ذلك. وتمتمت "دادا" يا ويلاه!! يا إلهي! واضعة يدها على قلبها كيما لا ينفجر.

وكان التقرير التلفازي الذي يبثّ مباشرة من عند مرتفعات قمة دو بونفين، قـــد بدأ بعرض تلك الصورة السحرية لمانيلا وبيدها إبريق الماء – فمن رآها لم يعد ينـــساها. بعـــد ذلـــك أظهر التقرير المحافظ ورئيس البلدية يلوّحان معاً للجموع، وتعاقـــبت الكـــاميرات بومضات متتابعة، وبعض تلك الكاميرات كان محظوظاً في التقاط صور للباهيانيات يرقصن في باحة الباسيلية تشريفاً للإله أوشالا.

تعرّفت أداجيزا على جيلديتي تقطر معها فيوليتا، مانيلا وماريتا. إن جيلديتي وفيوليـــتا، الأم والابنة الراقصتين في احتفال الكوندومبليه لم تكتفيا بتعويد الحفيدة ماريتا على هذه العادات الداعرة وقليلة الحياء، ماريتا الحفيدة اليتيمة التي ليس لها مـــن يدافع عنها، ولكنهما احتذبتا مانيلا في الخفاء، وفي غفلة من الأم بالوصاية – لقد طعنتا أداجيزا في الظهر.

إحدى الكاميرات، مرة أخرى، عزلت مانيلا عن الجمهور، متهتكة، عارضة وركـــيها، ووجهها يلمع من العرق والخلاعة، ورجلاها قد سكنهما الشيطان. و لم يكـــن المذيـــع قد رآها هكذا وهو يضخّ من فمه الإطراءات على الاحتفال، وعلى الباهيانـــيات، ومنهن مانيلا بنوع خاص. كان المذيع يسترعي انتباه المشاهدين إلى طهارة الزي الأبيض، الاحتفالي، والعقود والأساور التي بالنسبة إلى المذيع هي تعابير حقيقـــية عـــن ثقافـــة كاملة. وفي رأي أداجيزا، كانت تلك الأشياء بربرية وقحة لتـــسعير حلقـــة "الكوندومبليه". خرافة مضحكة ومتعجرفة هو التقنع بلحى على طـــريقة تشي غيفارا، التي تقنّع بها بعض الشباب الرافض، بينما المذيع أعلن نفسه عاجزاً عن وصف كامل للجمال القهوائي – الحليبـــي لدى مانيلا؛ في حين أن ما يقـــوم بـــه يحـــتاج إلى موهبة شاعر، ووحي غودوفريدو فيليو، وتبغود كارلوس كابينان. شاعراً كان أم لا، فإنه كان يمجِّد نعمة الشباب، والتعبير الراقي، والروعة الباهيانـــية، زهـــرة الجنس البرازيلي التي تقوم بواجبها كابنة قديس في موكب مياه أوشالا بأية متعة كان يمكن لأداجيزا أن تصفع الحكواتي لو أنها رأته هناك، أمامها، بشخصه وليس بالفيديو. وفي العرض التلفازي، فإن هيئة مانيلا، متهتّكة، تضحك كـــضائعة، ورجلاهـــا ترسمان خطوات الماكومبا، نصفها الأسفل شبه عارٍ بالحذاء

الواطئ، وجهها، رجلاها ونصفها الأسفل في نشرة أخبار الواحدة، وهو برنامج يراه ويسمعه مئات الآلاف من الأشخاص، في العاصمة والداخل. يا للصدمة! ويا للخيبة!

إن لمانيلا كل شيء! قال دانيلو، السعيد بالإطراءات على جمال الحفيدة، وهي إطراءات مستحقة على كل حال. و لم يكد يصل إلى القول إنها إطراءات مستحقة حتى ابتلع ما بقي من الجملة لأن أداجيزا نظرت إليه بطريقة، من عينيها القاتلتين غضباً وألماً، جعلت دانيلو ينتبه، مرتعباً للخطأ المرتكب، واتّضحت له مسالة التمادي في الخطأ نتيجة هذا الحدث فاستبدل سكة جملته: إن مانيلا رافقت الموكب بإرادة حرّة واعتباطية، دون أن تطلب إذناً، ودون موافقة دادا، وأسوأ من هذا، استجابت لدعوة جيلديتي. وهو، العم الحيوان، يصفّق لها.

زهرة الجنس البرازيلي، روعة الشباب، الوجه العلوي! لكن أداجيزا كانت تستشف في التلفاز الوجه المعرق، الفظّ، المتهتك - وهذه هي الكلمة الدقيقة - الخالي من أمارات الحياء، خبيثة، مزوّرة، خائنة، منحرفة من أسوأ الأنواع، وتسلّم نفسها لممارسة السحر المنكر. طعنت غدراً وخيانة، وقد غدا الخنجر في الصدر، فإن أداجيزا استدارت وأطفأت التلفاز. فانسحب دانيلو بهدوء، ودون أن ينتظر القهوة، بعد أن وضع الفوطة على الطاولة.

الصداع الذي لا يطاق، وكتلة متورمة عند باب المعدة، وشعور بالقيء، وانفعال يزداد صخباً، وتوعك عام، كلها جعلت أداجيزا ترفع ناظريها إلى الجرح في صدر المسيح المصلوب والمعلّق في الصالة: ساعدني أيها السيد على هذه الحالة! أعطني القوة لأصلح هذه الخاطئة وأعيد النعجة الضالّة إلى قطيعك!

شرعة العقوبات

إن القول بأن مانيلا لم تتعرّض للضرب في بيت أبويها هو قول كاذب ومزوّر للمعطيات الحقيقية للرواية، وهذه عادة سيئة قد شاعت في مؤتمرات السادة الذين يكتبون التاريخ - التاريخ بمعناه الكبير، وليس التأريخ. إنهم يقومون بعملهم وفقاً لأمزجتهم وبقدر تعلّق الأمر بمصالح أسياد السلطة، ويخضعون الحقائق لمتعة الدكتاتورين الطيبة. فليست المسألة، يقولون مفسرين، مسألة تزوير التاريخ، بل

تنظـــيفه من التقليعات والأشخاص الذين أخضعوه للطهر الإيديولوجي الذي يمكن تجريده.

من مرة لأخرى، إيوفرازيو ودولورس، كلاهما كانا يدفئان وركيها عقاباً على وقاحة ما. وكانت التدفئة تتمّ ببعض الضربات من كف اليد التي كانت الغاية منها لفت انتباه الصغيرة أكثر إلى الإيلام. "فلقة" حقيقية جديرة بهذه التسمية البشعة، لم تتعــرّض لها مانيلا في بيت والديها إلاّ مرة واحدة وقد استحقّتها فعلاً. كان لها من العمـــر آنـــذاك اثنتا عشرة سنة وكانت تنهي دروسها الابتدائية في مدرسة مانويل ديفوتو، وهناك كانت واحدة من زمرة يستعاذ بالله من شيطناتها.

وإذ دعـــي الوالد إيوفرازيو للمجيء إلى المدرسة، وجد نفسه مع سائر الآباء والأمهـــات في صالة المدير حيث أُعلم بأن عقوبة الطرد تقع على مانيلا وزملائها بـــسبب خطورة العمل غير النظامي الذي ارتكبوه عصر يوم أمس. الآباء وحدهم يعـــرفون الصعوبات في الحصول على مقعد للأبناء في مدرسة حكومية مجانية. أما مقعد مانيلا فإن إيوفرازيو قد استحصل عليه بوساطة الأستاذ ويلسون لينـــز الذي هو سياسي بالإضافة إلى كونه كاتباً.

شَـــعرا بنفسيهما مذلولين لعلامة الصفر التي أعطاها، بسبب مخالفة سيئة، وفي مادة التربية الأخلاقية والمدنية، لمجموع طلاب الصف، وعددهم أربعون طالباً، اثنان وعـــشرون طالباً، وثماني عشرة طالبة، لأن هؤلاء سكبوا على دفتر العلامات كمية كـــبيرة من زيت الدند، وما بقي في القنينة سكبوه فوق كرسي الأستاذ حيث كان يـــريح قفاه.. قاسٍ، حقود، بالإضافة إلى كونه عميداً سابقاً في الجيش، فإن المعلم وضـــع المديـــر أمـــام الحائط. فالتهديد بالطرد لم يكن أكثر من إقلاق، لأنه من المـــستحيل طرد زمرة كاملة، وبالمقابل فإن المسألة تتعلّق بعميد متخرج من الكلية العسكرية. ولم يترك إيوفرازيو المسألة تمرّ كغيمة بيضاء، فقرّر أن يربّي الحشرة.

الحـــياة المـــرفهة الـــتي قضتها مانيلا بين عطف الأبوين وثقتهما، دون خوف أو كذب، انتهت إلى التبدّل في بيت الخالة والعم، بعد مأساة حادثة السيارة. فقد ابتدأت التعنـــيفات الكلامية والعقوبات.. ثم غدت هذه الأخيرة أكثر قساوة وتكراراً.. خلال العام الأول، عندما كان لا يزال لمانيلا نزوع نحو مقاومة أوامر أداجيزا. وكل ذلك قبل أن تبدأ بتكنيك جديد فتقرِّر المراوغة والكذب والتصرف في الخفاء.

أن تسمع الشتائم وتتلقّى الصفعات على وجهها، فأمران ابتدآ وتكرّرا، وأصبحا عادة مذلّة ومؤلمة، غير ممكنة التجنب. وتعلّمت أداجيزا من الأب جوزي أنطونيو، مديرها الوجداني، ألا تستعمل كلمة عقوبة: إن الأم لا تعاقب، إنها تُصلِح، وتعطي المثل الجيد. كان يجب القول: استحقّت إصلاحاً، وأنا قمت به، ولقد قمت بواجبي لأنني أربّيها على احترام شريعة الله لأجعل منها سيدة محترمة.

ولم يكن لدى مانيلا شكوى ضد دانيلو، لأن العم لم يحرِّك أبداً يده لمعاقبتها ولم يفتح قط فمه ليلقي عليها النعوت، ويصفها بصفات العاهرة، أو الابنة العاقة، العادية، المنحرفة. وإذا كان قد تخلّى عن الدفاع عنها ضد قساوة الزوجة بعدما كان قد حاول في البدء، ثم تخلّى عن ذلك خوفاً من مواجهة موجات الغضب غير المرتقبة عند دادا، الكهربائية الأعصاب، فإنه فيما هو متعلق بطريقة تصرف وسلوك زوجته أداجيزا ظلّ يكبت في صدره كوماً من الأشياء التي كان يأنف منها ويستاء.

كان دانيلو، بروحيته الشابة ولطافته، قد علّم الحفيدة في الخفاء لعبات في الورق تعلّم الخداع والصبر، وكانت مانيلا بحاجة إلى هذه الصفات لتستطيع التحمل والمواجهة، والطاعة والعصيان، والتقيد بالقانون والخروج عليه كما تملي الحياة ويقتضي السلوك. إنه قانون حاسم وقاسٍ، ولكل خطأ عقابه.

العقوبات تنوّعت بين الامتناع عن الذهاب إلى السينما، والبقاء مقفولاً عليها في الغرفة محرومة من مشاهدة مسلسل التلفاز، وبرامج شيكون إنزيو وجو سواريس، ومنع من ارتياد بيوت زملائها، وعدم القيام بالزيارة الأسبوعية إلى العمة جيلديتي، والبقاء دون فواكه وحلويات بعد وجبة الطعام، وصلاة كامل السبحة راكعة على ركبتيها وبصوت عالٍ، هذه كلها كانت بعض القصاصات الأكثر شيوعاً. أما شدّ الشعر والضرب على الرقبة، وشدّ الأذنين، والصفعات على الوجه، حين يكون الخطأ أو الخطيئة عرضية أو مميتة، ولكي تكفّر عنها، فكانت تبقى معلّقة إلى الحائط، لتتلقّى سوط الجلد القديم، المرعب، المجدول – الفعّال. إن لائحة الخطايا المميتة التي وضعتها الخالة أداجيزا هي أكبر من لائحة الخطايا الموجودة في كتاب التعليم الديني، وكانت تقتضي استعمال السوط الذي تلقّته هدية من الأب جوزي أنطونيو حين علم أن المؤمنة الغالية قد قرّرت أن تربّي الحفيدة اليتيمة: "سيكون هذا النسوط مفيداً لكِ، ولا تخافي من

استعماله، وإصلاح من ينحرف عن الصراط المستقيم، وهذا ليس خطيئة، ولا يسيء إلى الله، بل هو مما يعجب الله. وقد جاء في التوراة: عاقب بقساوة وهذه طريقة من الطرق للبرهان على الرحمة".

لا يجب إضاعة الوقت وتأجيل ما يمكن عمله اليوم إلى الغد: فهو اليوم التالي لدفن دولورس وإيوفرازيو، عندما عادت مانيلا من المدرسة والدموع لا تزال في عينيها، فإن أداجيزا وضعتها أمام الاعتراف وصلّت عليها بالسيل المعهود. سنستفيد ونوضّح الأشياء دفعة واحدة، ونضع كل شيء في صحون نظيفة حتى لا تقولي فيما بعد إنك لست على علم. إذا كنت مطيعة وحسنة التصرف، وحصلت على علامات جيدة في المدرسة، وإذا أظهرت خوفاً من الله وطاعة، ولم تسيّي في الإزعاجات لخالتك وزوجها، فلن ينقصك شيء وسيكون لك الحق بالرفاهية.

أية أنواع من الرفاهية، فهي لم تعرف أبداً، ولكنها أخذت علماً في الحال باللائحة الكبيرة التي كانت ممنوعة عليها. معاشرة رفاق السوء! الظهور، في قاعات المشاهدين في التلفاز، والحفلات الراقصة، أو الاحتفالات الصاخبة أو أي شيء دون صحبة الخالة وزوجها؛ الغندرة في المشي في الشوارع؛ وإفساح المجال للشباب، أو العشق.. أما الكوندومبليه، والأومبادا، فإن هذه الأنواع من السحر يجب أن تبقيها إلى أبعد مسافة عنها، ولا يجب أن تسمع الكلام فيها، فهما مركزا الضياع حيث الشيطان يتملك أرواح المسيحيين.

ولم تكن تمنعها عن زيارة عمتها، أخت أبيها، ولكن هذه الزيارات يجب أن تكون محدودة، وليس أكثر من مرة واحدة في الأسبوع، وهذا بحدّ ذاته كثير. وإذا أرادت الأخت أن تراها، فلتأتِ إلى بيت أداجيزا ودانيلو؛ ألم يكن هذان الأخيران عمّين لأختها أيضاً؟ كان مونولوجاً متكرراً بصوت هادئ دافئ أحياناً، وعدائياً تهديدياً، أحياناً أخرى، لأن أداجيزا كانت تشتعل بسهولة.

إن الغاية تبرِّر الوسيلة، كانت قد تعلّمت ذلك من هتلر وسائر آباء الوطن من قواد الشعوب العباقرة: سأجعل منك سيدة، كلف الأمر ما كلف. ولكي تختم العرض وتقفل عليه بمفتاح ذهبي، أشارت لها إلى السوط المعلق في الحائط بين صورة لمريم القديسة وصورة مصغرة، مع زوجها دانيلو وكلاهما سعيد في يوم زفافهما. وإذا كان ضرورياً، فهي، أداجيزا، المكلفة بأعباء الأم، لن تتردّد في استعمال سوط

الجلـــد، ودون رحمة أو تباطؤ. وهذا سيكون لمصلحة مانيلا التي سيكون عليها أن تشكرها يوماً.

كادت تكون ملكة جمال الربيع

كانـــت مانـــيلا قد ذاقت ثقل السوط وقساوة العقدات المجدولة فيه، القاطعة كحـــدِّ الـــسكين، في مرة حدثت لها بعد عام على تلك المحادثة الأولية والنهائية. كانـــت قد اعتبرت السوط قبل ذلك شيئاً رمزياً، لا فائدة منه سوى كونه تهديداً، الغرض منه هو الإخافة.

وإذ غـــدت حاذقـــة في فن مخادعة خالتها وجعلها تنصرف عنها، وتهدِّئ من شدّة مراقبتها، واضعة إياها في حبكة متشابكة من الأكاذيب والاستنباطات، ولكي تقـــنع خالتها بصورة أفضل فإنها تمكّنت من أن تتعاقد، بنوع من التآمر المحبَّب، مع زمـــيلات لهـــا في المدرسة وهن مع بعض الجيران المعذبين بتعليمات وإصلاحات مفروضـــة علـــى مانيلا الضحية التي لا يدافع عنها أحد ضد القاسية المتجرِّدة من إنسانيتها. حتى المجرمون في السجن يتعرّضون للمشقات مثلها، كانت داميانا تقول ثائـــرة، وهـــي الجـــارة الملزمة على أن تسمع التأوهات ووقع الضربات وطلبات الغفـــران. إن هذه المرأة أفعى رقطاء، لا قلب لها، تستمر داميانا في القول، بصوت عالٍ، ولمن يريد أن يسمع.

وإذ كانـــت معـــتادة علـــى اعترافات مانيلا، فإن أداجيزا ظلَّت تصدِّق بسهولة أســـباب كثـــرة الخروج والدخول والزيارات. هل تعرفين، يا خالة، إني وصلت الآن لأنـــي رافقـــت تـــيلما إلى المستـــشفى البرتغالي حيث يعالج والدها؛ عملية سرطان، والمـــسكين لن يخرج منها. وكانت أداجيزا تبدي اهتماماً: سرطان؟ لا تقولي لي. هل بدأ الورم؟ إن العمليات الجراحية، والمستشفيات، والأمراض والاشتراكات المرضية هي أطروحات تعجب أداجيزا للغاية. وفي المآسي التي كانت مانيلا تستنبطها، كان هنالك دائمـــاً لمحـــة من حقيقة، وإذا اقتضى الأمر، فإن شريكة لها كانت ترافقها حتى الباب مستعدة لتأكيد المصيبة وعلى الأخص إذا كانت مضخمة أكثر مما يمكن تصوره.

و لم تلـــبث الجرة أن انكسرت ورشح ما فيها من ماء، إذ إن أداجيزا لم تتأخّر في اكتـــشاف مخادعـــات الحفيدة، وقرّرت أن تضاعف جرعة العقوبة كما بدا لها

ضـــرورياً ومـــستحقاً، لأنه بالإضافة إلى الخطأ كان الكذب، والكذب واحدة من الخطايا السبعة المميتة.

عـــن المباراة لانتخاب ملكة جمال الربيع، عرفت أداجيزا صدفة، وفي الوقت المناســـب، فليتبارك اسم الله: – وذلك لتجنُّب حدوث الأسوأ. وإذا أخذت على حين غفلة فقد مكثت بلا حراك، مرتعبة: وخلال ثوانٍ قصيرة لم تتمكّن من أن تميِّز شيئاً. وبعد ذلك بقليل تبيّنت الأمر وكانت الحرب.

كانـــت إحـــدى زبـــائن أداجيـــزا قد لفتت نظرها، وتدعى السيدة نورما مارتينـــز، الغنية، وعارضة الأزياء، وهي مع ذلك مخلوقة بسيطة بالإضافة إلى كونها طبيـــبة نطاســـية في الأمراض الجنسية. وكانت قد أوصت على قبعة لتستعملها في حفـــل زفاف ابنة الأستاذ جورج قلمون، صاحب جريدة أتاري، والزفاف حدث جعـــل أداجيـــزا تعمـــل ليل نهار لصناعة ست قبعات أنيقة يجب تسليمها خلال أسبوع.

مـــع حـــديث ينتهـــي، وآخر يبدأ، وأثناء تجربة التحفة الفنية المزيّنة بالزهور الاصـــطناعية وذلـــك المنديل الأبيض المخرّم، فإن السيدة نورما التي لم تكن تضيع فرصـــة للـــتكلم عن ابنها، الطالب الثانوي ولكنه بارع في العزف على المعزف – وأكثر من البراعة، هي الموهبة – أشارت إلى مانيلا بقولها:

– إن ريفانينيو هو ثنائي ابنتك في حفلة انتخاب ملكة الجمال.

– ابنتي؟ – تعجّبت أداجيزا، ولكنها فيما بعد فهمت إلى مَن تريد الطبيبة أن تشير: – آه، أجل حفيدتي، وابنتي بالوصاية. إني أربِّيها منذ توفي أخي. هل يعرف ابنك مانيلا؟

– هل يعرفها؟ أجل، فأنا أقول لك إن ريفانينيو سعيد جداً بمرافقتها؛ لقد قال لي إن القرار في شأن ملكة الجمال ينحصر بينها وبين تلك الفتاة التي عملت في فيلم دافرسا، ولا يحضرني اسمها.

إنها قصة بلا أساس، واعتقدت أداجيزا أن هنالك التباساً، وخطأ:

– إنه يرافق مانيلا؟ هل أنت متأكدة يا سيدة نورما؟ ورفقة لأي غرض؟

– إلى مـــباراة انـــتخاب ملكة جمال الربيع. أليست صغيرتك مرشحة جريدة أريـــوفالدو؟ تلـــك الجريدة التي تصدر يوم الأحد وفيها مقالات جيدة، ولكن من

المؤسف أنها لن تستمر في الصدور لأنها تكيل جداً للحكومة - وضحكت فيما هي تفكّر في صحيفة أريوفالدو.

أسندت أداجيزا ظهرها على متكأ الكرسي الذي كان موضوعاً أمام المرآة حيث تجربة القبعة: وأحست بوهن في رجليها، ودوران في رأسها. فاغتصبت ابتسامة تمكّنت معها من أن تجيب بجهد:

- المباراة، أعرف..

ولحسن الحظ أن السيدة نورما كانت قد خرجت لتأتي بالمال لتدفع سعر المواد والعمل البارع، الجميل والغالي:

- لقد جاء عملك جميلاً يا سيدة أداجيزا، وأنت فنانة حقاً. أتمنّى لو أن ابنتك انتُخبت ملكة جمال. إن ريفانينيو يقول إنها أجمل الجميع. تهانيّ.

كان على أداجيزا أن تشكر على التهاني والإطراءات على مانيلا: إنها طيبة ابنك يا سيدة نورما. وخرجت مسرعة إلى دارة السيدة إيديل كوكيجو، الزبونة الأخرى، الطيبة الأخبار والعشرة. وليس أكثر علماً بمسائل مباريات انتخاب ملكات الجمال والمهرجانات الموسيقية الشعبية من السيدة إيديل، وزوجها المتعدِّد المواهب: قاضٍ شهير، ومشرع فذّ، وأستاذ حقوق، وقصصي محبوب، ومؤلف حائز على جوائز، طيب العزف على الكمنجة، وصاحب صوت غنائي جميل، ومتعدِّد المراكز الرئاسية.

طلقة على الهدف، وإصابة. لم يكن ضرورياً أن تعترف بسبب اهتمامها، فهي، أداجيزا، لم تكد تشير إلى المباراة، فإذا بالزبونة المنتهية والمتحمسة، تؤدِّي الخدمة كاملة وأخذت لنفسها الحق بتعليقات إضافية. إن انتخاب ملكة جمال يتم كل سنة، في شهر أيلول/سبتمبر، والمرشحات يمثّلن الصحف المختلفة في المدينة، ومنظّمو الحفلة مع بعض المؤسسات التجارية كانوا يقدِّمون المصاريف؛ أما اللجنة، فمؤلفة من أشخاص معروفين، وهي التي تعلن النتيجة النهائية بعد الاستعراض الذي يتمّ بزي فولكلوري، أو فستان سهرة، أو بيكيني: بيكيني؟ قطعتان؟ مستأنسة فإن السيدة إيديل تعجّبت من تعجُّب صانعة القبعات: أداجيزا لا تكوني تقليدية: إن المايوه غدا شيئاً من الماضي. وإعلان الفوز سيتمّ بعد يومين في مسرح فيلا - فليا. وكانت الدونا إيديل مزمعة على الذهاب لمشاهدة الاستعراض: إن فتيات هذه

الأيام لا يمكن الركون إليهن. هل أنت مهتمّة بالذهاب؟ إذا كنت تريدين الحضور فبإمكاني أن أتدبّر لك بطاقة دخول مع زوجك.

عـــادت أداجيـــزا إلى البيت بقلب ثقيل وفم مفعم بالعلقم! وفي الصالة، وإذ قطعت مانيلا دروسها، ذهبت تستقبل العمة بابتسامة دافئة وطلب:

– يوم الأحد، تعرفين، خالة..

يوم الأحد. أعرف، أجل، قالت أداجيزا، ومشت باتجاه الحائط حيث كان سوط الجلد معلقاً. ومن يدري، قد يكون هنالك مزيد من الوقت لمنع السقوط واللعنة؟!

كان لمانيلا خمسة عشر عاماً من العمر، منها عام ونصف في الأسر الذي قُدِّر لهـــا بعد دفن والديها، عندما عرفت لفحة سوط الجلد. لم تفكِّر العمة ولم تترك في نفـــسها رحمة: فقد تركت آثار الجلد على كامل جسدها ولم تبقِ على غير الوجه. وعـــندما خانتها قواها وتوقفت عن الضرب أقفلت الغرفة على من كانت المفضّلة بـــين المرشـــحات، وتركتها مع الخبز والماء، من مساء يوم الجمعة ذاك وحتى ليل الأحد، وذلك لتتأمل وتندم.

يـــوم الاثـــنين، عندما وصلت إلى المدرسة، وجسمها ملطّخ وتجد صعوبة في الجلـــوس، وعيناها مغرورقتان بالدمع، منهارة المعنويات ومهملة، هنالك عرفت أن ماريلـــدا ألفيس، فتاة الفيلم، مرشحة الصحيفة المسائية إشتادو داباهيا والقصصي رينو، كانت قد أعلنت بالإجماع، ملكة جمال الربيع.

سوط الجلد

تلقّـــت مانـــيلا اللفحة الأولى على أعلى كليتيها فقطعت لحمها. ولكن أكثر حدة كانت الشتيمة التي بصقتها عمتها:

– كلبة!

رفعت أداجيزا ذراعها، وجعلت سوط الجلد يصدر صوتاً في الهواء، وكانت قـــد بدأت تحسن استعمال السوط بالخبرة خلال السنتين اللتين تلتا حفلة انتخاب ملكـــة الجمال، ولكن قبل أن تهوي بالسوط من جديد، فإن مانيلا تقدّمت خطوة إلى الأمـــام، ودون أن تـــصرخ، وبـــصوت أعلى بقليل من العادي ولكنه حاسم ونهائي، أمرت:

– توقفـــي يـــا عمّـــة. دعكِ من هذا السوط إذا كنت تريدين أن أستمر في احترامك.

– كلبة! منحرفة.

لـــوّحت أداجيـــزا بذراعها، فلاح السوط في الهواء، ولكن الجلدة الثانية لم تـــتمكّن مـــن أن تنال من الكلبة المنحرفة.. ومانيلا وقد شفيت من آلامها في عيد القـــديس بونفين، وأصبح جسدها نظيفاً، وعقلها ناضجاً، أمسكت بيمناها بساعد العمّـــة، وبيـــسراها فتحت الأصابع الضاغطة على السوط، وأخذته ثم رمته بعيداً. وبعينين حانقتين، غير مصدّقة، ضائعة، بلا حركة أو كلمة، فإن أداجيزا حدّقت في حفيدهّا فرأت أمامها الشيطان – إنها نهاية العالم!

– لا تـــضربيني أبداً بهذا السوط بعد اليوم. لقد انتهى هذا يا عمّة. إذا أردت أن أبقى معك في هذا البيت وأن أطيعك.

ارتجفت أداجيزا من رأسها إلى أخمصيها.

طريق الجلجلة

سكرتير الدولة لشؤون الأمن العام

متربعاً بحيوية على الكرسي الدوّار، رافعاً يده بحركة أنيقة مؤكدة، حدّق الأستاذ كاليشتو باسوس، سكرتير الدولة لشؤون الأمن العام في ولاية باهيا، في الوجه المستنفر لمدير متحف الفنون الدينية:

- واحدة إضافية! إذا استمرّ الأمر هكذا فلن تبقى صورة واحدة ذات قيمة في كنائس باهيا. هل تعرف يا أستاذي العزيز كم صورة سرقت خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة؟ ست عشرة صورة، لا أكثر، ولا أقل. لا أربع عشرة، ولا خمس عشرة: بل ست عشرة صورة!

ابتسم، واثقاً من نفسه، وقد كان يجب أن يسمع صوته، هو رجل العدل المصفّق له مذ كان على المقعد الأكاديمي في كلية الحقوق، خطيب الزمرة، المحامي اللامع الذي يحمل معه في حقيبته سجلات المنظمات المالية القديرة، والسياسي المرموق. "كاليشتو باسوس، الموهبة في خدمة العدالة، كان قد كتب تحليلاً قانونياً خلال الأزمة مؤيداً تعيين مدير الشرطة الجديد. والمفوض باريرينيا يوقع مغمض العينين على رأي المليء بالميزات، المتعدِّد المواهب. وبينما يقف قرب الطاولة، يهزّ رأسه، مثنياً على تأكيدات الرئيس: كان ينظر إلى الأستاذ السكرتير نظرة إلى موهوب أصيل، ونسر محلق، كأنه روي بار بوزا. أما الدون ماكسيميليانو فون نمرودن، فكان، بدلاً من ذلك، يعتبره أبا لعدم الكفاءة.

انحنى الأستاذ كاليشتو باتجاه الراهب، وخفض صوته بموجة من منح الثقة والتعاون:

- المجرم، المجرمون؟ كلنا نعرفهم. ولكن لا أحد يتجرّأ على أن يوجِّه الاتهام إلى هؤلاء. من يتجرّأ أن يتّهم رؤساء مهمين؟

هذا الحيوان الموضوع في إطار فخم، البقرة الحامل، قال دون ماكسيميليانو في نفسه وقد أخرجه اليأس من آخر ميزة من ميزات الكرم. إن الأثول، الأحمق،

عـــاد يكرِّر أمامه النشيد الرتيب "البيع في السرّ للصور الثمينة المختفية من الكنائس والمعابـــد، هـــو عمل غير شرعي، وتجارة فضائحية يقوم بها الرهبان أنفسهم بدور الزبائن".

وابتلع الدون ماكسيميليانو الإذلال، والريق، والاحتراق في البلعوم.

مـــزدوجان لتسجيل التأملات الشكاكة للدون ماكسيميليانو فون غرودن في بيع – بيع، لا، مبادلة – القديسين والتحف، بينما مدير الشرطة، مشتعلاً، يمضي في حديثه:

– لحـــساب بائعـــي تحـــف مهمين، أو لحسابهم الخاص، فإن تجاراً متمكّنين يخـــرجون في مسيرات شاقة وطويلة تفتيشاً عن بضاعة، أو بمعنى آخر يخرجون إلى الـــصيد في الداخل. يذهبون من مقر إلى مقر، ومن حي إلى حي، ومن مزرعة إلى مـــزرعة، ومن بيت إلى بيت، لا يكلّون ولا يملّون؛ ثم يعودون بصناديق مليئة بكل شيء: أشياء ثمينة وأخرى لا تعدو كونها نفايات.

ويمكـــن أن يحدث، ويحدث الآن، أن قطعة منها ثمينة، كنـــزاً، يكون كافياً لاستغلال التاجر المالي الذي يستحق الحماية الإلهية. من أعلى السماوات فإن الآلهة ترافق بعناية لطيفة الرحلة الشاقة، المربحة للمؤمنين بهم أصلاً عنصرياً ومعتقداً.. إن يهوا الذي أظهر نفسه في سيناء، والإله الطيب السوري – اللبناني، ويسوع الرحمة الـــتابع للفاتيكان، كلهم يقودون خطوات مَشَقّة الرحلة التي تحتاج إلى حوافر ثيران قـــوية – ولكـــل واحد فيها حامية – إلى الصندوق الكبير أو الخزانة حيث ترقد الـــتحفة الـــتي لا مثيل لها بانتظار الجوال الذي لا يقهر: داود، سليم، أو جوان دا سيلفا.

إنهـــم مرسلون من العناية الإلهية المستجيبة لرغبات الرعيان الذين يعيشون في الحاجـــة، والمشقة، وهـم يدفعون نقداً، وبعملة رائجة، وبوزن الذهـب. في الحقيقة يدفعـــون البؤس، ويكذبون ويخدعون ويحيكون المكائد، وإذا سنحت لهم الفرصة المناســـبة، فـــإنهم يـــسرقون ويـــستحوذون على المسروقات. كائناً ما كان، إنهم يـــستحقون لأنهـــم، بالـــنقود التي يحصلون عليها من بيع تلك الأشياء القديمة غير الـــنافعة، فـــإنهم يعوِّضـــون المطرانيات عن التدهور المالي، وإفلاس الإرساليات، واستعادة النقود المتواضعة التي أنفقوها.

لو لم يكن الارتكاب يلزم بالتكتم، فإن الدون ماكسيميليانو كان يمكن أن يفاجئ السكرتير الأحمق معلناً له، أنه، في رأيه، يمكن تبيُّن أن هذه التجارة المنظور إليها بصورة سيئة، لو أنها فُسِّرت على ضوء المصالح الثقافية، فإنها تؤدِّي خدمة جليلة، ونفعاً لا يمكن نكرانه. مسروقة أو مشتراة بسعر الموز البخس، بواسطة المسعفين، فإن هذه القطع الفنية الثمينة تنجو من الدمار الذي تكون محكومة به في الأديرة والمناسك. وهي، حين تنتقل من يد إلى يد، ومن ربح إلى ربح، تصبح سليمة ومنقذة من الاندثار، ومعتنى بها في المجموعات الشخصية أو المتاحف.

هل هو رأي عالم آثار كافر؟ كافر، منافق، وعديم الرحمة، بهذا أصبحوا يعرفونه - إن الأب جوزي أنطونيو هرناندز ذهب أبعد من هذا: بالنسبة إليه فإن الدون ماكسيميليانو فون غرودن هو المثل الواضح لمن لا يجب أن يصبح كاهناً لأنه ملحد وفوضوي. إنه خطير يظهر نفسه مكسواً بجبّة الآباء البندكتين البيضاء. في أيامنا هذه، أيام الفوضى وعدم الاحترام، وزمن اللاهوت الليبرالي وغيره من التجديفات الشيطانية، فإن أعداء الإيمان والعقيدة يختبئون وراء ملابسهم الدينية، ويخبِّئون الذئاب في نفوسهم بصوف النعاج.

القهقهة

كان الدون ماكسيميليانو متسلحاً بالصبر - إن الصبر لم يكن فضيلته المميزة - وينتظر اللحظة الحاسمة لمقاطعة الثرثرة الخفيفة، والمربكة، التي يتشدّق بها سكرتير الأمن، وليعود إلى سياق الموضوع الذي جاء به إلى هنا. لقد جاء ليطلعه على خطورة الأمر وضرورة أخذ التدابير الكفيلة بكشف اللغز، والقادرة على اكتشاف واعتقال المجرمين واستعادة الصورة بالتالي، وغيره مما تكلم عنه بدقة وحماس في بداية المقابلة. ألحّ على سرية التحقيق، السرية التي لا بدّ منها مهما كانت الدوافع - لقد كان الدون ماكسيميليانو يفكِّر في كاهن سانتو أمارو وردّة فعل الأخير إذا علم باختفاء القديسة: إنه سيقلب العالم رأساً على عقب.

وتحدث عن القيمة الفنية في الخارج والداخل، الجوهرة التي لا تُقدَّر بثمن، إرث باهيا والبرازيل. إنها تعود إلى ثمانمائة سنة إلى الوراء، وقد وضعت في عصر الإبداع العبقري للفنان أليجادينيو: وفقط القطع الفنية الموقّعة بيده يمكن أن تفوق

صورة القديسة في رأي المطّلعين، وقريباً، من يدري، فقد تبلغ شهرة التحفة المفقودة ما بلغته أعمال أليجادينيو. ويكفي أخذ الواقع بعين الاعتبار كونها التمثال الوحيد للقديسة بربارة، أم الرعد، وتقديمها، وهي تحمل بيدها كأس البروق بدلاً من الكف التقليدية. إن القديسة بربارة، أم الرعد، هي قيمة يستحيل حسابها بالمال: إن متاحف أوروبا والولايات المتحدة يمكن أن تدفع، ودون مناقشة، أية كمية من الدولارات للحصول عليها وضمّها إلى مقتنياتها الفنية.

ولفت النظر إلى تاريخ المعرض المرتقب بعد يومين: بعد هذا فإن قيمة التمثال ستزداد. وقال، مشيراً إلى الكتاب الذي سيتمّ توزيعه بالمناسبة، وإلى الأطروحة الجريئة التي سبق للصحف أن تكلّمت عنها كثيراً معتبرة إياها: خبيثة وتفخيمية، وأكّد السكرتير الأمني بخبث ومجاملة أنه سمع عن هذه الإشارات الانطباعية المؤثرة.

سمع أم لم يسمع، فالأمر غير مهم. المهم هو ما لاحظه من أن الحكواتي لم يتمكّن في أية لحظة من فهم خطورة الموضوع الذي لم يكن بالنسبة إليه غير واحد يضاف إلى مجموعة الأشياء المقدسة التي كانت تتوالى سرقتها في داخل الولاية: الدون ماكسيميليانو أضاع ريقه ولغته. لم تفد بشيء الشروح المستفيضة، الدقيقة، والرفيعة المستوى، التي ألقاها بنيّة جعل مدير الشرطة يفهم أن المسألة ليست مجرد سرقة تضاف إلى سرقات التحف الأخرى، وأن الثمن ليس هو نفسه، وأن تمثال القديسة بربارة، أم الرعد، هو الأكبر ولا تضاهيه أية أعمال فنية أخرى.

بعيني سمكة - ميتة، موضوعتين على عيني الدون ماكسيميليانو الزرقاوين، ومع الإشارة بالهمسات والممازجات، فإن الأستاذ كاليشتو باسوس أكمل فكرته:

- في بعض الأحيان لا تكون الأمور متعلقة بسرقة، وعلى الأقل حين يكون الجرم قد ارتكب على يد لص جاء من الخارج. أريد أن أقول..

وضع يديه على المنضدة، ونظر إلى باريرينيا الذي كان ممتلئاً بالإعجاب - لقد قتل الأستاذ الأفعى وشهر عصاه -. ثم تابع: أريد أن أقول.. انحراف.. إن التحف تبدّل أصحابها.. مثلاً: منذ أقل من أسبوع، تمّ العثور وفي مستودع إحدى المزارع، في شارع الاستقلال، على صورتين سرقتا من لارانجيراس. كانتا قد وصلتا من « حيبي وبيعتا هنا.. وصمت لبرهة ليزيد من الإثارة.. من سرقهما كان شخصاً من عائلة الكاهن..

- ولكن، كما قلت لك يا أستاذ.

رفع الأستاذ بيده مقاطعاً مدير متحف الفنون الدينية، وسأله:

- قل لي يا أستاذي العزيز: هل تعرف كاهن سانتو أمارو حق المعرفة؟ قل لي بصدق، وبيننا نحن الاثنين.. - نظر باريرينيا عبر النافذة كأنه لم يكن منتبهاً.. هل تعتبره شخصاً جديراً بالثقة أو...؟

بلغ الدون ماكسيميليانو فون غرودن قمة القلق والعصبية وبذل جهداً خارقاً حتى لا يخرج بالصراخ إلى الشارع كحيوان مجنون. ولكن حين سمع السؤال الحميمي من سكرتير الدولة لشؤون الأمن في ولاية باهيا، عن شرف كاهن سانتو أمارو، فإنه انفجر بقهقهة لم تفقها قهقهة سابقة في المطرانية.

العقيد المنتدب من الشرطة الفدرالية

نتجت عن اللقاء مع العقيد راوول أنطونيو باريراس نتيجة عملية، على الأقل: فالدون ماكسيميليانو استعاد المحمل الذي حملت عليه القديسة المختفية والذي كان قد بقي مهملاً في المركب الشراعي، وأخذه معه إلى المتحف.

وبطلب من مندوب الشرطة الفدرالية في باهيا، فإن "المبحر بلا ميناء" اقتيد بواسطة المدفعية البحرية من رامبا دو ميركادو إلى مرفأ البحرية العسكرية. وكان العقيد قد تفاهم هاتفياً مع السلطة البحرية المناوبة، واتخذ قراره في شأن مصير المركب الذي كان قد جاء بالتمثال؛ ثم عيّن عميلاً سرّياً ليبقى مراقباً في ضواحي دا رامبا.

- ومع المركب الشراعي المحتجز، فإن الزوجين اللذين يمتلكانه سوف يتعرّضان للمواجهة الحاسمة. سوف نصغي إليهما، ونشويهما قليلاً، لأنهما يعرفان بالتأكيد المسؤولين عن السرقة، ولا أشك في أنهما شريكان فيها. وعما قريب سنعرف الحقيقة.

كان يشير بذلك إلى الربان مانويل وماريا كلارا. ودون إضاعة وقت أرسل في الحال شرطياً مع الأوامر باعتقال ربان المركب وزوجته - أما رجال الشرطة المحليون فقد مكثوا في المرفأ، ووضعوا في مستودع قديم للبضائع، بين السوق وميناء بحرية باهيا، على خطوتين من الموقع الذي وقعت فيه السرقة. وعاد التحري بيدين

طليقـــتين: إن المتهمين، بعد الرسو، كانا قد ذهبا في سيارة تاكسي، ولم يكن أحد يعلم إلى أين. وكان قد حصل على النبأ من ساهر متأخر كان مطلقاً العنان للسانه في مشرب شيسبيتيو وهو كناية عن محل دعارة في المنطقة الجبلية.

وعـــاد الـــدون ماكسيميليانو من انطفاء الحيوية الذي زجّه فيه عدم الكفاءة وثرثـــرة العـــبث في حـــديث سكرتير الدولة لشؤون الأمن الداخلي. في الشرطة الفدرالـــية، أصغى العقيد بانتباه إلى مدير المتحف، ومهتماً بما يقول: لقد بدا مقتنعاً بالأهمـــية الكـــبرى للمشكلة. وإذ كان يرتدي الملابس المدنية فقد اهتمّ بأظافره في بداية المحادثة مستعملاً المقص والمبرد أثناء المهمة الدقيقة. لم يكن يبدو ذلك العملاق كما هو معروف.

أبدى سروره بزيارة الراهب، المثقف المعروف والذائع الشهرة، وفهم أسباب طلـــبه التكـــتم علـــى الموضوع - لن تصدر كلمة واحدة، كن مطمئناً؛ نحن هنا مـــتعودون على العمل في الظل والصمت اللذين بدونهما يكون مستحيلاً مواجهة الجـــريمة والإرهـــاب. كان يحادث بهدوء، وهو ليس مستعجلاً إذ لديه الليل كله بتـــصرفه. وفـــيما هو متعلق بالسرقة فإنه عرض آراء أعطت الدون ماكسيميليانو أحـــسن الانطـــباع: لم يكن يستعمل الجمل الخطابية، وكان يعبِّر عن أفكاره بلغة تكنوقراطية، لغة خبير - مقنع.

- هـــنا، في الشرطة الفدرالية، رافقنا بكل الاهتمام اللازم هذه السلسلة من أعمـــال السطو على الكنائس ووضعنا ملفاً واسعاً عن المادة بشكل تفصيلي خلال مـــدة العـــشرين ســـنة الأخيرة، وربما أكثر. في رأيي أن عصابة منظّمة وراء هذه الجـــرائم، ومنظّمة جيدة. والمسألة ليست مسألة سرقات عابرة كما كان يحدث في السابق.

كان سكرتير الدولة للشؤون الأمنية يحب أن يصغي إلى نفسه ويسمع صوته، أما عقيد الشرطة الفدرالية فكان يقدر عملية عرض معلوماته.

لقـــد انقـــضى عهد الهواة ونوازع الفنانين في داخل الولاية إلى المغامرة حتى ســـرجيبـــي والأغـــواس لـــسرقة القديسين من الأديرة والكنائس. كان الفنانون يعيـــشون من هذه السرقات أكثر مما يعيشون من بيع اللوحات والمنحوتات. إنهم اليوم فاحشو الثراء، جميعهم، ويربحون المال الذي يريدون، ولم يعودوا محتاجين إلى

الصور، والسطو على الأديرة، فأغلبهم من أصحاب الملايين. أنا لست متأسفاً على شـــيء سوى عدم إجادتي الرسم.. إن العمل الإجرامي الذي مارسوه غدا معروفاً لـــدى الجميع، وتكفي قراءة مقال واحد حول كاريبـــي أوجنر أوغوستو. وغدت سيارة الجيب الخاصة بماريو كرافو فولكلورية، والقديسيون الذين سرقهم أصبحوا جميعاً بأيدي أصحاب المجموعات التحفية هنا، وفي الجنوب، في بيوتات الأغنياء من أمثال: كليمنتي مارياني، أودوريكو تافارس، وأورلاندو كاسترو ليما.

إنـــه منهجي، وهو قبل أن يعيد إلى المجر الملقط، والمبرد والمقص، فقد استعمل العـــدّة لقطع رأس سيجار "سويرديك"، وتأخر في إشعاله. امتصّ مصة منه، ونفخ الدخان، وانحنى ليضغط على زر الجرس وراء كرسيه. سأل الدون ماكسيميليانو إذا كـــان يرغب في ترطيب بلعومه ببيرة مثلجة – إنه حر طاعوني: وأمر بالزجاجات والكؤوس، وفقط، بعدما ملأ كأس الدون، ثم ملأ كأسه، تابع:

– حالياً، يا دون ماكسيميليانو، فإن الوضع هو أكثر جدية: إن عصابة جريئة لا تحـــسب حـــساباً للنتائج بغية التقدم في مشاريعها الإجرامية. إني أسترعي انتباهك إلى الأمر التالي، الثابت: إن التحف ذات القيمة الفعلية تختفي، ولا تعود إلى الظهور. لماذا؟ لأنهـــا تؤخذ إلى خارج البلاد. كنا قد رافقنا مجرى تهريب بعضها: ووجدنا أن المسألة مـــتعلقة بذوي نفوذ وشأن في البرتغال وإسبانيا وسويسرا وفرنسا. هنالك تهريب دولي للـــتحف القديمـــة، وتعلـــم هذا بالتأكيد، إنها مسألة معروفة. وخلف اختفاء القديسة بـــربارة، شـــهيرتك، فـــسوف نكتشف، لا أشك في هذا، العصابة الملوثة، هذه المافيا الدولية. علينا أن نتصرّف بسرعة لنمنع، ثمينة كهذه، من أن ترسل إلى الخارج.

كـــان الـــدون ماكسيميليانو محتقناً لواجب إصغائه إلى القيل والقال، وهذه الترهات المتعلقة بالتهريب الغامض للأشياء المقدسة.. وفي حديث ليس ببعيد، كان قد سمع من فم مرسيدس روزا مديرة متحف كوستا بينتو، ومن كارلوس إدواردو دا روشـــا مديـــر متحف الولاية، وهذان ثرثاران كبيران، عن أشياء مقرفة تطال شخـــصيات محترمة جداً. ولكنه للمرة الأولى يسمع من سلطة مسؤولة خبر وجود عصابة دولية منظّمة وخطيرة. إن متحف الفنون الدينية نفسه يمتلك تحفاً من منشأ غامض حتى لا يقال مشكوك فيه: وكان الدون ماكسيميليانو يفضّل تجاهل كيفية إيصال القديسة تريزا إلى الدير، فهل كان يجهل حقاً؟

إن احتمال إرسال القديسة بربارة، أم الرعد، إلى الخارج – ممكن أن يتم الآن بواسـطة أي شـخص؟ بواسـطة مندوب الشرطة الفدرالية، لا أكثر، ولا اقل – وانتهى إلى تصفيته:

– هل تعتقد يا حضرة العقيد أن هنالك خطراً من إبعاد التمثال...؟

– طـبعاً، وبالتأكيد، وأنا لست رجلاً أمزح بأشياء جدية. وأعتقد أيضاً، أن الـوقت لم يتوفّـر بعد حتى يأخذوه إلى الخارج، ولا بد أن يكون التمثال مخبأً في مكـان ما من المدينة. يجب أن يتم كشفه، خلال أربع وعشرين ساعة إذا أمكن. سأضـع رجـالي في الميدان حالاً، وسأبدأ بالتصرف فوراً: سنراقب نقاط خروج الباصـات والـسيارات، والطرقات، والرحلات الجوية. إن لدينا مقاييس التمثال، وسـنفتش كـل ما يمكن أن نشك فيه، وسنفتح أية حقيبة أو صندوق قادر على استيعابه. اذهب واسترح، ودع لي الأمور؛ سأبقيك على علم بتطور التحقيق.

وعندما وقف ليرافق دون ماكسيميليانو حتى باب الردهة، أسرّ إليه بآخر سر عجيب ومثير للتساؤل:

– هـل تعـرف إلى أيـن يذهب المال الذي يستحصل عليه من مسروقات الكـنائس، وعلى الأخص العملات الأجنبية الآتية من الخارج؟ ألا تعرف؟ سأقول لـك: إنـه يذهب إلى الانحراف، إلى الإرهاب، إلى حرب العصابات، إلى البطيخ المهتـرئ الأخـضر من الخارج، والأحمر من الداخل، يعني إلى الاشتراكيين. هل تتعجّب؟ أستطيع أن أعطيك التفاصيل، والبراهين القاطعة، ولكني لا أفعل هذا حتى لا أضلّل التحقيقات التي بدأنا بها.

وضع يده الثقيلة على كتف الكاهن

يوجد عدة رجال دين معاضدين للاشتراكيين، ولست أقول لك خبراً جديداً، والأمر معروف.. بالنسبة لي، بالنسبة لنا، نحن المسؤولين عن نظام البلاد، عن الأمن القومي، نعتبر هؤلاء الكهنة لصوصاً وهم أسوأ من الاشتراكيين. فهم، بالإضافة إلى كـونهم أعداء، فإنهم خونة – وأعاد تكرار الكلمة، مطعوناً، وواضحاً في قوله: – خـونة! ولكننا سنجهز عليهم، وسنجهز على الاشتراكيين، كل هذه الطغمة من المنحرفين. سنجهز على الجميع.

كأنمـــا لم تكفـــه الارتباكات، والقلق والقرف الذي تستهلكه، فقد أحسّ الدون ماكـــسيميليانو بالـــبرد في خصيتيه: إن المودّة التي سادت أول اللقاء قد تبخّرت الآن وأفـــسحت المجال لمناخ نفسي ضاغط من الإنذار والتهديد، وها هو العقيد، فجأة، قد ارتـــدى رداء القبـــضة الحديدية التي كانوا يتكلمون عنها. وبضغطة خفيفة من أصابعه الحديدية على كتف مدير المتحف النحيلة، فإن العقيد راوول أنطونيو باريراس – وهو اسم ذو شهرة سيئة – قال، وهو يحدِّق في عيني الدون ماكسيميليانو:

– إني أعـــرف كل شيء عنك، يا محترم. كل شيء! أعرف أنك إذا كنت لا تـــساند بقوة حكومتنا الوطنية، فأنت أيضاً لا تحاربها، وتحتفظ بنفسك على هامش السياسة، ولا تتآمر ضد الثورة، ثورتنا المجيدة في عام 1964 التي أنقذت البرازيل من الاشتراكية. ابقَ بعيداً عن الانحراف، وهذه هي النصيحة التي أمنحك إياها.

لطف صوته، وأرخى أصابعه، وابتسم بشفتيه وعينيه، وعاد كيّساً كما كان، ومواطناً متميزاً:

– شكراً لزيارتك، وقد سررت جداً بمعرفتك شخصياً وبالمحادثة معك.. ومدّ يـــده إلى الـــدون ماكسيميليانو: – امضِ بسلام، وعما قريب ستبلغك الأخبار، الأخبار الجيدة: اعتمد علينا.

وأمـــر جندياً لمرافقة المثقف الثرثار، وحمل محمل القديسة. إن المثقفين صنف سيئ من البشر.. – بصق العقيد فوق الإسمنت، وفرك البصقة بحذائه.

صاحب السماحة السيد مساعد الكاردينال

إن اجتياز طريق الجلجلة، التي كتبت على الدون ماكسيميليانو في ليلة الآلام تلـــك، بدأ بلقائه مع شخص المونسنيور المقاتل، والمؤثر، رودولف كلاك، المطران المساعد في أبرشية باهيا. كان الحوار الطويل باللغة الألمانية، اللغة الأم للمحاربين.

بعدما أرسل إديميليوه إلى المتحف، فإن المدير المرتبك راح يجد من الميناء باتجاه مقـــر الإقامـــة الكاردينالـــية، في كامبو غراندي. كان عليه قبل أي شيء أن يُعلِم الكاردينال ويقرِّر معه الاحتياطات التي يجب اتخاذها، وطلب النصيحة منه والبركة. ان صـــاحب النيافة كان قد أبدى اهتماماً حقيقياً بنجاح المعرض، وكانت وساطته فعّالة لإعارة التمثال.

في كامبو غراندي علم بأن الكاردينال كان قد رافق عميد الجامعة إلى برازيليا، في محاولة للحصول من السلطات المسؤولة على إلغاء، أو على الأقل تعديل قرارات العقوبة الاعتباطية التي اتخذت ضد الطلاب الجامعيين بسبب الإضراب العام: وذلك بسبب إضاعة السنة بكاملها على الجامعيين.

وبغياب الكاردينال فإن الدون ماكسيميليانو اتصل هاتفياً بالمطران المساعد، الشخص الثاني في الأبرشية، طالباً منه مقابلة فورية لأن الموضوع غاية في الأهمية. وإذا كان حقاً بهذا القدر من الأهمية، فبإمكانك أن تأتي، إني أنتظرك، وافق صاحب السماحة.

ألماني مثل الدون ماكسيميليانو، وهنا تنتهي، وتذوب في الجنسية الأصلية كل وأية هوية بين رجلي الدين. وأكثر من هذا، فهما قطبان متضادان، ماء ونار، ملح وسكر، بيض وقشر البيض.. إن المتحفي ضعيف وطويل، شاحب اللون، أنيق، وخبيث. أما اللاهوتي العنيد فقوي البنية، صلب الخلق، ضخم الجثة ودموي.

وكانا يتعاملان بحذر وحفاوة ظاهرية، إذا التقيا نادراً، ويوافقان على العقوبات القاسية. وكان هنالك من يضيف إلى خبث دون ماكسيميليانو صفة وصفوا بها المثابر دون رودولف كلاك بـ "لوفيفر الفقراء" بمناسبة إصداره جزءاً جديداً من كتابه اللاهوتي – وهو بأربعة أحجام – وفيه يحلّل ويدين تعدد الآلهة والهرطقة، مدافعاً عن طهارة الإيمان، وصحة العقيدة. وكانوا يقولون إن دون رودولف قد عُيِّن مطراناً مساعداً للموازنة في اختيار كاردينال باهيا الجديد، بريماز دو برازيل، المعتبر متعاطفاً مع التطلعات التقدمية لفئة من رجال الإكليروس – وتدعى كنيسة الفقراء – حيث يشار إلى الجانب الاجتماعي والسياسي: وفيما هو متعلق بالمسائل العقائدية، فإنه كان يميل إلى المحافظين ويساند التقليديين. وكانت هذه تناقضات شائعة في الأوساط الدينية الموزعة بين دعم بؤس السكان وفروض وأسرار العقيدة، وبين الإصلاح الزراعي والقداس باللغة اللاتينية. ولكن دعونا نتجاوز هذه الماورائيات التي لا تصلح لهذه الصفحات التشكيكية – وعذراً للكلمة البذيئة.

كانوا يقولون أشياء كثيرة، وليست دائماً ممتعة، وكان الدون رودولف يتظاهر بعدم الإصغاء ويستمر في سكة التعذيب: مقالات، وتحقيقات، واحتفالات

دينية، ومواعظ، وتوجيهات عبر الإذاعة. وكان يستعمل الإرسال الإذاعي بإصرار لأن المـذياع هـو وسيلة الاتصال الأكثر شعبية. ومن نافذة غرفته، في أعلى دير. الأرسـلوناس، حـيث كان يقيم، تعوّد على التأمل في منظر مدينة باهيا - مدينة باهـيا؟ لا، بل مدينة المخلّص كما يسمّيها دون رودولف. جميلة بلا شك، إنه لا ينكـر الحقيقة، ولكنها مسكونة بكفرة ومتصوفين وهم في غالبيتهم من أصحاب اللـون الأسود الذين لجهلهم بعلم الأجناس وثقافة الجنس الآري والثقافة الغربية، كانوا يدنّسون الشريعة ويخرّبون الإنجيل ويمزجون بين ألوان قوس قزح؛ وفي فراش الحب غير الشرعي، كانوا يمزجون بين أصناف دم الأجناس المختلفة، وبين الآلهة.

كان من الضروري والملحّ فصل القمح عن الزؤان، والخير عن الشر، والأبيض عـن الأسود، ووضع حدود، ورسم خطوط فاصلة. ومن المؤسف أن يحتفظ بكل هـذا في صـدره للمثل الذي لا يضاهى، لأن دون رودولف لم يكن يتجرّأ على إعـلان الحقـيقة، ولأنه لا يقيم في الوسط غير المناسب بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وانهزام ألمانيا: لقد التجأ كمال العالم إلى أفريقيا الجنوبية!

الخاتم الرسولي

تمّت المحادثة باللغة الألمانية ما جعلها أكثر ثقلاً وغموضاً. وبعدما أصغى، دون أن يقاطع بكلمة التقرير الدقيق الذي ألقاه مدير متحف الفنون الدينية، فإن التعليق الأول الذي قام به دون رودولف كلاك تركّز على تصريح إديميلسون:

- انظر جيداً يا دون ماكسيميليانو، إلى ما يقود إليه المزج بين المقدسات: إنه يقود إلى انهيار الروح، إلى الحماقة. إن مساعدك ذاك، اعذرني إذا قلت لك أحمق.

بلع دون ماكسيميليانو ريقه صامتاً. لم يكن في نيّته مواجهة الأعلى رتبة منه، ومناقـشة أطـروحاته، وإثارة نيّته السيئة المعتادة: إن المطران المساعد لن يغفر له تقولات الاستقلال الفكري واللسان السيئ. إن الوضع يقضي بالتماسك والقبول. فأطرق برأسه.

ومستفيداً من تلك اللحظة النادرة، فرك دون رودولف بيديه، وأغمض عينيه، وتكلم بهدوء، متلمظاً بالمقاطع اللفظية، وهو يقوم بعملية تقطير السم نقطة نقطة:

– كنت قد حدّثتني عن.. عفواً، كيف كانت الجملة؟ أجل، تذكّرت! فرقة ملائكة المتحف.. هل كان هذا ما يقولونه؟

بلع دون ماكسيميليانو "على الناشف"، وأجبر نفسه على الصبر، وأحنى ظهره، ثم تابع دون رودولف، لا يكلّ ولا يملّ:

– اعتقدت أنهم يشيرون بهذا الكلام إلى المقتنيات الكنسية، إلى الملائكة الحجرية والخشبية.. كنت مخطئاً.. الملائكة إذا هم الموظفون لديك.. وبدّل من لهجته: – إنهم كانوا قديرين على الأقل، لا عجزة.

ودون أن يغيِّر جلسته – إن يوم الثأر قد جاء، والسيد المطران لن يخسر إذا انتظر – فإن الدون ماكسيميليانو، أشار بيده:

– نستطيع أن نتكلم عن موظفي المتحف في أية مناسبة يرغب سماحتكم، وسأشرح المواد القانونية التي تناولها التعاقد، وهو تعاقد قام به العميد ولست أنا. ولكني الآن أرغب في أن تنحصر مناقشتنا في مشكلة اختفاء تمثال القديسة بربارة.

ما قيل تمّ عمله: المطران المساعد كان خبيثاً، ولعيناً، ولكن ليس أكثر منه حرصاً ومسؤولية فيما هو متعلق بالعقيدة وأملاك الكنيسة. وبإصبعه حيث يلمع الخاتم الرسول لمس كتف الراهب المنحني:

– إنك على حق، إن الموضوع خطير، فدعنا ندخل في الموضوع.

وباتفاق مشترك وضعا خطة عمل كان دون رودولف يملي فيها التكتيك والاستراتيجية، ويحلّل كل خطوة يجب القيام بها، وبدا أكثر فعالية لأنه يحاول أن يحلّ مشكلة لا يقع عبئها على الأبرشية بل على الجامعة الفدرالية التي تعود إليها ملكية متحف الفنون الدينية الذي أسّسه العميد المتوفي الرائع حقاً إدنمارد سانتوس.

فيما هو متعلق بالقس والراهبة فإن المطران المساعد سيهتم بنفسه بالأمر، ولا يجب الكلام عنهما، ويجب على الدون ماكسيميليانو أن يتجاهل وجودهما تاركاً للشرطة أن تكتشف الأمر بواسطة طرف ثالث: وهكذا سيكون هنالك الوقت الكافي للسلطات الإكليريكية لتصغي إليهما.

– القس أعرفه، وجاء بطلب مني، ولديه موعد معي غداً صباحاً في المطرانية. ربما تكون قد سمعت عن القس إبيلاردو كالفاو، قس بياسافا، في الداخل، قبل مدينة كونكيستا. ألا تعرف من هو؟ إنه من غزا أراضي العقيد جوا وزينيو كوستا

علـــى رأس عصابة مسلحة وأوجد مشكلة لا تزال تسبِّب لنا الصداع حتى اليوم.. من الأفضل إبقاؤه بعيداً عن الشرطة أطول فترة ممكنة. أما الراهبة فلا أعرفها ولكن من السهولة تحديد مكانها.. هذان الاثنان يبقيان ضمن مسؤوليتي.

ونصح دون ماكسيميليانو بالتفتيش الفوري، ودون إضاعة دقيقة واحدة، عن سكرتير الدولة لشؤون الأمن والعقيد الممثل للشرطة الفدرالية: وكانت نصائح دون رودولـــف تـــبدو أوامـــر أكثر منها نصائح. هو نفسه تكلّم مع السلطتين هاتفياً، وطلب ونسّق اللقاءين. وتوقف طويلاً أمام ضرورة إبقاء التحقيق محاطاً بأكبر سرية ممكنة: فإذا شاع النبأ سيكون هنالك ارتباك شيطاني. هل فكّرت في ردة فعل إدارة الإرث الكنـــسي التاريخي؟ إن الدون ماكسيميليانو قد فكّر وخاف، ولكنه خاف بنوع خاص من ردة فعل كاهن سانتو أمارو.

سانتو أمارو؟ مع الارتعاشة التي اعترته فإن دون رودولف كلاك أحسّ أيضاً بالقلـــق. إنـــه يعـــرف شراسة وسوء تربية الأحمق، الأثول، الوقح، وعظم الرقبة الجـــارح. كـــان قد حاول بسيدة الطهارة أن ينظِّف الاحتفال من الرذائل، ومن الممارسات الداعرة التي ترافقه، ولكن سمع رفضاً قاطعاً بـــ "لا" جافة وغير موقرة: من يحتفل بالقديسة هو الشعب. إن سيادتك ستسمع الكثير وتشعر بالسوء من هذه التعاليات القاسية.

لم يكـــن ممكـــناً عدم الإعلام عن الحدث، بل كان ممكناً تأخير التبليغ، وربما تجنُّبه، وليساعدنا الله:

– من الأفضل ترك الأمر إلى الغد، وربما كان هنالك حلّ لهذه المشكلة المقرفة قبل منتصف النهار.

لمـــرة واحـــدة في الحياة انسجم الدون رودولف والدون ماكسيميليانو موسيقياً، أدبـــياً، وبالعزف على أوتار موحدة النغمات. استعجل المطران المساعد خاتمة الطرح، وكانت ساعة اللقاء المعنية لمقابلة مدير الشرطة قد اقتربت ليتمّ استقبال مدير المتحف:

– أُطلبْ الإسراع والتكتم، وبلّغه قلقنا.

إنها مهمة دبلوماسي، أعلن دون ماكسيميليانو:

– سأرسل إلى سماحتك نسخة من كتاب ألّفته وسيتمّ توزيعه في المعرض. إنه ثمـــرة بحـــث طويل ودراسة مضنية، وأعتقد أنني سأتمكّن من إقفال السجال المتعلق

بتمثال القديسة بربارة أم الرعد.. تظاهر بالتواضع: – إنه ليس نصراً لي، بل للكنيسة.

أجاب دون رودولف بأنه على علم بالكتاب وأهميته، وشكره على النسخة – لا تنسَ التوقيع – وكونه لا يريد أن يكون متخلفاً في معرفة مادة علمية ثقافية، فإنه استدرك مودّعاً:

– لو كنا أمام ظهور الإله لكان بالإمكان التحدث عن التجسد. ولكن كون المسألة متعلقة بالاختفاء؛ كيف تقول؟ كأن الكلمة تبدو لي مشرفة. إنه تشريف القديسة بربارة أم الرعد. كيف ترى الأمر يا دون ماكسيميليانو؟

استعمل الكلمة الصحيحة دون أن يعرفه هو، ودون أن يعرف دون ماكسيميليانو حقيقة المطران الذي كان يضحك فوق جثته متشفياً. أحنى رأسه، فرفع دون رودولف يده وباركه. في الإصبع لاح الخاتم الرسول علامة الدرجة والسلطة التسلسلية.

المحمل

الطابق الأول من دير القديسة تريزا الذي تحوّل إلى مقر متحف الفنون الدينية التابع لجامعة باهيا الفدرالية كان مضاءً عندما، لدى منتصف الليل، أوقف دون ماكسيميليانو سيارته الفولكسفاغن الصغيرة، وبمساعدة البواب، سحب المحمل من فوق المقعد الخلفي.

بإدارة المهندس المدني جيلبربرت شافس الذي عرّض نفسه للمساعدة في إعداد تصميم المعرض، كان يعمل مساعدان من المتحف – زنجيان، ملاكان من حاشية دون ماكسيميليانو وهذا تعبير ابتدعه دون رودولف: دون رودولف هذا، لا فائدة منه، إنه جبلي بروسي غليظ، ذو لسان أفعى وتربية رديئة – يضعان التحف في الغرف التي خُصِّصت للمقتنيات الكنسية الفنية. حيّا دون ماكسيميليانو جيلبربرت، وسأل عن صحة السيدة سونيا، وإذ رافقه الحاضرون بدأ بالمعاينة. توقف أمام المكان المخصص لتمثال القديسة بربارة، أم الرعد. وأمام نظرة المهندس والموظفين اليقظة، تأخر دون ماكسيميليانو في النظر إلى المكان.

– هل نضع التمثال الآن يا معلم؟ أين هو؟

– الآن؟ لا. سنضعه فقط بعد غد، وعدة ساعات قبل الافتتاح. وذلك بغية تجنُّب ظهور أناس يريدون رؤيتها فيزعجون عملنا. – وأكمل كلامه ليمنع أية اعتراضات: – هنالك أشخاص لا نستطيع أن نمنعهم من الدخول؛ الأفضل هو تجنُّب أية زيارة مسبقة. – وحاول الابتسام، فتمكّن: إن القديسة بربارة، محفوظة جيداً.

– أين وضعتها يا معلم؟ في الكنيسة؟

– كلا. بعيداً عن هنا، وفي مأمن معين.

كان جيلبربرت يتأمّل في المحمل الذي وضعه البواب فوق القاعدة، ويدرس تفاصيله:

إن المحمل بحدِّ ذاته عمل فني، وثمين، إنه يستحق أن يعرض.

– في معرض أشغال يدوية، هو، بلا شك، عمل فني – إبداعي في الحقيقة: ولكن في معرضنا هذا، لا يستحق. – واستدار دون ماكسيميليانو نحو البواب، وأمره: احتفظ به في المستودع، يا ألميريو، بغية استعادته مع التمثال.

وإذ تبعه المساعدون الثلاثة، فإنه طاف كل الغرف، واعتبر أن الترتيب متقدّم. وأطرى العمل، ولكن بينما هو يمشي، طلب بعض التعديلات، واستبدل مكان الصليب بمكان لجليس، وصحّح وضع تمثالين كانا معروضين، وطلب نقل منبر إلى الصالة الكبرى. فقال له أحد الفتيان:

– نسيت أن أخبرك بأن كاهن سانتو أمارو اتصل بك ثلاث مرات. في المرة الأولى سأل عمّا إذا كان المركب الشراعي قد وصل، فأجبته بالإيجاب وقلت له إن الأخ المعلم قد ذهب إلى المرفأ ليأتي بالقديسة. ثم عاد واتصل من جديد، مرتين. يريد أن يعرف ما إذا كنت قد عدت. وترك رسالة يطلب فيها من سيادتك الاتصال به هاتفياً فور وصولك إلى هنا.

– أصبح الوقت متأخراً جداً، لقد تجاوزت الساعة منتصف الليل.

– قال، لتكن الساعة مهما تكن:

يمكن الاستفادة من مرحلة الصمت، هنا، لاطلاع القارئ على أن كاهن سانتو أمارو كان يدعى الأب تيوفيلو لويس دي سانتانا، ولكن الجميع كانوا ينادونه بالأب تيو، والسيدة مارينا، خادمة البيت، كانت في السر والخصوصية تناديه تيتيو.

استأذن جيلبربرت شافس، وقبل الشابان بإيصالها فذهبا معه، بينما بقي دون ماكسيميليانو وحيداً بين الصور، وعاد بخطوات وئيدة، تأخر أمام كل تحفة فنية. أنه عرض استثنائي، وفي مناسبات نادرة في البرازيل يتمّ عرض بهذا الثراء: تحف عديدة، وكل واحدة فريدة المستوى. في أماكن الشرف، كانت قد وضعت منحوتات للأخ أغسطينيو دا بييدادي، وأغوسطينيو دي جيزوس، والمسيح على جبل الزيتون، الذي بدا مأساوياً، باهراً، وتمّت استعارته من متحف الكرملي. فقط في ميناس جيرايس وبسبب ميراث أليجادينيو الفني كان ممكناً تحقيق معرض شبيه بثراء هذا. أحسّ دون ماكسيميليانو بعينيه مغرورقتين بالدمع: إن ذلك عمله هو، ثمرة تعبه، ومعرفته، وحبه. وعندما ألقى بنظرة على المكان الفارغ المخصص لاستقبال القديسة بربارة، أم الرعد، انقبض قلب الراهب.

بالنسبة إليه، فإن معرض الفنون الدينية في باهيا الذي لا مثيل له، المؤهل، نتج عنه الوهن، والفشل، في كارثة كانت تشير إلى نهاية اختصاصه، ونهاية حياته. لا، لم يفكّر في الانتحار ولكنه فكّر في الاستقالة وفي الرجوع إلى الغرفة والتنسك في مركز عبادة سان بنيتو.

الاستراحات

جائع، لم يأكل شيئاً منذ تناوله ظهراً، غداءه المتواضع - كأس حليب، وعجة مع الجبن صغيرة، وقطعة ماماو. لقد بدا مرهقاً من عمل النهار ومرارة الليل. تائهاً، فإن دون ماكسيميليانو فوق غرودن صعد السلم المظلم الذي يقوده إلى مستودعات المتحف وحيث شيّد بناء حديث لاستراحات المدير: غرفة استقبال صغيرة، وغرفة نوم واسعة، وحمام كامل، إنها زنزانة المتنسك، كان يقول، وهو يخفي ضحكته.

في الردهة، فإن الكتب التي لم تعد تتّسع لها الرفوف ملقاة على الأرض ومكتوبة بخمس لغات، ما عدا اللاتيني. وعلى المكتب الإنكليزي ذي المجرات السرية، الطابعة اليدوية، وأوراق بيضاء، وأقلام حبر، وأقلام رصاص، وممحايات - كان يستعمل قلم الرصاص لتصحيح النصوص - وقلم حبر مطعّم بالجاد هدية من الصين. في الغرفة، مقعدان وثيران من الجلد الأسود حديثان، وطاولة ثمينة ذات

حفريات يدوية، عمل وهوية الحرفي جوان دوس برازيرس؛ فوقها مزهرية تعود إلى القــرن الــسابع عــشر، بيضاء وزرقاء، جاءت من ماكاو، كانت تزخر بورود خضراء، نادرة، أرسلت له من غوياس بواسطة الراهبة العزيزة أماليا هرمانو تيشيرا: المؤرخة، وعالمة الآثار، وعالمة النباتات. حوض وجرّة من السيراميك البرتغالي، تحفة أخرى آتية من دير مافرا، وقد فرنها الفنان جوزي فرانكو، وصبغتها زوجته هيلينا: زهــور وعصافير زرقاء.. وشرشف مخملي، باذخ، يغطّي السرير الزوجي المصنوع من خشب مطعّم بالعاج.

ولم تكــن هناك أية دمغة دينية، أو صورة. على الجدران، لم يكن هناك غير صــورة فوتوغــرافية معلّقة بين زجاجين وهي كناية عن مشهد غابة صنوبر تحت الثلج في القرية في ألمانيا. وفي زاوية، وضعت فوق تحفة من زمن الاستعمار، صورة مقلّدة في إيطاليا لدافيد دي ميكيلانج، الإلهي.

دخل دون ماكسيميليانو فون غرودن إلى شقته الوثيرة، الجديرة بأعزب يحب الحياة، زنزانة الزهد، وركع قرب الفراش، وأطرق رأسه بشكل لامس معه المخمل الناعم، وصلّى، وقرع بقبضته على صدره طالباً الغفران من الله.

كبش القرنفل

كـثير مما حدث خلال زيارة يانسان لمدينة باهيا سيظل مجهولاً: أين نامت، ومع مَن لهت اللهو الطيب، وعلى أي صدر عاشق أراحت رأسها في ساعة الراحة وحلم الجميلة. ليس ذلك بسبب الظلام، بل على العكس، فإن النور كان ساطعاً، مبهراً، لا يسمح للعينين أن تريا ولا بدّ للأرض يوماً من أن تأكل.

محادثـة حميمة، همامس، وتسامر بالكلام عن الآخرين، كان هناك الكثير منها في الساحات العامة والجامعات، والمكاتب الرسمية، والمراكز الثقافية، وفي المعارض والأسواق التجارية. لغط فارغ، لا أساس له: أما الأسود الذي يرتدي الأبيض فلم يعرفه أحد. والكلام للكلام لا يكلّف جهداً ولا مالاً.

كيف حدث، مثلاً، إن الالتباس الذي عاشه أو تخيّله المصور برونو فورير وتمّ تحريـره نثراً وشعراً وانتهى إلى أن يكون حكاية شعبية كتبها وغنّاها المغني المتجوّل مع قيثارته رودولف كويليو كافا لكانتي. وليس ضرورياً القيام بتعريف مفخم لنوعية العمل الفني الذي قام بها المحترف، لأن شهرته معروفة إلى حدٍّ لا يجهلها أحد. ولكن يمكن تسجيل تفصيل صغير لم يتمّ نشره بصورة كافية: إن فورير قد تحوّل نهار هذا اليوم إلى صاحب الامتياز لدى الفنان كاريبه الذي جاء عمله توثيقياً لعمل يعود إلى مئات السنين. والمهم، أنه في تلك الليلة الأولى من الزيارة، واضعاً على ظهره حقيبة مليئة بالأفلام ونسخ الصور، ومعلقاً إلى كتفه جهازي تصوير لم يكونا يرافقانه، فوصل برونو فورير هذا حوالى منتصف الليل إلى بـيت المعلم كاريبيه ليسلّمه المواد الموجّهة إلى التاجر اللندني - وهي كناية عـن مجمـوعة من خمسة وأربعين رسماً هي في الحقيقة تزوير للوحات الأكثر حداثة، وضمنها لوحة إيغواتيمي. كان برونو منكبّاً على قطعة القماش الأخيرة، يعالج عليها الرسم الأخير، تعباً، وكان قد عمل حتى تلك الساعة المتأخرة لينهي ويـسلّم الطلـب في التاريخ المحدّد - إن الإنكليزي سيستقل الطائرة في صباح اليوم التالي.

كـــان قـــد وجـــد البيت خالياً: لأن كاريبيه والسيدة نانسي كانا قد خرجا للعـــشاء في بيت المصرفي فيكتور غرادين: كانت غراسي قد أنهت قولبة سلسلة من قطـــع السيراميك، ورغبت في اطلاع النخبة الفنية عليها قبل أن تضعها في الفرن: بالإضـــافة إلى كونها مليونيرة كانت محترفة بارعة.. وغير قادر على الانتظار مع ما يعرفه من عادات الزوجين اللذين لم يكونوا يقفلان الأبواب لأنهما لم يكونا مؤمنين بوجود اللصوص – فإن برونو دخل إلى الصالة الكبيرة.

كانت دارة كاريبيه، في بوافيشتا دي بروتاس، تبدو متحفاً أكثر منها مسكناً، بطبـــيعة نوعية ما كان معروضاً فيها. ويكفي تذكر الجدران الإسبانية التي تعود إلى ســـتمائة ســـنة والتي تشغل حائط صالة الاستقبال. ويحافظ عملياً على اللوحات الاثنتي عشرة الأصلية لميجياس، الزوردو، وواحدة منها فقط، هي السابعة، تعرّضت لـــشيء من التلف. لوحة رائعة، يعود الفضل في وجودها في البرازيل إلى عصبة من الأصـــدقاء اشـــترك فيها تجار تحف، وكتّاب، وأصحاب شركات كبيرة ورجال جمـــارك – لـــويس فورجاس تريفيروس، نونو ليما دي كارفاليو وأخوه الكاهن، والـــصحفي القديـــر جوزي كارلوس دي فاسكو نسيلوس بالإضافة إلى موظفي جمارك ثلاث دول لن تذكر أسماؤهم لأسباب أمنية واضحة.

ليس الحال هنا مناسبة لتسجيل الأعمال الفنية التي تشكّل إنتاج الفنان، ولكن مـــع النيّة في إعطاء فكرة، وإن شاحبة، عن أهمية المجموعة، يستحق الأمر الكشف عن بعض المقتنيات، وإن بواسطة السمع.

في المحتـــرف، مـــنحوتة الآلهـــة اليونانـــية التي تمّ الحصول عليها من مجموعة الباوليـــستي جـــوان إغريبينو دوريان مقابل زيتية وثلاثة رسوم مائية من صنع رب البيت، وكذلك منحوتة القديس جورج الكرواتي، من الغرانيت، وكلتا المنحوتتين العملاقتين استوت هناك. وفي غرفة الطعام، ثلاث لوحات لقديسين بتوقيع تواليتي دي فلـــورا في أواسط القرن السابق، وهنالك أيضاً الأيقونات: الروسية، الماكدونية والبلغارية، وهذه الأخيرة هي النسخة الأصلية لرسام الأيقونات كراستر زاخارييف دي تـــريافنا، ومؤرخة في عام 1824: القديس جورجيوس والقديس ديمتري، معاً، وبالألـــوان الحمـــر والبـــيض والذهبـــية. كـــيف جاء هؤلاء القديسون القدامى الأرثوذكس من أوطانهم البعيدة وهم ملكيات غير قابلة للتصدير، ليتوقفوا في حي

دي بـــروتاس، في باهيا؟ يبقى السؤال بلا جواب: لن يكون الوقع جيداً، وفيما هو مـــتعلق بالفنانين ورجال الإكليروس لن يتمّ الحديث عن عمليات السلب، وفضح المكائـــد، والاشتراك في الجرائم، والتزوير، والتهريب: إنها مسألة مثيرة للاشمئزاز. وكاريبيه لا تنقصه الجرأة والتجربة وفقاً لما أفاد به لاحقاً مندوب الشرطة الفدرالية: السلطة الموثوقة.

وكذلك، وبطرق غير مشروعة، جاء من البلاد الغربية المنبر – التحفة، الذي اكتـــشفه الرســـام في كهف المياه الآسنة في قصر الجدة السالفة للسياسي الباهياني مانـــويل كاسترو. ووضع كاريبيه السكر في فمه، والعسل في كلامه، وجاء بالمنبر ضـــمن الأمـــتعة ليـــسلّمه إلى الحفيد البرازيلي المتميز كهدية متواضعة من أسلافه الليوزيثانيين: أما كان هو نفسه ليثور على المكائد لو وظفت ضده؟ وإذ غدا ضحية نوبة من فقدان الذاكرة، فقد نسي حامل المنبر أن يسلّم الهدية المتواضعة، ولا يزال كاســـترو حـــتى الـــيوم يجهل مكان وجود المنبر.. وكافأه لتسليته معطياً إياه أنباء طازجـــة ومفـــصّلة عـــن أهله الذين يجهلهم وراء البحار وهم وجهاء، مضيافون، لطفاء.

ولم يكن أحد يشعر بنفسه مهاناً أمام الملعنات: مشاهد من حياة مريم القبطية كانـــت تكـــسو داخل الواجهة رسمها فنان متوسطي عبقري – بل ساذج صحّح الأســـتاذ جوان باتيستا خلال غداء الطعام المصنوع بالزيت احتفالاً بميلاد زوجته الـــشابة نانـــسي. مشاهد فضولية، مخادعة، ليبرالية حتى يكون كل شيء قد قيل. المـــشاهد كانت تعرض المباركة كفتاة رائعة الحسن، عارية كلياً، ثم تعود المشاهد لتبرزها عجوزاً متلفة، مرتدية العباءة الصوفية تعذّب بها نفسها ندماً.

عـــندما أشـــعل أضواء الثريا الكريستالية ليضع على الطاولة الفنية الحقيبة مع إعادة رسم التحف، والسلايدات، بدا برونو متفاجئاً عندما وقعت عيناه على تمثال قديـــسة في داخل الواجهة، وبقول أدق على قديسة بربارة غريبة: إنه عمل رائع؛ رائعـــة لدرجة أن كاريبيه وضعها هناك دون أن يكترث بأنها يمكن أن تعيق منظر المـــصرية في سلـــسلة المشاهد التعبيرية التي كان قد علّقها هناك. متى وأين حصل كاريبيه عليها؟ لم تكن قطعة فنية يمكن العثور عليها في محلات بيع التحف والأشياء الأثرية، ومع كل هذا لم تكن موجودة هناك، مساء البارحة.

اقتـــرب من الصورة اندهاشاً وإعجاباً: ودون أن يكون اختصاصياً فإنه كان يعـــرف مــا فـــيه الكفايـــة عن التحف القديمة، وكان يعيش محاصراً بأصحاب المجمـــوعات، وقلمـــا مرَّ يوم لا يأخذ فيه صورة فوتوغرافية لعقود وأساور وصور وأثاث – إنه الآن أمام هدف مثير: وبينما هو يفتّش عنْ تعبير "أبراكادا برانتي" فكّر للتعـــبير عن انفعاله، فيما إذا كان يعرف معنى الكلمة، ولكن لم يكن يعرفه، فأعاد التفكير وقال معبِّراً عن دهشته: "زك! وزك!".

كـــان لديـــه الانطباع بأنه رآها سابقاً. أين رأيتها، يا إلهي، في السماء؟ في الـــسيارة، في طريقه إلى بوكادوريو، حيث كان يقيم؛ تذكّر بومضة ومضتها آلهة الذاكـــرة، فـــتمكّن من تحديدها: إنها القديسة بربارة، أم الرعد، التمثال الشهير في مطـــرانية سانتو أمارو. كيف تكون، بحق الشيطان، قد وصلت لتقف على واجهة العرض، في غرفة ضيوف كاريبيه؟

حـــين وصـــل إلى البيت، أيقظ غاردينيا، وأخبرها بما رآه وطلب رأيها.. مع كاريبيه لا تعرف كيف تحدث الأمور، أجابت. ألا تتذكرين لوحة جنر التي سرقها من مكتب ميرابو، في أكثر ساعات العمل اكتظاظاً، وأمام الموظفين، فلم يره أحد؟ مـــع كاريبـــيه كل شيء يمكن أن يحدث. ولكن هذه السرقة للقديسة بربارة، أم الرعد، من مذبح سانتو أمارو، أعتقد أنها تجرّؤ يفوق كل حدّ؛ هل جننت؟ إني لا أستطيع أن أصدِّق.

فيما بعد، وعند الفجر، فإن برجنتينو كوارتا سيري دخل إلى حديقة البيت ودفـــع بـــاب مشغل كاريبيه. كان هذا مزمعاً على امتلاك ثروة الشرق: ففي الـــسجن، وخـــلال محاضـــرات كانت تلقى على المساجين لتحسين مستواهم الثقافي، سمع من المعلم كلاوديو فيغا تأكيداً، لم يضعه على محك الشك، يؤكد أن في محتـــرف كاريبـــيه في أركـــادي غووا، كانت ثروة الشرق مخبأة. وكان بـــرجنتينو يطـــري نفسه بأنه لم يكن أميّاً لأنه أكمل الرابع تكميلي ولم يكمل الـــثانوية لأن والده توفي وكان عليه أن يتحمّل مسؤولية النضال: وجازف مع ذلـــك بالـــتخلص من ساعات العمل المحدّدة، وضرائب الدخل وأرباب العمل الـــذين يجـــب إطاعـــتهم. وبالإضافة إلى كونه مثقفاً، فإن كوارتا سيري كان فردانياً.

ومـــسحوراً بكنـــز علي بابا، لم يأخذ برجنتينو بعين الاعتبار إلا المعلومة التي زوّد بهـــا الأستاذ فيغا المساجين في حديثه الموثق، وأحسّ بشيء ما يكدّره: رئيس إشـــي دو أوبو أفونجاً كاندومبليه الأم أنانينيا والأم السيدة، وأتباع مارتينيانو إليزيو دو بـــونفين، أديسون كارنيرو وبيار فاتومبي فرجر، فإن كاريبيه هو واحد من آلهة باهـــيا الاثني عشر، ويدعى أوبا أونياه شوكون، وفي منبسط أرض الآلهة يجلس عن يمين الأم ستيلا دي أوشوسي: "ألايالوريشا".

بعينيه المتعوّدتين على الرؤية في الظلمة، وهذه من ضرورات المهنة، فإن الزائر غـــير المنتظـــر لمح النصف الأسفل لزنجية عارية تنام على المقعد الخشبي. استدارت شـــكلاً بوضـــع قدم مقابل أخرى: إنها الروعة! بدت له إلهة ولكنه لم يعرف أنها كانـــت أويـــاه – يانسان – فكيف كان ممكناً أن يتخيّل؟ وعلى وقع التنفس فإن صدرها الصلب يرتجف وكان مداها الجسدي أكبر من السرير غير المتوقع: فأحسّ كـــوارتا سيري بالاشتعال فهو لم يرَ قط هذه التعددية من الإثارة في جسد امرأة. وقد اجتذبه أكثر ما اجتذبه شفتاها الكوكبيتان المنفتحتان عن أسنان حادّة، والشعر السارح حول فم الرحمة: فيا للروعة التي لا تعادلها روعة!

وإذ عـــصف بـــه الشبق، نسي برجنتينو كوراني سيري أؤيا دي غووا كنـــز الشرق واستعدّ للعمل: إن هذه النماذج من النساء اللواتي يقفن أمام الرسامين هن ذوات فـــراش ســـهل، ولا يتسببن في ضجيج، ولا يثرن الفضائح لأشياء صغيرة. بالإضافة إلى تلك القناعات، فإن كوارتي سيري كان واعياً قيمته كرجل: لقد كان يعتبر نفسه عشيق السمراوات والشقراوات في مدينة ماتاتو دي بروتاس.

لم يكـــد يمسّ السيدة ويستشعر الحرارة ونزق الفم وغيره من متعه الآلهة، وفي اللحظة نفسها التي شهر فيها عدته، ومن أعلى المكان الذي كان موضوعاً فوقه فإن القـــديس جورجيوس المصنوع من الغرانيت، ودون أن يترجّل عن جواده الأبيض، يتـــبعه تـــنين النار، قفز فوق برجنتينو، وصوّب الرمح إلى خصيتي ديك الجواري الرخيصات.

ســـريعاً كالفكر، وهذه ضرورة أخرى من ضرورات المهنة، وبقفزة هر، فإن بـــرجنتينو أدرك الـــباب، وهـــرول في اجتياز الدرج إلى أسفل يلحق به القديس جورجيوس وفي نيّته القضاء عليه. وإذ حوصر بنداءات التنين، وكاد يجنّ وهو يطلق

الصراخات والتوسلات لإنجاده، فإن كوارتا سيري اجتاز الحديقة وأدرك الطريق، وتوقف عن الركض في مركز شرطة الحي حيث سلّم نفسه. وفي مركز الشرطة اعتبروه سكرانَ ولأنهم كانوا يعرفونه فإن مساعد المفوض أمر بوضعه تحت "الدوش" وإعطائه حماماً بالماء الباردة.

أما فيما هو متعلق بالمصور الفوتوغرافي فورر، كونه في اليوم التالي قد أطلق العنان للسانه، فقد استدعي لإعطاء إفادته أمام المفوض باريرينيا في مركز شرطة مكافحة السلب والسرقة. وكونه قرداً عتيقاً فإنه لم يؤكد الشائعة التي لا أساس لها: وإذا كان هذا القول على ألسنة الناس فالمسؤولية لا تقع عليه. الويل له: إن من أعطاه فرصة العثور على تمثال القديسة بربارة، أم الرعد، قد أعطاه السعد في بيت كاريبيه أو حيثما شاء، ليلتقط صورة على مزاجه، ويملأ فرحه، ولم يكن يريد أكثر من ذلك. إذا اكتشفت أين هو التمثال، فأرجو أن تتصل بي هاتفياً، يا حضرة المفوض، وسآتي راكضاً مع آلة التصوير العلمانية.

وبينما يجلس في ظل رطب على أحد المقاعد في حدائق أكاديمية الآداب في باهيا، فإن مغني الأناشيد الشاعر كارلوس كونيا، وبعدما سمع الإشاعات، اختصر اللغز بكلمة واحدة: "جيروفليه". ومن رغب في أن يعرف اللازمة، يكفيه أن يسأل الشاعر عن مفتاح اللغز.

خطبة وزواج

الوعد دين

عند إحدى مراحل هذه الأحجية التي لا تزال مستعصية على الحل، كان وعد بإزاحة طرف القناع الذي كانت السيدة أداليجزا تسدله على حياتها الزوجية، بغية رفض التجاوزات التي يفرضها الدين على زوجها دانيلو كورييا الأربعيني الحار والمكبوت، الكاتب، والأمل السابق لكرة القدم في باهيا: في يوم، أقل أو أكثر، ستتمّ دعوته للانضمام إلى المنتخب البرازيلي، كان المعلقون الرياضيون الاختصاصيون يلمحون في زمن الازدهار الكروي السابق.

وكانت ساعة الإيفاء بالوعد، ودفع الدين، في حين أن الشرطة – الفدرالية، والإقليمية، والدينية، وكل واحدة منها على حلباتها ومع نظرياتها – تفتّش عن اعتماد الدلائل التي يمكن أخذها على اللصوص فتؤدي إلى استعادة تمثال القديسة بربارة، أم الرعد. فهل يتمكّن التحريون البارعون من الكشف عن السرّ الغامض، ومن زجّ الجناة في السجن، وإنقاذ دون ماكسيميليانو من الاندفان الأبدي، مغلقاً المحبسة على نفسه مما يرى نفسه مهدّداً به؟

إن دون ماكسيميليانو مصاب بمرض رهاب الاحتجاز (الكلوستروفوبيا)، إذ كان قد ولد لأماكن العيش الرحيبة، وللمحادثة الشيّقة والمسامرة الخصبة المتناخب فيها بكؤوس الرفاهية، والمناظرات، والاجتماعات، والسهرات الأنيقة، الخاصة، والإشاعات، والانتقادات، وللنجومية في المجتمع. إنه الاسم الأكثر ديمومة وثباتاً ووقعاً في صفحة أخبار المجتمع من صحيفة "أتاردي" التي تحرِّرها جولي المحررة المعروفة بسمعتها الحداثوية، والتي تأمر الشمس والمطر.

الآن أصبحت كل النتائج معروفة، والأمل كبير في أن تكون كلها إيجابية، من تحقيقات ومباحث، بانتظار أن تتأكّد واحدة منها، أو تتأكّد كلها، ولكن، ولأنه لا يوجد، حتى الآن، شيء واحد ثابت، فإن زمر المحتالين، تفتيشاً عن القديسة، تستفيد من الاشتعال النفسي لإطلاق الكذب المصطنع، وإخفاء اللغط، والقيل

والقـــال. حـــبكات مـــن الغراميات والعشق، وأخبار مضلّلة ومشبعة بالرغبات، والارتباك، والزهو، كأنها ميلودراما ذات نهاية سعيدة.

الحالم

مـــرتدياً بـــيجاما زرقاء ذات خطوط شبيهة بخطوط البطيخ الأصفر، صفراء باهـــتة، وبصدره المشرع، المشعر، خرج دانيلو من الحمام حيث أنهى فرك أسنانه. وفي الفراش، ملتفّة بالشراشف، كانت أداجيزا مغمضة العينين.

في أمـــسيات الراحة، في البيت الريفي، وبينما هي متمدّدة قرب دانيلو على الفـــراش العريض المكسو بالحرير الطبيعي: إن إيزابيل فم الذهب كانت تتنهّد وهي تمرّ بيدها خفيفاً فوق شعر الصدر الأسود: كأنني ألمس مخملاً، وأشعر بالرجفة.. أما أداجيـــزا فإنها في مرات نادرة كانت تمسّ صدر زوجها وهي لا تعرف معنى تعابير الإحساس بالرجفة، فهذه تعابير غير جديرة بسيدة كبيرة.

رفـــع الـــنظارتين عـــن عينيه وألقاهما على المستند المتحرك، ووضع نعليه واحدهما قرب الآخر، ثم تمدّد. وقبل أن يطفئ النور، فقد رفع الغطاء، كما في لهـــيب الليلة الأولى، وتأمّل في نصف أداجيزا الذي تغطّيه بسروال النوم لتمنعه بـــأي ثمن عن الزوج. ولعل كلمة سروال أصبحت غير مستعملة، وتعبِّر بشكل مـــتخلف، "دقة" قديمة، ومن الصعوبة العثور عليها في معرض حديث للملابس النـــسائية. ومنحنياً نحو أداجيزا، طلب دانيلو – لا شيء أكثر من العادي –، ولكنها رفضت:

– اليوم، لا، غير ممكن، لقد أدّيت صلاتي.

ومع ذلك يحاول دانيلو الاقتراب، والالتصاق، والضم، ولكن أداجيزا تبتعد، وتستدير مقعوقعة، وتخبِّئ الصدر والمبولة:

– إذا كـــنت لا تـــريد أن تصلّي فارسم على الأقل إشارة الصليب. كافر.

وبدفعة منها، تدفع ذراع الزوج عنها:

– إبعد يدك من هنا. مخبول!

ويـــضطهدها دانيلو في الحلم، إن حلمه هو الاضطهاد لها.. إنه يلحّ منذ تسعة عشر عاماً، هو زمن الزواج الذي أقبل عليه.

المائع

تسعة عشر عاماً من الزواج، وعام من الخطوبة، وتفيض أشهر الحب، كلها، عشرون سنة من الحرمان. دانيلو كورييا، الخلاسي ذو الشخصية المكتملة، والطبيعة اللطيفة، الهادئ، المجامل، الذي لا يزال الأصدقاء يطلقون عليه لقب الأمير دانيلو، لا لأنه كان يجيد الركلات القوية ويسدِّد الأهداف، بل لأنه كان حسن الهندام، ومتحدثاً لبقاً؛ دانيلو هذا، كان عليه أن يلجأ إلى الملاهي والعاهرات التي كانت الأدوية الناجعة لداء من ذلك النوع.

لماذا كان مخلوق محبوب، وقريب إلى قلوب الناس مضطراً إلى التعلق وربط مصيره بذيل تنورة قاسية وبشعة إلى هذا الحد؟ خذ علماً بالسبب! إذ كان قد تجاوز الثلاثين، وأصبح على حافة الأربعين، وبالرغم من كونها كريهة فإن أدالجيزا كانت بلزاكية ذات شهية، وتمثال امرأة جميلة. عندما كانت تأخذ من خزانتها أحد فساتينها المخصصة لأيام الآحاد وترتديه لتذهب إلى قدّاس الساعة العاشرة في بييدادي، ومن ثم إلى الغداء في بيت الأستاذ أرتور سامبايو صديق دانيلو، الغني، منذ زمن المقاعد المدرسية، وإلى حفلات الرقص العصرية في النادي الإسباني، وعندما كانت تستعرض نفسها في الشارع فإنها كانت تستقطب الأنظار إلى ساقيها وكل أسفلها كأنها منحوتة اكتملت جمالاً وإثارة، وإلى مشيتها المثيرة.. امرأة بإغراء شيطاني، باهرة، كان يقول الأستاذ جوان باتيستا وهو يتأمّل جسدها عندما تظهر في الشارع إنقاذاً للإنسانية، وتهديداً بسلخ جلد حفيدتها. كان يلتجئ إلى الملاهي أكثر منه إلى العاهرات.. بين جدية وممازحة لم يكن ينقص من يشير بلهجة تقدير ومراقبة، وأغلب هؤلاء من الحساد، إلى البهجة التي كان الأمير دانيلو يخالط بها فتيات الهوى، ولمرتين أسبوعياً، في الأقل: وعند المغرب في بيوت النساء العموميات، يتمتّع.

وكان جاره ورفيقه في لعبة الزهر والشطرنج جوان باتيستا المنتمي بالقدر نفسه إلى البوهيميات، قد تعود على مبادلة دانيلو الانطباعات حول فضائل وحذاقات فتيات الهوى اللواتي كان الاثنان يعرفانهن ويقدّرانهن. لم يتجرّأ أبداً، مع كل ذلك، على أن يطرح سؤالاً كان يحرق له لسانه باستمرار: كيف يمكن تفسير العثور على المتعة في بيوت الهوى لدى من كان لديه في البيت امرأة من صنف

أداجيــزا، لو أنه، هو، جوان باتيستا دي ليما إي سيلفا، كان متزوجاً ومن سمكة كبيرة كهذه، فإنه لن يذهب إطلاقاً لتبديد المال في فراش العاهرات، ولكان سيأكل في البــيت اللحم والحسك، والأحشاء، ومعها صحن المزة، والحلويات. إن السيدة أداجيــزا، تمثال نصف مثير، ومقاعد وثيرة، وأنثى من الطراز الأول، ومائدة غنية، ووجبة شهية كاملة.

لم يطــرح الأستاذ جوان باتيستا السؤال أبداً، ولم يعرف الحقيقة بعلم أكيد، بالرغم من بعض الحوادث التي وقعت في بعض الأحيان وجعلته يشك في الأسباب التي تجعل الجار الرائع يتمادى في هذه الحياة الجنسية المبتذلة. إنه جار رائع في الرأي الموحد لكل جادة "أقي ماريا".

كانــت دامــيانا تعتــبر دانيلو قديساً يستحق معبداً وطقوساً خاصة به، لأن القــديس وحده يستطيع أن يتحمّل قرني أداجيزا الخطرين، وأفعالها الشنيعة - ولو كان الأمر متعلقاً بي لأرسلتها تنشوي في أعماق الجحيم. أما ألينا، الجارة في الجهة المقابلة، فإنها عثرت على تفسير إلهي لصبر دانيلو: إنه العقاب الذي عاقبه به الله، فيا للمــسكين. أما الزوج، ديوليندو الرقيب في الشرطة العسكرية، والفحل المناضل، فإنــه كــان ينتقد التسامح السخيف لدى دانيلو المائع. إن امرأة دانيلو قد ارتدت بــنطاله، وأخــذت بــيدها الحل والربط، تفعل ما تشاء وأكثر من هذا فإنها تفقد الجــيران صبرهم، ابنة "الغانية" هذه. لو كنت في مكانه لكنت صرخت صرختين وهويت بصفعتين ووضعت كل شيء في مكانه. مع المرأة لا يمكن للرجل أن يتردّد ويسمح لها بأدنى تجرّؤ: إذا عرض الرجل إصبعاً فإن المرأة ستمضي في أكل الذراع كاملة. معي لا يمكن أن يحدث هذا، فأنا عنيف.

ديوليــندو، فحل عنيد، وصوت يرعد، ورجل ذو أصدقاء قليلين. كانت ألينا تــصغي بصمت، في الظاهر موافقة ومتوازية، وفي الداخل هازئة من قرن الزوج، ومن كان يملك الادعاء فإنه يملك الكثير بالمقابل، وهو يملك أكبر قرنين في بريوزا.

دقيقة صمت

بطلــب من أشخاص نافذين في هذه الزمرة - الأستاذ جوان باتيستا دي ليما إي ســيلفا، الــصحفي ليوكاديو سيماس، والأمير العاثر الحظ دانيلو، وغيرهم من

ذوي الأسماء غير المعلنة لأسباب متعلقة بالسرية المتفهمة، من الروّاد المدمنين والممتنين لبيوت البغاء التي حُكم عليها بالاختفاء، بسبب تفوق الموتولات ذات الدوران السريع، وبيوت التدليك، فإن الزمرة اتخذت وضعاً لدقيقة صمت تخليداً لذكرى تلك المواقع الممتعة والرياضة المخصّصة للانشراح، وممارسة النزق.

وقد أوقدت وأطفأت توقدها في بيوت البغاء في باهيا أجيال متلاحقة من الأغنياء، والفقراء، ومتوسطي الحال، والمواطنين من كلّ المهن والعقائد، والأساتذة والطلاب، والفنانين والحرفيين، والمصرفيين وموظفي المصارف، والتجار، وأصحاب الحوانيت، والسادة من الكهنة والمتواضعين، وأصحاب المزارع، والنواب، والمشاهير من السياسيين والقضاة، وأصحاب الرتب العسكرية العالية والمراتب، والأطباء، والبيطريين، والصيادلة والمهندسين، وأخيراً، النبلاء والإكليروس والشعب. كانت تلك البيوت مؤسسات ديمقراطية وثقافية، يتسابقون إليها لتعلم التربية والعادات الحسنة، وبعضهم، بالتأكيد، كانوا يستحقون مكانة في الإرث التاريخي والفني. ولنتذكّر، بشوق وتنهدات، بيت جوزيت لاروكين، وهو كناية عن مؤسسة ذات فرعين: فرع مقفل وآخر هو صالة أدبية كان يلقي فيها قصائده الشاعر براوليو دي أبريو، وهو ناظم رباعيات ذات قوافٍ نادرة.

وتحت إمرة القيادة الأمومية لبعض البغايا العليمات، فإن فتيات الهوى كن يرافقن الزبائن، ويقدّمن لهم حلويات الموز المقطّع، وليكورات الكاكاو، والورد والبنفسج، وقد تمّ تقطيرها بفلتر ورقي على أيدي الراهبات في الأديرة. وعلى الشراشف المعطرة، كانت تتعاقب سلسلة الملذات التي لا تنتهي من الفنون والغراميات، ابتداء من الملاطفات ووصولاً إلى اللحظة العلوية التي يمتزج فيها الموت بالحياة.

كان الكثيرون منهم يأتون إلى هناك مفتشين عن الراحة، على صدور الفتيان الدافئة، تعويضاً عن الأحكام المناقبية المسبقة التي كانت زوجاتهم يمارسنها على الفراش الزوجي. وكانوا يخرجون مرتاحين، متمطّين حيوية، وقد استعادوا فرح الحياة. وبذلك الشعور كان يمكن المحافظة على التناغم الزوجي، وثبات الزواج، وقوة المؤسسة العائلية، أساس المجتمع الغربي المسيحي، والآن، نعم أيها السيدات والسادة.

إن التقدّم يكلّف غالياً: تحطيم، عنف واعتداد. ويمكن مع هذا الكشف عن النمو في التطور، والحكم على الرجل بوحشة الموتيلات، وبيوت التدليك، تبدأ معها ملذات الحياة بالانحطاط.

في المباغي، وليس من زمن بعيد، كانت فنون الإمتاع ذات مهارة فنية لدى النساء المحليات والأجنبيات – لله درّهن الفرنسيات الرومنسيات، والبولاكيات الزاهدات! – اللواتي كنَّ يمارسن المهنة القديمة مجاناً ونزقاً، كأنهن كاهنات في خدمة الآلهة وفقاً لما كان يكتبه الرواد من رجال الأدب. إن فنادق اليوم جعلت من كل شيء تجارة حقيرة كالعروض العارية والأفلام الجنسية، لقد انتهى زمن الرهافة والفتن.

ولا يمكن أن تسمِّي هذه الفنادق، فنادق دي باس إي دليكاتيس، باللغة الفرنسية، لغة الإثارة الجنسية، وخبرة الفراش، ومسائل الحب، وليس بهذا الاسم تعرف الأستاذ جوان باتيستا، أسير المباغي، على الموتيلات، وبيوت التدليك، في حدود الرذيلة والنزاع النفسي، محروماً من الرومنسية، ومن حلويات الموز، ولسيكورات الراهبات، وصالة المحادثة والشعر ورقّة الغزل. فيا حسرتاه على عام مضى!

المقامرة

بالرغم من الثناء الذي أفاض به المبجل، المفرط في الإطراء، الصحفي سيلفيو لامينيا، في صفحة "المجتمع الراقي" من صحيفة الأخبار اليومية، بمناسبة زفاف الغجرية الرقيقة أداجيزا، الوجه اللطيف من وجوه المجتمع المحلي، الهاربة من بيت شعر قصيدة للوركا، الابنة الفاضلة للمشترك، الفارس فرنسيسكو روميرو بيريز، الوجه البارز من وجوه الجالية الإيبرية إلى الظريف دانيلو كوربيا، الأمير الشعبي دانبيلو، النجم الرياضي في المراحل الأولى المزدهرة، فإن الزفاف كان بسيطاً وقد تمّ ضمن حفل عائلي اقتصر على الأهل في دارة الوالد، ودون تفخيمات كنسية. فالوضع المالي السيئ لم يكن يسمح بالمصاريف والتبذيرات المعهودة.

أما باكو نيفريرو فكان يسير خاوي الوفاض، مالياً، ومن سيئ إلى أسوأ. كان القمار قد بدّد العائدات، واستهلك الأسهم في المصرف الاقتصادي وفي مصرف

باهـــيا، ومعــه الجفاف الذي ساعد في تقليص كبير لعدد العجول. بعد ذلك كان علـــى باكو أن يبيع بسعر بخس حظيرة العجول وما يحيط بها من مراعٍ. لقد كان شراؤه لمزرعة كاتالونيا خطأً، فهي مغامرة حمقاء كلّفت الكثير، وكانت مجرد رغبة عابـــرة. وكان اعتزازه يقوم على الانضمام إلى طاولة البوكر في النادي الإنكليزي كـــسيد إقطاعـــي، ومـــزارع قطن ومربّي عجول، وزميل مزارع الكاكاو الكبير اريمـــوندو سان باريتو، والمتمول الكبير ألمير ليال وغيرهما من الإقطاعيين وأصحاب السلطة في العالم. في مرات قليلة وضع قدمه في تلك المجاهل الضائعة في السيرتون: ومـــزرعة كاتالونـــيا كـــان لها فائدة واحدة، فقد استخدمت لقضاء شهر عسل دولورس وإيوفرازيو.

كانت دولورس الصغرى قد تزوّجت صبية، وبسنتين قبل أداجيزا، وسط الـــرفاهية والانهـــيار المالي. فقد تم الزفاف في الكاتدرائية الباسيلية، وقد باركه صـــاحب الـــسماحة مطران أراكاجو، صديق عائلة بيريز، لدى مروره بباهيا. وعصفت موسيقى الأرغن، وانطلقت جوقة الأصوات النسائية، وكانت مسيرة ميندلسن الزوجية. الموكب اجتاز الممر بين باقات الزهور الطبيعية تسبقه نصف دزينة من الملائكة من أطفال الأغنياء، ثلاثة صبيان، وثلاث فتيات يرشون زهر الـــبرتقال والقـــداح على طريق الخطيبة. أما سيدات الشرف فكن يرفعن ذيل فـــستان الـــزفاف الطـــويل المصنوع من الأورغاندي الأبيض الموشّى والمزيّن، العـــذاراوي بلا شك. وأمسكت دولورس بذراع والدها، وكانت عينا أندريزا مغـــرورقتان بالدموع، وخواتم الذهب كلها وفقاً للتوصية، توصية الوجيه. من خـــارج الكنيـــسة كان فضوليون شعبيون يتسلّقون النوافذ ليروا. وبالرغم من الاســـتعجال، والسرعة التي تمّت فيها عملية الزواج كما هو مقرّر، فإن السيدة إشبيرانزا تروخيلو تمكّنت من القيام بكل تلك الأشياء التفخيمية، ولكن أحداً لم يعجب بها لأنهم كانوا يعرفون فعاليتها.

وكـــان ســـبب الاستعجال أن دولورس وجدت نفسها حاملاً منذ شهرين. وحـــتى قبل الخطوبة، فإن إيوفرازيو الطيب المسامرة والعافية، أزاح الختم الطبيعي خلف منارة "دابرا"، وهو مكان ملائم: بالمناسبة فإن عائلة بيريز الإسبانية كانت لا تزال تقطن في بيت تملكه مطلاً على "بارا" مقابل البحر.

ذلـــك البيت السياحي أيضاً تبدّد ديوناً و لم يبقَ من الثراء الفاحش غير الحديد العتـــيق القائم في أغوا دوس سانتوس حيث وضع باكو بعض المال كشريك أكبر، لمـــساعدة مواطن إسباني شاب، ومقاول يدعى خافيير غارسيا. وكان مواطنه يهتم بالعمل ويجعله مزدهراً.

لم يكـــن خافـــيير غارســـيا يقامر، وكانت لديه حساسية ضد الكازينوهات والملاهـــي، والمـــشارب، والمباغي، يصعد ويهبط على قدميه، لمرتين في اليوم، من لاديـــرا إلى أغـــوا بروسكا ليوفّر بعض السنتينات التي لا بدّ من دفعها إذا استعمل عربة دوبيلار. كان قد وصل من تينيريف منذ سبعة أعوام، بيدين خاويتين، وجعل صندوق ادخاره يسمن على حساب التوفيرات والحرمان من المتع، وبواسطة أصابعه الخمـــسة الـــشرقية التي كان يمرّ بها من خلف الشريك الرأسمالي. خافيير غارسيا لم يكن مقامراً بل ملتقطاً لعائدات صغيرة.

الزفاف

دون تفخـــيم، دون باسيلية، ودون مطران، فإن زواج أداجيزا جاء على قد الحال، بالرغم من وليمة فقراء، ومحاولة إنقاذ المظاهر.

طاولـــة غنية بالحلويات والموالح، ومشروبات لترطيب الحناجر كيفما رغب الحضور: خمور، كونياك، وعصير الكرز والمانزانيلا.. وتمّ التناخب بصحة العروسين بالـــشمبانيا: فالزوجان إميليا وبينيتو فرناندز، الشاهدان على الزواج المدني كانا قد أرســـلا، بالإضافة إلى الهدية الثمينة خدماً مرفّهين لخدمة العشاء، ونصف دزينة من الـــشمبانيا. علـــى رسلك، ما هذا الشمبانيا؟ إن الشمبانيا هي مشروب شعبي من إنـــتاج الغاووشـــو، والمسألة هنا متعلقة بنبيذ أبيض فوّار، فرنسي، ويجب التلفظ بالكلمـــة وكتابـــتها كمـــا يعلم الأستاذ جوان باتيستا دي ليما إي سيلفا: تجنباً للالتباسات الشائعة بسبب انحطاط مستوى الحياة ولهجة الرعاع من البشر: ش. ا. م. ب. ا. ن. ي. ا.

ابـــتدأ حفل الزفاف في الخامسة مساءً من يوم سبت من شهر أيار/مايو، بعدما مرّت على الموعد ساعة التأخير التقليدية في الزمن الجيد خلال الأحداث الأنـــيقة. وســـيكون أصـــح الكـــلام عن الزفافين، الزفاف الأول ديني باركه

المونسنيور غاسبار سادوك، والثاني مدني ترأسه الأستاذ جوزي ألفيس ريبيرو، قاضي الشجرة العائلية. ولم يشارك في الزفاف الحشد الهائل من الناس الذي انحشر في الكاتدرائية أثناء زفاف دولورس، ومع ذلك كان هنالك فائض من البشر في شقة غراسا: إن باكو نيفريرو كان محترماً بميزاته الطيبة وليس فقط بسبب المال الذي كان يملكه. بالإضافة إلى كونها مؤجرة، فإن الشقة كانت صغيرة: وكان المساعدون محشورين في صالة الاستقبال، ويغزون من وقت لآخر غرف النوم، ويوشوشون فيما بينهم في المطبخ، ويتهامسون عن اختفاء مقتنيات باكو بيريز إي بيريز. إن القمار والخراب ثنائي لا يفترق، وكان الأب باربوزا يردّد هذا القول في خطبته الأحدية البليغة من منبره في كنيسة فيتوريا الفخمة: وأفضل من هذا البرهان، لا يوجد قط.

الفستان من التول، ومن أسلوب عصر النهضة، وضعت تصميمه ونفّذته ماريا زيلدا، وهو هدية الزوجين كوترين، لوردس وجوناس، العرّابين، وأما شلحة الوجه فقد بدت عليها زهور البرتقال دليلاً على عذرية العروسة – فهذه المرة لا غبار على العذرية الموعودة: لم تكن حاملاً، كما أن رأس إصبع العريس لم يكن قد لمس ما لا يلمس. إن العريس لم يجرِّب الثمرة المحرّمة وهذه مسألة نادرة جداً في أيامنا التقدمية وهو أمر يستحق الإشارة إليه وتقليبه من كل جوانبه.

وذرفت أدالجيزا دمعة عندما ذكر المونسنيور، وهو يلقي خطبته، المخلوقتين القديستين اللتين توفّيتا حديثاً وهما أم العروسة، الطيبة أندريا، وعرّابتها الحبيبة، الحامية الأمينة ومصلحة دادا السيدة إشبيرانزا تروخيلو، نعجتان من قطيع السيد الذي نادى عليهما إلى ملكوته من حيث يباركان الآن الابنة والتلميذة في يوم سعادتها الأكبر. إن المونسنيور غاسبار سادوك لا مثيل له، ولا يضاهى في مباركة حفلة زفاف.. دينية.

باقة زهور العروسة

كانت حفلة زفاف طويلة، نافلة التفاصيل، في رأي دانيلو المنتقد. كما أنه وجّه انتقاداً وواجه تساؤلاً متعلقاً بخطبة الأستاذ القاضي المنتخبة الألفاظ،

الـذي غـازل أداجيزا بهذه وتلك من كلمات الإطراء على الجمال الساحر، الأخّاذ، البرازيلي، الذائب في القوالب التي تمتزج فيها العناصر البشرية؛ وهذه الخطبة كانت تبدو تعبيراً عن حب، فهل يكون الأمر في أن يبقى العريس في الشكوك: إن الشعراء غير جديرين بالثقة. لقد كان دانيلو محتاراً من أمره.

إن المسألة لا تتعلق بقوة التعبير: الحذاء الجديد، اللامع، كان يضغط على رجليه، ولم تكن ساعة نزع الحذاء لتصل. لم تكن تأتي ساعة تواجده وحيداً مع أداجيزا في بيت الشاطئ في "مورو دي سان باولو"، والذي أعاره صديق حماه، الصناعي الثري فرناندو ألميدا، ليمضي العروسان شهر العسل.

وإذ انتهت حفلتا الزفاف، الدينية والمدنية، فقد ابتدأ قرف التهاني: ها هي المسيرة تعود إلى صالة الاستقبال وتقبُّل التهاني. قبلات للعروسة، معانقات للعريس، وكتمان، تهانٍ، تمنياتٍ بالسعادة، وممازحات خبيثة، وشيء واحد لا ينتهي. دانيلو يصغي إلى التمنيات والممازحات، يشكر، يبتسم، يعانق، وينتهي العناق، ولكن تفكيره بعيد.

بعيد؟ لا. كان تفكيره قريباً، فهو لم يكن يفكّر في غير عذرية العروسة، الواقفة هناك، قربه، وبمتناول يده. إن لديه الآن المدخل الشرعي، الحر، المباشر والمستحق، بعد مباركة الكاهن وتوقيع قاضي إثبات الزواج. وأخيراً، والله أكبر! إنه سيأكل السمكة - لحماً وحسكاً.

أداجيزا، بين القبلات والدموع، وضحكات صديقاتها الساحرة، والغيرة والحسد، والملح والبهار، فإنها بدأت تتحرّك في الصالة لدى نهائية التهاني، وبين مدعو ومدعو، وحديقة وحديقة. لم يعد دانيلو يقدر على تحمُّل مثل ذلك السعير الذي يعتريه، ولكن عليه أن يقف لأخذ الصورة التذكارية. للصور التذكارية: واحدة بذراع ممنوحة، وأخرى وهو يضع الخاتم، وثالثة وهو يقبّلها.. خلال صورة القبلة لم يعد يتحمّل، فارتعص بكليته.

وتناولت أداجيزا باقة الزهور ورفعتها بيدها عالياً ثم رمتها باتجاه المجموعة القلقة من العزباوات القلقات: إن العزباء التي تصلها الباقة ستتزوّج قبل نهاية العام الحالي.

الفتاة الجدية

خـــلال عام من الخطوبة، وكما هي القاعدة، كانوا يقولون، إن شيئاً ما من "الأدبسيزية" يحدث بين الخطيبين، مهما تكن العذراء محافظة وقوية وثابتة الممانعة: فقد تنـــزلق يد الخطيب، وتضطرّ هي إلى إبداء بعض الشجاعة من النوع الآخر.. لم يحـــدث إلا القليل حتى تعتبر خطوبة أدالجيزا ودانيلو مستثناة من القاعدة. دامت الخطـــبة ســـنة كاملـــة، وكانا يلتقيان يومياً منذ طلب الزواج حتى حفلة الزفاف: ووصـــلت دادا عذراء إلى صالة تقبُّل التهاني شبه طاهرة، ولم يحدث شيء يذكر. ليس بسبب عدم إتاحة الفرصة: إن الفرص كانت متاحة وتنيف. لقد كان الاثنان يمكـــثان وحـــيدين في أغلب الأحيان خلال الساعتين اليوميتين، من الثامنة وحتى العاشـــرة مساء، كانا خلالها يتحادثان عن نجوم السينما، وبرامج الإذاعة، والمغنين والمغنيات – لقد كانت أدالجيزا تعبد أنجيلا ماريا، ويفضّل دانيلو دالفا دي أوليفيرا، وكلاهمـــا يلتقـــيان على الإعجاب بإكيزيتي كاردوزو –، ويتذكّران معاً ركلات اللاعـــب الـــسابق في كرة القدم، نجم إيبارينغا، ويخطّطان للمستقبل. وكان باكو نيريـــرو في تلـــك الساعة يجد في الوصول إلى كازينوهات القمار السرية، ومقابل الروليت المشبوهة، وأوراق اللعب المؤشرة: إذ لم تعد موجودة صالات اللعب ذات الذكرى الطيبة، في فندقي بالاس أوتيل، والتباريز. وكان دانيلو يصل في حين يخرج باكـــو، فيلقـــيان على بعضهما تحية المساء، ويتبادلان كلمة تودُّد. وكانت أندريزا تحـــافظ علـــى وقار العشيقين خلال دقائق معدودة، ثم تتركهما وشأنهما فهنالك الكثير من المشاغل لتهتمّ بها.

ويبقـــى الخطيبان معاً على الأريكة وحيدين عندما لا يخرجان ممسكين الواحد بـــيد الآخر للتفسح في الجوار، فيصلان في مسيرهما إلى بايانو دي تينس، أو نادي اليـــسوعيين في لاديـــرا دي سانتوس أنطونيو دا بارا، وهي مقرّات رائعة للعشق، وينصح بها. في الظلمة أو على ضوء القمر كان بإمكان دانيلو أن يأكل العشرينات الثلاث لأدالجيزا وبكل هدوء، ودون المجازفة بشيء، بعيداً عن النظرات الفضولية، لو أنها قبلت – ولكن دادا لم تكن تقبل.

أن تفعـــل هـــذا قبل الزواج فمسألة لا يمكن حتى التفكير فيها، وهي تفضّل المـــوت علـــى هذا العمل. إن مثل دولورس التي استعجلت في الاستسلام لم يؤثّر

بشيء على أداجيزا.. في السرّ والعلن كانت الشقيقتان كالنار والماء، تفكّران وتتصرفان بطريقة مختلفة، وقد تزوجت دولورس من بيرينالدو حاملاً، ولكن الوليد مات في الشهر الثامن بعد ولادته، بسبب الإسهال.

وإذ كانت قد بلغت الثانية والعشرين من عمرها، وهي الأكبر سناً، وعلى حافة العنس لشدّة تشخيصها وتماسكها، فإن أداجيزا كانت مقفلة على نفسها، بمبادئها، المبادئ التي ورثتها عن أمها السيدة إشبيرانزا تروخيلو، الأرملة المتألمة والملتزمة. كانت المبادئ تملي عليها السلوك لأن السيدة إشبيرانزا كانت قد ربّتها لتكون سيدة. ولم تكن دادا لتتبدّل: إن منجزات الثورة الجنسية تركتها غير مكترثة بالتطور، ولم تأخذ علماً بوجود حبوب منع الحمل. إنها صبية جدّية هذه، كانت العجائز في الكنائس يردّدن مثنيات على جدية أداجيزا.

التناقض الجدلي

مهمة صعبة ومتعبة هي مهمة جدولة الممنوعات، ووصف ما كان يجب أن يحدث ولم يحدث، والحديث عن السلبي وغير المفرح، لأن النثر سيكون عملاً مفجعاً، والكتابة ستعتبر مؤسفة ومرهقة. والروائي لا يستطيع أن يهرب من الحقيقة، ويخفي البشع والمحزن، ويخرج من هنا ليحقّق المكاسب، ويقول إن دانيلو قد وضع كذا ليلوي كذا، وهو في الحقيقة، قد اجتاز طريقاً مليئةً بالحجارة والعثرات، ومشى على حافة الخطر، واجتاز رمال الصحراء، وعانى الجوع والعطش، وأطعم الخبز والماء: قليل من الخبز وقليل من الماء..

كانت أداجيزا تنسجم، وتتخلّى عن المحافظة، وتترك لنفسها أن تنسحب، فقط عندما كانت ترقص بين ذراعي الخطيب في حفلة عائلية، وفي صبحية في مركز غاليفو، أو سهرة في النادي الإسباني. عندما كانت تسكر من الموسيقى وعلى الأخص من الألحان الهادئة والرومنسية المفضلة لديها، لم تكن تعارض في أن يضع ساقه بين ساقيها، ولم تكن تبدو مهتمّة أو مكترثة بالوصال، وبالارتعاش البطيء والملحّ. كانت تبتسم مسحورة، وعيناها شبه مغمضتين، لأنها كانت تعبد الرقص عبادة. ولكن لم يكن هنالك مجال للرقص، يومياً، في بيت صديقة من صديقاتها، أو عصرية في غاليفو، أو عيد في النادي الإسباني: إن ما هو طيب يدوم قليلاً، يقول المثل الإسباني!

إزاء هـذه النـزاعات والتمزقات النفسية التي فرضت نفسها في هذا المجال، يمكـن تـصور الحالة المعنوية والجسدية التي وصل معها دانيلو إلى الزواج: كانت خـصيتاه قـد بـدأتا تؤلمانه.. شبقاً، فاقداً صبره، متألماً وعصبياً، تحمل الضربات بـصعوبة. غداً يوم آخر: سينتفي الكثير من الممنوعات والمحظورات لإرضاء رغباته كلـياً ومهما تكن تلك الرغبات مجنونة. وكل شيء سيسمح له به، وسينعم بمعدة ممتلئة.

يرتكب التباساً خطيراً ويقع في الخطيئة الكبرى، عند هذا الحدّ من التقرير، أي رجل شريف يستنتج أن دانيلو، العاطفي، كان يحسّ نحو أداجيزا بشيء غير الرغبة – الـرغبة الجنسية التافهة – وهذه الرغبة هي البداية والنهاية لما لا يمكن أن يكون أكثـر مـن وله جسدي زائل. إن رأياً كهذا، خفيفاً وضيق الآفاق، يحدِّد ويزوِّر مشاعر دانيلو الحقيقية. لقد كان يحبها بعمق، حباً أصيلاً برهن أنه نهائي.

أسـير أناقـتها وروعـتها، وجمالها الجسدي، وكمال ملامح دادا الخارجية. الفخـذان مـستديران، الـوركان نافران، الخصر أهيف، النصف الأعلى مرتفع، وضـفائر الشعر سوداء. متعوِّداً على الوضوح في وظيفته في مكان عام، فإن دانيلو تلعـثم في اختـيار الأوصاف والنعوت ليصف الوجه الإيبـيري وصفاً واضحاً، ولـيحدِّد الـوركين الأفريقيين اللذين لأداجيزا. أحرق رموشه، ولجأ إلى القاموس والـبحث، فمـن يـستطيع أن يقول عنه إنه قدير على التحليل لكتابات أنطونيو حـويس؟ أجل لقد فعل وكوفئ على فعله ووجد في النهاية التعبير الدقيق المناقض لتعبير الوجه الملاغيني: فخذان أفريقيان "أوتوتنتيان".

وكـان دانيلو يفكِّر ويستنبط ويحفظ جملاً جاهزة، وكلمات صعبة، وتعابير نـادرة، ويحتفظ بها لدادا في ساعة العشق والغزل. وكان يناديها بأحجيتي، بسيدتي المبجلة، بأندلوسيتي، برخاميتي.. وكان أسيراً لمواهبها المنـزلية التي تبديها الخطيبة: طـباخة ذات بـراعة، وتعـزف على البيانو، وتخيط وتطرّز، وهي صانعة قبعات شهيرة. وكان بالقدر نفسه وأكثر أسير مميزاتها المناقبية، وفضائلها وما أكثرها! وبين تلك الفضائل، وأكثرها أهمية عنده، والتي تأتي في قمة الفضائل هي الطهرية. وكان معتزاً بطهارة دادا، وحذرها في المداعبات، والمقاومة الصلبة لمحاولاته في وضع اليد، ووضع ما عداها!

تناقض واضح، وقائم، وليس من مجال لإخفائه أو مناقشته. إن التناقض، وبصورة أفضل الجدلية، هي جزء لا يتجزأ من الحياة، حتى حين يبدو غير قابل للتفسير، وعبثياً. كان دانيلو يعاني في نفسه من النتائج ولكنه كان معجباً ومعتزّاً بالاعتدال الذي تتصرف به أداجيزا وتفرض عليه. و لم يكن ليحبها هذا الحب الكبير و لم يكن ليتجاوز ذلك العام من الخطبة لو لم تكن كذلك. ولكن ماذا يمكن القول عن تسعة عشر عاماً من ديمومة الزواج؟

استراحة للتأمل

عن التسعة عشر عاماً من الزواج ليس من شيء يقال في الوقت الحاضر سوى استفادة المتزوجين حديثاً في طريقهم إلى فالينسا بهرولة مجنونة، من حيث سيأخذون الحقيبة إلى شهر العسل في تورو دي سان باولو، ويستريحون قليلاً ليصفوا غرامياتهم - كيف يقولون عنها؟ - الخالدة المثيرة.

إن الحكاية في هذه الصفحات صريحة، ومتعدّدة هي الأماكن والأزمنة التي تحاك فيها قصة الحياة، وتقضي بإحراق تلافيف الأدمغة حتى لا توضع الأقدام في الأيدي، وحتى لا يحطم الواحد وجهها عند وهلة المنعطف الأول، ولكي لا ينعطف عند ملتقى الآلهة.

لا يخسر أحد من الانتظار.. فيما بعد ستستأنف قصة الحياة الجنسية والعاطفية لنجم كرة القدم السابق وصانعة القبعات الماهرة، وسنروى بهدوء وواقعية ضروريين وكيف مضت ليلة الزفاف وشهر العسل، وعلى ما اتفق، الانسجام الظاهر في الغراميات الممتعة والمثيرة. ولا يكفي أن تروي، فمن الضروري أن تفعل هذا بمنهجية وتؤدة ووفقاً لما يأمر به الوجيه. كل مادة في ساعتها الحاسمة، ولهجة صوت مختلفة لكل مخلوق. ومن يعتقد أن الأمر سهل، فليجرِّب.

يقتضي الأمر الآن بالاستجابة لجبهات أخرى من المعركة، واستئناف مواضيع ظلت متأخرة، والمجيء إلى المسرح بأشخاص إضافيين. دون ماكسيميليانو فون غرودن، مثلاً: نام قليلاً في ليلة الأحزان وليس من الإنصاف إبقاؤه مزيداً من الوقت في انتظار الأخبار. الأخبار الطيبة، وفقاً لما يتمنّى.

وإذا كـــان هناك، بالصدفة، من هو مستعجل لمعرفة كيف مرّت ليلة الزفاف، ووجـــد نفسه معذّباً بالتفاصيل، يكفيه أن يتجاوز بعض الصفحات وسيجد لاحقاً الوصـــف الكامـــل، وسيعرف تفصيلاً إثر تفصيل الطريقة التي فقدت بها العذراء عذريتها: وليس أحد مجبراً على قراءة الكتاب كاملاً.

الاتصالات الهاتفية

الثقب الصحفي المثير أو المجد والبراز

كان الدون ماكسيميليانو فون غرودن، وإن طالت سهرته حتى الفجر، منكباً على كتاب بانتباه، أو في ثرثرة متواصلة مع الأصدقاء، يستيقظ باكراً، على صياح الديكة في الجادة الشعبية المجاورة للدير.

وبينما هو يفرك أسنانه بالفرشاة عند النافذة، فإن مدير متحف الفنون الجميلة كان يحدِّق في حركة السكان الصباحية: رجال يخرجون إلى مواقع العمل، بين متباطئ ومستعجل، ونساء يبدأن المهام المنزلية، وقد بدأها تعبات. حياة تعب ورتابة، متوسطة الحال، غريبة عن حياته، ولم يكن الدون ماكسيميليانو يفهمها، أو يحسّ بنفسه متعاوناً أو متعاضداً مع صعوبات هؤلاء البشر، "البلا - معنى". لم يكن يحتقرهم لكونهم فقراء، ولم يكن يأخذ الغنى بحساب كبير، ولكن لكونهم عاديين، خاضعين للاهتراء وللأمور التافهة التي لا تشبه بشيء اهتماماته وقلقه الثقافي كعالم آثار وتحف. ولكنه في صبيحة يوم الخميس، اثنتي عشرة ساعة بعد اختفاء تمثال القديسة بربارة، أم الرعد، وإذ كان قد قضى الليل ساهراً، فإنه فكّر في مثل أولئك الناس وربما بصورة أكثر إرهاقاً، ولم يكن أمامه باب للخروج، فإذا كان هنالك باب فهو الباب الضيق إلى الاستقالة وبعدها: التنسك.

في كل صباح، قبل أن يذهب لتأدية واجباته الدينية المفروضة على الكاهن، كان الدون ماكسيميليانو يقرأ الصحف الموضوعة عند باب الغرفة، وقد وضعها نيليتو الخادم الصغير، المختلف عن الملائكة الصغار الذين أشار إليهم المطران المساعد، الملعون: إن هذا الملاك رسولي؛ وزنجي دؤوب؛ حاملة أشياء. كذلك كان، يوم الخميس، بفعل العادة، وفي متابعة المعرفة، فجلس فوق الأريكة الجلدية السوداء المعاكسة لجبّته البيضاء، والصحف على الأرض، مجمعة بعضها فوق البعض بالتسلسل الذي اعتاد أن يقرأها به.

وما كاد يتناول الصفحة الأولى من جريدة "أتاردي" حتى رأى الدون ماكسيميليانو نفسه واقفاً، مبتسماً، يقلب النسخة الألمانية من الكتاب الموضوع عن القطعة الفنية. إنها صورة "فافا"، صغيرة ولكنها رائعة: كان "فافا" رفيقاً حميماً له، ويختار الزاوية المناسبة واللحظة الحاسمة ليضغط على زر آلة التصوير، ولا بدّ من أن يرسل إليه نسخة من الطبعة البرازيلية، مع كلمة إهداء لطيفة. وعاد يتأمّل في الصورة، ورأى نفسه جيداً؛ الابتسامة المتواضعة والذكاء الخارق. إنه جميل حقاً، ولماذا إخفاء الحقيقة؟

غداً، في متحف الفنون الجميلة - عرض وإطلاقات جديدة - وصول التمثال الشهير للقديسة بربارة، أم الرعد، وكان العنوان الأسود هذا يضع القارئ في ملاحقة الموضوع على الصفحة الثالثة من العمود الأول فيما هو متعلق بالنبأ عن المتابعة الصحفية العامة، وعن الأنباء الأخرى المتعلقة بالأحداث وبوصول التمثال. في أعلى الصفحة، افتتاحية بثلاثة أعمدة، ولم يكن ممكناً أن تكون المادة معالجة بصورة أفضل وأكثر كمالاً، وقد غطّى المقابلة وحرّر النص بحيويته المعهودة المحقق الصحفي جوزي أوغوستو بربرتي، الشاب عمراً، العتيق مهنةً، وكان قد بدأ العمل فتىً يافعاً في التحرير في جريدة "أتاردي". إنه صادق وقدير، وعكس ما كان يحكم عليه دون ماكسيميليانو سابقاً - كان المرحوم الكاردينال دا سيلفا قد رشق بالحرم الكنسي، في الثلاثينات، المشرع إيبامينونداس بيربرتي كاسترو، والد جوزي أوغوستو، وكل العائلة، بحرم أبدي، ولكن هذه الرواية لا شأن لها هنا، وهي يمكن أن تكون، رواية لذيذة ومثيرة في حيِّز آخر.

ورغم انصرافه قبل الاتصال الهاتفي الذي كان إديميلسون قد قام به فوضع آنذاك نهاية للقاء مع الصحافة، فإن جوزي بربرتي، في الخبر الذي حرّره، الطويل والدقيق، قد فصَّل كل الأحداث، وزاد في المعلومات، وقدّر وجود الشاعر البرتغالي المرسل في مهمة خاصة من قبل جريدة "أوجورنال"، الليشبونية، ليغطّي الحدثين الكبيرين: المعرض والكتاب. وفيما هو متعلق بالكتاب فقد استشهد المحقق الصحفي بالعنوانين، العنوان الأول بالبرتغالية "أوريجين إي أوتوريا دا إيماجن دي سانتا بربارة، أدو ترافاو"، والعنوان الثاني بالألمانية، "در أورسبرونغ أوند در شكوبنر دس غنادينبيلاس بربارة، دي دس دونرز". أما ما هو متعلق بالمحتوى فقد

اعتمد على رأي أنطونيو سيليستينو، في صحة الموضوع خلال الاجتماع: إنها عمل عملاق، لا غبار عليه، قرّر العليم.

وأبعد من ذلك، فإن الصحيفة أعلنت عن مقال نقدي يوم السبت المقبل بقلم كاتب قصة "ردهة الفنون"، عن كتاب مدير متحف الفنون الدينية الذي لم يتمّ توزيعه بعد على المكتبات وبالرغم من هذا تم اعتماده عملاً كبيراً. كانت الصحيفة قد بدّلت عنوان الكتاب: "كتاب دون ماكسيميليانو فون غرودن، التحفة الكبرى".

وأنتجت الصحيفة شيئاً آخر: صورة مدير المتحف وهو يحادث الشاعر والصحفي الليشبوني: كان دون ماكسيميليانو رائعاً – ولا يستطيع أن ينسى إهداء الكتاب إلى فافا.

وهبط مستوى التذمر، وارتفعت المعنويات، وانتعش القلب، في صمت الغرفة الذي لا يعكّره غير لفظ كنارين معلقين في قفص إلى النافذة، فأعاد دون ماكسيميليانو النظر في نفسه: نقد ذاتي، إنها غلطتي. كان غير منصف مع صديقه سيليستينو، وتصوّر به المكائد، والألغاز، والانتقادات اللاذعة الخبيثة التي ستعرِّضه للسخرية، في حين أن الإسباني الطيب هذا الجدير بكل الأوصاف التي يمكن أن يحملها إهداء الكتاب، كان منكبّاً على الطابعة لتمجيد مجد مؤلف "التحفة الأدبية الكبرى". إن أنطونيو سيليستينو هذا كان يعرف عن الأشياء: وانتبه الدون ماكسيميليانو إلى رشحات المجد في الجبّة الكهنوتية.

وكان غير منصف أيضاً مع الشاعر باتشيكو، وإذ رآه في الصورة محترماً وحميمياً، عرف أن سؤال باتشيكو له، ذلك السؤال الذي حمله على الشكوك مساء أمس لم يكن بطلب من ج. كويمبرا غوفيا، ولم يكن يضمر سوءاً، ولا يحمل خبثاً وليس كسائر الأسئلة الخبيثة – ما وراء البحار كل شيء كان خيالاً، وظناً آثماً، وتبغدداً، ولكن كل شيء على أفضل ما يمكن في هذا العالم لو لم يحدث الحدث المكرب. لم يفد بشيء استنتاج الصحيفة، الذي هو مع الأسف استنتاج خاطئ، يؤكد الوصول إلى المتحف لتمثال القديسة بربارة، أم الرعد، آتية من سانتو أمارو: ان المحقق الصحفي شاهد وصول التمثال – إن زي بيربرتي يغالي أحياناً، ومقالاته ناتجة عن اهتمامه بالنبأ بتمثال جيد، ومفصل.. مع كل هذا، وجد الدون

ماكسيميليانو نفسه منفعلاً فرحاً بالتحقيق إلى درجة لاح معها أمل أدفأ قلبه: من يدري، ربما، في تلك الساعة تكون الشرطة الفدرالية، أو شرطة الأمن الداخلي، أو السلك الكهنوتي نفسه، قد كشفوا عن اللغز، ووجدوا التمثال، واعتقلوا اللصوص، والسارقات أيضاً، إذا كان هناك سارقات، وكل شيء ممكن.

ولكن يا ويلاه! إن الحدث المكرب كان على الصفحة الأولى من صحيفة "دياريو دي نوتيسياس" حيث لمح دون ماكسيميليانو صورته أيضاً: كيف صوّره الملاعين؟ في الميناء، وذراعاه مفتوحتان، ووجهه مكفهرّ، وفي المكان الأعمق من الصورة "الكومبي" وإديميلسون. "المانشيت" شغلت أعلى الصفحة الأولى، وتحت اسم الجريدة مباشرة: اختفاء القديسة بربارة، أم الرعد، وتحت الصورة، التوضيح: "قرب رامبا دو ميركادو، مدير متحف الفنون الدينية، في حالة انفعال، لدى علمه بسرقة أشهر تمثال في البرازيل". "شهرة فاقت كل شهرة، وثمينة فاقت كل ثمن"، "سيلبرينتييمان فاليوزيسيما"، هكذا صنّفها التحقيق الصحفي الذي شغل نصف الصفحة الأولى من الجريدة الصباحية.. كان يوقع مثل هذه التحقيقات الصحفي غيدو غييرو، ولكنه اليوم لم يوقع، ودون ماكسيميليانو لا ينخدع بكاتب النص، وكان يكفي أن يشار بخبث إلى متطلبات كاهن سانتو أمارو ليعرف من الذي كتب التحقيق. لقد أشار، خطوة خطوة، إلى الاهتمامات الحارّة التي قام بها مدير المتحف، والمطران، وسكرتير الدولة لشؤون الأمن العام، ومندوب الشرطة الفدرالية، وعودة القديسة تريزا إلى الدير بمحمل فارغ. إنه ثقب صحفي مثير، وقد وضع غيدو البراز على المروحة الهوائية، فهل بدأت جبّة دون ماكسيميليانو تتلطّخ بما تطاير منها؟ لقد شعر دون ماكسيميليانو بنفسه مغموراً بالبراز.

الاتصال الهاتفي الأول

القدّاس اليومي الذي أحياه دون ماكسيميليانو جاء قصيراً، وكان قد أنهاه لتوه عندما استدعي إلى الهاتف.

– من الشرطة الفدرالية، يا معلم.

أوسكار مافرا، الجامعي في سنته الأخيرة من الاختصاص بعلم الآثار والتحف، والذي يتدرّب في سانتا تريزا، تعجّب من جفلة المدير الذي كان عادة يقيس

تـــصرفاته، وهـــا هـــو يركض متعثراً بجبّته ليرد على المكالمة. مكالمة من الشرطة الفدرالـــية، هي البشرى! أمس، كان العقيد قد وعده بأخبار سارة في فترة قصيرة، وهـــا هـــو الآن يفي بالوعد بسرعة مبجلاً إياها، مثبتاً بذلك كفاءة التنظيم الذي يقـــوده. وكـــان الدون ماكسيميليانو مستعجلاً سماع النبأ الذي سيجعل من يوم الخمـــيس يـــوم القيامة: بشرى! هاليلويا! اجتاز الدرج كالريح، ووصل إلى غرفة الهاتف ملهوفاً، ورفع السماعة.

– هنا الدون ماكسيميليانو.

– دقـــيقة، إن العقيد راوول أنطونيو سيتكلم على الهاتف. وبعد ذلك سيطر عقيد الشرطة الفدرالية على الجهاز، ودون أن يلقي تحية الصباح:

– لمـــاذا لم تخبرني يوم أمس أن الأب أبيلاردو كالفاو رافق المركب الشراعي مع التمثال؟ إنك أخفيت عن الشرطة أمراً هو غاية في الأهمية، احتفظت سراً بدليل جوهري قاطع. لماذا فعلت هذا؟ أجبني.

– أمر مهم؟ أنا...

– أنا، ماذا؟

– أعتقد أن الأمر الذي تعنيه متعلق بكاهن، وقد فكرت...

– لم يكن عليك أن تفكّر، أو أن تمتنع عن التفكير، وما كان عليك سوى أن تتعاون معنا. لقد أخفيت كلياً في إفادتك وجود الكاهن. الأب غالفاو! لماذا فعلت هذا؟ وبأية نيّة؟

– ولا أية نيّة. لم يكن لديَّ أية نيّة. كيف أستطيع أن أتخيّل أن كاهناً مشترك في الموضوع..

– مـــشترك؟ إن هذا الكاهن هو مفتاح كل القضية. إذا لم يكن أحد رؤساء العصابة، فإنه شريك في الجرم بما لا يقبل الشك.

– شريك؟ رئيس عصابة؟ يا سيدي المسيح!

– لا تقل لي إنك لا تعرف من هو الأب أبيلاردو غالفاو.

– في الحقيقة لا أعرف، يا عقيد. إني أسمع هذا الاسم لأول مرة – في الحقيقة قد سمعت به يوم أمس من مساعد المطران، وهو متّهم شكاً ومراقبة – لقد علمت فقط بأن راهباً وراهبة كانا قد جاءا في المركب الشراعي.

- ولم تقل لنا شيئاً عن الراهبة أو الراهب. اسمع جيداً يا دون ماكسيميليانو، ولن أعود لأكرِّر: لا تحاول أن تخدعنا، وهذا لن يقدِّم شيئاً.

- أنا...

- لا تنسَ أننا نعرف كل شيء في ما هو متعلق بك - وكما فعل البارحة، شدّد على المقاطع: - كل شيء، مطلقاً.

أقفل الهاتف دون أن يودّعه. في عجلته السابقة ليسمع الخبر السعيد فإن دون ماكسيميليانو كان قد ظلّ واقفاً قرب طاولة العمل: وها هو الآن يلقي بنفسه فوق الكرسي الدوّار. وإذ كان قد رافقه، فإن الطالب الجامعي المتدرب، عندما رآه مفككاً إلى هذا الحدّ، كأنه تمثال شمع يرشح منه العرق، ويداه على وجهه، قلق وجازف بالسؤال، خائفاً:

- هل تحسّ بشيء يا معلم؟

وقام الكاهن بردة فعل على اهتمام الشاب، وحاول أن يتماسك في مكانه، وأن يفتعل ابتسامة، فلم يتوصل:

- إني جيد، يا أوسكار، شكراً. إذهب إلى واجباتك واتركني وحدي. ولكن قبل أي شيء جئني بكوب ماء، من فضلك.

أخذ من جيب جبّته علبة بيضوية الشكل، كان يضع فيها حبوباً تحافظ له على مزاجه الظريف، وتناول حبة وضعها في كف يده. فكّر، وأخذ بعين الاعتبار الظروف الحالية فضاعف الجرعة: سيبتلع حبتين عندما يصل كأس الماء. ماذا سيقول المطران بخصوص القس؟ لم يكن محتالاً طيباً، ذلك القس. لهذا فإن الدون رودولف أمره بالاحتفاظ بالسرية التامة فيما يتعلق بوجوده في المركب، وبوجود الراهبة، من الجهة المقابلة. توصية لا فائدة منها: إنهم، في الفدرالية، يعرفون كل شيء، وكل شيء إطلاقاً.

الاتصالان الهاتفيان الثاني والثالث

لم يجب دون ماكسيميليانو على المكالمة الهاتفية الثانية. قل إنني لست هنا، وإنني خرجت وأنت لا تعرف في أية ساعة سأعود، أمر الطالب أوسكار عندما جاء هذا يعلن عن مكالمة خارجية، من سانتو أمارو. ومن المؤكد أن الكاهن استاء لأن الشاب، في بيت اللاحول ولا قوة، أجابه:

– لا، ليست كذبة يا صاحب السماحة، لقد خرج المدير. لا إنه ليس هنا يأمر بالقول.. لقد خرج حقاً – .. وتوقف ليبسمع، ثم بدت الدهشة في عينيه: – أقول لك هذا؟ لا... لن أقوله له! لا!

أقفل أوسكار الهاتف، وتمتم بالعاً ريقه:

– إنه الكاهن.

– ليس من الضروري أن تكرِّر، يا أوسكار، أني أتصوّر ما قاله – وأحنى دون ماكسيميليانو كتفيه، فصليبه ثقيل، وأطبق على شفتيه، وشعر بمرارة العلقم.

المخابرة الهاتفية الثالثة كانت من سكرتير الدولة لشؤون الأمن العام. الأستاذ كاليشتو باسوس، خلافاً للعقيد راوول أنطونيو، كان ينفتح عن تحببات، وصوته نقي كمن جرع الفازلين:

– صباح الخير، وكل الخيرات، يا أعز المعلمين – وبعد تبادل اللطافات خلال برهات قصيرة، دخل مدير الشرطة في صلب الموضوع: – خابرتك لأعطيك أخباراً، كما وعدتك. ليس لديَّ بعد أي حل لمشكلتنا الصغيرة، ولكننا متحركون، وقد حصلنا حتى الآن على بعض الأدلة، وواحد منها مثير للغاية... ثم كرّر: – مثير! وعليه فإني أريد أن أتحدّث معك عنه وأسمع منك.

شكر الدون ماكسيميليانو المجاملة، ووضع نفسه غب الأوامر، وقد غدا أقل انفعالاً: الأفضل معالجة الموضوع مع أبله، فهذا خير من معالجته مع من يعالج الأمور بالإساءة والعنف. وابتلع دون تفاجؤ سؤال الأستاذ كاليشتو.

– حضرتك هل كنت تعلم بأن في المركب الشراعي وفي الرحلة نفسها التي كانت تقل.. الشيء الذي يهمّنا.. كان موجوداً الأب أبيلاردو كالفاو؟

– أمس، عندما كنت معك، لم أكن على علم، ولكني اليوم صباحاً أُعلمتُ بالخبر.

– هل تعرف الكاهن كالفاو؟

– لا أعرفه شخصياً و لم أكن أعرف اسمه. اليوم فقط سمعت اسم الشخص. وللمرة الأولى – ولكي يوضِّح رغبته في المشاركة – في إنجاح التحقيق استطرد: – وفقاً لما سمعته اليوم، كان هنالك راهبة أيضاً.

نعم، نحن على علم. وابتعد الصوت عن جهاز الهاتف: إنه يفتش عن المذكرة التي تحمل النبأ، فكّر الدون ماكسيميليانو؛ وسمعه يتمتم: أين هي؟ وجدتها، وها هي.. وتابع الصوت: إنها الأخت ماريا إيونيسي من دير التائبات.. وسنستجوبها اليوم. إن سجلها نظيف، وقد تحقّقنا من ذلك. بينما سجل الأب كالفاو ثقيل، يا عزيزي: إنه مشاغب كبير وخطير - وصمت فجأة، وقد انتبه بالتأكيد إلى أنه تكلم كثيراً.

بالرغم من فضوله - كانوا يقولون متهامسين - فإن دون ماكسيميليانو لم يطرح أسئلة حول عمل وسوابق الكاهن. إن المطران كان قد أشار إلى مسألة أراضٍ، كما تذكر. غزو مزارع.. هذه هي: غزو مزارع، إثارة ضد المالكين، انحراف. يا إلهي، في أية عوالم إجرامية يجد نفسه غارقاً، ومع أي نوع من البشر يجد نفسه متورِّطاً..! وعاد صوت سكرتير الدولة الأمني، المتموج، ليرتفع:

- سنتكلم شخصياً حول هذا الموضوع. بعد أن يتقدّم التحقيق قليلاً فإني سأطلب من الصديق العزيز أن يشرّفني بزيارته لمحادثة نحلّل فيها الوضع معاً. وربما سيكون هذا، اليوم، إذا سار كل شيء على ما يرام.

- إني في تصرفك، يا أستاذ كاليشتو، متى رغبت. أرجو ألا تنسى ضرورة وجود حل، لأن افتتاح المعرض سيتم غداً صباحاً ومن المستحيل تأجيله. حتى ذلك الحين نحتاج إلى استعادتها.

- ... الغرض... - قاطعه مدير الشرطة: أعتقد أننا سنستعيده في الوقت المناسب. إن الطرح الذي طرحته جاء ليسهل كل شيء. هل تذكر طرح البارحة؟

- أجل.

- حول هذا النوع من العمل الإجرامي، هل تذكر؟ لقد اتضح أنه طرح صحيح. إن المرتكبين.. سارقي.. "المشهد".. هم قريبون، وهناك احتمال سهل لاستعادة الشيء.

كان ينتظر التأييد، وربما تصنيف محدثه، ولكنه، حين سيطر الصمت على الطرف الآخر من الخط، سأل، وبشيء من العصبية:

- هل تسمعني؟

– باهتمام كبير، أستاذ. ولكني لا أعرف ما إذا كنت قد فهمت جيداً وجهة نظرك. كنت تتكلّم عن السارقين.

– ســـارقي.. "المـــشهد".. انتـــبه جيداً: إن هذا الكاهن كالفاو هو قس في مطرانية في السيرتاون حيث، قام بأشياء حكي عنها الكثير. عندما جاء إلى العاصمة قام بدورة كبيرة ليمر بسانتو أمارو في ريكونكافو، ويرحل في المركب الشراعي مع التمثال. ألا يبدو الأمر غريباً بالنسبة إليك يا عزيزي؟

– سانتو أمارو؟ انظر جيداً، إني أقول سانتو أمارو دا بوريفيكاسيون.

– ماذا في سانتو – أمورو دا بوريفيكاسيون؟ لا أفهم شيئاً..

– ألـــيس في سانتو أمارو اختفت تلك "الأفخارستيا" من الذهب السميك، القديمة، التي عادت إلى الظهور بين الهدايا المقدّمة للبابا؟ هل تذكر، يا معلم؟ هناك لغط كبير حول تورط الكاهن، تذكر. الآن اجمع الأجزاء، واطرح التسعة.

تعدُّد الاتصالات الهاتفية الأخرى

الاتصالات الهاتفية الأخرى كانت متعددة، لا حصر لها، والرد عليها واحدة تلـــو الأخـــرى إضاعة وقت، وخسارة مراهنة، وتكفي المحادثة الحميمة.. وأغلب المكالمات كانت تتوالى من مكاتب تحرير الصحف، والإذاعات، بغية الحصول على الأخبار. سكرتير التحرير، محررون، ومحققون صحفيون متلهفون للحديث مع دون ماكـــسيميليانو وفي حال غيابه، مع أي موظف في المتحف، ومن الأفضل أن يكون إديميلـــسون شاهد العيان. خلال فترة الصباح كلها، لم يتوقف الهاتف عن الرنين. إنها أبواب الحكم الأخير، فكّر الطالب الجامعي الأشقر ولكنه ابتلع تجرُّءه، فالمعلم لم يكن في وضع يسمح له بهذه المماحكات البيزنطية. أما إديميلسون فكانت تطير من فمـــه: ذهـــب لقضاء عطلته، وأين ذهب يمضيها، لا أعرف. إني سأكتشف هذا المنحـــرف ولو في بيت دعارة، زعق في فتحة سماعة الهاتف نابوليون سابويا مراسل صـــحيفة "اشـــتادو دو ساو باولو"، مهدِّداً ملعنات وأكاذيب الشاب مافرا – وما سمعه الشاب المسكين في ذلك اليوم لا يمكن كتابته.

كـــان تحقـــيق غيدو غيبرا قد أحدث زلزالاً في الأوساط الصحفية الباهيانية، ووصـــل حـــاراً إلى جنوب البلاد وشمالها الشرقي. الصحفيون الذين لم يسمعوا في

حـــياتهم أية إشارة إلى تمثال القديسة بربارة، أم الرعد، خرجوا إلى الحلبة، مزمعين علـــى إطلاع الجمهور، بغية الكشف عن السرقة الغريبة، المثيرة بقدر انحرافها، التي تمّـــت لدى وصول المركب الشراعي إلى رامبا دو ميركادو، وأمام أنوف الكثيرين مـــن الأشـــخاص الذين لم يروا شيئاً ولم يعلموا بشيء، في ساو باولو، والريو دي جـــانيرو، وريسيفي، كانوا يحاولون التحقيق على عجل مع الخبراء الأكثر شهرة: بيتـــرو باردي وزوجته، والمهندسة المعمارية لينا بو، والمديرة السابقة لمتحف الفنون الحديثة في باهيا، وجواكيم كاردوزو، وريناتو سيريرو، وجواكيم فالكاو، والويزيو ماغالياس، وماركوس فينيسيوس فيلاسا، هذا للإشارة فقط إلى الكبار.

لا المحققـــون الـــصحفيون الباهيانـــيون، ولا معارفهم، ولا الصديق جوزي أوغوســـتو بربـــرتي، ولا أي صحفي تمكّن من الاتصال بالدون ماكسيميليانو فون غـــرودن، وكان هذا، ولا أي واحد آخر، الشخص المطلوب والمرغوب للتحقيق الصحفي المحلّي والوطني، على الوجه الأكمل - إنه يؤخر عملية التشخيص. وبكل الألقاب: إنه مدير المتحف حيث يجب أن يعرض التمثال في اليوم التالي ولهذا جيء بهـــا من سانتو أمارو، وهو أيضاً مؤلف كتاب حول الأطروحة الحارة. أين يمكن العـــثور علـــى نسخة إضافية؟ كان ملاحظاً أن صحيفة "أتاردي" استحوذت على نـــسخة أنطونـــيو سيليـــستينو، وانقضّ عليها، كروز ريوس الذي نشر أن تحريره يقتضي علماً وكفاءة. لم يكن دون ماكسيميليانو قد تحوّل إلى سائح في إجازة، بل انقلب إلى دخان، مثل إديميلسون. وكان المهتاج حاضراً يردِّد على الهاتف الأنشودة نفـــسها: لقد خرج المدير مبكراً، بعد أن أقام القدّاس، ودون أن يقول إلى أين كان ذاهـــباً؛ وسيعود قريباً، وبالتأكيد؛ وفي أية ساعة؟ ليس عندي علم - وكان بسرعة يقفل الخط ليتجنّب ردود الفعل والشتائم.

كان يقفل الخط، وفي الوقت نفسه يتناول السماعة ليجيب: صحف وإذاعات ولايـــة باهـــيا - وكل وسائل إعلام البلاد بواسطة مكاتبها أو بمكالمات مباشرة. وكان أيضاً الاتصال الهاتفي الذي قام به مراسل النيويورك تايمز في البرازيل، أدفين ماكـــدويل، المقـــيم في الـــريو دي جانيرو. إنه تفصيل إخباري فضولي، وخلافاً للأكثرية المطلقة من زملائه البرازيليين، فإن الأميركي كان يعرف عن التمثال وعن قيمـــته. ومع هذا فإن الدون ماكسيميليانو لم يرد عليه: أهلاً وسهلاً في أية مناسبة

أخرى عندما يصبح المحمل محملاً، ولكن ليس في هذه الساعة من المرارة العلقمية – ففي فم الأب ماكسيميليانو طعم الفلفل، وصدره مطعون بخنجر. يا ويلاه، النيويورك تايمز! ويا ويلاه من إضاعة الفرص! يا إلهي الواحد الأحد القهار، القدير على كل شيء.

ردّ فقط على عميد الجامعة الذي اتصل به من برازيليا حيث لا يزال برفقة الكاردينال، ولكنهما قد حجزا للعودة في رحلة المساء، بعد اجتماع أخير مع الوزير. ولم يكن اللقاء مع وزير التربية والثقافة الذي لا يحلّ شيئاً، بل مع وزير الدفاع، فهذا، أجل، يستطيع أن يقرِّر مصير الطلاب.. إن اللقاء الذي تمّ الحصول عليه بالكثير من الجهد كان يمنع على العميد، المستنفر بالأخبار المذاعة من محطات الإرسال، أن يقدّم ساعة العودة إلى باهيا: وبالمقابل تأخر في المكالمة الهاتفية.

مكالمة صعبة، وعسيرة الهضم. أمام المستمعين إليهما، فإن العميد والمدير تبادلا الإطراءات والتحببات، وقاما بالإعراب عن الإعجاب والتقدير واحدهما للآخر من اللسان إلى الخارج لأنهما في الحقيقة كانا يكرهان واحدهما الآخر. بالنسبة إلى العميد، الرجل العملي، وصاحب التصرفات الواضحة، فإن مخيلة وتقليعات الكاهن كانت تلتبس عليه وتزعجه. كان المدير يشتكي من الاهتمام القليل الذي يصرفه العميد على المتحف ويرفض أن يضاعف المصاريف التي هي من صلاحيته ضمن ميزانية الجامعة.

دون ماكسيميليانو شرح القليل الذي كان يعرفه ولم يخف خطورة الحدث، فأبدى العميد اهتمامه:

– أمر خطير؟ بل غاية في الخطورة وذو نتائج غير منظورة بالنسبة إلى المتحف والجامعة.

ووضع الدون ماكسيميليانو أمام مسؤوليته: إن سيادته قد فعل الممكن وغير الممكن للحصول على التمثال، وعليه الآن أن يتصرّف بنفس الهمّة لاستعادته. ما عدا هذا فسيصبحان هدف مطاردة، كل من الجامعة والمتحف، ومن سيطاردهما فهو النقد والرقابة الأشد إيلاماً، وكذلك الاتهامات التي ستقضي على كل المعنويات. إن المتحف، كما تعرف، لا يتمتّع بسمعة حسنة، وبعضهم يتكلمون عن تحف تمّ الحصول عليها بطريقة مشكوك فيها، ويتكلمون عن وضع نسخ بدلاً من التحف الأصلية.. وهنا تحضر النكتة عن القديس بطرس التائب. فتذكر:

- إن كاهن كاشويرا لم يكن يريد..

- كاشـــويرا، يا حضرة العميد؟ - انتقم الدون ماكسيميليانو: - إنك تعني كاهن سانتو أمارو.

- كاشويرا، سانتو أمارو، فأي فرق في هذا؟ إنك أجبرته على.. هكذا استمر في اتهاماتـــه المغلفة. أبعد الدون ماكسيميليانو السماعة عن سمعه: مع تلك القذائف اللـــسانية فإن العميد يريد أن يتركه أمام مخرج واحد هو الاستقامة، في حال لم يتم اســـتعادة التمـــثال على الوقت. هل يقول له إنه قرّر الاستقالة إذا حدثت فاجعة كهـــذه؟ أمسك نفسه! فلماذا يمنع العميد مثل هذا الفرح قبل الساعة التي لا علاج لها؟ عندما تمكّن من أن يأخذ الكلام من جديد، واستشاره عن تاريخ العرض: هل يجب التقيد به أم تأجيله؟

- لا أرى سبباً لتأجيله، والمعرض ليس متوقفاً على التمثال فهناك الكثير ليتمّ عرضـــه ومشاهدته. إذا لم يكن التمثال موجوداً فإن الكتاب الذي كتبته سيكون موجوداً، وشيء يكافئ شيئاً، أليس كذلك: - الإشارة إلى الكتاب، طعنة جارحة، تأخـــرت كـــثيراً، فـــبلع الدون ماكسيميليانو مطبقاً فمه. - سنفتتح المعرض غداً بالـــذات، وفي الـــساعة المحدّدة. لقد أكد الوزير حضوره. - كان يشير إلى وزير التربية، لأن وزير الدفاع كان مشغولاً ولديه الكثير من الأعمال.

بـــين المحادثـــة مع سكرتير الدولة لشؤون الأمن وذهابه - الرائع! - إلى المقر البطريركـــي، فـــإن كاهن سانتو أمارو اتصل هاتفياً ثلاث مرات، عصبياً وعدائياً، يدعـــو بالطاعون: بعد كل هذه "الفرنسات"، تبدأ الإسبانيات، احرسنا يا الله! إنه موظـــف سيئ، لأن هيجان الأب تيمو وشتائمه كان قد سمعها على ألسنة سكان باهـــيا، ولكنها كانت قد تطهّرت بأفواه الجحيم لغريغوريو دي ماتوس وجيمس أمادو، فغدت لغة سليطة تقول الحقيقة.

السيرك

كان حصار الهاتف له المشكلة الصغرى، فالصحفيون الذين ساورتهم الشكوك فيما هو متعلق بالدون ماكسيميليانو خيّموا في الباحة عند مدخل دير سانتا تريزا، أمـــام الكنيـــسة وبـــاب المتحف. كان الباب مغلقاً بالمفتاح بسبب الاستعدادات

للعــرض، ولم تكــن المعروضـــات قد وضعت رسمياً أمام الجمهور. وحاول أحد المحققين الصحفيين، وهو أكثر شجاعة من سواه، أن يدخل عبر نافذة الطابق الأول ولكــنه أضــاع تــوازنه في محاولته تسلق الجدار، فتزحلق، وجاءت الوقعة بشعة: يستحق - قال الدون ماكسيميليانو حين علم بالحادثة واعترته فرحة قصيرة ولكنها عرضية.

في ممــرات ســكرتيرية الدولة للشؤون الأمنية، وفي مقرات الشرطة الفدرالية تجمــع مــتقاعدون عــسكريون وصحفيون متدرجون. وبغية إعجابهم، فإن مدير الــشرطة وكيما يحافظ على وجه السلطة المحبوبة والكفوءة وعدهم باستقبالهم فيما بعــد مع الأنباء الأكيدة. ومن يدري فربما تمكّن من أن يطلعكم على سرّ مؤقت، وربمــا قــبل الظهر، وليس عليكم بغير الصبر لمصلحة المجتمع، قال بحديث مختصر، وبابتــسامة مضلّلة كبهلوان في سيرك مستعد أن ينتشل الأرنب من القبعة السوداء التي يعتمرها.

وأمــر العقيد راوول أنطونيو أحد الحراس بصرفهم: ليس من شيء للتصريح ولا يبقون هنا فيفقدون العاملين هنا صبرهم، ليخرجوا في الحال. وخرجوا في الحال إلى مــستودع قديم للحمولة تمّ تحويله إلى دائرة رسمية، ولكنهم ظلوا على مقربة. وهــناك أقامــوا مقراً عاماً حيث راحوا يتبادلون المعلومات السابقة - "المبحر بلا ميــناء" الــذي تمّ إرســاؤه في مرسى السفن الحربية التابعة للبحرية، خلال الليل، والسجن في صبيحة اليوم التالي للربان مانويل وماريا كلارا - وتحولوا إلى فضوليين يــصغون إلى روايــات مثيرة من فم كامافيو دي أوشوسي الذي كان قد عاد مع باوليستا وخاتم نيجيري. وكانوا يحتسون الكوكتيلات هناك، في المشارب.

التحــركات الكــبيرة لوســائط النقل تحمل على الاعتقاد بأن اختفاء تمثال القديسة بربارة، أم الرعد، كان الحدث الأكثر خطورة، وبالأحرى الحدث الوحيد الخطــير، الــذي عرفته البلاد خلال الأيام الأخيرة. ويجب التذكير بأن الأحداث الموصــوفة في هذه القصة الخالية من البريق، الغنية بالصدق، قد وقعت خلال أسوأ ســنوات الديكتاتورية العسكرية والرقابة الصارمة على الصحف. كان هناك واقع ثابــت، وبلد قائم على السرية، لا يعلن عنه صحفياً. الصحف ومحطات الإرسال الإذاعــية والتلفازية كانت تجد نفسها محدودة النشاط على النشرات الإخبارية التي

كانت في الحقيقة ليلة الخفقان، وقد تقلصت التعليقات إلى أن اقتصرت على تمجيد غير مشروط لنظام الحكومة والحاكمين؛ الخطر شامل لأي نبأ، وبأية إشارة، متعلقة بيوميات السجون والتعذيب والاغتيالات السياسية واغتصاب حقوق الإنسان، ويحظر أي تعليق على رقابة العروض المسرحية والكتب، وكذلك أية إشارة إلى الإضرابات، والمظاهرات، والمسيرات، والاعتراضات، وتحركات الجماهير ومحاولات حرب العصابات. أي شيء من كل ما هو سابق لم يكن يحدث في الوطن السعيد في ظل حكم الجنرالات والعقداء والدليل على ذلك هو في قراءة الصحف: بعض هذه الصحف كانت تملأ الأماكن البيضاء في الصفحات، لنقص المواد المثيرة بنشر وصفات الطعام - وكانت جريدة "اشتادو دو ساو باولو" قد نشرت وسط صفحتها الأولى وصفة طعام لصنع الكيتاندي، وهو صحن باهياني غير معروف جداً - كما كانت الصحف تنشر على الصفحات الأولى قصائد، ورباعيات، وأناشيد لشعراء كلاسيكيين، وأناشيد من "اللوزياداس". وكان القراء يفهمون جيداً ما يحدث وينفعلون محاولين أن يتكهّنوا بما سيحدث لاحقاً في هذا البلد.

ولم يكن نقد الفرانكوية والسالازارية مسموحاً، وكذلك نقد الجنرالات الأميركيين اللاتينيين المظفرين الذين كانوا يمارسون السلطة بالكفاءة والحزم نفسيهما الموجودين في البرازيل، لأن الأرجنتين، والبارغواي، والأوروغواي، والتشيلي وبوليفيا زميلات لمحدينا - وهذا النقد المحظور ليس فقط في الصحافة بل كذلك في أية واسطة أخرى، وعلى الأخص من أعلى المنابر. ومن منبر الفرقة الفدرالية، وأثناء مدة ولايته، فإن النائب فرنسيسكو بينتو وصف بينوشيه بالظالم: ففقد النيابة وزجّ به في السجن. وكاهنان فرنسيان، عن منبري كنيستيهما، وجدا الشجاعة للدفاع عن العبيد في إقطاعيات أمازونيا فوجدا نفسيهما في السجن وقدّمت ضدهما دعوى من النيابة العامة.

الرقابة، والتخريب، والعنف كانت القواعد المتبعة لدى الحكومة، ويكفي أن تذكر لأن هناك من نسي كل ذلك. زمن الموت والرعب: التوقيف والزج في السجون بصورة آلية متكررة، التعذيب والجلادون، كذب السراب البرازيلي، الإنجازات الكلامية والفداء، والإرهاب أو "اعمل معنا" - لا يزال هناك من هو مشتاق إليها.

الآن، كمـــا هـــو معلوم، فإن الأعمال الطيبة، والأحداث السعيدة، والأمور العاديـــة، والفرح، ليست مواضيع مفضلة في الكتابة: وبقدر ما يكون الشقاء كبيراً يكـــون النـــبأ أفضل. وفي اختناق وفشل الصحافة البرازيلية في ذلك الزمان، فإن اخـــتفاء تمثال القديسة بربارة، أم الرعد، نبأ وقع من السماء كأنه ملذة.. المحترفون مـــن كتّاب القصة البوليسية، وفي أغلبيتهم المطلقة، كانوا قد صدقوا نظرية السرقة المخططـــة الـــتي تمارسها بعض القطط البشرية المتخصصة بالمعابد والهياكل، راحوا يـــشيرون إلى عصابات تبيع مسروقاتها لأصحاب المجموعات، ولكن بعض أولئك القصـــصيين لم يكونـــوا قـــد استبعدوا، بل دافعوا عن وجود مشاركة في الجريمة لمطاردين وبطاركة –! مشاركة أو تنفيذ؟

كـــان رئيس مجموعة منشورات "جورنال دو برازيل" الصحفية، فلوريزفالدو ماتوس، الشاعر الكبير – كم من الشعراء الكبار في هذه الأرض المباركة – باهيا، يـــا إله السماء! – قد حنق على الحياة حين أقفل سماعة الهاتف دون أن يتمكّن من مكالمة دون ماكسيميليانو، وألمح إلى أنه من الممكن أن يكون مفتاح اللغز بين يدي القـــس المحـــتال: في يوم، أكثر أو أقل، سيظهر التمثال جاثماً في المتحف وسيمكن مـــشاهدته هـــناك مع روعته وفخامته. بالمقابل، وعلى مذبح أبرشية سانتو أمارو ستوضـــع نـــسخة محكمة التقليد، صنعت على المقاس، للقديسة بربارة، أم الرعد، المضاءة بالفوريسان، ومتعددة الألوان.

الهرب

اســـتمرّت أعمال ترتيب المعرض تحت إدارة المهندس المعماري جيلبربرت شـــافيس، الـــذي انـــضم إلـــيه المهندس الآخر، والرسام ليف سمارشيفسكي. وكـــان دون ماكـــسيميليانو ينـــسّق، ويوجّه: كثير الطلبات كالمعتاد، ولكنه صـــامت، وقليل الاستعراض الذاتي، بل أية ضحكة، على عكس المحدث اللبق الـــذي كـــان المـــساعدون والأصدقاء قد تعوّدوا عليه. وأشار ليف إلى المادة الـــصحفية في دياريو دي نوتيسياس؛ وغامضاً أجاب المدير بكلمة واحدة: عدم مـــسؤولية. وأقفـــل الموضوع نهائياً؛ فقط كان المكان المخصص الفارغ يذكر باختفاء القديسة.

تناول الدون ماكسيميليانو من بين التحف، عن أحد الرفوف، تحفة هي كأس من الذهب الخالص مطعّم بالأحجار الثمينة من أصل سلافي لإعطائه قيمة، عازلاً إياه فوق طاولة مستقلة، عندما جاء أوسكار مافرا من غرفة الهاتف، حيث كان مكلفاً بالإقامة قرب الهاتف، لينقل له خبراً مستعجلاً:

– يا معلم، لقد اتصل الأب سواريس. – وهذا سكرتير المطران المساعد. – إن الدون رودولف يطلب منك الحضور حالاً إلى القصر. وطلب الأب سواريس من ماكسيميليانو ألا يتأخر. – وقلّد الصوت الموقر لصاحب السماحة: – قل له أن يأتي حالاً، لأن سماحة المطران بانتظاره.

من الزاوية التي رفع عنها الستارة، تفحّص الدون ماكسيميليانو الباحة المكتظّة بالصحفيين والمصورين. كيف يفعل ليجتاز المكان حتى الباب الخارجي؟ كان الأمر يبدو مستحيلاً. وبالرغم من أنه كان قد أدار ظهره فقد لاحظ التوقف عن العمل في الصالة ودون أن يستدير، قال:

– استمروا في العمل، رجاءً. لا يزال هناك الكثير للعمل، والوقت ضيق حتى منتصف يوم غد، فإن كل شيء يجب أن يكون جاهزاً.

واستمر ينظر من جانب النافذة، ثم استدار إلى الصالة، وقام بخطوتين باتجاه المهندس ليف:

– ليف، قل لي: أليست السيارة الواقفة من الجهة الثانية للشارع، عند باب محل روكي، سيارتك؟

– إنها سيارتي، أجل، يا دون ماكسيميليانو. وهي بتصرفك.

– شكراً، ليف، أشكرك وأقبل عرضك. اسمع جيداً. بعد خمس دقائق، سنفتح باب المتحف للصحفيين وندعوهم ليروا كيف يسير العمل. وعندما يصبح الدخول مسموحاً ويبدأون بصعود الدرج، فأنت، ليف، تنزل، تمرّ بينهم، وتمشي دون سرعة، وتذهب إلى سيارتك. شغّل المحرك وانتظرني. أنا أخرج من الكنيسة، وأدخل في السيارة، فتدوس منطلقاً بسرعة. أجال بنظره على طول الصالة، ولم يتوصل إلى الابتسام، ولكنه للحظة شعر بالارتياح للخدعة التي رسمها ليضلّل الصحفيين.

قال وفعل، وتنفذ المخطط بصورة رائعة. فتح نيليتو باب مدخل المتحف، ووجه أوسكار مافرا الدعوة للمحققين الصحفيين: يقول الدون ماكسيميليانو إن

السادة المحققين يستطيعون الدخول. استجمع الصحفيون أنفسهم في الحال مندهشين، مظفرين: إن الكاهن رفع يديه. وكانت تلك الهرولة إلى أعلى الدرج. التقوا بالمهندس ليف: إن العرض أصبح رائعاً، استبقهم ليف دون أن يجيب عن الأسئلة المتعلقة بالدون ماكسيميليانو: أين المدير؟ كانت كاميرات التلفزيون قد أقفلت الممر.

وإذ كان قد خرج من الباب المركزي للكنيسة، بدأ الدون ماكسيميليانو باجتياز الباحة الخالية، وبخطوات سريعة، فجأة، وصل صحفي متدرج إلى إحدى النوافذ ليرمي خارجاً عقب سيجارته فعرف الدون ماكسيميليانو، فشغّل جرس الإنذار بصرخاته: إنه يذهب هناك، هارباً! وعندها تخلّى الدون ماكسيميليانو عن حركاته المصطنعة، المعتادة، وأمسك بطرف جبّته، وراح يركض مهرولاً. وأدرك الباب الخارجي راكضاً ثم انسلّ إلى السيارة، فنهر ليف مركبة الكسل، وانطلق.

المتهم

في جولة الحادية عشرة صباحاً، كانت قد وصلت إلى الصحف، ومن مصادر مختلفة، الشائعات الأولى حول تورط القس أبيلاردو كالفاو في قصة الإثارة للقديسة بربارة. اتصالات هاتفية متشابهة بلغت رؤساء التحرير أو سكرتيرية التحرير وجود دليل، وهو الدليل نفسه في الشرطة الفدرالية والأمن العام، يشير إلى أن قس بياسافا هو المتهم رقم واحد. ابقوا في أماكنكم، كان يجيب رؤساء التحرير طالبين أنباء جديدة ومهمة. تفصيل فضولي: إن الاتصالات الهاتفية التي يمكن إجراؤها بسهولة، لم يكن مصدرها مراكز الشرطة، وعندما علمت الصحف بما حدث للصحفيين في تلك المراكز، فإن رؤساء التحرير لاحظوا أن المكالمات الهاتفية لم تكن من لارغو دا بيبادي أو من المستودع في مرسى الميناء.

منذ تلك اللحظة فإن اختفاء القديسة بربارة، أم الرعد، قد بدأ يتّخذ صفة الإثارة، واللغط غير العادي، وغير المرتقب. إن مشاركة القس كالفاو قد أحدثت ربطاً بين سرقة تمثال "الحاجة" ومشكلة صراعات الفلاحين ضد الإقطاعيين، وغزو المزارع، وردة فعل أصحاب الأرض، وجثث الفلاحين المنخورة بالرصاص، وعمل – الصالح أو المجرم، فالمسألة متعلقة بمن يقرأ ويحكم – آباء كنيسة الفقراء، وهو موضوع متفجر.

إن عمـــل قس بياسافا بدأ يشغل حيزاً كبيراً في الملفات والوثائق، وبارزاً على صـــفحات الصحف. في أكثر من مناسبة خلال الأشهر الأخيرة، ظهر اسمه بعناوين عريـــضة، وعلى أعلى الصفحة: تابع من أتباع دون هيلدر، القس أبيلاردو يؤسس جماعة.

قـــس بياسافا يزعم غزو مزرعة سانتا إليو دورا – مزارع يتّهم القس كالفاو بإشعال النار.

وفي صـــحيفة فضائح هي كناية عن "صحيفة"، ودون تاريخ أكيد للنشر – فهـــي تصدر حين كان أحد المنتفعين يفك حبال جيبه –، أعلن العنوان الكبير عن مادة شهية:

القـــس أبـــيلاردو كالفاو، راسبوتين الفقراء. وأشار العنوان الأصغر إلى اسم باتريسيا.

أحداث "قبل ظهر" يوم الخميس

الله يعطي، كيفما يشاء

ابتداءً من صباح يوم الخميس، أي قبل يوم واحد من افتتاح معرض الفنون الدينية، وكما أصبح معروفاً بما فيه الكفاية، تلاحقت الأحداث، متزاحمة، متشابكة، غير مجمعة على رأي، في الظاهر: مما جعل العقدة تغدو أكثر التباساً، كأنها متاهة.

وأضيفت إلى الشخصيات المعروفة وجوه جديدة، وطنية وأجنبية، بعضهم من أهل الكفاءة المعروفين، متظاهرون بإعلان أنفسهم من المخلوقين المحبوبين، وملتحفين بشهراتهم العريضة. وليس من الضروري الكلام عن جموع الشعب التي انضمّت ولم يكن من ضرورة للدعوة.

من الصعوبة أن تفك كتلة الخيوط المتشابكة وتربط بين أجزائها: إن المسألة هي مسألة سرد الحكاية بطريقة "يعطي الله"، خلال مجرى العذاب، كما كان يقال في الأزمنة المزدهرة. ربما كان ضرورياً المزج بين الأزمنة والأمكنة في مجرى الحلقات، محطماً الانسجام الذي تمّ الوعد به لتروى الحكاية. من يدري، ربما، في وسط التشابك والازدحام يتمّ شق طريق صالح يقود إلى حل المغامرة.

إذا لم يكن ممكناً، وإذا اتضح أن ما قيل كأنه لم يقل، أو كأنه نهاية محادثة فاعتبر العمل قصة أرشمندريت.

التوائم

في صبيحة يوم الخميس ذاك، عندما اقترب القس أبيلاردو كالفاو من قصر البطريركية مرتدياً ثياباً مدنية ولكن بصدرية وقبة بلاستيكية إشارة إلى كونه إكليريكياً، تواجه مع زنجية طويلة هيفاء ترتدي ملابس عادية ملونة. عندما مرّت به، ابتسمت له، واثقة.

وما كادت عيناه تقعان عليها لبرهة خاطفة حتى تراءى له أنه يعرفها حيث لم يعد يتذكّر. ثم عاد وفي نيته التحقق منها، ولكنه لم يعد يلمحها فقد اختفت وسط الجموع في اكتظاظ محلة داسي. وإذ اندفع مسائلاً نفسه عن المكان الذي رآها فيه، وعمّن تشبه، فإنه لم يُصغِ إلى الفتى الذي يعرض عليه شراء صحيفة، مسترسلاً في صراخه:

– اقرأ خبر القديسة التي اختفت من الكنيسة!

تركه المطران المساعد ينتظر مغتاظاً في الصالة الأمامية خلال نصف ساعة كاملة، بالرغم من أنه كان قد استدعاه ليحضر في التاريخ والساعة والدقائق المسجلة، وأوصاه بعدم التأخر: في العاشرة والنصف تماماً. إن المتدرج الديني الذي استقبله وراح يعلم عن وصوله، لم يعد. وإذ شعر بالأسف لأنه لم يشكر الجريدة ليمضي الانتظار وهو يقرأ، فإن القس أبيلاردو انقاد لأفكاره فرأى نفسه منتقلاً إلى مجاهل بياسافا. ولولا ضجيج المحلة الذي يغزو البيت الكبير، وألحان الموسيقى، ونداءات الإعلان عن شيء ما، لكان انتهى إلى تحديد نفسه عند تخوم المشهد الطبيعي، وحقل النخيل، ومزروعات بياسافا، المكان المتواضع، والشعب الذي لا حول له ولا قوة.

في الصالة الأمامية حدّد جرس الكنيسة بطنينه الساعة: وفي تلك الساعة، دقيقة أكثر أو أقل، كانت باتريسيا تجتاز على الحصان المسافة الصغيرة أمام الكنيسة، خبباً كان يقودها إلى ضفاف النهر الجاف بسبب انحباس المطر. وكانت تعود ويعدو بها الحصان مسرعاً، وتترجّل أمام دكان الهندية ميلاً، خلف البيت الخشبي. وكانت تضع اللجام على أعلى السرج وترخي المهمازين، فكان الحصان يعود بحركة ذاتية منه إلى ظل الباحة المسقوفة.

كان القس أبيلاردو، عند باب الكنيسة، يرافق كل تحرك، وكل حركة – تقوم بها الأمازونية: فبدلاً من اللباس، استعملت "جينز" باخ لونه، وبدلاً من الجزمة، احتذت حذاء كرة مضرب مطاطياً.. ولاحت في ذاكرته ذكرى طفولته في السهول الواسعة: عند باب الإسطبل كانت تنطلق العجوز، فالهندية، فالحيوانات. صور من الماضي السحيق، في أعماق الذاكرة، كانت تعطيه ما تعطيه إياه من شعور متوقد هذه الصور التي يراها على الرغم من عدم تماثلها. كان المشهد يتكرّر

كــل يــوم، ولكنه هنا، في أيام قليلة، من زيارات باتريسيا إلى بيت والديها: هذه الــزيارات أصــبحت أطول مما كانت وأكثر تردداً. هكذا تراءى له، أم تراه كان مخدوعاً؟ إن القس أبيلاردو كالفاو يتوازن على نصل سكين حادة، ومع ذلك يريد أن يحمل ثقل الكون على ظهره.

لم يكــد يــنكبّ علــى التفكير بالأسباب القادرة على إملاء التصرف على الــصبية، وعلى مدد الذهاب والإياب والبقاء هناك، حتى رأى القس نفسه مأخوذاً بومــضة غير مرتقبة: إن الزنجية التي واجهها في باحة القصر – أين رآها من قبل؟ زنجــية فاحمــة كمــا كانت، هي التي ذكرته بباتريسيا. إنها باتريسيا، هي نفسها باتريــسيا، أجــل، هــي وليــست أحداً آخر. إنهما متشابهتان، شكلاً، أوليستا متساويتين؟ متساويتين بأية طريقة؟ القامة، الملامح، من يدري؟ هيافة القد، الطول، الــبريق، الابتسامة الغامضة: ابتسامة ثقة. هروب. هناك شيء آخر أيضاً، لا يعرف ما هو: لقد رأى الزنجية فقط للمحة ولكنه رآها بكليتها وللأبد.

متــساوية بباتريــسيا، كما لو أنهما كانتا توأمين، ولكنهما من عائلة وأصل، وســلالة مختلفة. إن التشابه الغامض بباتريسيا ذكّره عندئذ أين وكيف رأى الزنجية مــن قــبل. لقد حدث ذلك البارحة، في رامبا و ميركادو، لدى وصول المركب الــشراعي. مــرّت به كخلاسية ترتدي على الطريقة الباهيانية، وخزته بغمزة من عيــنها. إن لها قامة، وابتسامة، وأناقة، ولياقة باتريسيا. هناك شيء آخر أيضاً، فما عــساه يكون؟ لم يفكّر في حينه لكثرة انشغاله بمجيئه بطلب من المطران المساعد. ولكــنه الآن، في الــصالة الأمامية من المقر البطريركي، فإنه كشف عن هويتهما: أخــتان توأمان. اثنتان أو ثلاث؟ كم؟ انتبه إلى الوهم. وهم، سراب، نزق مخيلة، فالقس لم يواصل التأمل في ذاته؛ وإذ وقف أمامه، بيدين مكتفتين فوق حجم معدته النافــرة، ومتفحــصاً إياه من أعلى إلى أسفل، وبصوت جهوري، أعلن له الأب سواريس أن صاحب السماحة كان ينتظره.

المطران على النافذة

لــدى دخوله الصالة التي كان الدون رودولف يستقبل فيها ويودع، لاحظ القس أبيلاردو أن مستقبله كان واقفاً أمام إحدى النوافذ المفتوحة على المحلة: وقد

اعتلى الكعبين العاليين اللذين كان يختارهما لقصر قامته، وعلى أعلى رأسه القلنسوة الحمراء، وفي وقفة عسكرية: كان القس أبيلاردو قد تصوّر جلافة المطران المساعد بالزي العسكري، ولكنه لم يمنحه قط رتبة جنرال مظفر في ساحات المعركة، وهو ليس أكثر من رقيب أمر قاس. توقف قرب المكتب، ونحنح معلناً عن وصوله.

لم يعر دون رودولف انتباهاً للنحنحة ولوقع الخطوات، فاستمر بعيداً، متأملاً: إن الستارة المخملية كانت تمنع عنه فضول المتطفلين: وكانت الزنجية الواقفة وسط المحلـــة، تحت وهج الشمس، كتمثال، قد سبّبت له رغوة في خصيتيه. وبالرغم من المسافة، فإنه كان يرى، كما لو كان ينظر إليها وجهاً لوجه، أن عيني الزنجية كانتا تلمعـــان كأنهمـــا مفحمـــتان متوهجتان، جمرتان، وكانت تهزأ منه بالتأكيد، غير مكترثة. والأسوأ من هذا، إن هذه المعاكسات لم تكن تريحه بل تتركه قلقاً، مرتاباً من مواصفاته.

ها هي الزنجية تختفي فجأة. كان يحدِّق فيها فاختفت. لم تخرج من مكانها، لم تتحـــرّك، ولم تتلاشَ كدخان، لم تضمحل كسراب: إنها لم تعد كائنة، أو موجودة وظلت قاعدة التمثال فارغة.

أدار دون رودولـــف عينيه، ودون أن يتوقّع، وضعهما على رجل كان يحدّق في واجهـــة القـــصر: بدا الرجل قصير القامة، ينتعل صندلاً مشدوداً بلقطات إلى قدمـــيه، ويعتمر قبعة قش عريضة تغطّي وجهه، وبالرغم من الشمس المحرقة، كان يرتدي معطفاً ضد المطر.. وغير مكترث به، فإن المطران ابتعد عن النافذة، وضرب بـــرجله في خطوة إلى البداية المربكة، باتجاه الطاولة. وقبل أن يجلس، صبّ لنفسه كـــأس مـــاء، وجـــرع منه جرعتين، ونشَّف العرق المنسكب على وجهه وعنقه. واحـــتفظ بالمنديل، ولم يخفِ انفعاله: الحر المداري قاتل، والرطوبة كريهة، منفّرة، وأمامـــه كـــاهن ســـيئ.. كان يحسّ بسوء في كيانه، ورأسه ما يزال مليئاً بالغيوم الملبّدة.

أي جيش من جيوش المسيح؟

لم يكـــن القس أبيلاردو يتوقّع استقبالاً حاراً، أو ودياً، فقد كان يعلم موقف المطران المساعد من المشاكل التي سبّبها لزبائنه في بياسافا، ويعرف انعكاس المشاكل

الاجتماعية التي قسمت الإكليروس البرازيلي، عملياً. ولم يتخيّل، في كل الأحوال، أن اللقاء يأتي ليرتدي هذا الحجم الواسع من المناكفة. فبدلاً من أن يجلس في مكان المحدث في حوار شائك، ولكنه متحضِّر، قائم على الاستشهاد بالنصوص العقائدية، والإشـــارات إلى مقـــررات المجمـــع الفاتيكاني الثاني، وإلى رعاية الأرض والكتب اللاهوتية الحديثة، فإن القس أبيلاردو وجد نفسه جالساً على مقعد المتهم، ليصغي إلى تهمـــة ناشـــفة خطيرة موجّهة إليه. جلس دون أي حق، تقريباً، في الدفاع عن نفـــسه، لأن سماحـــة المطران كان قد فرض عليه الصمت لدى كل محاولة بذلت لعـــرض الحقـــيقة والوقائـــع، وهذا حق لا بدّ منه، ولا يستطيع أن يطلبه من غير السماوات.

لم يكـــن الخـــبث رذيلة من رذائل دون رودولف: لم يكن معتاداً على تبديد أفكـــاره، وينتهـــي إلى الاحترام في حين يمارس الاحتقار. هكذا، حين جلس، قام بحـــركة من رأسه باتجاه القس. لم يضمّه إلى صدره بعناق أخوي، ولم يمد يده، ولم يعطـــه الخاتم ليقبله: لقد كان محارباً لا دبلوماسياً. أشار إلى الكرسي، لدى الجهة الأخرى من المكتب، والإصبع المرتفع، أرسله مع القبضة:

– أرى أنـــك نسيت، ولم تأخذ بالاعتبار، الواجب، ما أوصيتك به في المرة الأخيرة التي التقينا بها، فيما هو متعلق باحترام الملابس الكهنوتية.

– لقـــد أخـــذتها بعين الاعتبار لدرجة أنني مرتدٍ الآن الرداء الكهنوتي إطاعة لأوامر سيادتك.

في العبارة الصحيحة، وبالتجاوب الاحترامي، أحسَّ الدون رودولف بوجود إشارات خداع، فرفع صوته:

– أنـــا قلـــت: "الجبة" وبلغة برتغالية صحيحة. في المرة القادمة أريد أن أراك "بالجبة". أو ربما يكون استعمال "الجبة" سبباً يثقل عليك أو يعيق حركاتك.

ليـــست اللغـــة الـــبرتغالية جيدة دائماً، فها هي اللهجة تصبح أكثر قمعاً وسلطة، وأكثر نهياً وأوامر. بين المطران المساعد في أولى بطريركيات البرازيل، والقـــس الغـــامض في بياسافا، يقع في موضع القتال، جيش المسيح. جيش أم جيوش؟ كثير الاختلاف الواحد عن الآخر، جيش المطران، وجيش القس: إنهما متعارضان، عدوان.

بالنسبة إلى دون رودولف ليس من شك، وكان يؤكد مقتدراً: أن جيش المسيح، بألويته المنتشرة في القارات الخمس، كان دائماً يقوم بمهمة دعم، كما هي الحال عبر الأجيال، لحق ملكية الطبقات الحاكمة. وإذا كان هناك من استغلال، فإن السلطة العليا تتنكّب مسؤولية إصلاحه: من أجل هذا توجد سلطة دينية، يا أب غالفاو، وهي واحدة من النذورات اللاهوتية الثلاثة. إن الكنيسة هي دعم للنظام وليست مثيرة للشغب. مارس الطاعة، يا أب.

الأب أبيلاردو، خلافاً لذلك، كان يعتبر أن تلك الكنيسة من الخضوع والطاعة العمياء، في خدمة الأغنياء والمقتدرين الذين لهم ملكيات العالم، وللفقراء الأمل في مملكة السماء - تلك الكنيسة هي نكران كلمة المسيح: إن على الكنيسة أن تخدم المعوزين وتفرض العدالة. إن جيش المسيح الحقيقي الذي يتمّ تجنيده في مجمعات الأكواخ المهملة في المدن وفي بؤس مخيمات العالم الثالث يأساً من الكهنة والمطارين، حملة المظالم الجديدة، يجب أن يساند عمل التمرد، والمقاومة، والنضال.

وجهاً لوجه، التكوينان اللذان وإن كانا مرتديين، كلاهما، الجبة التقليدية فمن المستحيل عدم التمييز بين القديم والحديث، للتناقض الذي يقود بلا تعب وتردد، تقدم المجتمع.

لم يعد من داعٍ لهذا الحديث، لأنه، هنا ما يجب أن يتم، وما هو مرغوب فيه، إنما النبأ الحاسم، الكلي، عن الاختلاف الذي يلتزم به، كل واحد من ناحيته، المطران المساعد، والقس الريفي، ودون أن يكون صاحب النبأ طرفاً ويحاول أن يؤازر أحد طرفي النقاش. وحدّد دون رودولف الهرطقة:

- إن الله، يا أب، أوكلوكراتي. وليس من هرطقة، أكثر تأثيراً وخطورة في أيامنا من إرادة غرس الأوكلوكراتية في الكنيسة. وهذا ما تريد أن تفعله.

كان الدون رودولف بئراً من المعرفة، فالقس أبيلاردو كان أوكلوكراتياً وأكثر من هذا كان يجهل التعبير ومعناه. وكان يرغب فقط في جعل الاحترام مطلقاً للإقطاعيين وسادة الأرض والملاكين ولكنه كان يظهر، هو أيضاً، دراساته: كان طالباً في السلك الكهنوتي، مواظباً، ويقولون عنه إنه لامع، ويتكهّنون له بمستقبل باهر ومشرف. وقطع عليه الدون رودولف كلامه لدى استشهاد القس أبيلاردو بالقديس أمبروزيو: إن الأرض قد أعطيت للجميع وليس فقط للأغنياء،

والإصـــلاح الذي وهبت إياه قد وهب للجميع من أجل المصلحة العامة. لم يصل إلى نهايـــة الجملة حتى كان دون رودولف قد رماه بالتوراة في وجهه. وتمّ إخراس أبيلاردو باللاتيني: "أعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله".

الإنذار

المطـــران المـــساعد لم يذعن لطلب صاحب مزرعة القديسة أليودورا، السيد جواوزينيو كوستا – لقد كانت الزوجة أليودورا كوستا نصيرة الكنيسة، الجليلة – الذي طلب الإبعاد والاستبدال الفوري لكاهن رعية بياسافا: إن الكاردينال لم يعطِ موافقته.

في رأي الكاردينـــال، أن أزمات بياسافا، وغيرها في البلاد، كانت ناتجة عن الـــبؤس الكبير والمكدر، ولم يكن بإمكان الكاهن معالجتها. يجب التصرف بحذر، وثبات، ولكن لا يمكن تجاهلها. هكذا قال للمطران المساعد عندما قرّروا استدعاء الأب أبيلاردو كالفاو "ليقطعوا جناحيه لا ليقطعوا رقبته".

ووعـــد الدون رودولف، بالمقابل، بوضع غطاء على عمل القس الانحرافي – عمـــل انحـــرافي حسب قول المزارع. خلال المحادثة المحتفظ بها لما بعد وليمة الغداء الـــذي جمـــع العائلة للاحتفال، بمعمودية الابنة الصغرى، مرلين، فإن المطران فضّل تصنيف عمل القس كعمل متسرِّع، وغير متوقع. وبالمناسبة، فإن جواوزينيو كوستا أشار، بإشارة سريعة، إلى العلاقة المشكوكة بين القس وإحدى الفتيات، ابنة الجابي الإقليمـــي. وبحجة زيارة الوالدين، فإن زينيا، وهي بالتأكيد "خذ واجلب"، كانت تـــأتي إلى بياســـافا تجول في أراضي المزرعة، وبيوت الوكلاء، عندما لا تكون مع رجلنا القديس وراء أبواب مقفلة بإحكام، في الكنيسة.

بعد الأوكلوكراسيا واللاتيني، جاء دور الإنذار:

– اسمعني بانتباه حتى لا تقول لاحقاً إنني لم أنذرك، يا أب غالفاو.

إذا كـــان القـــس يرغب في الاستمرار بممارسة الخدمة في بياسافا، يجب أن يتجـــنّب وضع اسمه في أفواه الناس، عبثاً، ويجب أن يتخلّى دفعة واحدة ونهائياً عن عمل الانحراف، انحراف لا تسرّع: هنا، وحيداً مع القس، فإن الحديث يختلف، ولم يكـــن يلطـــف من النعوت – والتخلي عن الدعوة الماركسية غير الجديرة بكاهن،

ويجب أن يعود إلى إنقاذ النفوس وليس إلى قيادة رجال العصابات. إن الله والبطريركية قد عيّناه قساً، والمسألة تتوقف عليه، هو القس كالفاو، إذا كان يريد أن يستمر في بياسافا. إن عمله سيكون مراقباً خطوة بخطوة.

"قد النفوس ومارس الطاعة". وأملى باعتداد واقتناع وبصوت آمرٍ ناهٍ أنه لم يكن يعطي النصائح بل يملي الأوامر. واستراح قليلاً قبل أن يستطرد:

– وأوصيك إضافة إلى هذا، بالاعتدال في علاقاتك النسائية. إنك تقوم بها على مرأى من الآخرين.

– علاقات نسائية؟ أية علاقات، قل لي! أرغب في المعرفة.

– لا يهم أية علاقات، لست أسألك ولن أجيبك. ابقَ جالساً، فهنالك موضوع آخر يجب معالجته. وفَقَدَ صوت المطران المساعد عدائيته:

– هل تعرف شيئاً ما عن تمثال القديسة بربارة، أم الرعد، التي جاءت في نفس الرحلة..؟

ظلّ السؤال في الهواء، غير مكتمل. على الباب المطل على الصالة الصغرى، كان الأب سواريس يستأذن بالدخول، وهو يحرّك في يده ورقة.

الاتهام

وضع الأب سواريس المذكرة أمام دون رودولف ومكث واقفاً بالانتظار ويداه مكتفتان فوق بطنه. فرفع المطران نظره إليه:

– هل هو على الهاتف؟

– لم يوعد. طلب الاتصال به.

– قل لي إني سأستجيب.

وحين عاد إلى الصالة الصغرى، سمع الأب سواريس يعلن: أن سماحته سيستجيب في الحال، وبإمكانك أن تكمل الاتصال؛ فرفع دون رودولف السماعة عن الجهاز الموضوع عند طرف من أطراف مكتبه، وظل منتظراً. لم يتأخر في الانتظار، فأجاب، متلطفاً:

– صباح الخير، يا عقيد، كيف سارت الأمور؟ وإلى أي شيء يسعدني أن أصغي؟ – أصغى، ورفع حاجبه: – مهم وطارئ؟ قل من فضلك. – وقاطعه محدّثه

في الحـــال، لـــيؤكد: - إني على علم، أجل. كنت أنا من نصحه بالتفتيش عنه، يا عقـــيد. هـــل تتذكّر أنني طلبت منك أن تستقبله؟ - وابتسم بانتظار خبر سعيد، ولكـــن الابتـــسامة ما لبثت أن تبخّرت: - ماذا تقول؟ نعم، أعرفه، واضح... - حـــرّك عينـــيه وألقاهمـــا على قس بياسافا. - لحظة يا عقيد... إني لا أسمع جيداً، سأغيّر الجهاز.

وقـــف، واتّجـــه إلى الصالة الصغرى. وهو يذهب، أوصى الأب أبيلاردو: انتظرني، فلن أتأخر. ولكنه تأخر، وطالت المكالمة الهاتفية. وبحركة - من المطران، أقفـــل الأب ســـواريس الباب بين الصالتين.. القس وحيداً كان يعلق، ويتأمل في الأوامر التي تلقّاها. إن أسياد الأرض قد مدّوا أيديهم الثقيلة وأذرعهم الطويلة.

وأحـــسّ بقلـــق لدى رؤيته المطران المساعد واقفاً أمامه، وكأنما في يده أربعة حجارة، يريد أن يعرف عن التمثال الذي بدأ بسؤال قبل المكالمة الهاتفية. الآن، مع هـــذا، فـــإن صوت دون رودولف جاء حاسماً، انفعالياً، و لم يعد يطرح سؤالاً، بل يوجّه اتهاماً هو أقسى وأكثر مدعاة للحيرة من كل شيء:

- والقديسة، إلى أية نهاية أوصلتها؟ - لم يفسح له في المجال لغير التعجب، ثم عاجله من جديد: - تمثال القديسة بربارة، أم الرعد، التي جاءت تحت حمايتك من ســـانتو أمـــارو، إلى أين أخذتها، أين أخفيتها، لماذا سرقتها، ومن هم شركاؤك في الجريمة؟ يا أب غالفاو، إنك تماديت كثيراً.

ومضة باتريسيا على ضوء النهار

مـــن يكلّف نفسه قليلاً من الجهد فيرجع إلى بداية الحكاية. يتذكّر أن القس أبيلاردو كالفاو لم يكن يعرف عن باتريسيا غير رخامية الصوت، ولغز الابتسامة، ودلال العينين. ومع هذا، كان قد جاء الكلام عن باتريسيا، كما غدا معروفاً، أكثر من الكلام عن الآخر. ومن الضروري استدراك الإهمال الغامض، والتخلي، بسبب اعتـــباره غير ضروري، عن أية محاولة تبرير، وأي طلب للاعتذار: ومن المستحيل تفسير الإهمال دون اللجوء إلى طريقة فنية أو إلى كذبة اصطناعية.

كـــان هـــناك، بالتأكيد، من عرفها في "أشي دو ألاكيتو" وهي تودع ضحية ليانسان، سيدة وجودها وحامية رأسها. أقفلت عينيها في اللحظة التي وضعت فيها

السكين التي عالجها أشوغون، ليقطع حياة وزعاق العنز. صحيح: إن الصبية كانت باتريسيا نفسها والعنز جيء بها من قطعان جواوزينيو كوستا.

السيد جواوزينيو كوستا، السيد الإقطاعي، الذي دون أن يذكر اسمها ولكنه زوّد عنها بتفاصيل دقيقة بالإمكان بواسطتها التعرف إليها فوراً ودون خطأ، أشار إليها في حديث مع المطران المساعد، تمّ الاحتفاظ به لما بعد معمودية مرلين في يوم الأحد الاحتفالي، وبعد قدّاس الحادية عشرة في الكاتدرائية الباسيلية. وفي الخطبة، فإن رودولفو كان قد أعلى من الفضائل التي كان يتّشح بها ذلك الزوج المسيحي.

وخبباً، احتازت باتريسيا على حصانها صالة الانتظار في المقر البطريركي، وترجّلت على مقربة من كنيسة بياسافا، أمام عيني القس أبيلاردو الزائغتين، المغتمتين. وبفضل الكاهن، ظهر اسم باتريسيا في الصحف، خارج المكان المخصّص للنبأ ونقد العروض الفنية.

وفقاً لما يمكن تذكره، وما عدا تلك الإشارات القليلة، لم يتم القيام بأي خبر عنها: تفيض بعض النعوت - رائعة، أنيقة، فارعة الطول. إنها صفات سلالية، وإطراءات مستحقة تلقي عليها الأضواء ولكنها لا تصفها، لا ترسمها، لا شكلاً، ولا جوهراً.

فارعة الطول أو قصيرة، سمينة أو نحيلة، جدّة أو ساحرة، صدران كبيران أو صغيران، والنصف الأسفل كما كان؟ حتى إنهم لم يوضحوا لون الجلد: كونها حصيلة التمازج الهندي، الزنجي، والأبيض، فإنهم تكلموا عن لون محروق، فماذا يعنون بهذا؟ لقد جاءت، وإن متأخرة، فرصة تقديم باتريسيا على ضوء النهار الكامل، هابطة على غيمة في فجر يوم اللقاء، وقبل أن تعرض نفسها متألقة، مسرّحة الشعر، متبرّجة، على ضوء المحارق المشتعلة.

فيما هو متعلق باللون المحروق، كان يجب أن يكتب: لون أسمر كستنائي، وهكذا يجب أن يقرأ: سمراء بلون القرفة - عذراً للمكان الشعبي، ولكن ليس هناك تشبيه أفضل - الشعر الطويل السارح، أسود برّاق، والوجه ترسي، شرقي، وريث سلف هندي: وجنتان نابيتان، وعينان منحنيتان. منحنيتان ولكن زرقاوان زرقة مياه البحر - وهنا ستجد مفتاحاً آخر - عينا أجنبية أوروبية. عينا دلال، حدّدهما القس أبيلاردو، موضحاً المعنى الكامل بالرغم من سلطته المحدودة في مادة المرأة:

خوفاً من أمنيات العقاب، إغرس سيفك مرة واحدة تجنّباً لسوء التفاهم. ولو كان هناك القليل من الكفاءة، فسيرى صاحبها أن دلال باتريسيا كان يمتد من عينيها إلى كامل جسدها بانزلاق على صفحة الصدر حيث ترتفع مدفوعة قميص الحرير الناعم امتداداً إلى كبرياء الخصر وامتداده إلى النصف الأسفل المغطّى بالتنورة القصيرة. إنه النصف الزنجي، "ديو غراتيا"!

أنهت تخصصها بالآداب الفرنسية في كلية الفلسفة، ولكنها لم تترك الجامعة فانتسبت إلى مدرسة المسرح، حيث كان – لله ما أروعه – المدير نيلسون أراوجو، الروائي والدرامي، الذي اكتشف موهبتها، وغيّر لها اسمها واستشرف لها مستقبلاً زاهراً: لا أحد يستطيع أن يقف في دربها، لقد خلقت للمسرح.

وتألّقت باتريسيا في المسرح، منذ سنتين، في تمثيلية للأطفال وخلال هاتين السنتين عملت في كل شيء: مسرحيات أخرى للأطفال، ومسرح غنائي، ومسرح راقص، مسرحيات درامية وفكاهية، وتفاهات فنية، وخالطت أدباء محليين وأجانب، وكانت تقوم بكل ما يطالعها – إن حركة المسرح الصغير في المدينة لا تترك مجالاً للاختيار. وفي السينما حصلت – بواسطة نيلدا سبنسر، وهذه وجه شهير آخر راهنت عليها وحمتها – على دور صغير في فيلم لنيلسون بيريرا دوس سانتوس، مأخوذ عن رواية باهيانية. لقد سرقت أضواء المشهد، وفقاً لما كتبه وولتر دا سيلفيرا، "بامبامبا" النقد السينمائي: لو أن دورها كان أكثر أهمية لسرقت أضواء الفيلم برمّته.

مع زملاء لها في الجامعة من الملتزمين بمقاومة الدكتاتورية العسكرية، شاركت في تأسيس مسرح"دي أريـنا باهيا" الذي عاش قصيراً ولكن فعّالاً – ففي يوم وصلت الشرطة وأودعت كامل الفرقة المسرحية في سيارة نقل براز المساجين، ونقلتها مباشرة إلى السجن. وكانت التهمة بسبب إلحاح الطلاب على تقديم مسرحية منعتها الرقابة: فقد استمروا في التمارين ووضعوا على لوحة الإعلان في المسرح المضاء إعلاناً عن تاريخ الافتتاح. وإذ تمّ انتزاع الإعلان بواسطة الشرطة، فإنه غدا الدليل على الجرم المشهود، وعاش الشباب لحظة البطولة، مع حقهم في سجل عدلي ملطّخ في شرطة المحافظة على الأمن السياسي والاجتماعي، وكذلك في التهديدات التي تعرّضوا لها.

وكانـــت تتـــردّد علـــى جمعية التحالف الفرنسي، وتلقي أشعاراً لإيلوار – أيتها الحـــرية، أكتب اسمك – وكانت تحلم بمنحة دراسية إلى باريس عندما لا تحلم بالقس أبـــيلاردو. وكان يحدث لها أن تجمع في حلم واحد باريس والقس أبيلاردو. وكانت تـــرى نفسها معه بيدين متماسكتين، وهما يهبطان معاً، تحت الثلج، ووسط الازدحام المجـــنون في الحـــي اللاتيني، إلى "أبو الميش". "دي تورتيرو"، كان يقول الأستاذ جوان باتيـــستا. وللكـــلام عن الأستاذ جوان باتيستا، فأين هو الآن؟ لماذا اختفى من الحبكة والعقدة شخص لطيف مثله؟ إن الأستاذ، يجب القول، كان يعرف باتريسيا وكان أحد المعجـــبين بهـــا، ويطري على لفظها الفرنسي، وعلى سحر ومواهب التمثيل. وكان يتكهن: في يوم قريب ستلعب دور "فيدر" التي كتبها راسين.

باتريسيا في المنـــزع

لم يكـــن القس أبيلاردو، بسبب معاناة وجدانية، أو خجل، أو حذر، يعرف عـــن باتريسيا رخامة الصوت، ولغز الابتسامة، ودلال العينين وحسب. آه، لو أن الأمـــر توقف عليها، فقط عليها! لحسن الحظ أنها كانت تجهد نفسها: لأنها كانت دومـــاً مهـــدّدة بالـــصوت الذي ينطلق إلى نصف الجملة، وتلك النظرة الضائعة، والابتسامة الغامضة، وذلك الوجد والتنهّد.

لـــن تكون مغامرة سهلة، على الإطلاق، لأنها كانت تفرض تشريفهما لها، وأن يـــتحابا وينبهـــرا، ولا يمكن أن تحدث هكذا، لا أكثر، ولا أقل، لأنها لم تكن مغامرة فراش مباشر. مرة واحدة حدث لها أن تكون مفترسة بالرغبة، محتاجة، غير قادرة على التفكير، والتأمل. إن ولهاً شبيهاً بذلك الوله قد طال: والآخر بالإضافة إلى كونه جميلاً، كـــان متحفظاً. وكان أبيلاردو، على العكس من ذلك، فهو بالإضافة إلى كونه جميلاً، كـــان رائعـــاً. لم تكـــن باتريسيا تعرف أحداً يستطيع أن يماثله. القلب طاهر وكريم، الـــذكاء حاد، وأي فم هو هذا الفم الذهبي، المقنع، الذي يهزّ أعماقها، ومع كل هذه الـــصفات كـــان واهـــباً نفـــسه للنضال للقضاء على أسباب الشقاء. وماذا عن شعر "الغاووشـــو" الطـــويل، العالي؟ إن لديها رغبة في أن تغرس أصابعها في اللبدة الشقراء، المجعّـــدة. ,تلاعـــبه لـــيغفو. ولكن هذا المخلوق المحبوب، هنا، كان يبقي نفسه بعيداً وبارداً، ولم يكن يفهم الحمى التي تلتهم بطن باتريسيا.

العلاقات التي ربطت بين الطالبة والقس ولدت من الاهتمام الذي كانا يبديانه تجاه واقع حياة الملاكين والإقطاعيين، وواقع الذين كانوا بلا أرض، ونفّذت تلك العلاقات من محادثات لا تنتهي عن السياسة والأدب وأحزان الشعب البرازيلي، السجون، والتعذيب، والمقاومة، وخطبة مطران أوليندا وريسيفي، وأعمال الثائر الوطني كارلوس ماريفيلا، وغدت تلك العلاقات حميمة وعطوفة، ولكنها حميمية وعطف أخوين. روحان أخويتان، كان يقول.

في اللحظات الحميمة كانت باتريسيا تفكّر في أنها لمحت نظرات غامضة، ولفحات رغبة في نفس القس، وتهدج الصوت، وعلى الأخص في مراحل الصمت المفاجئ. إنها نار قش، لا تدوم: فهو لا يلبث أن يتّخذ طريق الإخوة كما لو أنه لم يلاحظ انتفاضة الصدر، ولم يرَ الانحناءة التي تسهل الاستطلاع ولم يحسّ بارتجاف الركبة، والخفقان الصاخب في تنفسها. ألم يكن يفهم، أم أنه لم يكن يريد أن يفهم؟ هل هو غير مكترث، غير شاعر برغباتها كامرأة أم أنه خجول، خوّاف، وممنوع عن هذه الأمور؟

لم تتصوّر باتريسيا أبداً أن الكاهن يستطيع أن يكون وفياً لدعوة العفة، فكم بالحري إذا كان قساً عصرياً، يرتدي الجينز والقمصان المعرّقة، وكل اهتمامه ينصبّ على المشاكل الاجتماعية، ويقود العمل الجماعي، وينتفض بغضب ضد الإقطاعيين والبورجوازيين، بالإضافة إلى كونه رجلاً يسارياً. عفة؟ إنها قضية ماضٍ منطفئ، شبيهة بعذوبة الفتيات قبل الزواج أنها كلها أحكام مسبقة.

في المنزع، كانت تعزل التنانير، والقمصان، والبناطيل الطويلة، وفستان الباهيانية الأبيض، والأزياء التي ستستعملها خلال الأيام الخمسة من التصوير السينمائي مع الفرقة الفرنسية، حتى إنها كانت تحسّ بالبرد في عمودها الفقري عندما تفكّر بالبرنامج التلفزيوني. في صبيحة ذلك الخميس، وفي الساعة نفسها التي كان القس أبيلاردو كالفاو يناقش العقيدة مع المطران المساعد، جاءت باتريسيا على اسمه عمداً، في محادثة مع سيلفيا أزميرالدا زميلتها في الدراسة، صديقتها وموضع ثقتها.

سيلفيا أزميرالدا، الاسم اللامع في تزويقة المجتمع البارزة، وإذ أصيبت بفيروس المسرح، كانت ترافق بفضول الإثارة في عملية التوله الموجع: لم تكن باتريسيا

تعرف أن تتكلم عن أي شيء آخر ما عدا أن القس هو أعظم رجل على الأرض. بعـــد ذلـــك عندما أصبح لديها وفي تصرفها فرقة من الفرنسيين: إن مدير الفرقة، الــشهير، كـــان شاباً مكتملاً، وتحفة رجولية! يكفي اسمه حتى يستحق الأمر عناء عملية اختراق كفيلة بأن ترفع من مستوى السيرة الذاتية لنجمة مسرحية.

- وفقـــاً لحساباتي - أفادت باتريسيا - لا بدّ من أن يكون قد وصل. وعد بالتفتيش عني. من المحتمل أنه هنا..

- ماذا؟

- اعـــرفي جـــيداً، يا سيلفيا، إنني سألتهم هذا القس حتى لو اقتضى الأمر أن أجرّه من يده. إنه شخص، لم أجد من يضاهيه حماقة.

مـــدّت سيلفيا أزميرالدا يدها إلى الضوء وتفحّصت أظافرها المصبوغة بالأحمر الغامق:

- إنها ليست حماقة، لا يا صغيرتي. إنها عقدة العقاب، فالراهب لا يستطيع أن يتنكّر لعفّته. سترين أنه لا يزال بكراً.

- بكراً؟

كـــان يبدو هذا الأمر مستحيلاً على رجل بهذا العمر قارب الثلاثين. ولكنها حين فكّرت ملياً بدا لها الأمر ممكناً: إن ما لا يصدق يحدث حين لا تنتظره. عضّت باتريسيا على شفتيها، والعينان زائغتان، محمومتان:

- هذا المسكين، لا يزال بكراً.. - وماج الصوت منطفئاً، منكسراً: - نعم، إذا كان بكراً فلن يكون بعد اليوم، وأقسم بخلاص روحي.

رسمت إشارة الصليب وقبّلت يدها:

- فليساعدني الله.

- جاحدة! زنديقة! - قالت سيلفيا أزميرالدا أي شيء لتظهر بمظهر الذكاء، بينما عقلها عند الفرنسي.

أغنية باهيا

الفرنـــسي الشهير، الأعزب المكتمل الذي كان يزعج تفكير سيلفيا أزميرالدا كـــان جـــاك شانسيل. يطوف بلحمه وعظمه في جوانب المجمع التاريخي ليجمع

التفاصيل الأخيرة لتصوير سينمائي لأكثر من حلقة في "لوغران "إيشيكيه": وكان قد بدأ التسجيل عصر ذلك الخميس. كانت مدة الحلقة ساعتين وخمس عشرة دقيقة، مخصّصة كلها لحياة وعادات مدينة باهيا: الكوندومبليه، والموسيقى، والسامبا المستديرة، والمواكب الكرنفالية الراقصة، والغناء الفولكلوري، والزواج، والبحر، والشعب والموسيقى إنها "أغنية باهيا" أعلن شانسيل في مؤتمر صحفي، لدى وصوله.

قبل ثلاثة أعوام كان قد سافر إلى البرازيل مع مجموعة من نجوم ر - ت - ف، راديو وتلفزيون فرنسا، ليشارك في تسليم جوائز موليير في الريو وساوباولو، فتوقف شانسيل في باهيا لإقامة سريعة من يومين. وبغية إجراء مقابلة مع فينيسيوس دي مواريس الذي كان آنذاك مقيماً في إيتابوا، وتلك المقابلة هي لبرنامج آخر يقدّمه من الإذاعة: راديو سكوبي. وفي بيت الشاعر التقى دوريفال كايمي، وسمع أغانيها البحرية والسامبا، فغدا "مرتعشاً".

عندما علم بأن دوريفال كايمي كانت بطريركاً لمجموعة كبيرة من المؤلفين الموسيقيين، طلب من نيلدا سبنسر التي حمل لها رسالة من مدلين أرشيمه، من شركة الطيران، والتي كان سيتناول الغداء المصنوع بالزيت، في بيتها، أن تمكّنه من معرفة بعض موسيقى هؤلاء الباهيانيين المشهورين، فجمعت نيلدا عشرة أشرطة طويلة، وقبل تناول وجبة الكورورو النباتية، وبعدها، وكذلك حلوى "الفاتابي" المصنوعة بحليب جوز الهند وبعدها، فإن الضيف المكرم، المبجل، المحتفى به، وقف قرب آلة التسجيل، مصغياً إلى أصوات ماريا بيتانيا، دي غال كوستا، وماريا كريوزا، وإلى المؤلفين الموسيقيين، كأنما ما سمعته كان كرنفالاً أسطورياً.

وليعذره الموجودون، الذين كانوا قد دعوا للتحدث معه، على عدم اهتمامه بهم: فهو عند الغروب سيستقل الطائرة إلى الريو دي جانيرو حيث سيستقل طائرة أخرى إلى باريس، وعليه أن يستفيد من الوقت. دقائق المحادثة القصيرة، مع ذلك، استحقّت العناء لأن النجم الكبير استفاد منها ليدلي بتصريح أعلن فيه عن حبه للمدينة التي بهرته بجمالها القديم، وجوها السحري، وزخم الحياة الشعبية. وقال الروائع عن الموسيقى التي انتهى من الإصغاء إليها وأعلن عن نيّته في أن يعرض المدينة وشعب باهيا للجمهور الفرنسي، مكرّساً لهذا واحدة من حلقاته المقبلة من

بـــرنامج "لـــو غـــران إيـــشيكييه"، البرنامج الأكبر جمهوراً كما يعرف الأصدقاء بالتأكيد.

نـــيّة، لا قرار حاسم، هي ما اتخذ هناك، في تلك الساعة: وما كاد يصل إلى بـــاريس حـــتى راح يتّخذ الاحتياطات اللازمة، وعاد بالتالي إلى التصوير. صفقت نيلدا سبنسر، متحمّسة، لأن الفرنسي كلّفها بسلسلة من الاهتمامات. ولكي يبدأ، كـــان علـــيه أن يـــذهب لمقابلة فينيسيوس دي موررايس لكي يدرس، وللضرورة القـــصوى، طبـــيعة البرنامج بكل تفاصيله. وإذ قال ما قال، فإن الزائر الشهير قام بالتوديع موزعاً القبلات والعناقات: "أَبِينتو"!

في الـــيوم التالي سخر فينيسيوس ضاحكاً من براءة نيلدا عندما راحت الممثلة مـــندفعة بحماس تفتّش عنه وفقاً لإلحاح محطات سكة التصوير - إن الرجل يطلب الضرورة القصوى، يا حضرة الشاعر. يا حبيبتي نيلدا، انسي هذا، ولا تتقدّمي بأية توصية، ولا توقّعي على اتفاقيات، ولا تضيّعي وقتك، ولا توظّفي امتيازاتك. فإذا فعلت، فستنسحقين. أخذها من يدها وقبّلها بعطف، قبل أن يتابع.

إذاً فهـــي لم تكن تعرف كيف تسير الأمور مع هؤلاء الأجانب؟ يصلون إلى البرازيل، يتحمّسون، ويهبطون في باهيا، فيعبدونها، ويقرّرون أن يقوموا ببناء عوالم جديـــدة مـــع أساسات جديدة، ويعلنون عن عروض موسيقية، وبرامج تلفزيونية، وأفلام سينمائية، والشيطان على الأربعة: الحماس حقيقي، والنيّة سليمة. ولكنهم، لا يكـــادون يـــضعون أقدامهم في الطائرة التي ستقلّهم في طريق العودة إلى باريس ونيويورك، يصبح الرفاق في عالم آخر ولا تعود تعرف عن أخبارهم.. لقد أعجب جاك بباهيا وهو بالتأكيد يرغب في إعداد برنامج موسيقي مع الموجودين هنا، ولم يكـــن يمـــاري حين قال ذلك. ولكنه في هذه الساعة، في باريس، فإنه لن يتذكّر محادثة الأمس وحتى لو أراد أن يتذكّر فلن يكون لديه الوقت، ومشغول بألف أمر، يا عزيزتي نيلدا.

ومع هذا تذكّرت نيلدا "أورفيو"، فيلم مارسل كامو المقتبس من فينيسيوس. إنـــه الاســـتثناء الذي شذّ عن القاعدة، اعترض هو: ولن يتكرّر. ولكن لا تحزني، زنجيتي السوداء، اصغي إلى هذه الأغنية عن إيتابوا التي أهديتها لتوّي مع توكينيو. بلع جرعة شراب، وأمسك بالكمنجة.

تابعت الممثلة نصيحة الشاعر، ولكنها نصيحة جعلتها ميتة حزناً:

إن مـــشروع حلقة مخصصة لباهيا في برنامج بمثل هذه الأهمية مثل "لو غران إيشيكييه" بدا لها أقصى ما يمكن الطموح إليه، وتلك الفكرة العبقرية ولدت خلال الغداء في بيتها، وكانت تحسّ بأنها شيء يخصّها هي، وترغب في أن تراها متحقّقة، ولكـــن كـــان لفينيـــسيوس تجربة، وأصبح متمرساً، ونيلدا لم تتأخر في مدِّ يدها للمسطرة: تعبت من انتظار كلمة من الفرنسي، فلم تعثر على إشارة حياة.

كانـــت قد نسيت كلياً ذلك الموضوع الذي انتهى إلى الخيبة، وها هي، بعد ثلاثة أعوام مضت على غداء الزيت، تستلم برقية من باريس وقّعها جاك شانسيل يعلـــن فـــيها عـــن وصوله إلى باهية بعد أربعة أيام للمدعو غي بلان، فني سينما وتلفـــزيون، مع مسؤوليته عن إنتاج حلقة "لو غران إيشيكييه"؛ وسيصل شانسيل بعـــد أسبوع مع سائر أفراد الفرقة. أما البرقية السريعة فإنها تكلمت عن المشروع كما لو أن بضعة أيام كانت قد انقضت وليس ثلاثة أعوام كاملة. بعد تاريخ الغداء والمحادثـــة الأولى: وكانت البرقية قد طلبت منها الاتصال بفينيسيوس وإعلامه عن الـــسكة. ووقعت نيلدا من الغيم. سعيدة، متصالحة مع الحياة: كانت ترغب في أن تقول إن الحياة، هي غالباً، سوريالية. ولكن العائق الوحيد كان في أن فينيسيوس لم يكن موجوداً في المدينة. كان قد ذهب في رحلة إلى الأرجنتين والأوروغواي، ولم يعد بإمكانهم أن يتّكلوا على الشاعر.

مديـــر الإنـــتاج، كفـــوء، وشغول، فهو لم يضع الوقت، ولم يكد يهبط من الطائـــرة حـــتى وضع المشروع قيد التنفيذ السريع: فراح يطوف المدينة في سيارة التاكـــسي الـــتي يقودها ميرو، وتمّ التعاقد معها لخدمة الفرقة. كانت ملاقاة نيلدا الشعبية والمحبوبة ذات نفع كبير لها: المحافظ، ورئيس البلدية، والكاردينال وأمهات القديس كانوا جميعاً يبادلونها التكريم، وكان الفنانون والمؤلفون الموسيقيون يحملون معاطفها، فكانت تتوصل لكل ما تريد، وأكثر. وقامت باقتراحين تمّت موافقة غي بـــلان عليهما في الحال: توكيل نيلسون أراوجو بالسكة، والتعاقد مع باتريسيا دا سيلفا فالسبرغر كمترجمة في خدمة الفرقة.

لدى وصوله، وافق جاك شانسيل على الاستعدادات الموضوعة، وأطرى كل ما هو من عمل باتريسيا. وهكذا رآها، سمراء ذات عينين زرقاوين، مزيج هولندي

وهندي، وسمعها تتكلم فرنسية بلهجة برازيلية لا تقاوم، وقام بترقية باتريسيا داس فلورس إلى رتبة مساعدته الشخصية. جمال مثير، وأكثر، متكتمة وطارحة نفسها، لقـــد عرفها وأعلن على الملأ: لم يكن هناك أخرى كاملة مثلها لمساعدته في تقديم البرنامج: "تولموند سيرا أنفوتي".

فضائل أوليمبيا

روح بـــسيطة، ورجل صادق، هذا هو صاحب مزرعة سانتا أليودورا وغيرها من المساحات الشاسعة المدينية والريفية التي لا يشار إليها هنا احتراماً للإقطاع غير الخاضـــع للمـــراقبة: وسواء كان الأمر بتواضع طبيعي، أو باحتراز لتجنُّب ضريبة الدخل، فإن جواوزينيو لم يكن يعجبه أن يعرض على الملأ لائحة ملكياته.

ومـــن صنّفه بذلك التعبير القاسي هو صهره ومستشاره الأستاذ إستيريو دي كاســـترو، المقاول المظفر في تنفيذ الأشغال العامة، وزوج أوليمبيا السعيد، أوليمبيا الابنة الكبرى للمزارع العجوز، العملاقة الوفيّة، عندما تعرّف إليها خلال كوكتيل صـــاحب في المقر الجديد لشركة كاسترو للعقارات والبناء المحدودة، فإن الصحفي أوغوســـتو باستوس المعرف بغوغعو بوستا، فَقَدَ توازنه وحذره، وخرج هاتفاً: إنها طائـــرة، طائـــرة! وبطلب من المقاول فإن صاحب الريشة الانسيالية قرّر مقاولات التقـــريظ للحكومة؛ وكان الأستاذ كاسترو هو من يوقّعها وينشرها على صفحات الـــصحف. تلك المقالات مع نكران ذات أوليمبيا كانت المفاتيح التي اعتمد عليها ليفتح الأبواب الموصدة ويخلع صناديق الدولة. وكونها امرأة، فاضلة، وتعرف كيف تفـــرض نفـــسها فإن أوليمبيا تستحق التفضيل، والأولوية. وفي الاحتفال بمعمودية مرلين، فإن دون رودولف لم يفصل فضائل كل فرد من أفراد العائلة، ولو أنه فعل لقـــال الكـــثير عـــن غيرته، وروح التضحية لدى أوليمبيا وتفانيها اللامحدود تجاه زوجها.

وكـــونها طائرة، وامرأة كبيرة بكل ما في الكلمة من معان، وبقامتها العالية، وهيئـــتها البهـــية، وجسدها الرائع، وخلقها القويم، فإن أوليمبيًا كانت تستعرض نفـــسها محاطـــة بالطامحين إليها. وكانت تعرف أنها تعطي بينما الزوج يصمّ أذنيه، ويقفـــل عينـــيه، مطمئـــناً. وكان بإمكانها أن تختار العشاق. وإذ تحتقر الوسيمين

والمرفّهين، فإنها كانت تمضي في اختيار عشاقها في المراكز العالية من السلطة: ومن المعروضـــات الكثيرة كانت تختار النجوم الكبرى، كمحافظ، ووزير، وجنرال في الشرطة، وقائد فيلق.

ولـــيس الأمـــر إتياناً بمناقبيات مزوّرة وبغية إنكار فضيلة النخبة المختارة: إنها زوجة وفيّة، تضحّي بنفسها في الفراش لتمكّن الزوج من العقود المباركة التي تجعل الحـــساد والحاقـــدين يتكلمون عنها. إنها تضحية، أجل، في أن تذهب إلى الفراش وممارســـة كل الأمور مع بعض من أولئك السادة المتقدمين الذين تقتضي معاشرتهم الكـــثير من الامتعاض.. المعدة والخلقية أمران كانت أوليمبيا تمتلكهما.. كانت قد تزوّجت من إستيريو دي كاسترو وهي تعرف ما تفعل. وكونه لم يكن رجلاً جميلاً كمـــا هو معروف، ولكنه يعتزّ بنفسه في أن يكون لبقاً، أو لنقل قادراً على قبول وهضم كل ما يخدم طموحه.

ولكي تكافئ نفسها على المحارق المتكرّرة التي ترمي نفسها فيها، فإن أوليميا كانـــت تـــتذوّق المراهقين: فتيان يحملون أعباء المدرسة - الآن لم تعد هناك أعباء مدرسية، ويجب التصحيح فوراً: فتيان جدد، عند الركن الأول. لقد كان لأوليمبيا الموهبة لأن تكون معلمة لأنها كانت تفهم المادة جيداً. أوليمبيا طائرة.

البعثات المقدسة

حدج الأستاذ إستيريو دي كاسترو حماه - الروح البسيطة، والرجل الصادق - بعينين نائستين لا تنمان عما تضمران:

- استدعِ زلمتك في الحال، وادفع له ثمن الصمت، واستعد مسدسك منه.

إن كفـــاءة الـــصهر تفرض نفسها. العينان اليقظتان والصوت الثابت كانت تخـــرس جواوزينـــيو كوستا وسط تنازعات الرجل الصادق. الأستاذ إستيريو كان يخلـــط القـــيم ومعنى الكلمات ويجعل الالتباس سهلاً، ولم يكن يجد فرقاً بين رجل صـــادق ورجل مستقيم، وربما كان ذلك بسبب العادة. كان يريد أن يغيّر الطريقة الحياتـــية للمزارع، الانفعالية، والتدهور الذي كان دائماً مستعداً أن يرمي المزارع نفـــسه فـــيه بلجوئه إلى التدابير المتطرفة. إن هذا الأمر خطأ أكثر مما هو صواب: وكـــان احتـــرام الأســـتاذ كاسترو لحميه يتحول إلى احتقار. فبين الاثنين مسافة

تاريخية. كان جواوزينيو كوستا يقيم في برازيل القرون الوسطى، شبه إقطاعي، حين كان الأمر والقوة كافيين. الأستاذ إستيريو دي كاسترو كان يناضل في برازيل صناعي، حديث، في طور التنمية، ولكي يربح يجب أن يتحرك بعقله: أما الضربة القاضية، فيجب إبقاؤها فقط للحظة الأخيرة.

– فقط للحظة الأخيرة، وانتبه جيداً. إنك ستخلق شهيداً إذا احتجت أن تقضي على خبيث وضيع.. استعمل دماغك. – ألم تقل لي إن القس يقيم علاقة خفية مع فتاة تعمل في المسارح.

– ومج السيجار الكوبي المهرب الغالي الثمن، ميزة الأغنياء وأعلى رجالات الحكومة وجاهة: – حتى إنني أرسلت من يضع اسمها مع اسم القس في صحيفة فضائح غوغو بوستا: إنك طلبت مني هذا، هل تذكر؟ اطلب من زلمتك أن يتراجع عن القتل فوراً، يا سيد جواوزينيو، واترك القس عليَّ.

لم يكن جواوزينيو كوستا قد وجد ما يلجأ إليه غير حامل من حملة المسدسات، حين اتضح له، في الحديث مع المطران المساعد، أن القس كالفاو لن ينقل من بياسافا. وكان يلاحق ذهاب القس إلى العاصمة حتى لا يتم قتله في منطقة الداخل، ضمن حدود مزرعته، مما سيجعل اتهامه أمراً صعباً. في المجموعات الإكليركية ذات المراتب العادية، وفي القداديس خلال قراءة الإنجيل فإن الكهنة الحمر حملوه مسؤولية قتل ثلاثة لصوص قاوموا طردهم من مزرعة القديسة ألسيودورا. كان قد أرسل في طلب زي دو ليريو من منطقة داماتا في برنامبوكو، وهو أحد معارفه القدامى، ورجل ثقة، وحامل ورقة مهنة غير مدنّسة.

– هل فكرت يا سيد جواوزينيو في دون رودولف عندما سيستلم صورة القس والصبية، عاريين، في غرفة الموتيل؟ في سحنته، وسحنة الكاردينال: لا تخدع نفسك، إن هذا الصاحب هو الذي يواجه ويقمع كهنة الانحراف. ولن تكون لديه طريقة أخرى سوى إخفائه في أحد الأديرة وإرساله بعيداً. وإذا كان ضرورياً فستنشر الصورة في صحيفة بوستو – ثم أطال ضحكته العجينية وراح يتخيل منظر العراء.

– ومن الذي سيحصل على هذه الصور؟ وكيف سيذهب القس والفتاة إلى الموتيل؟ إنهما ليسا مجنونين.

– إن مـــا ينقصك هو الخيال، يا حماي – وصديقي العزيز. اترك الأمر معي، لقـــد ســـبق أن قلت لك، فلا تهتم بالأمر. من أجل هذه المهمة المقدسة أحتاج إلى أشخاص أكفاء، ومتنكرين.

وابتلع جواوزينيو كوستا الأسئلة مفضلاً عدم المعرفة. كان يخشى أن ينـــزلق إلى بعـــض نـــشاطات الـــصهر، ويدخل نفقاً مظلماً، ومقلقاً: وكانت قد سرت إشـــاعات، علـــى ألسنة قصيرة، عن ارتباطات رجل الأعمال بالإس. إن. إي. أية مهمة كان يتنكب في كهوف السلطة العليا، السرية والتي لا تسمى؟ هل كان أمراً ناهياً أو مخبراً صغيراً؟ كان جواوزينيو كوستا يجهل، وهذا أفضل.

"مافـــيوزو وجاســـوس"، وذو قـــرنين، كان ذاك هو عنوان مقال أريوفالدو ماتـــوس عـــن الأســـتاذ إســـتيريو دي كاسترو، على الصفحة الأولى من النشرة الأســـبوعية. و لم يكن هناك ما يجعل الأمر غامضاً على المزارع العجوز: فلحساب من كان يعمل الجاسوس؟ بعد قليل كانت هناك إيحاءات تتهم أوليمبيا، مباشرة أو غير مباشرة، ودون أي ظل للإشارات إليها: وضيعة أو مجنونة، لقد كان أريوفالدو كيّساً، بالرغم من ذلك.

السبب العميق – بالرغم من ذلك، وفيما هو متعلق بالبعثة المقدسة التي أوكل بهـــا إلى زي دو ليريـــو، فإن جواوزينيو كوستا لم يعتبرها منتهية. لقد علقها حتى إشـــعار آخر: سنرى ما يسفر عنه مخطط إستيريو الجنوني. أمرَ القاتل بانتظار أوامر جديدة حين اتصل به زي دو ليريو معلماً إياه بالنية للاستفادة من تقديم موعد قتل القس.

في احتـــرام جواوزينيو كوستا لصهره كان هناك أيضاً موضع كبير للاحتقار. كـــان العـــم يعرف حسنات الصهر ويعترف بالكثير من الحسنات التي تمنع عنه، ويطـــري علـــيها مع الرياح الأربعة: أما بعض الحسنات الأخرى فمن الأفضل أن يـــسدل علـــيها ســـتارة الصمت. والسبب الأكبر لتحفظه فيما هو متعلق بعلاقته بالصهر، كان يحتفظ به في أعماق صدره و لم يكن يشير إليه أبداً كما كان يتجنب الـــتفكير فيه لما يمثله من حساسية. وبالرغم من الاتفاق مع الحقيقة التي ترأس هذه الحكايـــة من العادات، فقد اعتمد أن يعلنه، وعندما كان يعلنه، توسل الحفاظ على الـــسرية. لقـــد كـــان جواوزينيو كوستا ذا حساسية من أهل القرون، والأزواج

المتسامحين؛ وإذ كانت القرون العائلية تجتاز حنجرته فقد كان يصاب بالقشعريرة. لم يكن يضع اللوم على أوليمبيا: لقد ورثت هذه عنه العز والكبرياء، وكان يضع اللوم على الزوج العاجز عن إرضائها وإشباع غرائزها.

في المقال الذي كتبه أريوفالدو ماتوس كان يستعمل الكلمات الحادة: جبان، ولئيم. إنه رجل شريف، وفارس مقدام، قالت أوليمبيا، الزوجة الوفية، لصحفي مجلة "جيت سيت" الذي طلب منها أن تحدد الزوج بعبارة واحدة، إنه كائن بشري لائق، لله ما أروع شخص الأستاذ إستيريو دي كاسترو!

الستارة

في الصالة الفارغة في المقر البطريركي، وفي الطابق الأول بالذات فإن دون رودولف، شارد الذهن، كان قد وجد نفسه عند النافذة حين عاد من شروده: حيث رأى الزنجية في المكان نفسه؛ إنها تمثال. كانت أسنانها بارزة تسخر منه. إن سماحته أعاد إسدال الستارة، وارتعش، ورطبت بعض نقطات العرق جبينه. إنه صباح مزعج ومليء بكل أنواع المشاكل: رعاية الأرض، والمجموعات الإكليركية العادية، التمثال المختفي، وفضيحة الصحيفة، وشكوك الشرطة، وإذلال القس له، ومنظور الاجتماع مع العقيد راوول أنطونيو - لقد وجد المطران المساعد نفسه بين الصليب والماء المغلية، ضائعاً في الشكوك. إلى أين يمكن أن يصل إكليركي في طريق الهرطقة؟ وفي الانزلاق في التجربة، وفي الإيمان بالنظريات الماركسية وكذلك احترام الطبيعة المقدسة للأوامر والنواهي؟ وبينما هو يصلي على طريقة المبادئ الدينية الأوكلوكراسية، وجد أن القس كالفاو كان يمتلك، مع ذلك، فضيلة: إنه لم يكن يخفي أفكاره، ولم يكن يموّه أعماله، وكان يجعل من مركزه مركزاً مهماً. ولم يكن يكذب. .

أمر سماحته باستدعاء الدون ماكسيميليانو، فهذا، في النهاية، هو مدير متحف الفنون الجميلة والمسؤول عن التمثال، ولولا نزقه الذي يميزه الاعتداد بالذات، لكانت القديسة بربارة، أم الرعد، مستوية الآن في أبرشية سانتو أمارو دابوريفيكاسياو.. وبهدوء، خائفاً، عاد إلى رفع الستارة قليلاً، وتحسس: فمدت الزنجية لسانها له. يا إلهي، إنها كلب!

الملاحقة

بيـــنما كان القس أبيلاردو كالفاو يخرج من مقر البطريركية، كان يدخل من الباب نفسه الأب أليزيو ماديرا، راعي أعمال الإحسان، مستعجلاً ومبتسماً. فتبادل الاثنان التحية بانحناءة من الرأس إذ لم يكونا يعرفان الواحد منهما الآخر.. وفي مخبأ في الجـــوار تحـــرك بعض الأشخاص من أماكنهم عندما شاهدوا قس بياسافا. أما "إيلـــوي"، المتدرج الديني المكلف بالمناوبة فإنه استاء من الدخول والخروج ليلقي بنظـــرة اســـتطلاعية علـــى حركة المحلة العامة: يا للزنجية الرائعة، يا إلهي! وكان الشماس يقول له في السر إن الزنجيات هن الأكثر حرارة.. وتقدم منه راكضاً.

وإذ لا يـــزال مرتبكاً فإن القس أبيلاردو قرّر أن يبدل ملابسه قبل أن يذهب للتفتـــيش عن باتريسيا: ستجدني بسهولة في كلية المسرح. واتجه إلى ميزيريكورديا يتبعه خمسة أشخاص محتفظين بمسافة منه، كأنهم حاشية تتعقب خطواته.

كان المفوض في الأمن العام باريرينيا يرأس المجموعة وهو يضع بين أسنانه قشة حتى لا يكشف عن وجهه، وكان حجم المسدس المعلق تحت سترته ظاهر الفوهة. إنه مفوض الأمن العام في أثر مسكين، وانزلق الجميع إلى منحنى لاديرا.

شـــرطيان من الشرطة الفدرالية، كل واحد منهما أكثر سوءاً من الآخر، كانا متـــباعدين حتى لا يسترعيان الانتباه، ومكثا على اتصال بواسطة جهازي "والكي توكـــي" يابانيين: وكانت المكالمات بينهما تقلق المشاة. خلفه، وقد أعاق المسيرة، كـــان الشخص الذي يرتدي الواقي من المطر ويعتمر القبعة ذات القبتين المتدليتين. وأضـــاف إلى هـــذا نظارتين سوداوين على طريقة القتلة الكلاسيكيين، يجد في أثر القـــس ليراه عن قرب: إن زي دو ليريو لا يريد أن يتعرض للخطر لمجرد تلقي الأمر لتنفيذ الاتفاق.

كانـــت الزنجية تسير في الطليعة حيناً، وحيناً آخر كانت تسير بمحاذاة رجال الشرطة الفدرالية – وكانت الإحصاءات تلعلع في "الوالكي – توكي" الحساس – وكادت الزنجية بصدمة أن توقع مفوض الأمن العام بيريرينيا أرضاً: إن الاعتقاد بهذا يـــسلي إلى حـــدٍّ كبير. وعندما وصل القس أبيلاردو أمام مبنى البلدية، فإن الزنجية ســـبقته وانتظرت في ممر مصعد لاسيردا، وجلست إلى طاولة المشرب وعيناها إلى الخليج وهي تتلمظ مثلجات دي بيتانغا.

وبينما كان قس بياسافا قد مضى ليشبع إعجابه بقصر البلدية – ذلك الكمال! فإن الزمرة كانت تنتظر: رجال الشرطة في وضع الاشتمام، والقاتل في وضع الاستراحة، ومفوض الأمن العام على قدم هنا، وقدم هناك. كان رجال الأمن يتبعونه بغية تحديد مكان استضافته، ومعرفة، وجهته، وللاقاة أي شخص، وللحصول على أدلة جديدة لأخذه أسيراً. أما القاتل فكان يتبعه ليدركه في مكان يستفرده فيه فلا يخطئ التصويب.

عندئذ ارتقت الزنجية إلى المصعد وفتحت ذراعيها فوق البحر والمدينة: وفي الصباح المشمس، الصافي، الرائع، أرعدت السماء، وكان لمع شبيه بحد الخنجر المسنون. واصطبغت السماء بالأحمر الشبيه بألوان الآلهة أويا، ثم اكفهرت متلبدة بالغيوم الكثيفة، الثقيلة. وذابت الزنجية في الرعود المدوية.

هزيم الرعد تركز فوق القصور، وأصاب العالم بالصمم. خلف القس هبط ظلام دامس: واختفى القس في النور! "أوشينتي"!

أحداث "بعد ظهر" يوم الخميس

محبسة التائبات

لم تمضِ أكثر من ست ساعات معدودات على عقارب ساعة دولارغو سان بيدرو، بين العثور على الرسالة وزجّ مانيلا في دير دالابا، في محبسة التائبات.

في الزمن السابق، وفي الأزمنة الحديثة نسبياً، كان والد الفتاة التي تتعثر في خطوة من خطواتها وتلطخ بالطين شرف العائلة، يسجن الابنة المنحرفة طيلة حياتها الباقية: رهبنة ذات شهرة مظلمة. وتغدو الفتاة ميتة، مدفونة، بالنسبة إلى العالم: لا زيارات حتى من أمها الملتاعة التي لا تزال تلح عليها الذاكرة وتلغى صور الفتاة في بيت أهلها، وتنطفئ ذكرياتها ويصبح ترداد اسمها ممنوعاً كأنها، هذه الملعونة، لم تولد يوماً، ولم تكن في هذا العالم.

مهما بدا الأمر عبثياً، فإن السجن المؤبد في محبسة الدير كان يعتبر خطوة ليبرالية بالنسبة إلى الممارسة السابقة، وعقاباً شائعاً في المدن، وإلزامياً في الأرياف: إنه الحكم بالموت. فقط الإعلان عن تنفيذ الحكم بالمجرمين، بالابنة الملعونة ومغريها الرذيل كان يمكن أن يغسل شرف العائلة ويعيد لها العذرية غير الملموسة، والكرامة. وكان بعض الآباء الثائرين، في سورة انفعال عدالتهم، وقبل أن ينتزعوا الحياة من المنحرف، ينتزعون خصيتيه.

ولا يزال مثل هذا يحدث حتى اليوم، مع العلم أن ما أصبح شائعاً في أيامنا التقدمية، هذه، هو رؤية الأب مستعداً للاستقبال في البيت، وتغذية المعدة الخاوية، والمجيء إلى سرير الابنة بعشيق الساعة، دون ضرورة للكاهن والقاضي. لقد تغيرت الأزمنة والعادات، ولكن بعض الاستثناءات ما تزال قائمة، وفي خدمة هؤلاء الآباء والمربين العادلين الاستثنائيين، ما تزال محبسة التائبات مفتوحة. وفي حالة مانيلا، لم

يحدث الأسوأ الذي لا علاج له، لأن زجّها، هناك، هو وقائي، ولن يكون مؤبداً. وستعود إلى البيت ما إن تنزع من رأسها الكلب المسعور، وتصبح راغبة في ألا ترى الشمبانزي – قالت أداجيزا ذلك للأم الرئيسة في الدير.

وعندما تمّ إغلاق المدخل الخارجي، انسلّت دمعة من طرف عين أداجيزا مسحتها بسرعة حتى لا يراها الأب جوزي أنطونيو فيرى في ذلك دليلاً على الضعف.

البطاقة الممزقة

بالصدفة، لا. لقد اقتاد الله أداجيزا من يدها لترى وتلتقط الورقة الصغيرة، في الحمام، خلف المرحاض، وهي قطعة من بطاقة ممزقة ولكن مقروءة. لقد وقعت بالتأكيد من يد مانيلا دون أن تنتبه، بعدما استلمتها وقرأتها ثم مزقتها، فإنها انسحبت إلى الحمام لترسلها عبر أقنية البراز انطلاقاً من المرحاض.

– يا ويلاه، يا أبي الذي في السماء!

لقد عرفت أداجيزا خطة الكلب المسعور. وبتفتيش دقيق ومتكرر فإن أداجيزا راحت تكنّس غرفة الحفيدة "بالمشط الرفيع" لتعثر على الأدلة: وعثرت على رسائل وبطاقات وردتها من الشمبانزي. كلب مسعور وشمبانزي، هكذا كانت أداجيزا تشير إلى ميرويل دا ناتيفيدادي، المعروف من الجميع بميرو، الذي بالاتفاق مع مانيلا، كان يوقع: "زوجك مستقبلاً، ميرينيو الحبيب". وإذ اقتنعت بوجود مشروع هرب خطط له الحبيبان، وبدعم محتمل من داميانا وسائر الجيران، وبمشاركة – معلنة من الخالة جيلديتي – إن لائحة المشاركين في الجرم لا نهاية لها – ونذرت أداجيزا نفسها كلياً لاكتشاف البصمات وغيرها من البراهين، مستعدة لأن تمنع بكل الوسائل، وأياً تكن، خيراً أم شراً، تنفيذ المخطط الجهنمي.

وفقدت الأمل نهائياً. لم تفد بشيء كل المحادثات، والإنذارات، والنصائح، والدروس في المناقب، ولا حتى التوسلات التي كانت قد وصلت إليها. وكانت مانيلا تصغي بصمت عدائي، فلا تفتح فمها لتجيب أو تناقش. فقط، حين كانت الخالة تثور ضد الكلب المسعور، الشمبانزي، فإن مانيلا كانت تجيب دون أن ترفع صوتها: إني أحب هذا الكلب المجنون، وسأتزوج من هذا الشمبانزي، سواء أردت

أم لا، يا خالتي. وإذ أمسك بها الصداع، وسيطر عليها الشك، فإن أداجيزا أخذت ترغو كلباً، وكانت مانيلا تمتلئ حسرة وتعانقها: اطلبي مني أي شيء، ما عدا هذا.

وأسوأ من هذا، فإنها لم تعد قادرة على استعمال سوط الجلد. وبعد خميس القديس بونفين السيئ أرادت أن تستعمل السوط لتخيف وتصلح وتضع الأمور في نصابها ولكنها لم تفلح. كأنها نسيت عادةً استعمال السوط عندما كانت تتناوله بيدها اليابسة فلا تستطيع أن تمسكه، وكأنما الذراع قد أصبحت عاطلة عن العمل. وإذ يئست متخلية عن سوط الجلد، فإن القليل الذي بقي لها كانت تستعمله: تقفل على مانيلا في البيت، معاقبة، وتمنعها من الخروج مع الزملاء والصديقات، وترافقها أو تجعل دانيلو يرافقها حتى باب المعهد، وتذهب لانتظارها عند الخروج، وغدت عبدة التزاماتها كمربية مسؤولة عن شرف مانيلا أمام الله وقاضي الأحداث. عندما كانت تحت حراستها، فإن أداجيزا لم تكن تسمح لحفيدتها بالضياع، وكم بالحري الآن وقد ارتبطت الصغيرة بالشمبانزي الزنجي ذي الأصل الوضيع، وسائق التاكسي. وأن تتزوج فإنها لن تستطيع دون موافقتها وموافقة دانيلو وقد عهد باليتيمة إليها، لتربيتها.

كان ميرو صاحب سيارة "ديكافي" مستعملة، وماذا في هذا؟ ولم يكن أكثر من قدم ضاغطة. إن أداجيزا تريد لحفيدتها رجلاً رصيناً، وإذا أمكن متخصصاً، وقد صنع حياته أو أن يكون على الأقل ذا مهنة تعد برفع اسم العائلة. ولهذا ربّتها على المبادئ الصارمة وكل ما أصبح معروفاً عنها. وبينما تنتظر أن يتقدم منها أحد ذو مستوى، فإنها كانت تعامل مانيلا مبقية إياها على هامش الانحطاط الجنسي لدى الشباب، والممارسات الحرّة التي كانت تحول الشابات الطالبات إلى مزاحمات للعاهرات: ويصبحن مزاحمات غير شرعيات لأنهن لا يعطين مقابل أجور. كانت أداجيزا تفتش في الجرات وفي حقائب مانيلا عن حبوب منع الحمل.

وبينما كانت يدها المرتجفة تمسك بقطعة الورق، تساءلت أداجيزا ما إذا كان لا يزال لديها الوقت لتتدخل وتتجنب ما لا يمكن إصلاحه.. ربما، إذا تصرفت بسرعة وفعالية. ولحسن الحظ، لا. بعمل من العناية الإلهية فإن الجزء الذي تمّ إنقاذه من المخطط كان يحتوي على دلائل دقيقة على الهرب، اليوم والساعة: سيكون الكلب المسعور منتظراً في سيارته في السابعة مساءً من ذلك اليوم بالذات. إن

الشمبانزي لم يستعمل التوريات: اليوم، ستعرفين ما هو الجيد والأفضل، وستكون ليلة رائعة، يا حبيبتي. إنك لا تستطيعين أن تبقي خاضعة لتلك.. لأية تلك؟ لم يكن صعباً التكهن، لأن ميرو كان يصف حياة مانيلا بالعبودية والرعب والقساوة التي تمارسها المربية والخالة.

من كان ليساعدها في تلك الحالة اليائسة غير الله؟ ولولا الله كيف كانت ستعثر على الورقة؟ بالنسبة إلى أداجيزا، فإن من يعد نفسه وصياً على البشر، والموثوق في مدينة باهيا هو الكاهن جوزي أنطونيو هرناندز، كاهن اعترافها منذ زمن طويل، ومدير ضميرها. وارتدت ملابسها بسرعة وجدّت في إثره.

كانت أداجيزا تغذي حلمين رئيسيين في حياتها: حلماً قديماً هو بناء بيت خاص بها، ولكي تحققه كانت تودع في المصرف الاقتصادي العائدات من فن القبعات. والحلم الآخر يعود إلى شهر كانون الثاني/يناير الماضي، وهو رؤية الشمبانزي مرمياً في السجن؛ وبغية تحقيق هذه الأمنية كانت تصلي كل مساء مرة واحدة "أبانا الذي"، وأخرى "السلام عليك يا مريم". كانت تؤمن بفائدة صندوق التوفير وبطيبة الله اللامتناهية.

قاضي الأحداث

عند بداية عصر ذلك الخميس، يرافقها الكاهن جوزي أنطونيو، استقبلت أداجيزا، ومن استقبلها كان الأستاذ الموقّر ليبراتو مندس برادو دافيلا، قاضي الأحداث، فعرضت الموضوع، وحصدت الرضى.

في "ريو فرميليو"، في ردهة الاستقبال المبهرة للأنظار من كنيسة سانتانا – الروعة! حيث كانت نساء "الأخوية" يبدين عدم رضاهن: وحشية! والفنانون يقفون محتارين – فإن أداجيزا اعترفت للكاهن بمخاوفها من أن يحدث ما هو أسوأ، السوء الذي لا شفاء منه، وطلبت نصيحته ومساعدته. فما كان واقفاً على كف عفريت هو شرف القاصرة ومسؤولية المربية.

أصغى لدرجة تجعله يبدّل سحنته ويعدّل صوته. وطرح أسئلة: هل تعتقدين أنها لم تسلم نفسها بعد؟ إلى أي حدٍّ كانت قد تقدمت في دهليز الرذيلة؟ إنها بالتأكيد لم تسلم نفسها ولا يمكن أن تكون قد ذهبت بعيداً في تهتكها، لأنني لا

أرخي لها الحبل ولا أعطيها الفرصة. ما العمل؟ إن تجنب الهرب تلك الليلة هو أمر سهل؛ يكفي أن تقفل على مانيلا في الغرفة، ومنعها من الظهور في الموعد، وستنقضي الأزمة كالمياه المنسابة. ولكن، ماذا سيحدث فيما بعد؟

وإن منعتها عن الذهاب إلى المدرسة، وهي مستعدة لأخذ مثل هذا القرار المتطرف، فإنها لن تستطيع أن تبقيها باستمرار في سجن المنزل مما سيكون سبباً يتناوله الجيران بالقيل والقال، ويجعل جيلديتي تتدخل، وتعترض، وتثير الفضائح في الشارع. فما العمل للمحافظة عليها خلال الوقت الضروري الكافي لإبعادها عن الخطأ والتجربة وبمنجى من المحاولات؟ وإلى أن تقرر إنهاء علاقتها بالعشيق، وترمي بعيداً بسائق التاكسي، وتنسى الملعون؟ وهي حين تحرر حفيدتها من الخطيئة، فستتحرر من استمرار ملاحقتها لما قلب حياتها وقلبها رأساً على عقب: إذا استمرت على هذه الحال فستنتهي إلى مستشفى للأمراض العقلية.

إذ كان قد منح الأجوبة القديرة على أن تسهل له الحكم، فإن الإرسالي رفع كتفيه وعينيه، مستعداً، واستعاد وقار صوته المؤثر كما هو معروف لدى المؤمنات، وراح يعزي ويساعد ما استطاع. إن الله على عرش النور في أعلى السماوات يشهد على مهمة النعجة الصالحة التي لا تحسب حساب التضحيات لتجعل وصايا الكنيسة المقدسة نافذة. وليس على أداجيزا أن تيأس، لأنه هو، الأب جوزي أنطونيو، الموجود الآن، بأمر من الله، ليساعدها ويجعلها تتغلب على محنتها، وتقضي على مخططات العدو، وتجنّد له، إنقاذاً لبراءة العذراء أو ما بقي من عذريتها، وليس بكثير: فكّر في ذلك ولكن لم يقله، إذ لا داعي لهذا القول. أمام المأساة المضحكة لغراميات مانيلا وميرو المعلقة، فإن الأب جوزي أنطونيو هرناندز، باسم الله، تنكب قيادة العمليات. مناضل من مناضلي الفضيلة، لم يكن يكتفي بالنظرية، بل ينقلها إلى حيّز التنفيذ.

– ابقي هادئة، "إيخاميا"، فإن شرف مانيلا هو بيد الله. – كان يتكلم مع أداجيزا بالإسبانية، ولولا ردود فعلها على مشاهد الفضائح، لما وجد مواطنة فالنسية، أكثر التهاباً منها.

كان الله قد انتهى من الإيحاء له بالحل. في دير لابا، ستكون مانيلا بمنأى عن كل خطر، وبعيدة عن كل تجربة. وفي سلام المحبسة، وبالتعايش مع أخواتها

القديسات، هناك، في حضرة الله، خطيبة للمسيح، فإنها تستطيع أن تتأمل بهدوء، وتعرف بالتأكيد كيف أن هذا القلق يزعج حياتك. وخلال وقت قصير سوف تتخلى عن العشق والعشيق، وستشكر خالتها على ذلك. وستعود إلى البيت برأس صافٍ وروح نقية، وستتوقف عن التسبب في كل هذا العمل الذي سببته لك.

- في دير التائبات؟

نعم، "مي إيخا"، إنه المكان الخاص بالعقوبة والتوبة.

وهو نفسه، الأب جوزي أنطونيو، من تنكب مسؤولية الكلام لاحقاً مع الأم الرئيسة. ولكن كون الأمر متعلقاً بحدث، ولكي توضع في الدير من الضروري الحصول على موافقة قاضي الأحداث. وهذا ليس بعقبة: إن الأستاذ دافيلا، أكد الكاهن، سيفهم أسباب المربية ويوافق على قرارها، إنه إسبرطي، وقلعة من قلاع المناقب.

إسبرطي، قلعة مناقب، معلم تربية ومعيد الشبيبة المنحرفة إلى الصواب، إن هذا الجهد في زماننا، القاضي العادل، لا يمر بيده على رأسه حين يتعلق الأمر بانحراف الأحداث، وكان يستعمل مواهبه ليوقع على أوامر السجن في الإصلاحيات، ويجهز مدارس القضاء على الجريمة والانحراف بمثل هؤلاء النماذج. وهناك قاضٍ آخر هو الأستاذ إغنالدو باهيا مونتيرو، زميل قاضي الأحداث، وبأمور كثيرة هو عكسه، معارض، ولم يكن يوفر كلمات ليصفه بالمتخلف، وصاحب الأحكام المسبقة، ورد فعلي، وفاشيستي. إن السيدة ديانا تيليز مندس برادو دانيلو، المعروفة بالنسبة إلينا باسم سيلفيا إزميرالدا، الطالبة في تاريخ المسرح، والممثلة الهاوية، وهي تفضح القاضي تلك الفضيحة التي ما زالت معلقة على اللوح في المدرسة، كانت قد أسرّت لصديقاتها الحميمات أنه، ما عدا اللقب الأرستقراطي، فإن الصفتين الرئيسيتين اللتين وصفت بهما الزوج كانتا: الإزعاج والنظام. وكل ما عدا ذلك لم يكن غير انحطاط: السوء، الخبث، وتبجيل الأقوياء، والقساوة مع مرؤوسيه والفقراء عامة، بالإضافة إلى فصاحة فارغة، وادعاء، وقرنين في الرأس.

وقدم الأب جوزي أنطونيو أداجيزا إلى الأستاذ بكلمات حارة: إنها مؤمنة ونعجة رحيمة من نعاج الله، ومثل الفضائل، وهي تحمل صليب حفيدة متمردة كانت تربيها منذ وفاة والديها. وطلب القاضي أن تعرض الوقائع، وأصغى

بخطورة، وأظهر نفسه متعاوناً، وأصدر الأمر. إن مانيلا، بأمر من قاضي الأحداث، توضع في الدير وتبقى هناك طيلة الوقت الذي تحدده المربية، وأي جار أو قريب، لا يحق له الاعتراض أو التدخل.

أمـــا ما هو متعلق بسائق التاكسي، فإنه إذا كان قد سبّب أي سوء للقاصرة، فـــإن القاضـــي دافـــيلا سيأمر بإيداعه السجن، وسيفعل ذلك بسرور، ولكن لا يستدعي ذلك الأمر، ووعد، مع ذلك، بالمجيء به إليه ليعلمه أن القاضي قد أتى به لـــيراه بعينـــيه ويخبره، بالعقوبة التي يمكن أن يخضع لها مفسد الأحداث، ومغتصب عذريات العذارى. لكي يقوِّم الاعوجاج في جمجمته فسوف يقلقه.

الكتائبي

الحمـــد لله الذي وضع الأب أنطونيو هرناندز في طريقها، وقبل قليل من مـــوت السيدة إشبيرانزا. لقد نسب الكاهن الرسولي إلى نفسه الفضل في نتيجة العمل الذي بدأه بطلب من الأم، وهو تربية أداجيزا تربية صارمة وطهرية على مبادئ الكاثوليكية الإسبانية ليجعل من ابنة فرنسيسكو روميرو بيريز إي بيريز خادمة المسيح، كاثوليكية لا شائبة عليها، إسبانية المحتد، مناضلة ضد الانحلال والكفر.

كـــان الأب جوزي أنطونيو قد بلغ مشارف الثلاثين من عمره عندما استقل الباخـــرة إلى الـــبرازيل ضـــمن حملة من الكهنة أرسلها الفاتيكان إلى دول أميركا اللاتينـــية حيث أصبحت العقيدة الكنسية مخربة، والمبادئ الدينية معطلة، والطقوس الوثنـــية تجتث من الصدور الإيمان بالقديسين. كتائبي، ملتهب الإيمان، وحامل أمين لكلمة البابا المعصومة الموجهة للطفاء إجمالاً، وكذلك حامل شعارات النظام الجديد للجنـــرال فرنكو، وهذه الشعارات موجهة عامة للإسبان في باهيا الذين ولدوا في أراضي الوطن أو المستعمرات. مع انتهاء الحرب وانهيار هتلر وموسوليني، والأبطال والـــشهداء الخالـــدين، بـــدأت ثقة بعض المواطنين تتزعزع، وأخذ الوفاء والتأييد يـــنازعان، وأخذت الجمهورية الوضيعة ترفع رأسها. إن الأب، الإرسالي، جوزي أنطونـــيو جاء معه في حقائبه بأعلام الكتائب التي رفعها وقاد بها الناس في شوارع فالينسيا: ليعشْ المسيح الملك! ولتحيا إسبانيا؟

في النبذة عن حياته كان يمكن القراءة عن انتصاراته الموحية وعن ثباته أمام الهزائم، وعن روحه المتوقدة في المسيرات الفرنكوية. وفي المنازلات التي خاضها مواجهاً أعداء قادرين، فإن نصرين حققهما، جديران بأن يحكى عنهما في هذه الصفحات: استشهاداً وتعليقاً. وهكذا، وبينما يجري الكلام عن شخص ما يمكن الاستفادة من الاستراحة لرواية أحداث مدينة باهيا: فكل شيء يحدث في باهيا هو ذو أهمية عالمية.

إن بناء الكنيسة الجديدة في سانتانا، في ريو فرميليو، هو ملحمة! ونصر مؤزر: لقد تمكّن من بناء المعبد الكبير، الفريد من نوعه، للأم مريم، ذات العبادة التي كانت مقتصرة في السابق على تلك الكنيسة الصغيرة البائسة التي كانت تقليدياً مخصصة للاحتفالات التي تقام في الشارع وحفلات الكوندومبليه. إنه نصر مؤزر اقتضى حملة من الجهود استغرقت ست سنوات من المواظبة والعمل المضني، ولم تأت، مع ذلك كاملة، لأن الأب جوزي أنطونيو كان قد خطط ليقوم المعبد الجديد على أنقاض الكنيسة القديمة الشعبية، الملوثة، المغروسة في وسط لارغو دي سانتانا.

حاول ولكنه لم يحصل على مساندة الكاردينال اللازمة للقيام بالهدم الضروري. إنهم زمرة من اللامسؤولين في خدمة موسكو، هؤلاء المثقفون الذين احتلوا الصفحات الأولى في الصحف احتجاجاً على المشروع - كان بيدرو مواسير مايا قد كتب مقالاً موثقاً عن تقاليد دو لارغو والكنيسة الصغيرة، والشاعر والي سليمان وصف إخفاء الكنيسة ومحوها تدنيساً لقداسة أنا يمنجا - ودافع عن بقاء الكنيسة الغالية، العزيزة على سكان المحلة التي أُعيد رسمها لوحات رسمها جوزي دي دومي، ويليز، كاردوزو وسيلفا، وليسيديو لوبس. ولم يكن مهماً ألا يكون للكنيسة قيمة تاريخية، ألا يكفي أنها كانت ملك شعب المدينة، الفقير والبسيط، بشكل مماثل للكنيسة الصغيرة. ترددت البطريركية، وغسل الكاردينال يديه، وبقيت الكنيسة حتى اليوم في لارغو، ترحب في نعمة تواضعها، بالمؤمنين بعيد السيدة سانتانا، وبموكب يمنجا.

الكنيسة الحديثة والجليلة، وبأبعادها وهندستها التي تصورها الأب جوزي أنطونيو، فإنه شادها بين لارغو دي سانتانا ودا ماريكيتا، بمحاذاة حي الصيادين.

وهـــو مكان ملائم، لأنها بعلوها واتساعها، ستسحق - هذا تخيل الكاهن - معبد يمـــنجا الواقع في كازا دو بيزو، حيث كان الشعب يضع الهدايا لملكة البحر، ومن هـــناك كانت تنطلق المراكب الشراعية، في الثاني من شباط، اليوم المخصص للآلهة جانايينا المعروفة بايناپي، سيريا موكوكانيا، دادالوندا، مارابو، كايالا، دونا ماريا، أميرة إكيركا، متعددة ومتنوعة أسماء وأمم يمنجا، خطيبة وزوجة الصيادين.

وافتتح الأب جوزي أنطونيو الكنيسة باحتفال ديني حافل ترأسه الكاردينال، وبحـــضور قائـــد المنطقة، وحاكم الولاية، ورئيس البلدية، ومدعوين من أصحاب الامتياز في المدينة من الجالية الإسبانية ذات الثقل. إنه احتفال جدير بإسبانيا فرنكو المجـــيدة. وظهـــرت أداجيزا ممسكة بذراع زوجها تضع منديلاً أسود على رأسها، متألقة. وكانت قد ربحت ثلث الجائزة المخصصة لبطلة جمع التبرعات والهبات لبناء المعـــبد، في المـــباراة التي أعدت لنساء البطريركية من قبل الإرسالي: وقد اخترعن اليانـــصيب، والأســـواق "الكيرمسية"، والأشغال الحرفية التي تباع بقيمة أغلى مما تستحق.

بعـــد أسبوع، وبدعوة من رئيس جالية الصيادين، فإن عامة الشعب والزنوج اجـــتمعوا للتدشين، على قرع الطبول والأغاني الفولكلورية. تمثال للآلهة يمنجا رفع بين الكنيسة وكازا دوبيزو نحته مانويل دو بونفين النحات الذي كان مشغله قائماً في تلـــك النواحي: إنها لوقاحة لا توصف، ومقززة للنفوس. وفي خطبة يوم الأحد، أشار الأب أنطونيو بانفعال إلى الوثنية والبربرية.

وعلى صعيد تصرفات مانيلا وميرو الخارجة على الوصايا، فإن الإنجيلي كان قـــد أعلـــن الحـــرب على جبهة أخرى لا تقل ضراوة وأهمية. كان يخطط لإطفاء كوندومبلـــيه أنجينـــيو فيليو، "وايلده أيا ناسو"، وهدم أقدم معابد باهيا وأكثرها احتـــراماً. ونـــادى الأب جوزي أنطونيو على سواعد ونفوذ أسياد الأرض ونقباء صـــناعة الخشب؛ استنفر المثقفون، عملاء الشيطان وراحوا يطالبون بغضب، ولم يكونـــوا مكتفين بالقضاء على العملية فقد تجرأوا على أن يلحقوا بالتراث التاريخي والـــثقافي كـــل تلك المساحة والبيوت، والمقر الديني، ومركب الإله أوشون: إنها مـــساحة مـــن الأرض مقدسة، تحبل بالتاريخ، ورمز نضال الزنوج ضد العبودية. وكـــأن الأب جوزي أنطونيو لم يرَ في حياته تخريباً كهذا فتجهم وجهه: كأن مقر

الكوندومبلـــيه كـــان كنيسة سان فرنسيسكو، أو دير الكرمليين، أو الكاتدرائية الباســـيلية. ومـــواجهة لذلك الإذلال راح الأب جوزي أنطونيو هرناندز يكتب رســـائل إلى الـــصحف، ويتوجه إلى السلطات المدنية والعسكرية، العسكرية بنوع خاص، ويطالب أثناء الاحتفالات الدينية، وفي نيته أن يبقي أعلام الكتائب مرفوعة في باهيا – مرفوعة، على مقربة من أرض السراب والخداع.

في هذه الأرض العجيبة بالتباساتها كان يندر وجود النعاج في قطيع المتعصبين والطهـــريين، ومع ذلك كان يحيط تلك النعاج بكل الاهتمامات. إنه زمن النكران والتغاضـــي، زمن يبدل فيه الكهنة الثوب الكهنوتي ببنطال الجينـــز، واللغة اللاتينية بالـــبرتغالية، والأغنـــياء بالفقـــراء، ويعلنون نهاية العزوبية، وينضمون إلى مقاتلين ثـــوريين. كـــان الأب جوزي أنطونيو قد التزم مخلصاً بالقيم الفاشستية والوصايا المفروضة. وكان قد نذر العفّة والفقر والطاعة، فيا لها من مهمة شاقة تكلفه الكثير مـــن نكران الذات والفروسية. فكان يحلم بداليا، وصالومي، ومريم المجدلية، وامرأة لوط، وملكة سبأ، ويلوث شراشف العازب. وكان قد حدث له أن حلم بأداجيزا.

الغائب

تأســـفت نـــيلدا سبنسر لغياب دون ماكسيميليانو فون غرودن عن غداء دو ميركـــادو. فهذا، بالإضافة إلى كونه مثقفاً من الطراز الأول، فهو صاحب حضور مميز في التلفزيون بصفته مديراً لمتحف الفنون الدينية: الجبة بيضاء، أنيق الحركات، وذو موهبة تمثيلية. كانت قد فتشت عنه في كل الأمكنة فلم يعرف أحد عنه شيئاً.

لم يكـــن أحد يعرف عنه شيئاً، ومتجهمين، كان الصحفيون ورجال الشرطة ينتظـــرون عـــودته، بإطـــراء. وعـــندما تمكـــنوا مـــن تحديد وجهة سيارة ليف سماركيفسكي، فإن دون ماكسيميليانو كان قد غادر منذ فترة مقر البطريركية دون أن يترك أثراً كأنه تمثال القديسة.

أطلعه المطران المساعد على أخبار مبعوث الشرطة الفدرالية: إن العقيد راوول أنطونـــيو كـــان مقتنعاً بتورط قس بياسافا، خدمة لتمويل المنحرفين. إن تحفاً ثمينة تعود إلى الكنائس، بيعت بالعملة الصعبة في الخارج. وكان سعرها يعود إلى حرب العصابات وتمرّد الفلاحين.

– ولم ينقص سوى اتهامي بإخفاء المعلومات. كذلك، فإن سكرتير الدولة لشؤون الأمن العام يرى أن القس كالفاو مذنب.

رفع دون رودولف نظره عن النسخة الألمانية من كتاب دون ماكسيميليانو عن القديسة بربارة، أم الرعد، والذي كان يتصفحه بينما يتحدث عن السرقة، متوقفاً عند فقرة هنا، وأخرى هنالك:

– أستطيع أن أؤكد أن ليس للتهمة أساس. إن القس كالفاو بريء من هذه التهمة، ذنوبه المختلفة. وبالخطورة نفسها. ليس له أية علاقة باختفاء التمثال: كان بالصدفة مسافراً في نفس المركب الذي جاء بالقديسة.

– إن سماحتك تؤكد باقتناع كبير. فكيف تعرف؟

– لقد سمعته في كرسي الاعتراف.

– آه!

– وماذا استطاع السيد المدير، أن يستجلي من الأمر؟ في النهاية إن المسؤولية تقع عليك. فأية أنباء تأتي بها إليّ؟ إني أصغي إليك.

مع كل جواب، جعل دون ماكسيميليانو ذراعيه تتحركان بحركة كانت إشارة إلى اتساع صدره. في ذلك الصباح ومن مساوئ الطالع كان الاعتراف بالانهيار، وطلب الصفح، بلسماً للمطران المساعد. وفي نشوء الظفر، بدّل نبرة صوته، وغيّر الموضوع. وحين عاد إلى الكتاب، علّق:

– سأقرأ كتابك بالانتباه اللازم، ولكني، وأنا أقلب الصفحات تبيّنت أنك تنسب إلى إليجادينيو عمل تمثال القديسة بربارة. إن الأمر يبدو لي كأنه تأكيد غير مؤكد، يا دون ماكسيميليانو. على ماذا تستند لتطلق حكماً قابلاً للجدل، كهذا؟

– إنه تأكيد جريء، ولست أنكر. حين تنتهي من القراءة، فإن سماحتك ستتبين أن هذا الكتاب هو ثمرة بحوث مضنية قضيت خمسة أعوام فيها. اطلعت على مئات الوثائق، واكتشفت إيحاءات، واستخرجت الإثباتات: كل شيء يقود إلى أورو بريتو، وأنطونيو فرنسيسكو ليشبونة، إلى العبقري إليجادينيو.. – وبينما هو يتكلم في موضوع عزيز يخصه، كان دون ماكسيميليانو يبدي حماسه للموضوع، ناسياً مساوئ الطالع، والاتهامات، والتهديدات. – ولكن، ما يؤكد لي أن القديسة بربارة، أم الرعد، هي من إبداعه، إنما هو أمر آخر.

- أي أمر؟

- كون إليجادينيو خلاسياً فقط، خلاسي من دم أبيض ودم اسود كان يمكن أن يأتي بهذا العمل. قطب المطران المساعد جبينه وهزّ برأسه: الدون ماكسيميليانو دون غرودن والوله بالخلاسية، عنوان عَرَضَ، لأنطونيو أولينتو، في محاضرة عن الاستنتاجية. وعندما تلقى برنامج الاجتماع تساءل دون رودولف، بفضول، ما إذا كان العنوان يتضمن معنى مزدوجاً وإيحاء خبيثاً. ولم يتمكن من استكمال النبأ الصحفي: كلام فارغ، وأطروحات بالية، والاستنتاجات مشكوك فيها. وضع الكتاب جانباً، وعندما عاد ليتكلم تخلى عن موضوع مبدع التمثال ليتناول من جديد الموضوع الأهم:

- تحدثت هاتفياً مع الأستاذ أودوريكو، مستغرباً تحقيق اليوم في صحيفة "دياريو داس نوتيسياس". وكل ما حصلت عليه هو أنه يضع صفحات الجريدة بتصرفنا. وسأل عمّا إذا كان دون ماكسيميليانو يريد أن يجري مؤتمراً صحفياً.

مدَّ بنظره عبر النافذة المفتوحة على المحلة، فتذكر صورة المدينة، الشريرة، إنها أرض ملعونة، وميدان الفاجرين:

- أما أن يظهر التمثال وأما لا أعرف ما سيحصل لهذه المدينة الملعونة باهيا..

- وسمعت باللغة الألمانية بعض المفردات الغليظة - مقدسة.. ملعونة.. كلمات كانت ترن كشتائم: - سننتهي جميعاً إلى السجن بتهمة السرقة والاشتراكية. هل هناك شيء آخر تقوله لي يا حضرة المدير؟

- نعم، لديَّ، يا سماحة المطران.

أبلغه بالقرار. إذا لم يتم العثور على التمثال حتى تاريخ افتتاح المعرض، فهو، دون ماكسيميليانو فون غرودن، سيقدم استقالته غير القابلة للنقض، ويغادر باهيا. ويأمل أن يحصل من الدون أبادي على نقله. وفي المركز الديني في الريو دي جانيرو سيحاول أن يتابع، في السر والنسيان دراسة الآثار المتعبة، السبب في بعض الرضى والكثير من الأحزان.

استعجل دون رودولف التأكيد والتصفيق: إن القرار يبدو له هو القرار السليم، والوحيد، والقادر على الاستجابة لمصالح الجامعة، والكنيسة، والدون ماكسيميليانو نفسه. تأييد وتصفيق انحفرا حفراً في القلب المجروح لطالب الاستقالة مدير متحف الفنون الدينية.

الهر والفأر

كـــان الأب سواريس في قيلولته، بعد الغداء، عندما اقتحم الصحفيون المقر، وأخـــذوه عنوةً، واضعين أمامه مكبرات الصوت وآلات التصوير. وكان المتدرج الـــديني إيلوي لدى نهاية مناوبته قد وجد نفسه محاصراً بالأسئلة والكاهن سواريس بالمصورين بينما وجهه في دهشة وفمه مفتوح من الذهول.

المتدرج وسكرتير المطران المساعد، أقسما القسم الغليظة على أن سماحته، بعد نهايـــة القسم الأول من الدوام، خرج من البطريركية ولن يعود قبل المغرب. وكان الـــدون ماكـــسيميليانو قـــد خرج قبله، ولا يعرف الكاهن سواريس إلى أين: إن الكذب هو جزء من الموجبات المترتبة على سكرتير كفوء. يا للأسف، لأنه يرغب في أن يقـــول للـــصحفيين، إن الدون ماكسيميليانو، وقد فقد ماء الوجه وانكسر عوده، لم يعد يبدو كما كان بثراً من التصنع تجعل الأب سواريس في كل مرة فيها ضاحكاً، متأنقاً، مستعلياً، يقول: دع التمساح ليوم تجف البحيرة، وسيرى تمساحاً يـــرقص.. وطائعـــاً، خاضعاً، هبط الدون ماكسيميليانو الدرج إلى المرآب حيث استقل سيارة المطران: خرج مع سماحته، مختبئاً بظله.

ذهب الهر، فارقص يا فأر.

المبرر والثمن

في زحمـــة الحـــركة – للشرطتين الفدرالية، والإقليمية، المستنفرتين، فإنه لمن دواعـــي الـــسرور تسجيل نبأ إطلاق السراح، عند المساء، للربان مانويل وماريا كلارا. فقد أطلق سراحهما، دون أن يكون لهما الحق، مع ذلك، في مغادرة المدينة: ويمكـــن أن يستدعيا في أية لحظة لإفادات جديدة أو مواجهات مع متهمين، ويمكن للسجن أن ينفتح للمجرمين في أي وقت.

في غـــرفة العقيد المنتدب، كان الناشر إيبامينونداس كاستولينا ينتظرهما – إنه شاعر آخر، نعم يا سيدي، ففي باهيا يمكن أن تعثر على اثنين أو ثلاثة من الشعراء لـــدى كل منعطف طريق. وكان قد علم بالتوقيف، فجاء للحصول على الأنباء، وعرض كفالة. كان يعرفهما منذ تاريخ طويل، الربان مانويل وامرأته ماريا كلارا الفقـــيران غير القديرين على سرقة أي شيء. كان المندوب قد قال إنه قرّر إطلاق

سراحهما لأنه لم يستطع أن يسجل أي شيء ضدهما.. شيء ملفت للنظر حقاً: إنه مجرد ربان بسيط ولكن، علاقاته الاجتماعية جيدة. ما عدا إيبامينونداس كاستولينا الذي حضر شخصياً، فإن شخصية كبيرة اتصلت هاتفياً من برازيليا، ومن مكتب وزير التربية: ولم تكن تلك الشخصية غير الكاتب هربرتو سالس، عضو الأكاديمية البرازيلية، ومدير المعهد الوطني للكتاب. كان يريد أن يعرف سبب سجن الربان مانويل وماريا كلارا، صديقيه؛ إنهما صديقاه، وهكذا قال واضعاً نبرة في صوته. وكذلك هربرتو سالس أخذ كامل مسؤولية الزوجين صاحبي المركب الشراعي، وقام بطلب استعلائي، إلخ... إلخ... واستجاب العقيد ودون أن يكذب قدّم نفسه كأحد قرائه. في الحقيقة، عندما كان شاباً ذا ميول يسارية كان قد قرأ أحد روايات سالس عن الوصوليين. ولكنه منذ ذلك الحين تطور، فتخلى عن ميوله وعن قراءة الروايات.

ولكنه لم يعلن السبب الحقيقي لإطلاق سراح الربان ورفيقه. كان قد قام بذلك ليتعقب خطواتهما بنية الوصول إلى شركاء القس كالفاو. إن الكفالات والطلبات هي مبررات لا نفع منها؛ وكان العقيد يظهر نفسه حساساً: سآخذ بعين الاعتبار إفادتك، وسأفعل الممكن لأستجيب لطلبك، كافلاً لنفسه بهذا شهرة ليبرالي ودقيق. في الحقيقة لم يكن للمبادئ والدقة في العمل أية قيمة. إن المثقفين صنف سيئ من البشر: وكان يبصق ثم يدوس بحذائه فوق بصقته.

المخبرون السريون

في شوارع المدينة، رجال من الشرطة الإقليمية، ومصورون من الشرطة الفدرالية يتزاحمون متدافعين للحصول على مؤشرات، ومشكوك فيهم، تفتيشاً عن وسطاء ومشترين للمسروقات ومخابئ سرية، ومغاور قطط، وأجهزة الانحراف الاشتراكي السرية.

وكان المخبرون السريون على منعطفات الطرق، ملثمين، يعترضون كهنة، ويسألون تجار التحف وهواة المجموعات. أما ميرابو سامبايو المعروف بفنه البلاستيكي، ذو الصبر القصير والغضب السريع، عندما رأى التحري "إكسبيديتو فازسي دي بيستا" يرفع عن المشجب الصورة التي كان الفنان قد علقها مع إطارها

الخـــشبي، وبتوقيع فراي أغوسطينيو دابييدادي، الدرة الثمينة في مجموعته، فإنه ألقى التحـــري خارج قاعة العرض: أُخرج قبل أن أثقب رأسك برصاصة يا سيد "ابن العاهـــرة"! إن قـــصة سرقة تمثال القديسة بربارة، أم الرعد، ليس إلا اختراعاً من مختـــرعات مديـــر متحف الفنون الدينية المقدسة، وقد عدت قصة مقرفة، و لم يعد هناك من كيس يتسع لها. إنها المرة الثالثة التي يعيقون فيها الفنان ميرابو عن العمل، وهكـــذا فإن صورة المجدلية التي أوصى عليها المصرفي جورج لينـــز فريري كهدية للـــسيدة إيلـــسي بمناسبة عيد ميلادها، لن تكتمل في الموعد المحدد للتسديد المالي الأكيد: إن الدون ماكسيميليانو ذاك ميت لم يمت بعد!

مفـــوض آخر، ملقب بكلب المسيرة، ومشهور بقوة حاسة الشم، كان يجول في ســـانتو أمـــارو مع الأوامر باستجواب الكاهن، والسيدة كانو والسيد جوزي، وأي شـــخص آخـــر يمكـــن أن يعطي أية دلائل: لا تنسَ فتاة القس. أما الأستاذ كاليشتو باسوس فكان يؤكد استنتاجاته: إن الأب تيو فيليو خطط للسرقة، ونفذها القـــس كالفاو، وخلف التجارة بالقديسين القدماء كان يتلطى في أثوابهم، مطارين وأرشمندريتات، ومونسنيورات.

أمـــا عمـــلاء الإس. إن. إي، الذين يعملون في السرية المطلقة، فإنهم غادروا بـــرازيليا لتحقيق الهدف: وضع وتنفيذ عملية "سيري بوستا"، وهؤلاء لم يكن أحد يـــراهم أو يحـــس بوجودهم. كانوا يعملون في الخفاء، وفي ظل التمويهات، إنهم مجهولون: "أنكونييتوس". وبين الموجودين أحد نجوم الجهاز المعروف باسم سري: ســـبعة سبعة صفر، والمشهور بين زملائه بلقب "قفا البغلة". كان يكفي سماع اسمه حتى ينهار المتهم.

الصبيحة

كانت سيارة التاكسي ما تزال متحركة – عندما لمحته سيلفيا أزميرالدا يرتدي الجـــبة الكهنوتـــية واقفاً تحت وهج الشمس وهو يمج دخان السيجار: رأته جميلاً ومـــثيراً. ومكافأة على الأشياء المثيرة من هذا الصباح وضعت بخشيشاً كبيراً في يد السائق، الفارس الذي ودعها: تمتعي جيداً يا سيدتي فالحياة قصيرة. وانتظرت ابتعاد التاكسي لتتقدم للقاء "إيلوي" بغية نقل رسالة شفهية إليه:

- إيلوي؟ مساء الخير، إيلوي. لم تستطع أوليمبيا أن تأتي وليس لديها وسيلة للاتـــصال بك... وكانت تبتسم وعيناها ناعستان ولسانها يرطب شفتيها: و لم تعط الـــوقت لـــتكمل جملـــتها؛ فخرج رجلان من السيارة الكبيرة السوداء، بوجهين حانقين، يظهران العجلة ويشهران المسدسات. فدفع طرزان سيلفيا، وجرها باتجاه اللـــيموزين: هيا بنا يا جميلتي، بسرعة ودون أن تتفوهي بكلمة إذا كنت راغبة في عدم التعرض للضرب. أما كينغ - كونغ فأمسك بذراع إيلوي ولواها بعنف وهو يبتسم ابتسامة تكاد تكون قلبية. فصرخ إيلوي صرخة عالية: اسكت، قال كينغ - كونغ، وأردف الأمر بصفعة مدوية.

وضـــعت سيلفيا إزميرالدا مع الطالب الديني المتدرج في السيارة، حيث كان يجلـــس رجـــل ثالـــث، وبيده رشاشة، قرب السائق، وكان يبدو الأكبر بينهم. وانطلقـــت الـــسيارة، و لم تكن الطريق طويلة. كان الموتيل على مقربة من هناك، محاطاً بجدران عالية، وأبوابه مفتوحة، بالانتظار.

كيكو بروميا، بوجهه البائن العظم، الطويل، الذي يشير إلى موهبة سابقة، عندما استلم أمس، المبلغ اللازم للدخول إلى "الموتيل" سأل زميله، دون أن يخفي الحسد:

- إنـــك ســـتفعلها مع سينمائية، أليس كذلك؟ في شارع بوبولار يصورون فيلماً: "صفر صفر سبعة" ضد دكتور "كلا".

ابتسم إيلوي ابتسامة غامضة، وهو يحلم، ويرتقب:

- إن صـــفر صفر سبعة الذي يرافقني هو شيء آخر... كيكو بروميا لم يكن يعرف جيداً.

مهب الريح

كان الربان مانويل وزوجته ماريا كلارا قد مضيا يتبادلان الغزل مع الصديق إيباميـــنونداس كاستولينا، على طريق ورشة سفن البحرية حيث تمّ احتجاز "المبحر بلا ميناء":

- ذاك هـــو مركبي الشراعي - انتفض الربان متخلياً عن توازنه المعتاد - إنه ذو إبحار رشيق إلى درجة أنني إذا رأيته مشرعاً في الفضاء مثل نجمة هوت واقعة من عليائها، فلن أصاب بالتعجب.

شيء آخر لم يشاهد عندما حلّ ليل ذاك الخميس. "المبحر بلا ميناء" وأشرعته تصفق للريح كان فوق عرض البحر يقطع الغيوم، كما لو كان يجتاز أمواج الخليج العاتية. كان قد جاء من بدايات البرازيل، من زمن الاستعمار، وامتطى أمواج بحار لم يتجرأ عليها أحد من قبل، إسباناً وأفريقيين، وتهادى في مرفأ فيانا دو كاستللو، وفي مراسي سان فيسنتي، والرأس الأخضر، ودكار، والسنغال، ومتنه مليء بالكره والحب والشعر، أعباء الحياة والموت.

وقام بإبحار طويل بين مرافئ باهيا جميع القديسين، وطاف "المبحر بلا ميناء" حول الجزر، وطار فوق مارا كوجيبي وكاشويرا، وأودع أبطال الاستقلال في جزيرة إيتا باريكا. على الدفة زنجية سوداء عارية، ترتدي مرة ذهب الشمس وأخرى فضة القمر: جلد مخملي أملس، ونهدان من خشب العاج الصلد، وأسفل أكبر من مؤخرة المركب الشراعي. وكانت تقيس، في الأقل، سبعة أمتار، قدماها عند مصب باراغواسو، ورأسها عند هضاب إيتابونا في مياه إبابيتي المظلمة.

كان "المبحر بلا ميناء" يبحر بموازاة طريق الأديرة والمعابد، وفي كل منها، زنجية بيضاء، بيضاء زنجية، "باربرة – أويا" ترجلت إلى اليابسة وأطالت بقاءها هناك. في دير دو دشترو رقصت مع فلبينا، وفي دير التائبات أجرت مع اللواتي فقدن عذرياتهن ساعات طويلة من التعليقات. وفتحت أبواب محبسة سان بنتو للطلاب المضطهدين وللكهنة المرذولين الذين شاركوا في التجديف وانتموا إلى الفكر الاشتراكي.

وأخذ بركة الأم مينينيا دو غانتويس، أوشون باهيا، أم الطيبة، وأنقذ ستيلا دي أوشوسي على عرش أوبو أفونجا، وأبحر في كهوف المدينة، وأنهار الذاكرة، وضوء منتصف النهار، وظلمة منتصف الليل. لقد كان "المبحر بلا ميناء" المخيلة والضمير وحلم الشعراء والروائيين.

من مقود المركب الشراعي انطلق هزيم الرعد معلناً الحرب من غير مقر قيادة. من جديد رسا "المبحر بلا ميناء" في رامبا دو ميركادوا مرفأ الزهد. سحب الليل من غفوته ونشره فوق المدينة: ثم عاد وانطلق للهو، والقتال، ومواجهة الأقدار. وفي محبسة التائبات، كانت ليلة مانيلا شيئاً آخر، ليلاً من العبودية هي أسوأ من الموت.

لم يكـــن الـــربان مانويل يقدر المبالغات، ولم تكن لديه عادة ادعاء العظمة، ولكنه عاد ليؤكد الحقيقة الحقيقية، المثبتة بالأفعال: إن مركباً شراعياً شبيهاً بمركبه لا يوجد، فلا مركب غوما، ولا مركب روفيند، ولا حتى مركب حبيب الله، ولا أي مركب في مياه أيوكا:

- إن مركبه قادر على أن يحلق في الهواء.

المنثور

أويـــا: نسيم الليل، ضوء القمر، عطر الياسمين، لازمة الأغنية الشعبية الأكثر رواجـــاً، أوراق الورد، الطير المختار، الحمامة البيضاء، الهر الشرس، الببغاء الملكية، الأفعى الزجاجية، وبوق العاج الأبيض.

كانـــت أويا قد تبدلت، وتقمصت ألفاً من التمويهات، في زيارتها للفنانين، الأمة المفضلة عندها، وهي، مثل هؤلاء المجانين الوسيمين، كانت أيضاً تبصق النار، وتـــنفث اللـــهب من فمها. طافت من محترف إلى محترف، ترى وتبدي إعجابها، وحـــيث مـــرت، تـــركت أثـــراً، وإلهاماً، وومضة، كما يشكون في امرأة الغاب ويتذكرونها ويعيدون تكوينها مخيطة على القماش، مرسومة على الورق، محفورة في الخـــشب، أو منقوشة بالنار على المعدن. كانت معتزة بذاتها، وتعرف نفسها جميلة وتحب أن تتأمل في محاسنها في المرآة.

في بدايـــة الثمانيـــنات، وكانـــت قد انقضت عشرة أعوام على وقائع هذه المذكرات، فإن خبيرة التحف سيلفيا أتايدي رأت انتباهها يتركز من جديد على ما تـــراءى لها صدفة، وظرفاً مثيراً جديراً بالبحث والتوضيح والتعليق. فانكبت على اللغـــز لتفكه، وخرجت تسأل، وتنقب، ووظفت وحركت الناس والصناديق المالية وقضت أشهراً تجمع الدلائل وتقيم المقارنات. وفي نهاية المهمة الصعبة، فإنها حررت ونـــشرت دراسة صغيرة: الفن في زمن "أياو"، وحققت، بواسطة تحف مستعارة، معرضاً يثير الفضول ويستدعي التوقع، تكلم عنه الناس من الشمال إلى الجنوب، في طـــول الـــبلاد وعرضها، وجعلت النقاد الفنيين يصابون بالارتباك. وكتب المناظر الـــشهير أنطونـــيو سيليستينو: إن الاستنتاجية المتولدة عن التمازج أكدت نفسها مبدعة الفن الذي جعل الأصالة البرازيلية تتألق.

وقـــد اكتشفت عالمة التحف والآثار، وأثبتت بالبرهان أنه خلال فترة قصيرة من عدة أيام في السبعينات استوعب أكثر الفنانين، وأكبرهم أهمية، عملية النحت، وأنجزوا منحوتات، ورسوماً زيتية، ومحفورات وصوراً على الأقمشة، جاءت كلها متشابهة، إذا لم نقل واحدة، وكلها تستلهم شعائر يانسان أو عبادة القديسة بربارة. وتمكـــنت ســـيلفيا أتايدي مديرة مركز فنون مصرف التنمية في ولاية باهيا من أن تجمـــع في صـــالونها الواسع، الذي خصصته للعرض، ست منحوتات، ثلاث منها خـــشبية، وثـــلاث أخـــرى معدنية، بالإضافة إلى سجادة، ومنحوتة على المرمر، وواحـــدة وثلاثـــين لوحة زيتية، ومحفورة ورسماً. وفي ساعة الافتتاح في نهاية نهار مـــضيء، انتـــشرت أشعة فوق عمارة متحف المصرف، وراح هزيم الرعد يدوي محيـــياً، ومحتفـــياً. وكـــان من المأسوف له غياب بعض التحف التي أشير إليها في الدراسة: لم يكن ممكناً المجيء من الريو دي جانيرو بمنحوتة الفنان كاريبيه، كما أن هـــاوي المجمـــوعات أدافالدو باكوتي أعار بجهد جهيد واحدة من ست يانسانات للفـــنان ثاتي مورينو: كانت لديه تجربة مُرة، إذ كان قد أعار لوحة لسيرون فرنكو لتعرض في سويسرا، ولكنه لم يعد يراها أبداً.

وتعاقبت القديسة بربارة والآلهة يانسان في المنحوتات واللوحات المعروضة في صـــالون المـــصرف. في محفـــورة الخشب للفنان إغنالدو بدت القديسة بربارة، أم الـــرعد، غامضة، تقف فوق قرني ثور وتخرج من الخشب حاشية الآلهة يانسان. أما في تحفـــة أنطونيو ريبو ساس المصنوعة من الفولاذ غير القابل للصدأ بدت القديسة بربارة في حلقة رقص، زنجية رائعة.

أمـــا زيتـــية جنر أوغوستو المصنوعة بكمال ما تمليه المقتضيات على من يجيد عملـــه، فقـــد أظهرت القديسة بربارة، أم الرعد، في "الاغادوس" تجتاز جسراً غير مـــتوقعة مـــصادفته، وهـــي متمايلة على نصل حاد وترافقها مجموعة من المرافقين يـــشهرون بأيـــديهم ســـيوفاً مـــصنوعة من النحاس، وبدت يانسان في بحر ليف سماركفسكي تسبح مع أسماك ذهبية، بلون خلاسي.

وصـــنع ماريـــو كـــرافو تمثالاً كبيراً ليانسان دي إكمبالي، من بقايا حطام الـــسيارات، فبدت محاربة مبرزة، مع ذراعين ممتدتين، وعند قدميها الموت مهزوماً. إن يانـــسان لا تخـــاف الموت، وهي حارسة أبواب الماوراء للايغون. وفي اللوحة

الــزيتية بدت القديسة بربارة، أم الرعد، تمتطي حورية البحر، بينما تمتطي يانسان صــهوة الــسمندل في بحر وسماء إبابيتي. وجاءت لوحة القديسة بربارة، أم الرعد، للفنان ميرابو سامبايو تحفة يصعب وصفها، وفيها بدت القديسة بربارة بلون الفجر الخمــري، ولم يكن قد رسمها بطلب من أحد وظل خلال سنوات يعارض بيعها. ولكــن كيف يمكن رفض العرض المغري الذي قدمه أنطونيو كارلوس ماغالياس؟ عــندما رأى اللــوحة فإن الزعيم السياسي قرّر أن يأخذها إلى البيت، كلفت ما تكلف. ولهذا السبب وغيره لقبوه بطونينيو المحتال: فقد وضع مالاً نقداً ولا حدود له في يد ميرابو. وبالرغم من أن ميرابو غني، وحريص، فكيف يتجاهل ويحتقر ذلك المــبلغ الكبير؟ وانحنى الفنان لإغراء المحتال، وتخلى عن اللوحة، وتبخر المال، وظل ميرابو حتى اليوم نادماً.

فــنانون عديدون عملوا في الموضوع وقد لا تنتهي اللائحة، فقد حان وقت وضع حد لتسجيل الأسماء.. وتم انتقاد عالمة التحف والآثار لأنها لم تقتصر العرض علــى اللوحات ذات القيمة الكبرى. ولكن بالنسبة إلى سيلفيا، والحال هذه، فإن كمــية الأعمال كانت بنفس أهمية النوعية. وهكذا فإن البحوث قادتها إلى استنتاج أن الوقائع التي كانت بمناسبة ذلك الحدث مسؤولية مباشرة عن يانسان، والقديسة بربارة المتشابهتين، في تلك الصدفة السحرية.

لــدى عــودتها إلى البيت على شاطئ "الماغراندي"، اختصرت ميريام فراغا لاورلانــدو وبياتريــز: والديها، والبيريكو، عمها، وأولادها الأربعة، ولكارلوس حبيــبها، المساجلة المثيرة التي غرق فيها الفنانون، والنقاد. إنها المنثور، قامت، لتعبّر عن أن أصواتاً كهذه تتعاقب باستمرار في باهيا، ولا تسبب دهشة، لأنها خبز باهيا اليومي.

ميريــام، وردة الــرياح، عطر الربيع، ملهمة الشعر، أعطت رأيها وكررته، وعندها فهم الجميع القرابة، والمشاركة، والقيمة الكبرى، وسبب الأشياء: المنثور!

أحداث ليلة الخميس

الخلاف

استغرب دانيلو غياب مانيلا عن طاولة العشاء. لم تكن تنفذ عقوبة، وإذا كان باب غرفتها مفتوحاً، فإلى أين سمحت لها دادا بالذهاب؟ في الفترة الأخيرة كانت أداجيزا تبدو غاضبة، آخذة الصغيرة من رسنها الصغير - لا خروج ليلاً، بحجة الدرس في بيوت الزميلات: عليها أن تذهب من الطاولة إلى القيام بالواجبات المدرسية، ثم الصلاة والفراش. كانت الصغيرة تنام، مقفل عليها الباب من الخارج، والمفتاح بيد العمة المقتنعة بأن مانيلا كانت تهيئ نفسها للهرب. وعندما كانت دادا تضع شيئاً في رأسها، فإنها كانت تتصرف بنتيجته: إن الإقفال على الصغيرة عمل سيئ لا ضرر منه: دانيلو يشمئز ولكنه يتجنب التعليقات، لأن محاولة الإصلاح كانت تقود إلى ما هو أسوأ من اللازمة التقليدية.

- أين مانيلا؟ - سأل كمن لا يريد شيئاً، عندما كان يصب في صحنه قطعة من الخضار المقلية.

أوقفت أداجيزا ترتيب الملاعق، وحدجت الزوج وعندها، سردت له تلاحقات المسيرة المتعبة. العثور على البطاقة، الأقوال، الهرب المدبر لتلك الليلة، واهتمام الأب جوزي أنطونيو، والزيارة إلى قاضي الأحداث، وإلحاق مانيلا بدير دالابا، في سباق مجنون، ثم النهاية السعيدة: إن الله يحرسها ويساعدها.

- هل ألحقت مانيلا بدير التائبات؟ هل هذا ما تقولينه لي؟ -. خرج صوته ناشفاً وأخذه الحنق الشديد بصورة غير متوقعة. وبوجه اختلفت ملامحه، كان دانيلو يهز برأسه دون أن يصدق ما كان يسمعه.

- هكذا تماماً. لقد تمكنت من فعل ذلك بمساعدة من الله.

- دادا، هل فكرت فيما فعلته؟ هل جننت؟

– لقــد فعلــت ما فعلت لأمنعها من الخروج من البيت لممارسة الدعارة مع الكلــب – الســائب. لقد ساعدني الله على اكتشاف المؤامرة في الوقت المناسب، ولكــني، أنا وحدي، أعرف التداعيات التي تلاحقت والآن حل كل شيء، وهي موجودة تحت حراسة سيدنا يسوع المسيح.

– دادا، مــا هذا الذي قمت به؟ هل جننت دفعة واحدة أم أن لا قلب لك؟ كيف تستطيعين أن تكوني سيئة إلى هذا الحد؟ – دفع الصحن: – بسرعة! امضي، سنذهب لنعيد مانيلا في الحال. لا أريد أن تقضي المسكينة ليلتها هناك.

– مــن هناك لا خروج لها إلا حينما أقرر. ستبقى إلى أن تنسى الشمبانزي، وليطل الوقت ما يطول. واخفض صوتك، لا أريد أن يعرف الجيران. الأفضل عدم الــتحدث في الأمــر. وإذا ســألوا عنها، فقل إنها ذهبت لتمضية بعض الأيام في الخــارج، في بــيت "إيتاتوســي"، في "أوليفنسيا". – إيتاتوسي كانت ثرية قريبة لدانــيلو، متزوجة من مزارع كاكاو، وتعيش داعية الأهل لتمضية بعض الوقت في المزرعة وفي أوساط أوليفنسيا –.

أصــغى دانيلو إلى تعليمات أداجيزا بفم مفتوح؛ قاسية، حادة، كما هو شــأنها، ولكــنها مطمئنة منذ علمت بأن مانيلا بمنجى من إغراء ميرو، وبأن عذريتها في أمان.. ليس من أمر سيئ يمكن أن يقع لها في الدير، بل على العكس مــن ذلك. وفي كون مانيلا في محيط من الورع، التعبد فيه يملأ ساعات النهار، وهــي مستسلمة لحرارة الإيمان – قداس عند الصباح، ومباركات عند المساء، وصلوات في كل لحظة، وفحوصات للضمير، وخلوات روحية – فإن البقاء بين الــراهبات يعني حمّاماً من القداسة للنفس القذرة والمهترئة المهددة بالانزلاق إلى الــرذيلة.. متحررة من الأفكار السيئة، ومنتصرة على التجارب، وقد أفرغت حمل الخطايا، شاكرة، مستعدة للطاعة والاحترام، فإن الحفيدة تستطيع أن تعود إلى البــيت الذي حاولت أن تلوثه بالزنى وتتخلى عنه.. وكانت أداجيزا تشعر بالرضــى لقــيامها بالواجب، لقد قمت بواجبي، يشهد الله. وأخذت الإبريق لتصب الحليب.

انتصب دانيلو واقفاً:

– لنذهب فنأتي بمانيلا. دادا.

– لقـــد قلت لك أن تنسى الأمر. إنها في الدير بأمر من القاضي، ولا يستطيع أحد أن يأخذها من هناك، سواي، أنا مربيها. اجلس هنا لتشرب قهوتك، لم يتسنَّ لي الـــوقت لأجهز الحساء.. واقفل فمك، ولا أريد أن أسمع القيل والقال من أفواه هذه الفئة الوضيعة من البشر في الجادة.

– إني مربيها كما أنت. إذا لم تكوني تريدين، فأنا سأذهب وحيداً.

– أنـــت لـــن تـــذهب إلى أي مكان.. انسَ الأمر كما قلت لك. ولا تضع نفسك حيث لا شأن لك: من يقرر مصير مانيلا هو أنا، ولا أحد آخر، فارتح إذاً وكف عن إثارتي.

استبدلت إبريق الحليب بإبريق القهوة. في وجبة العشاء لم تكن أداجيزا تضع الملـــح في الطعـــام، ولا تجعل الوجبة، في أحسن الحالات، أكثر من صحن حساء، وفطيرة خفيفة. إجمالاً، كانوا يكتفون بالقهوة الممزوجة بالحليب، وقرصة معجونة بالـــذرة، أو الكوسكوســـي، وخبز الحليب، والأجبان الباردة.. وكان دانيلو يحب بجـــنون الـــبطاطا الحلوة، ولكن أداجيزا كانت تطبخها من وقت لآخر، ونادراً ما تفعـــل: إنهـــا تسبب الغازات، ودانيلو مع هذه السن، أصبح ضراطاً. وأي حدث يجعلـــه يتخلى عن رتابته اليومية كان يصيب أمعاءه بالالتهاب. وهكذا حدث في تلك الليلة من الخميس: فالخلاف جعله منفعلاً، ولم يتمكن من أن يمسك نفسه عن الضراط فأفرغه قوياً، طويل الإيقاع، ورناناً.

– ما هذا يا دانيلو؟ أتفعل هذا على طاولة الطعام؟ ألا تخجل؟

رب العائلة

مـــن الـــذي كان يصيح صياح الديوك في جادة "السلام عليك يا مريم"؟ إنها أداجيزا، بالتأكيد، أداجيزا، والسؤال الذي تطرحه الجيرة لا يمكن أن يكون الجواب عـــنه غـــير هذا: إن المقرفة تأمر وتنهي، وللمسكين صبر حمار، وكل ما يريده هو العيش بسلام.

كانـــت أداجيـــزا قد أخذت المجذاف في بداية الحياة الزوجية، مستفيدة، من الوضع الدوني الذي واجهه دانيلو في سنواته الأولى: مساعد في مكتب، يكاد يكون مراسلاً، فإنه كان يتقاضى مرتباً بائساً. صعد سلم المسؤوليات درجة درجة إلى أن

وصل حيث يجد نفسه ككاتب مع الأمل والوعد بأن يصبح يوماً نائباً للمسؤول أو بـــديلاً عنه، وهذا الأخير، إشتاكيو لاغو، لم يكن قد استقال من القرف الذي هو فيه بالرغم من أنه كاد يكون عاجزاً عن الوقوف على رجليه.

عـــند العـــودة مـــن شهر العسل، وبسبب عدم توفر المال لدفع الإيجار، فإن الـــزوجين ذهبا ليعيشا مع باكو، فشغلا غرفة أداجيزا: وتمكّن سرير العازبة، بجهد، أن يتـــسع للزوجين.. وإذ تمكنت من الاحتفاظ بزبائن الأم ورفع عددهم – كانت الأم "إشـــبيرانزا"، دقـــيقة المواعيد، وتختار زبوناتها، ولا تعمل لأية واحدة – فإن أداجيـــزا – ســـاهمت بفعالـــية في مصاريفهما التي لم تكن كبيرة: كان لهما بيت وطعام، مجاناً. ولم يكن باكو بيريز يقبل لابنته وصهره أن يساهما وإن بفلس واحد في مصاريف التغذية: وبقدر ما هو فقير فإنه شهم وكريم.

وسّـــعت أداجيزا من دائرة الزبائن، وبالرغم من المهارة وكثرة الأعمال، فإنها رفعـــت الأســـعار التي كانت أمها تتقاضاها. وكانت أداجيزا تفرض نفسها، لأن مـــزاحماتها في صـــناعة القـــبعات الحرفية الراقية لم يكن يصلن إلى قدميها بالنوعية والأناقـــة التي تصنع بهما "التحف" الفنية كما أسماها دانيلو.. لمن هذا العرف بلون الـــورد؟ كان يسأل رافعاً الكلفة وممازحاً عندما يراها تجرب بعناية، القبعة لتحديد الإيحـــاء الأول.. وكانت تصلها الطلبيات، حتى من الريو دي جانيرو، وفي وصف الـــبدلات المـــصنوعة للمناســـبات الـــراقية وحفلات الطبقة العليا، كان المعلقون الاجتماعيون يستشهدون، كدليل على الذوق الرفيع والرهافة، بالقبعات المعروضة على رؤوس الدوقيات التي دمغتها أداجيزا كوريا، المصممة المتميزة، بدمغتها. وفي مجلـــة "ســـبعة أيام"، كانت تريزا دي مايو تشرح لقرائها أن كلمة "موديستا" – مـــصممة – تعني من يصنع القبعات، وأما من تصنع الفساتين فهي "كوتورير" – خياطة.

المـــرتب الشهري القليل الذي يتقاضاه دانيلو، والإقامة المجانية، بالإضافة إلى عقـــم البطل السابق الذي حكم به الطبيب الاختصاصي، وبالأخص مظهر السيدة الكـــبيرة التي حافظت أداجيزا على إظهار نفسها بها دون أن تعير انتباهاً.. إلى المآل الـــذي آل إليه باكو نيفريرو المتقلص، كلها مكّنت الزوجة الشغولة، والمتفانية، من الـــتحكم بالبـــيت، والكلمـــة الأخيرة في القرارات.. وظهر دانيلو بمظهر الطبيعة

الـناعمة، والمخلوق ذي العشرة الطيبة، وكان يقبل دون توتر ظاهر، وعلى الأقل دون اعتراض، بالوضع الذي يفرضه نصفه الآخر.

لا بـأس مـا دام يستطيع أن يحافظ على بعض الامتيازات، والقليل من المتع الصغيرة، وبعض الفحوليات الخلفية: الطلعات الليلية، مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع، للمحادثـة القـيمة مع أصدقائه في مقاهي وسط العاصمة، والولع بكرة القدم فلا تفوته مباراة لايبارينغا، واللعب بالزهر والورق في نهاية الأسبوع في منـزل الأستاذ جـوان باتيـستا، وتـرطيب الـنفس بالبيرة، وكذلك بالسباحة في البحر في أيام الآحـاد... أمـا ارتياد نزل الدعارة الذي لا يقبل التأجيل، فلا يمكن إضافته إلى اللائحـة، إذ كـان يمارسه عند الغروب، ومع الاحتياط الضروري؛ وبعدها كان يصل إلى البيت في السابعة تماماً ليتناول القهوة السميكة وحساء الدجاج.

وكذلك في فراش الزوجية، كانت أداجيزا تفرض نفسها: ليس على أحد أن يقلق لأنها لن تعود إلى تفاهة المداعبات، والمحددات الجنسية، والأفلاطونيات – فيا لهـذه كلـها من وضاعات – وهذه معروفة ومدانة من الجميع في فراش أداجيزا المـؤلم.. ويـضاف فقط أن دانيلو المعذب ظل عنيداً متفائلاً، وهو على الرغم من العـشرين سـنة الماضية في النضال ما يزال يحتفظ بنوايا مشروعة، وأوهام الرذيلة، حالمـاً بأعجوبة، عندما يراها بقميص النوم في ساعة الاستلقاء في الفراش، كان يمر بـيده علـى قفاها: لا بدّ أن يأتي يومك، أيها القفا اللص! كان قد قرأ العبارة في إحدى مجلات الفكاهة، وأعجبته حتى العبادة، ومنذ ذلك الحين لم يعد يتخلى عن الحـركة الـسريعة والاستـشهاد بها. ولم تكن أداجيزا تكلف نفسها عناء توجيه الـشتيمة، فقـد كانت تلتف باللحاف لتنام: إن الذئب يفقد وبره ولكنه لا يفقد الـرذيلة... إن مـا تسميه خارج الفراش احتداماً يسبب العركات، والمناقشات، وتـبادل الـشتائم، ومنتهياً إلى هدوء مؤقت، راحت تسميه عتوها، وشعاع شمعة واهية، ولا يشكل قضية: لقد دجنت الذئب.

وجاء موت باكو بيريز ليجعل الوضع الاقتصادي للزوجين أكثر صعوبة. لقد حـدث فجـأة، بعيد الاحتفال بمرور سنة على زواجهما الذي احتفلوا به عائلياً، فـصبا الخمر على العشاء، وذهبا مع "دولوريس" و"إيوفرازيو" إلى السينما لحضور عـرض فيلم مكسيكي، "لكانتينفلاس": رائع مثير! وجاءت النوبة القلبية المفاجئة

لتقضي على باكو عندما علم الأخير، في النهاية، بعملية الاحتيال الحقيرة التي قام بها جافييه غارسيا. ومن حسن الحظ أن بعض أصدقاء باكو كانوا قد نصحوه محذرين، بأن يضع الأمور في نصابها فيما هو متعلق بالحديد المستعمل... و لم يصغ باكو إليهم لأن مواطنه كان يستحق كل الثقة، وهذا مدين له بكل شيء، وحتى بالمال الأول الذي وظفه في الشركة. لقد شارك باكو بالرأسمال، كشريك إداري.

– لم يكن جافييه يملك وإن عشريناً مثقوبة، وكل ما يملكه هو قدرته على العمل والشبق إلى الإثراء.

وفي إحدى الأمسيات، كان قد ذهب إلى أغوا دوس مينينوس طلباً لبعض النقود التي يحتاج إليها للمقامرة، سمع جافييه غارسيا يقول إنه لم يعد لباكو أي حق في السحب، وكذلك في أي مبلغ شهري يدفع بدل الفوائد والأرباح. لم يعد على جافييه شيء يدفعه له.. وخلافاً للأمر غدا مديناً بمبلغ كبير بعد أن كان دائناً، كما كان يمكن إثباته بموجب السجل وإيصالات المبالغ المسحوبة والموقعة. وهكذا فإن فرنسيسكو روميرو بيريز إي بيريز، الملقب بباكو، فقد اللون والقدرة على الكلام، وشحب لونه، وأحس بالاختناق، وجحظت عيناه، وانحنى على جبينه، ثم وقع ميتاً، هناك بالذات، في شركة الحديد – المستعمل: حيث كان يصل نادراً، كان المحيط القذر، والملوث، لا يرضي ذوقه، هو، صاحب التجارة النبيلة السابق، حين كان يبيع المطيبات الراقية، والخمور المستوردة، جيري ومالاغا، والأجبان الإسبانية، ومعلبات دي فيغو، والمخلوطات الراقية.. وقد شارك جافييه غارسيا بمبلغ متواضع في لائحة الأصدقاء التي تسجل عليها نفقات مراسم الدفن.. وكانت عملية الدفن من الدرجة الأولى قد بدأت من الكنيسة الخاصة في كامبو سانتو، حيث أقيم جناز الجسد المسجى، مع خطبة، ونعش راقٍ، وسجل يتزاحم عليه لتسجيل المشاعر والقصص المؤثرة ومغامرات الرجل المرهف. وفي إحدى زوايا الكنيسة، عند الصباح، كانت صبية زنجية هي آخر من اقتحمهن الفقيد، صلّت على روح الإسباني، معتصرة، وبعينين مرطبتين.. وكان المشيعون عديدين، وقد رافقوا خطبة القنصل الفرنسي عند مواراة النعش التراب. لقد كانت إخفاقات التاجر الثري، التي أتت الخطبة على ذكرها، عزاءً كبيراً لأداجيزا.

الأمـــوال التي تمّ الحصول عليها من بيع المقتنيات الثمينة العائدة لفرنسيسكو رومـــيرو بيريـــز إي بيريز تمكنت بجهد من دفع أقساط إيجار الشقة، المتأخرة. أما الأستاذ كارلوس فراغا، محامي العائلة الحذق، اللبق والمجاني، فقد تمكّن من التفاوض على حل معقول فيما هو متعلق بتصفية شركة الحديد المستعمل، وبعد أن اعترض جافيـــيه غارســـيا، ونـــاقش، فإنه انتهى إلى التخلي عن بعض الفضيات الضئيلة. واســـتحق الأستاذ كارلوس أتعاباً، حصل عليها، مرتفعة، بينما يهتم بأمور الثري الكبير في زمن البقرات العجاف. و لم تغرق أداجيزا في التبرج بالأموال التي حصلت عليها من الشريك السابق، فقد أودعت المبلغ في صندوق التوفير، وكانت قبل ذلك تحلم بتملك دارة خاصة بها.

عاشـــا خـــلال بـــضعة أشهر في غرفة نزل صغير، قبل أن ينتقلا إلى شقتهما الصغيرة – غرفة وصالة متصلتين، ورشاشة حمام، ومرحاض، وفرن كهربائي. كانا قـــد أقاما في جادة "السلام عليك يا مريم" منذ اثنتي عشرة سنة، في البيت الصغير، ولكـــنه سائغ، ولا تشتكي منه أداجيزا لولا الجيرة من الوضعاء الذين لا ميزة لها – مستثنية منهم الأستاذ جوان باتيستا. وفي التوفير، سمنت المبالغ التي أودعت، وبدأت معها دادا تقرأ في الصحف الإعلانات المبوبة.

شـــيء واحـــد لم ترد أن تبيعه، وهي ما تزال تحتاج إليه: وهو عضوية – العـــضو المـــلاّك، في النادي الإسباني، وقد تمّ تحويلها من اسم باكو إلى دانيلو، واستمر الزوجان يدفعان الاشتراك الشهري إلى المركز الأنيق. لم تكن تتساهل في كونها سيدة، متبعة في ذلك مثل إشبيرانزا: إن العرابة لا تلوي عنقها استجابة لعادات الفقر، ومع كونها تعيش على حافة الخراب فإنها حافظت على وضعها النموذجي.

وبالإضـــافة إلى المـــتاعب، والإزعاجـــات، والأعباء المزمنة، جاءها تربية الحفـــيدة، هـــذه، مانيلا، التي لم يكن لديها من الإسبانية غير القليل، وترفض قـــدرها كـــسيدة، وتتنكـــر للمبادئ الصالحة، وتتنهد بجنون لسائق تاكسي.. مسؤولية جسيمة، ومهمة شائكة، ولكن أداجيزا، مع بركة الله، سوف تنهض بها وتضعها على الطريق القويم: لم يكن عليها سوى أن تكسر كبرياء الحفيدة، وتنقذ روحها.

إنقـــاذاً لروح الحفيدة الملعونة، فإن العبء الذي حملها الله وقاضي الأحداث إياه، هي وزوجها، عندما توفيت أختها وصهرها، جعل أداجيزا تتصرف بمفردها، وعلـــى حـــسابها الشخـــصي، لأن أمير الملاعب السابق لم يكن ذا مساعدة، و لم يـــتعاونا.. كان يحافظ على نفسه غير مكترث، في ركنه الخاص، خلال المبادلات الكلامـــية الـــصاخبة والمستمرة: لم يكن يعترض قولاً أو فعلاً عندما كانت الخالة والحفـــيدة تتعجـــبان الواحدة لسلوك الأخرى، الغريب. وفي المناسبات التي كانت المناقـــشة تحتد وتتحول إلى امتعاض شديد يلجئ أداجيزا إلى قانون العقوبات، فإن دانـــيلو، صامتاً وشبه متخف، كان يتناول قبعته فيعتمرها وينصرف.. وإذا حدث ذلك في أحد أيام نقل مباراة كُرة قدم نقلاً تلفزيونياً حياً، فقد كان يذهب لمشاهدة المـــباراة في كينكاس بيراداغوا، حانوت المتعصبين، حيث يعمل جهاز تلفزيون في صالته باستمرار.

لا لأنـــه كـــان غير مكترث بالأحداث التي تجعل أداجيزا ومانيلا تتواجهان، الخالة تتهم، والحفيدة تعتذر، والاثنتان تتمزقان، بل لأنه لم يكن يوافق على الطرق الـــتي تـــستعملها الزوجة لتصلح وتربي - وكانت هي تعرف ذلك. عندما حضر أعمـــال القمـــع الأولى، والعقوبات الأولية، فإنه كان يقوم بردة فعل محتجاً على العنف في الحوار ومسار الأحكام الإصلاحية. وفيما هو متعلق بسوط الجلد، فإنهما تناقـــشا منفعلين، متعانقين، وخلال العراك فإنه استعمل كلمة "أم بالوصاية". إنك أسوأ أم بالوصاية في هذا العالم.

لم يـــستعمل التعـــبير مرة أخرى، وأبداً. لم يتصور أن أداجيزا يمكن أن تحمل علـــى عمل السوء تلك الصفة، وتقوم بردة الفعل بطريقة يائسة إلى هذا الحد، في إحـــدى أســـوأ النوبات، التي اعترتها وعانتها: لقد أصيب دانيلو بالتعجب، وتمتم بالاعـــتذارات الـــتي رفضت أداجيزا أن تسمعها. وأثناء نوبات البكاء، مطعونة في أعمق أعماقها. فإنها أصيبت بانهيار دام طيلة الليل، مع خفقان في القلب. وخرجت مـــن خفقان القلب إلى التذمر: لم ينصفها من كان عليه أكثر من سواه أن يهدئها ويـــصفق لهـــا، لأن دانيلو كان مسؤولاً عن مصير الحفيدة بقدر ما هي مسؤولية أداجيزا. وبالرغم من أن العمة كانت تحمل وحيدة أعباء القيام بدور المربية، وحين

كانت تسعى إلى أن تستدرك وقوع الشيطانة في دروب الشر، فإنها – هي أداجيزا – قد تلقت، كمكافأة، أسوأ شتيمة: الأم بالوصاية! كادت تعض المنحرف، مطالبة بالموت له.

وخشية انهيار العلاقة الهادئة واللطيفة، والانسجام التام والمريح، مما كان يميز حياة الزوجين حتى الآن بالرغم من كل الأعباء، فإن دانيلو قد قرّر أن يترك المركب للريح، وغسل يديه. ومثل بيلاطس في صلاته الأخيرة، أوكل إلى الأب جوزي أنطونيو هرنانديز: كان الزوج والكاهن ينظران الواحد إلى الآخر بعين السوء. ودون أن يعرف لأي سبب، فإن دانيلو عندما يلتقي بالكاهن المزعج كان يحس بالرغبة في أن يقلب ملامحه ويقضي على وجهه، ويلبطه على خصيتيه.

وكان تعايش زوج الخالة والحفيدة في كونه غير حميمي، ولكن غير قصير، فقد دام تعايشاً في مناخ من اللطافة والعطف، واشتدت روابطه بفعل الاحترام المتبادل والمميز.. حاول دانيلو أن يثير اهتمامها بمتعة كرة القدم وكانت النتيجة محدودة؛ وتعويضاً عن ذلك، فإنها في لعب الورق والزهر تكشفت عن تلميذة لامعة، وشريكة خطيرة، وتمسك عن استعمال أوراق اللعب، بصبر، كما تقتضي حذاقة اللعبة، على طاولة الطعام، وتحصل على نتائج باهرة تاركة زوج الخالة في ملابس النوم.. وكان دانيلو قد أعطى رأيه بميرو إلى مانيلا؛ إنه محبوب، وأحبه جداً، ولكنه لا يرفع صوته في وجه الخالة أداجيزا، وأعتقد أنه يخاف منها.

وسواء تصرف دانيلو خوفاً أو حذراً فرضته عليه المحبة، فإن خصوصية تصرفه جعلت أداجيزا تتعود وبطريقة قبلت بها، أن توافق الزوج مبتلعة التهديد الحازم: إذا لم تأتِ معي فسأذهب وحيداً، والآن بالذات. هكذا، وقد أخذت على غفلة، رافقت بنظرها، دون أن تقوم بأية حركة، ودون أن تتلفظ بكلمة، خطوات دانيلو في الصالة: شدَّ ربطة العنق، وارتدى سترته، واعتمر القبعة:

– إن لكل شيء حدوداً، يا دادا. فقط أعود مع مانيلا.

توقف عند الباب، ووجهه ينمُّ عن مسحة ألم – جسدي ومعنوي، وفقاً لما هو ظاهر – رفع قدمه، وإذا بصفقات يدين ترتفع مترددة بأصوات متباينة، وانطلق من بينها الأمر الذي أمرت به أداجيزا قاطعاً:

– ارجع إلى مكانك حالاً!

إن عائلة تتعشى مجتمعة، فإنها تظل متحدة

في المزرعة أو المدينة، فإن جواوزينيو كوستا كان يفرض الأساليب، ويزرع العادات، ولا يتساهل بالموضوع. وكان عشاء العائلة أيام الخميس إحدى تلك العادات: العائلة مجتمعة حول الطاولة الكبيرة المصنوعة من الخشب الجمري، في دارة فيتوريا الفخمة، وعليها الويسكي الاسكتلندي، والجين - تونيك لأولمبيا، والنبيذ البرتغالي، والمزات الرائعة التي صنعتها بريتينيا الطباخة التي جيء بها من منطقة الداخل.. في مرة أو أخرى كان الجمع يزداد بوجود قريب جاء إلى العاصمة ولكن، وفقاً للقاعدة كان أرباب الدار يبقون، والحالة هذه، على حميمية، وخاصة الصهر والابنتان الوريثتان للثروة الكبرى في باهيا. وكانت إحدى عشرة سنة تفصل بين أوليمبيا ومرلين، وكانت السيدة أليودورا قد جاءت بصبي لم يعش طويلاً إذ استهلكه الإسهال قبل أن يحتفل بعيد ميلاده الأول. وأصاب جواوزينيو، جراء ذلك، قرف كبير. وأصرّ المزارع الكبير على رغبته في ولد ذكر، ولكن السيدة أليودورا التي حبلت من جديد ولدت مرلين في الشهر السابع نتيجة حملها الصعب.

يا وديعتي، كان يقول سيد الأراضي الواسعة، وزارع القيم التقليدية: إن العائلة هي أساس المجتمع. كان يفرض على أوليمبيا وإستيريو أن يرفضا أي التزام من جانبها في الساعة المقدسة المخصصة للعشاء أيام الخميس، وكان يصاب بالضجر عندما تفرض مناسبة غير مرتقبة الغياب: إن العائلة تأتي قبل الحاكم، كان يعلن ويطالب... وحتى أكثر من الحاكم، وإن يكن الجنرال نفسه، يا بابا.

ليل ذلك الخميس العاصف، وفي صالة الاستقبال الوثيرة المطلة على الحديقة وحوض السباحة، كانت العائلة تنتظر إستيريو الذي تأخر كثيراً عن الحضور. ومرتدية ملابسها المثيرة، وتنورتها الغاية في القصر، فإن المراهقة مرلين، الوقحة، لم تكن متلائمة مع تأخر الصهر، فهذا التأخير هو قلة اعتبار. وكانت تنظر إلى الساعة في معصمها، ومن لا يصدق كان على موعد في الثامنة والنصف ليلاً عند مدخل مسرح كاسترو ألفيس، حيث كانت الفرقة الفرنسية ستسجل لكايتانو فيلوزو، جيلبرتو جيل، ماريا بيتانيا، أغنية جديدة أخذت تشيع بسرعة: غال كوستا... كانت مرلين قد دعيت مساء أمس لحضور التصوير السينمائي، ومن دعاها كان

جورج موستاكي الذي تعرفت إليه أمس، ومنذ ذلك الحين لم يعودا يفترقان... كانت مرلين قد أكملت سن الخامسة عشرة، وقد أعطت التعليقات الاجتماعية الانطباع الواضح إلى المحتفلين بعيد ميلادها: الاحتفال بالبركة في الكاتدرائية، الغداء الكبير، والحفلة الراقصة، والفالس الذي أدته مع الوالد: السيد الريفي الكبير، نوع من الرجال في طور الانطفاء... إن خمسة عشر عاماً هي السن المفضلة لدى المايسترو اليوناني: فوفقاً لما كان يبديه موستاكي من رأي، فإن النساء، بعد سن الخامسة عشرة، يبدأن بالتقدم في السن.. أما جاك شانسيل فقد جاء معه بمؤلف "جوزيف ولوموتيك" لكي يقوم في البرنامج بغناء بعض الأغنيات التي استوحاها من باهيا: "باهيا ساو سلفادور"، "باي باي باهيا"، المؤلفة في باريس إثر العودة من السفرة الماضية... وكانت مرلين ترى الساعة تركض ولا تخفي مزاجها السيئ: هل يعتقد إستيريو أن لا شيء لدينا لنفعل؟ إننا ماذا؟ إن ترك موستاكي ينتظر عند باب المسرح، بتصرف جمع النساء المتولهات، إنما هو عمل لا معنى له: لم يكن ممكناً ارتكابه.

أكثر عصبية منها كان رب العائلة: لم يكن جواوزينيو كوستا يدفئ تحته مكاناً، يذهب ويعود، ويراقب باب الدخول الكبير، ويرهف سمعه ليتبيّن وصول السيارة الصغيرة. كان إستيريو يتنقل في فولكسفاكن صغيرة: سيارة المرسيدس كانت مع السائق المتفرغ، تستخدمها أوليمبيا.. في نهاية بعد الظهر من يوم الخميس، ذاك، فإن أوليمبيا وصلت في سيارة تاكسي، مباشرة، من غرفة عازب أعارها إلى السينادور سكرتير الدولة ومحميه السياسي: لقد كان السينادور طاقة.

مليئة بالجواهر، وغطاء الرأس وحده كان قد كلّف سعر قطيع من البقر، فإن السيدة أليودورا، صاحبة النصف الإلهي الأعلى، الجميل في زمن مضى تحت زنار من المطاط، كانت تتلمظ بارتشاف مزيج من عصير الفاكهة، وهي تصغي إلى أوليمبيا مستعرضة آخر أخبار برازيليا: ملعونة ابنتها، إذ كيف كانت تتمكن من معرفة شيء كهذا وما نتج عنه؟ مثلاً، مغامرات الضابط إيلمو - ذلك الرجل الجميل الذي جاء إلى هنا مع الجنرال عبدياس، هل تذكرين، لينوكا؟ ما حدث معه؟ سأخبرك: كان واثقاً من نفسه في الفراش مع زوجة الجنرال، وإذ حضر الجنرال إلى البيت دون سابق إنذار، فإن الضابط أطلق رجليه للريح وجدّ في اتجاه

الحدود الكولومبية حيث عليه أن يقيم علاقاته، هذه المرة، مع الهنديات، فيا للمسكين!

وبينما هو يحمل بيده مغلفاً مليئاً وكبيراً اجتاز إستيريو الباب:

- بقيت سجيناً في المكتب.. - وبينما هو يعتذر كان يوزع القبلات على حماته، وزوجته، وسلفته. - إن نائبنا - السينادور - أصرّ على أن يأتي بنفسه مع نبأ موافقة الوزير على عطائي، وعقد سكة الحديد أصبح بمتناولنا. فلنحتفل.

ابتسمت أوليمبيا خجلة، ومتكتمة، وأطرقت بعينيها إلى الأرض: لقد استحقت الضريبة المدفوعة عناء بعد الظهر الذي قضته في الفراش السيناتوري المتعب. كان صاحب السيادة قد أعلن: عندما أخرج من هنا فسأذهب لزيارة إستيريو الطيب.. يزور إستيريو، لماذا؟ سألت هي متعجبة. لأرى قرنيه يا جميلتي.. وحين بدأ التنفيذ، فكرت أوليمبيا بسيلفيا والصغير إيلوي، المحظوظين: لقد أمضيا بعد الظهر اشتعالاً جنسياً وإلى آخره، عندما كانت هي تجهد نفسها في غرفة العازب لجعل عصا السينادور صالحة للاستعمال.. بمعرفة منه للجهد الأساسي، وموعودة من إستيريو بالمكافأة المستحقة، فإن أوليمبيا باركت ساعات النضال الجنسي، وابتسمت لزوجها. وبعيني هر، تأمل الزوج زوجته فوجدها جميلة، ومخلصة، زوجة لا تعوض، ولا مثيل لها. لقد ورثت أوليمبيا عن أبيها حُسن المسؤولية العائلية ومعناها:

الصورة المأخوذة في الموتيل، أو العاري الفني - طبعة إس. إن. آي: لم يتسنَّ لي الوقت لأفتحه.

جواوزينيو كوستا، وبينما هو يضرب بكفّيه، أمر زوجته وبنتيه، جازماً:

- هيا، هيا بنا إلى الطاولة، إننا سوف...

وبينما النساء متوجهات إلى طاولة الطعام، اقترب العم والصهر من النافذة الكبيرة ليريا، بصورة أفضل من ضوء القنديل، عري الأب أبيلاردو كالفاو، والمواطنة المدعوة باتريسيا داس فلورس.. وفضّ إستيريو المغلف الذي لم يكن يحمل اسم المرسل إليه أو المرسل، ومنه سحب فيلماً سلبياً وصورة بمقياس 18 × 4، ملونة. وقبل أن يراها، فإن جواوزينيو كوستا انتزعها بسرعة متلهفاً للتمتع برؤية وجه الكاردينال بريماز، القديس الانتهازي.. في حضوره، الخناءات وتعابير الامتنان

- كيف المزرعة يا عقيد؟ شكراً لبرميل زيت الرند، إنه ذهب سائل -. وفي غيابه: حامي البطيخ المهترئ.

في الصورة كانا عاريين حتى من ورقة التوت، ولكنهما ليسا هما:

- ما هذا بحق الشيطان؟ هذا الشاب ليس الكاهن.

استعاد إستيريو دي كاسترو الصورة، وحدّق فيها، وانفجر:

- حمقى؟ عجزة! أولاد الغانيات!

لا الكاهن كالفاو ولا فتاة المسرح. في الصورة المركزة جيداً، فإن المتعهد الكبير لم يتعرف فقط على زوجة قاضي الأحداث بل أيضاً على الكاهن المتدرج الذي كانت أوليمبيا ترافقه في العودة: رأى الكاهن المتدرج آخذاً بأوليمبيا من الخلف.. وعندها شمّ إستيريو رائحة المهانة، لا بسبب عدم إخلاص المتدرج، وبالمناسبة فهو لا يدين له بالكثير.. بل لأنه كان على علم باستثناء ما كان يمكن أن يكون غير ملائم، وسبباً في عرقلة المشاريع والأعمال: كان عليه أن يفهمه، وأن يفرض عليه دفع حماقته.

مهاناً، مثقوباً في كل مطارحه، لأنهم، من برازيليا، أعلنوا له في الهاتف عن اختيار عملاء الشرطة وإرسالهم، وهم أهل ثقة ونباهة. كان وجود العميل صفر/صفر/سبعة في مقر الشرطة ليكفل تنفيذ العملية "سيري بوسيتا"، بدقة، مع استحالة ارتكاب أي خطأ، أو وجود أية نقطة ضعف. إن صفر/صفر/سبعة، هو بطل مجلّ.

- وهل هم هؤلاء التافهون من يريد أن يربح بهم الجولة مع الاشتراكيين! إنهم لا يعرفون غير المدافعة، ولا يصلحون إلا للضرب. إنهم أكره من البراز!

جعل زعيق الزوج أوليمبيا تعود إلى الصالة، مهتمة. عندما رآها، فإن إستيريو لملم نفسه، وعمل على الاحتفاظ بالصورة، ولكنها أقدمت، وبحركة سريعة، تمكنت من حيازة المغلف: أرادت أن ترى ما تمكن من أن يثير من كان دائماً متماسكاً.

رأت ولم تستطع أن تصدق ما رأته عيناها. غطت فمها بيدها، وابتلعت علامة التعجب والذهول: ويلي، يا إلهي، ما هذا؟ أغمضت عينيها تحت الجفنين الاصطناعيين، ثم فتحتهما لترى. في الصورة الملونة - التي ما تزال مرطبة لخروجها

تــواً مـــن المختبر، إنها سيلفيا إزميرالدا والصغير إيلوي، عاريان كما آدم وحواء، الجـــوارب، واللـــباس، والفستان، والقميص الداخلية، واللباس عند أرجل الفراش المـــستدير، فراش الموتيل النموذجي. الاثنان، الواحد قرب الآخر، جنباً إلى جنب، مـــصوران مـــن الأمام، هي بعينين مرتبكتين، ميتة خوفاً، وهو بوجه بكاء.. حتى علامـــات الجمال الشهيرة في سيلفيا لم يكن بإمكانها أن تنقذ العري الفني الذي لا يستجيب في الصورة وإن بمعدل متوسط.

شـــيء مـــزعج، مثير، ومعه لم تكن أوليمبيا تعرف ما تفكر فيه. أقفلت عينيها من جديد وعندئذ فهمت الموضوع وكان عليها أن تحافظ على تماسكها هادئة. لقد انتهت إلى أن تعرف كم سيحيط بها من خطر لو لم ينقذها موعدها مـــع السينادور. بدا لها كل شيء واضحاً كالماء: لولا الموعد فإنها هي، مكان ســـيلفيا، من كان يجب أن تقف نموذجاً لوكالة الأمن العام الداخلي إس. إن. آي. إن أعمـــال إس. إن. آي الفنـــية كانـــت أعمـــالاً لا بـــدّ منها، ومثيرة للإشـــكالات: بمناســـبة الانـــتخابات كانوا قد قاموا بالعمل نفسه مع زوجة الـــبرلماني، والآن كانـــت هـــي، أوليمبيا، المقصودة. كانوا قد أعدّوا مؤامرة، وأرســـلوا إليها باسم إيلوي، يُعيّن الساعة والمكان للقاء، هو وقع، وهي كان يمكـــن أن تقع لولا الاتفاق مع السينادور.. لقد دخلت سيلفيا في النفق البارد، وكان عليها أن تشعر باليأس. لغز تمّ إيضاحه، كانوا يسعون إلى إشعار إستيريو بالإحـــباط. ولكن لماذا انقلب عليه الأمن الداخلي فجأة؟ لا بدّ أن أمراً خطيراً كان يجري خفية عنها، وعلى هامش ما تعرفه. عادةً، كان إستيريو يجعلها على علم بكل الأحداث والمشاكل. لماذا لم يخبرها بشيء؟

- إستيريو، ما تعني هذه الصورة؟ أريد أن أعرف.

وكان الوالد هو من أجاب، مفخماً صوته:

- لا شيء ليضاف، ليمبينيا، إنها تفاهة أراد الناس أن يقوموا بها! مزحة!

- وفتشت عن الضحك، ولكنها لم تجده.

لم تكـــن أوليمبـــيا ترفع عينيها عن إستيريو، فأحس بها قلقة، مما جعله يقوم بحـــركة مـــن خلف ظهر حميه، ليطمئنها.. أما جواوزينيو كوستا، وقد رمَّم نفسه عائداً من خيبة أمله، فاستنتج، بين الحيرة والارتباك:

– من كان ليقول إن الأستاذ برادو دافيلا، المناقبي والملتزم، يمكن أن يصبح ذا قرنين؟ لم يعد بالإمكان الثقة بأحد. اذهبا أنتما إلى الطاولة، فأنا لن أتأخر في العودة.

اتخذ وجهة المطبخ، ووجد إستيريو وأوليمبيا نفسيهما وحيدين. كانت قد انتهت من وضع الفيلم والصورة في جزدان كريستيان ديور الكبير، الأبيض. لو لم يحتفظا بالفيلم، ويا للإجراء الغريب، فإنهما لن يكونا قادرين على استنساخ صور جديدة. كم وزعوا منها حتى الآن في ميادين السياسة والأعمال؟ سيلفيا وعلامات جمالها معروضة أمام العالم: يا للشهرة. اقتربت أوليمبيا من زوجها:

– هل تعرف شيئاً عن هذا؟

– كل شيء. سأخبرك في البيت. ليس أمراً مهماً.

– لا تكذب عليَّ، يا إستيريو. إنهم يريدون أن ينالوا منك، أليس كذلك؟ ولماذا؟ – كانت همس بالرغم من كون الصالة فارغة.

– لا. لا شيء من هذا، كوني مطمئنة.. مجرد التباس. في البيت... – مدّ لها يده، وبأيد متشابكة مشيا إلى طاولة الطعام: الثور الوحشي الجميل والطائرة الشراعية.

إلى الطاولة، هائجة، حيث على دفعتين بعض "الكارانغويجو" الإلهي، متخلية عن مرق الروبيان المبهرة، وعن اللحم الطري المشوي مع البطاطا، وعن كل الفاكهة والحلويات بما في ذلك الأمبروزيا: لست جائعة يا ماما. كانت فقط بانتظار الوالد لتستأذنه بالخروج راكضة إلى ذراعي المقيم، الغريب: "بفمي الأجنبي، بفمي اليهودي المحتار، بفم الراعي اليوناني".. كانت مرلين قد حفظت غيباً كلمات وألحان الأغنية. ويلاه من جورج موستاكي، إنه الوله بعينه، فجّر الشعور البيضاء، الشهرة، المجد. – إنه ينتظر عند مدخل المسرح. بابا، لماذا تأخرت إلى هذا الحد؟

بخطوات متئدة، توجه جواوزينيو كوستا إلى المطبخ. الحمد لله أنه لم يصرف زي دي ليريو من الخدمة ويرسله عائداً إلى برنامبوكو، كما نصح صهره. ثم وازن تفكيره: يا لإستيريو وأفكاره المجنونة. كان هو جواوزينيو من يملك النباهة، ويتمتع بإمكانيات لا حدَّ لها، إنه أمر المطر فينهمر، والحاذق. كان ممكناً للواحد أن يدفع لـيراه ولكنه لم يكن يعدو كونه أثول، تافهاً، وتيساً، ذا قرنين.. ويا له من مقرن، قاضي الأحداث، فمن كان يمكن أن يقول؟

التحري في العمل

تــرجل المفوض ريبوليتو في سانتو أمارو عند هبوط الليل، و لم يكد يقفز من سيارة النقل الكبيرة حتى رآه هناك من تعرف إلى مهنته وأعماله المجيدة:

- يوجد هنا تحرٍّ فالت يقوم بواحدة مما يقوم بها السائح.

- وهــذه واحدة من العمليات الجيدة.. لقد اتجه فوراً قصد معرفة أي شيء عن صــاحبة القس.. إنه يسمي السيدة مارينا بالصاحبة، تأمل! ملتفاً بعباءة ريفية، ومختبئاً وراء نظــارتين غامقتين، وطرف القبعة منحنٍ إلى الأمام، - وبالنتيجة ليمر مجهولاً، فإن المفوض قام بالمهمة التي أوكلها إليه مدير الأمن، بدقة، بالرغم من كونها مهمة حساسة وخطــيرة. ومع أنه مهدّد بالتسكع، والخديعة، والعنف، فإن المفوض توصل إلى نتيجة دقيقة وموضوعية: إن شعب سانتو أمارو سوف يحمل السلاح وينطلق إلى الحرب.

كـــم تستحق من تقدير مهمة المفوض ريبوليتو لما واجهته من سوء النيّة الأكيدة، والـــصعوبات المعقدة، ومآزق لا حصر لها: إن شخصاً آخر كان سيتخلى عن المهمة، ولكـــنه لبط برجله الأرض وصمد. كان قد سمع أجوبة مضللة عن أسئلته المنهجية التي طرحها على السيد جوزي فيلوزو، والسيدة كانو، وغيرهما من الشخصيات المشتبه بها في المـــنطقة المتشنجة. وسمع ضحكات السخرية خلف ظهره: - إنه يموّه نفسه بملابس شـــارلوك هولمز أو بمعطف تينوريو كافالكانتي؟ - وابتلع ردود خادمة الكاهن، السيدة ماريـــنا، هـــذه الأنثى ذات الوجه الأحمر والصدر الصلب. محاطة بالمعتبرة وبالمحترم من المواطـــنين، ومستـــشعرة الاعتداء يفضح السر، فإن عرابة المطران لم ينقصها سوى أن تـــنهال علـــيه بالـــضرب: لست راغبة في الإعطاء من حياتي، اتركني بسلام، يا سيد فـــضيحة، واذهـــب لتـــسأل أمك كم أب لكل واحد من أولادها. حتى أنهم هددوه بالضغط على الأسنان: "إن الناس هنا ترسل الجاسوس سباحة إلى باهيا".

وانتـــشر العصيان في الشوارع ووقف السكان على أُهبة الاستعداد للحرب. زُمـــر عديـــدة تجمعـــت في أركان الشوارع، ثم بدأت مسيرتها باتجاه محلة ماتريز، وراحوا يحيون بالهتافات المطران، السيد جوزي والسيدة كانو، آباء الصغار. وذهب مـــوفدون إلى سائر مدن ريكونكافو في ناقلات برية ونهرية، سيارات، شاحنات، عـــربات ثيران، دراجات نارية وهوائية، جياد، حمير، بغال، زوارق آلية، مراكب شراعية، وفي ناقلة ركاب هي ملك البطل الدولي دوري زاروليو. وقد حملوا معهم

العــزم على الإبلاغ عن معركة التحري والحملة التأديبية، المقدسة، وضرورة إعداد الكــتائب والفــرق، الجــنود والمتطوعين، وإدراجهم في لوائح تحت راية القديسة بــربارة، أم الرعد. وطيلة الطريق إلى باراغواسو كانت تصدح أناشيد يوم القيامة، وتردد الناس بحماس وانفعال: "القديسة قديستنا".

في ســفينة "باهيا"، وفي ساعة مبكرة، كانت تصل يومياً إلى سانتو أمارو دا بوريفيكاســياو، أعــداد من الجريدة اليومية "دي نوتيسياس"، وجريدة "أتاردي"، مــوجهة إلى أصحابها المشتركين. وفي يوم الخميس ذاك، عُدت تلك الأعداد ملكاً جماعــياً، مــشتركة، وهــي تمر من يد إلى يد. كل الذين يجيدون القراءة، قرأوا تحقيقات غيدو غييرا وجوزي بربرت دي كاسترو، واحد يقول إن القديسة بربارة اختفت أثناء السفر، وآخر يصف وصول التمثال إلى مرفأ باهيا، وبحضور الصحفي نفسه.

بــين أخبار متناقضة إلى هذا الحد، فبأيها يمكن التصديق؟ يا له من سؤال! لم تكــن هناك آراء مختلفة: إن صحيفة "أتاردي" لم تكن ترتكب حماقات، أو تنشر أكاذيب، ويمكن القسم بالصليب على أن ما يقرأ في أعمدتها هو الحقيقة. وفيما هو مــتعلق بالحرب الوهمية المثيرة، كما ورد في جريدة "دي نوتيسياس"، فإنه لا يعدو كــونه كذبــة مختــرعة من أولها إلى آخرها، وبالتأكيد، بطلب من أحد أصحاب الــنفوذ، له مصلحة في إثارة الإشكالات حول مصير القديسة بربارة، أم الرعد؛ ألم يكــن مديــر متحف الفن الكنسي، والأستاذ أودوريكو تافاريس، مدير التعاونية الصحفية في باهيا، ظفراً ولحماً؟ لا غرابة مستنبطة يمكن أن تموّه الحقيقة: لقد سرق التمــثال بواســطة راهــب العاصمة، وتمّ إرساله سراً ليتم وضعه ضمن مقتنيات المــتحف. إنها ليست المرة الأولى، ولن تكون الأخيرة. ما هو الاسم الكامل للص، راهــب العاصمة؟ إن إعلان الأسماء مسألة خطيرة، ولكن الأمر هنا يمر على حلبة توضيحية: إن الإشارة إلى المتهم تتم كما كان الكاهن تيو يشير إليه: "دون ميموزو".

روايــة أخرى، وهذه بالتأكيد إحدى كذبات المعارضة، كانت تلمح إلى أن المحــافظ هو الذي أمر بالسرقة، بغية إهداء القديسة بربارة، أم الرعد، إلى الجنرال المرشــح لرئاســة الجمهــورية. إنه ادعاء يستند إلى السوابق والبراهين المتعددة.. وبالمناسبة تخطر على البال حال ذلك العقيد الغامض، الوفي للقديسين القدامى. لقد

جـــرّد ولايـــة الأغــــواس من كل رسوم القديسين، بالتآمر مع سياسيين محليين في الأشــــهر السبعة التي مارس خلالها قيادة فرقة الجيش في ماسييو. لاحقاً، تمّت ترقيته إلى لواء، ثم أحيل إلى الاحتياط، وألبس لباس النوم، من قبل الضباط الإصلاحيين، وضـــاعت الأمجـــاد، فـــتحول إلى ليبرالي.. وأخيراً تمكّن من بيع إنتاج النهب في "الأغوا"، لشراء شقة فخمة في ساو كونرادو، في الريو دي جانيرو. وبينما يتذكر أزمـــنة الـــسلطة التي امتلكها، ويصلي في أديرة ومعابد بينيدو، وساو ميكيل دوس كامبوس، كان يوضح أن الشقة الفاخرة قد حصل عليها بمساعدة الله وكل قديسي الكنيسة. العقوق كان يتنكر للزانين والممتلئة جيوبهم بالبراز.

اشتمّ المفوض ريبوليتو رائحة البارود، واستشف علامات العبث بحبل الأمن، والتحـــركات المشبوهة، والتحريض الإجرامي، ولكنه حتى ساعة العشاء، وبالرغم مـــن كل ما جهد وخرج من أجله يسأل عن هؤلاء وأولئك، لم يكن قد تمكّن من أن يحدّد مدى امتداد طبيعة اللغط المنتشر. وتناول عشاءه في أحد المطاعم الشعبية. أكـــل تعيس. الخادم إلى جانب كونه أبله، فإنه مهمل: لم يعرف كيف يجيب على أي نوع طعام من الأنواع المختلفة التي طلبها، كما أنه قلب على صدره ما بقي في صحنه من طعام، ولوّث، بالدهن، والصلصة، سترة وقميص التحري شبه النظيفين، كما لو أن الأمر كان مقصوداً.

الشعب يحمل السلاح

ســـكان المدينة، جميعهم تقريباً، ودون تمييز بين جنس وسن، وبمجموعات آتية من الجوار، بعضهم يحمل فؤوساً لقطع قصب السكر، اجتمعوا في تلك الليلة على ضوء القناديل الأوتوماتيكية: – نريد القديسة! – كانوا يزعقون.

المفـــوض ريبوليتو، دفع نفسه وسط الشعب، وكي لا يلاحظوا وجوده، فإنه اندفع وسط أكثر المتحمسين، وانتهى إلى قيادة صراخ التضرعات التي حلّت مؤقتاً، مـــضيفاً الـــصخب على الهتافات الهستيرية بصوته المدوي: القديسة قديستنا! – يا للـــذكاء الحـــي، وحاسة شمّ الكلب، اللّتين وهب إياهما فكانا سبب حسد وغيرة زملائه الذين لم يغفروهما له، والمفوض كان على علم بأنه يشارك بحيوية في الإعداد اللاقانوني للمسيرة، أو لما هو أسوأ، مرتكباً عملاً غير شرعي يُعرّضه للمحاكمة.

إنه سبب أكثر من كاف للسجن والمحاكمة إذا لمحه هناك مخبر ما من الشرطة. أما النتائج فستكون أكثر خطورة إذا أخذه سجيناً أحد رجال الشرطة العسكرية: سيتعرض لأنواع من الضرب كفيلة بأن تعلم الحيوان، وحلقات تعذيب متواصلة حتى يتم الاعتراف الكامل بالجرائم ضد الوطن، مع أسماء المشاركين في الجريمة ومن وراءهم، وإقامة متأخرة في أحضان أجهزة الأمن، واستعمال ساحبات الحياة، يعني، الموت.

شعر المفوض ريبوليتو بقشعريرة لمجرد تفكيره بالمصطلح، ولكنه طمأن نفسه عندما تذكر أنه هناك كان في الواجب.. متقنعاً بأقنعة الريفي، فكم هي عظيمة الفكرة، وجديرة بالمثقف، الممتاز، الذي هو نفسه. أحس بنفسه منطلقاً بفرح، وهو يتخيل التقرير المثير الذي سيقدمه للأستاذ سكرتير الأمن العام، مرشحاً نفسه للترقية المقبلة: إن المهمة قد أنجزت يا حضرة القائد. لم يكن فقط حريصاً، بل حذراً، متابعاً بجد، مصمماً، ضمن الحبكة المثيرة، صلباً، انتهازياً، لامعاً وإيجابياً، وإنه ليشرف اسم المؤسسة.

آتياً من داخل الهيكل، ومحاطاً بوجوه الكهنة المليئة بالتجاعيد، وبصحفيين مرموقين، وبالغاً أعلى الدرج الخشبي، فإن راعي أبرشية سانتو أمارو، الأب تيوفيلو لويز دي سانتانا، الكاهن الشعبي تيو، أو تيتيو السيدة مارينا، العسلي، المرهف، والذي بعد أعمال التفاني على لسانه ومشقات اليوم كان ينزع جبته الكهنوتية ويرتدي سترة النوم في الفراش ذي الشراشف المزهرة بلون الورد؛ وأمامه المتكأ، فوق المنبر المرتفع، في ساحة الكنيسة، فقد توجه الكاهن الملتاع بالكلام إلى الجموع المحتشدة. أخبر، بالتفصيل، والتحديد، مستعملاً الكلمات القوية، الغليظة أحياناً، القصة بكاملها. تحدث عن طلب استعارة التمثال، والرفض، والإصرار، والضغط، وأخيراً عن الأمر الأعلى، الإبحار، والاختفاء. المسؤول، وواضع الخطة الميكيافيلية، والآمر بالسرقة، هو أيضاً اختفى.

خلال ذلك اليوم، لنقل منذ مساء أمس، حاول الأب تيو، عبثاً، أن يتحدث هاتفياً مع مدير المتحف دون أن يفلح في سماع صوته المتماوج: لقد أخفى الدون ميموزو نفسه.

أين يخفي الدون ماكسيميليانو نفسه، وهو المواطن المعتبر زهرة اللطافة، عن أعين الذين كانوا يقولون عنه إنه أكثر رهافة من سيدة؟ لقد اختفى هذا المواطن،

المـــرأة، وأخذ معه القديسة بربارة، أم الرعد، "حاميتنا القديسة". وفي نهاية الخطاب الـــذي ألقي بلغة الأب أنطونيو فييرا على منبر سي دي باهيا، اللغة الأدبية الرفيعة، مـــشيراً إلى الإثـــراء الفـــني لدى السادة المرموقين، فإن الجماهير استجابت لراعي الأبرشية: ليحميَ الأب تيو، حامينا! ليسقط الدون ميموزو!

كان المفوض ريبوليتو يسأل عمن يكون دون ميموزو هذا، ولما لم يحصل على جـــواب، راح يـــصيح مع الجماعة الثائرة: ليسقط! وإذا ببعض النيران يرتفع لهبها منيرة السماء: هناك رائحة بارود.

هـــتاف جماعي حيا أيضاً السيدة كانو، الصغيرة، المتواضعة، السريعة العطب، القديـــسة المصنوعة من الزمرد. ابنة يانسان، تحولت إلى مشاغبة وقحة، إلى زعيمة العـــصيان، إلى قائدة محاربين.. هيا بنا نستعيد قديستنا بربارة، أم الرعد، إنها ملك شـــعب سانتو أمارو، وتخصنا. قالت بصوت ناعم، ومباشر، فرفعها الشعب على الأكتاف. ومن جديد انطلقت الأسهم النارية.

زيبوليـــتو، حاســـة شمّ الكلب الأكثر تحسساً من أي وقت مضى، جال بنظـــره حـــول جمـــوع الاشتراكيين ليقوم بتقدير حسابي دقيق لعدد المنحرفين المجتمعين في المحلة العامة. عملية استطلاع طويلة لأن الأمر فيها يتعلق بحسابات تقتـــضي معـــرفة جدول الضرب، وهو ليس قوياً في ذلك وعلى الأخص أنه لا يحمل ورقة وقلماً. عند هذا الحد خلت ساحة الكنيسة مع اختفاء السيد راعي الأبرشـــية ومـــن معه من الوجوه الرئيسية، من أمثال جوزي فيلوزو، والصائغ أراوجـــو، وكاتـــب المذكـــرات أوسفالدوسا، والقندلفت ميلتينيو، والمحققين الـــصحفيين والمـــصورين الآتين من باهيا مرسلين من كل الصحف، وضمنهم جيرفازيـــو باتيستا، من مجلة مانشيت، في الريو دي جانيرو، الواصل الجديد من حرب فيتنام.

كانـــوا قـــد اخـــتفوا للتآمر في السر أو للتلمظ بمائدة غنية - حيث يكون الـــصحفيون، فهـــناك فـــم حر، وبصورة لا مفر منها. وقرّر المفوض ريبوليتو أن يكتـــشف مكـــان الجريمة، والوليمة، والقيام بهذا سريعاً، قبل ْن تشرف المحادثات التآمـــرية، وكـــذلك أكلة "المانيسوبا" على النهاية. و"المانيسوبا" نوع من الطعام تختص به ولاية ريكونكافو، وهي الصحن المفضل لدى الرجل المرهف.

الطريقة الوحيدة للمعرفة هي السؤال، وليس من طريقة أخرى. وخرج المفوض يسأل عن الشعبيين الذين تركوا المحلة العامة بعد المظاهرة. الأسئلة المطروحة بفوقية ولكن بدون أدنى مجازفة، ومع المدافعات القليلة، ودون أية مخادعة، أثارت، مع ذلك، ردة فعل غير مستحبة.. وفجأة أحاط بعض الشبان الغاضبين بالتحري، وانتزعوا منه المسدس، وشتموا أمه، واقتادوه عنوة إلى مرسى المراكب والزوارق. في البدء، ودون أن ينزعوا عنه ملابسه، حمموه في مياه النهر، وهو عمل جيد لأن الحر كان شديداً. بعد ذلك وضعوه في زورق صغير دون مجذاف ودون أشرعة - ودفعوا بالزورق باتجاه مجرى النهر، فيا لها من مزحة شبابية.

لم يبحر الملاح الجديد، لمسافة طويلة.. وقليلاً إلى الأمام، حيث عند المنحنى الذي يتسع معه النهر، فإن الزورق اصطدم بمقصبة كبيرة - بين الضفاف المتقاربة في الحقيقة. فلو رمى المفوض نفسه في براغواسو وبضربات قليلة وسريعة من ذراعيه لوصل إلى اليابسة؟ لم يفعل ذلك؟ هنا السر بيننا، ولا يسمعنا أحد، والمحافظة على السر يجب أن تتم بتكتم شديد: إن تحري شرطة الولاية لم يكن يجيد السباحة. ولتكن هذه المعلومة الشخصية مجهولة إلى الأبد. لا يجب أن يعرف به إلى الأبد السفلة من السكرتارية الذين وضعوا بطلنا في شارع المرارة.

الثياب المبللة تنشف فوق الجسد، ورنين الذباب لم يسمع مثله قط - والقبعة التي كان يمكن أن تدافع عنه ذهبت مع مجرى الماء إلى الأسفل، وهو حكم مسبق ذو اعتبار - الريح تعصف، الظلال القاتمة لا يمكن تمييزها والضجيج الصاخب، الصلافة، الخوف، وباختصار وحدة المثقفين، المفوض ريبوليتو، المبعوث في مهمة خاصة إلى سانتو أمارو دا بوريفيكاسياو، بسبب حاسة الشم وطاقته، قضى الليل معانياً البرد، مرتجفاً، بالرغم من الحر الشديد السائد. لقد فعل كل ما يستحق من أجله الثناء والترقية، هذا إذا تمكّن من أن ينجو من التهاب الرئة، أو من الأمراض الخطيرة الأخرى: كالنبق، وداء المفاصل، والحمى.

المحتارون في أمرهم

لدى مغادرته جادة "السلام عليك يا مريم"، بين الضراط والاحتجاجات، وقد وجد نفسه وسط الحركة الصاخبة، علم دانيلو بأنه لم يكن يعلم ما يفعله. فقط،

أعـــود ومعـــي مانـــيلا، كان قد صاح حانقاً: إنها عبارة يقولها رجل، ولكن ماذا بعدها؟

خطر له أن يفتش عن قاضي الأحداث، ولكن الساعة غير مناسبة، فتخلى في الحـــال عن الخاطرة! بالإضافة إلى ذلك، ما الذي سيفعله في بيت القاضي، وحيداً، وبـــدون دادا؟ إنها حفيدة له بالوصاية، ولكنها حفيدة أداجيزا بالأم، فإلى أي من الوصيين سيعطي صاحب الاستحقاق الحق؟ بالتأكيد إلى الخالة، المناقبية والحريصة، المـــزروعة فـــيها مواصـــفات السيدة. في كل الحالات، فإنه، فقط، في اليوم التالي يستطيع القيام بمحاولة الحصول على أمر مناقض للأمر السابق، من القاضي، ودانيلو كان قد أخذ على عاتقه تحرير مانيلا في تلك الليلة نفسها، وبصورة لا تقبل الجدل قرّر ذلك في المناقشة.

إن الأمـــر أكثـــر صعوبة مما تخيل عندما سمع من فم دادا خبر القرار العبثي، والعقوبة المثيرة. ثائراً، اشتعل داخله، فلم يزن الكلمات، ووافق نفسه. ووجد نفسه واقفـــاً تحـــت ضوء الشارع، وبوجه أثْوَل. ووسط المأزق، تذكر جيلديتي، الخالة الأخـــرى، خالـــة بالدم شأن أداجيزا، وهي وصية على ماريتي، اليتيمة الصغرى. وقرّر أن يقصدها، ويخبرها بما حدث، ويضع معها التدابير التي يجب اتخاذها: كانت جـــيلديتي ذات نصيحة نصوح، وفعالة. ولكن دادا سوف تخرج بالعصي والحجارة إذا علمت بأن زوجها قد اتصل بذلك الطاعون - كانت تشير إلى شقيقتها بكلمة طاعـــون وما دون - ولكن دانيلو كان متمسكاً بما قال وبما ينتج عنه، ولتعلن دادا نفسها. واتخذ حافلة ركاب إلى توروررو.

في بـــيت جيلديتي عثر على ميرو، أساس المسألة. كان دانيلو قد قدر ما سمعه مـــن دامـــيانا أم "التمن المحلّى"، الجارة، وهي تبيّن صفات سائق التاكسي، معبرة باستمرار عن فرحها الدائم والمؤثر، والفرح هو علامتها المسجلة:

- إن الـــولد الطيب موجود هنا يا دانيلو. لو كان لديَّ ابنة لما تركتها تتزوج من سواه.

في هيئة من لديه القليل من الأصدقاء، احتل الهم مكان الفرح على وجه ميرو عـــندما، قـــبل الـــسابعة بقليل، أوقف السيارة في مكان اللقاء، كان قد جاء مع الـــشكوك. في بيت شقيقته، حيث كان يعيش، استلم بعد الظهر، أمر حضور من

قاضي الأحداث، يأمره بالحضور أمامه في اليوم التالي، في الساعة الثالثة بعد الظهر - و لم يكن يهم السبب. احتفظ ميرو بالورقة في جيبه، فما الذي يمكن أن يكون؟

كـــان ميرو ومانيلا متفقين على أمر بسبب إشكالات العشق: إذا حدث بعد نـــصف ســـاعة من الانتظار أنها لم تأتِ إلى موعد، فعليه أن يعلم عندئذ أن الخالة أداجيـــزا قد اكتشفت الاتفاقية، أو سحبت ثقتها من الحفيدة ووضعتها تحت تنفيذ العقـــاب مقفلاً عليها: وهذا ما كان يحدث بصورة متكررة نسبياً. ولكن، في ذلك الخميس، لم يتقيد ميرو بالاتفاق، وكان مزمعاً على أن يأخذ مانيلا معه لأن المناسبة لا تتكرر ولا يمكنهما أن يضيعاها. وراح يدور عند مدخل جادة "السلام عليك يا مريم"، ومن يدري، ربما تمكنت مانيلا من أن تتدبر طريقة، وتهرب.

أخـــبره الأســـتاذ جوان باتيستا أنه رأى مانيلا عندما عادت ظهراً من المدرسة. ومتحمـــسة، أسرت إليه بالموعد مع ميرو، طبعاً بالسر، وبقرارها أن مجيئها إليه لا يقبل الـــشك، ولن يكون هناك من يمنعها من ذلك. وعلم ميرو من داميانا أن مانيلا لم تكن مـــسجونة في الغرفة، لاحظت صانعة الحلويات شخصياً: قبل العشاء بقليل ذهبت إلى بـــيت الجـــارة حاملة لها بعض المحشيات المغمسة بالقطر، وهي كناية عن قطعة محشوة بالفستق والجوز تعبدها مانيلا عبادة... رأت الغرفة مفتوحة والباب مشرعاً. إن مانيلا ذهبت في سفرة إلى - بيت ريزيا، أخبرتها أداجيزا. ولكن داميانا بقيت قلقة بسبب شيئين، وفقاً لما أخبرت به ميرو. لقد شهدت خروج الخالة مع الحفيدة، بعد الظهر، و لم تكـــن الـــساعة قد تجاوزت الرابعة عصراً، ولوحت لها مانيلا بيدها وهي تمر، وقالـــت لهـــا إلى اللقـــاء العاجل. وبالصدفة كانت داميانا واقفة عند الباب عندما كانت أداجيزا عائدة وحدها، ساعة واحدة بعد ذلك المشهد. ومنذ ذلك الوقت لم تقع عين أحد على مانيلا. والشيء الآخر الذي جعلها أكثر حيرة هو فرح أداجيزا التي لم تعد قادرة على احتواء نفسها، سعيدة، ولكنها عصبية، مثيرة للاشمئزاز.

الجيران الآخرون لم يكونوا يعرفون شيئاً عن مانيلا. وقلقاً توجه ميرو إلى بيت ريـــزيا ورآها تشاهد التلفاز مع حبيبها. مانيلا؟ لقد كانت ريزيا معها في المدرسة، و لم تتفقا على الدرس معاً، إنها ربما كذبة مانيلا على خالتها لتتمكن من رؤية ميرو. ألم يكـــونا على موعد في تلك الليلة؟ اعترفت له ريزيا، متوقدة.. وغدا ميرو أكثر قلقاً، فاتجه إلى بيت جيلديتي.

ما العمل؟

واقفـــاً قرب الطالب في كلية الطب الذي خرج ليفتح له الباب ألفارو، فقد سمـــع دانـــيلو خاتمـــة محادثـــة ميرو الصاخبة: كان الآخر يتحدث بصوت عالٍ، وبحركات من يديه ظاهرة، منفعلاً إلى درجة التخلي عن اتفاقه مع الفرنسيين دون اعتذار:

– العمة داميانا رأت الاثنتين ذاهبتين معاً عند العصر، وهي واقفة عند الباب، وكانـــت تخـــرج الألواح عندما عادت السيدة أداجيزا وحيدة. لم يعرف أحد أين يمكن لمانيلا أن تكون. بالإضافة إلى هذا لم يعد لديَّ ما أقوله.

– مساء الخير.. – ألقى دانيلو السلام وقد ظهر في الصالة.

الـــصغيرتان، فيوليـــتا وماريبيتا، تقدمتا تطلبان البركة. وقام ميرو بحركة من رأسه: كان يعرف عم حبيبته بالشكل فقط.. وانتفضت جيلديتي من تكاسلها:

– مـــا الذي يحدث، يا دانيلو؟ إن ميرو هنا وقد غدا مجنوناً: كان على موعد مـــع مانيلا فلم تأتِ لموافاته، وليست مسجونة في البيت، فقد خرجت مع أداجيزا ولم تعد معها. وأنت هنا في هذه الساعة، دليل على وجود شيء طارئ. فما الذي تعرفه؟

– أعرف كل شيء.. – نظر حوله، وتكلم بصوت متوجع، ومرتبك: – لقد أدخلت دادا الصغيرة مانيلا دير الحبل بلا دنس.

– مـــا هـــذا الدير؟ لم أسمع أبداً بالحديث عنه – أرادت جيلديتي أن تعرف ولكـــنها لم تنتظـــر حـــصولها على الجواب، فقد عرفت تلقائياً: – لا تقل لي إنها وضعت الصغيرة في...

– في دير "دالابا"، هو هكذا تماماً.

– في ديـــر التائبات؟ آه، إنه لأمر أكثر مما يمكن احتماله! لا أتحمل شيئاً كهذا.

– ماذا؟ – توجه ميرو نحو دانيلو: – في دير التائبات؟

– والمذنب هو أنت. – أجاب دانيلو بحدة: – أعرف أن دادا تصرفت بشكل سيئ. دادا عثرت على ورقة أرسلها ميرو إلى مانيلا وعيّن فيها ساعة الهروب اليوم ليلاً.. واثولت دادا (حزمت أمرها) ثم ذهبت إلى القاضي، وأخبرته، فأعطاها الأمر.

– أنــا؟ ورقة أعين فيها ساعة الهروب؟ أية قصة هي هذه؟ من الذي اخترع هذه الكذبة؟ قل لي، هيا! أعطني البراهين.

– إني رأيـــت الورقة الصغيرة وفيها الاتفاق على موعد، فلا تكذبني. لم يكن ممكـــناً للأمر أن يكون أوضح من ذلك: إنك ستعرف، كيف جاء القول.. الجيد والأفضل.. الجيد والأفضل، كل واحد يعرف ماذا يعني.

– آه! تلـــك الـــورقة.. – لم يطمئن ميرو كلياً، ولكنه كيّف توقده: – أرســـلت ورقة، وهذه حقيقة. وعيّنت موعداً في الساعة السابعة، وهذه أيضاً حقـــيقة. كنت راغباً في أخذ مانيلا إلى تسجيل برنامج الفرنسيين في كاسترو ألفـــيس. الجيد والأفضل المشار إليهما، هما كذلك: كايتانو وجيل، هل سمعت عـــنهما، بالتأكيد لا؟ إنهما الأفضل أليسا كذلك؟ إن التسجيل قد بدأ الآن – شرح ميرو وهو أقل توقداً: – إني، مع السيارة، في خدمة فريق الفرنسيين، وهم أنـــاس طيبون، وليس لديهم الصلف كبعض الذين أعرفهم. طلبت إلى السيدة نـــيلدا فوافقت على أخذ مانيلا معها. و لم يتكلم أحد عن الهرب: عادت عيناه تلمعان، فواجه دانيلو:

– إني ســـأتزوج من مانيلا، دون أو بموافقة سيادتك والسيدة أداجيزا، ولكننا لم نفكـــر قط في الهرب. لم يحن الوقت بعد. – وأحس بالإهانة من جديد، فأشار بإصبعه: – هل يعني أنكما وضعتماها في "دالابا" كما لو كانت عاهرة؟ يا للبؤس! والآن، قل لي، ما الذي ستفعله لتخرجها من هناك؟

لم يجـــب دانيلو، فحافظ على هدوئه، و لم يصل إلى الاصطدام مع ميرو: كان يفهم عجز الشاب عن السيطرة على نفسه، مع الانفعال، والتمرد. واتجه بنفسه إلى جيلديتي:

– لهذا أنا هنا يا جيلديتي. لنرى ما الذي نستطيع عمله لتحرير المسكينة.

كـــنت في مناقشة حادة مع دادا، وكل ما أريده هو إعادة مانيلا إلى البيت. ولكـــنني لا أعرف، في الحقيقة، ما أقوم به: القاضي، فقط غداً، وأخشى أن يعطي

الحـــق لأداجيزا. إن الأمر قد يبدو عبثاً، ولكنها ماضية فيه معتقدة بأنها تقوم به من أجل مصلحة الحفيدة.

- أقسم... - لم تستطع جيلديتي أن تحتوي نفسها.

- إنها وجهات نظرها هي، فدعك من هذا. ما أريد أن أعرفه هو ما إذا كان لديك ما تقترحينه. جئت من أجل هذا. أنت، ألفارو، من تعرف هذا الشاب.. إنها ليـــست ســـاعة عراك، لأن مانيلا هي الآن في مقاساة آلام الجحيم.. حتى إنني لا أحب أن أفكر.

- لـــديك الحـــق.. كـــنت دائماً طيباً معها. - كانت جيلديتي تهز برأسها، مرتبكة، تحس بنفسها غير ذات جدوى، ولا خدومة. - هكذا، في الحال، لا يخطر لي شيء.. ولكن لا بدّ من وجود شيء، وأياً يكن.. دعونا نجلس، ونشغل أدمغتنا لاكتشاف طريق ما، أو أي مخرج. لا بدّ من إيجاد أمر ما وأياً يكن.

كانـــت فيوليـــتا وماريتا تبكيان متعانقتين، بكاء تحتويانه، مؤسفاً، واقترح ألفارو تعيين محامٍ!

- نستطيع التحدث مع الأستاذ أورلاندو غوميز، إنه محامي العائلة. أليس هو مـــن وضـــع القانـــون؟ لم يكن لدى الصحف غير ذاك القانون لتتحدث عنه. ألا تريدين أن تتصلي به، ماما؟

- أدخل ميرو قبعته في رأسه:

- اعـــذرني يا سيد دانيلو.. إني أشكرك. وأشكرك أيضاً يا خالة جيلديتي.. ولكـــني لا أستطيع أن أبقى هنا، أحك برأسي بينما هي تتعرض للاهتراء. عليَّ أن أخرج مانيلا من الدير، واليوم بالذات. اليوم بالذات! - كرّر.

وخرج من الباب، فنهض ألفارو، متبعاً إياه:

- سأذهب معه حتى لا يرتكب حماقة ما.

قلعة الله

رجـــال الـــشرطة والـــصحفيون العديدون، كانوا يلتقون بعضهم بعضاً في الـــشوارع، يصعدون ويهبطون المنحيات المرتفعة، ويزجون بأنوفهم في كل مكان، تفتيشاً عن راهب، وقس غير قانوني، لنقل: علماني.

دنـــيوي، ســـاطٍ على أراضي الغير، لص لوحات فنية، نسوانجي، هو القس غير القانـــوني: بهـــذه الصفات وصفته المكالمات الهاتفية إلى أقسام التحرير. كانت هيئات الأمن العام تمسك ببراهين تثبت بما لا يقبل الشك تورّط القس أبيلاردو كالفاو، راعي أبرشـــية بياســـافا، في هجـــوم على مزارع تقع في تلك البلدية، وهو يقود فلاحين، مـــسلحين بواســـطته، على طريقة لصوص منطقة الداخل، الصعاليك. وكانت تلك الهيئات تجمع الأدلة التي تعلن القس المشتبه الرئيسي في السرقة الجديدة، والهائلة، لتمثال القديسة بربارة، أم الرعد.. كانوا يكشفون عن هويته كونه المشتبه الرئيسي في العصابة المتخصصـــصة بنهب الكنائس، وسرقة الصور والمقتنيات التراثية، العصابة التي تنشط في مـــنطقة الـــشمال الشرقي.. وفي اتصال هاتفي مشابه، ولكنه ضروري، بالإضافة إلى الحـــياة العامة والخاصة للقس المحترم، فإن صاحب الصوت في الاتصالات الهاتفية كان يقتـــرح معرفة الوجه الآخر لشخصية الأب كالفاو المعقدة: إنه ساحر العذارى، ومرتاد لنـــزل الدعارة، وكان سعيه الوحيد الوصول إلى النيل من امرأة طيبة. وكثير الفضائح في أوســـاط رعيـــته، فإنـــه، يذهب إلى الفراش، أو يجلس إلى الطاولة بروح مسرحية تجـــريدية، وفي هـــذا الخصوص فإن المخبر المجهول كان يعد بفضائح مثيرة في القريب العاجـــل. وفي قـــسم تحريـــر جريدة "أتاردي"، كان ريناتو سيماوس وجورج قلمون يتـــساءلان عن مصدر المخابرات الهاتفية. الأمر هيِّن، قال رئيس التحري، يكفي مراقبة مـــن يمتلك أموالاً كثيرة في بياسافا: أعرف واحداً فقط. ووافق ريناتو سيماوس: إذا لم يكن المصور، فإن المصور سيكون صهره بالتأكيد.

في نشرة أخبار الساعة الثامنة، المحلية، فإن فلاش تلفزيونية سلطت الضوء على ولـــيمة غـــداء في ميركـــادو: الباهيانيات في رقصة السامبا الدائرية، والفرنساوي شانـــسيل يصفق لهن، وبعض الشخصيات موجودة هناك.. العقيد راوول أنطونيو، عـــين الصقر، حدّد القس كالفاو جالساً، بين المرفوعة عنه الحصانة، النائب السابق فرناندو سانتانا، والروائي دياس غوميز، الاشتراكي ذي السجل في الشرطة.

كـــان رجـــال الشرطة الفدرالية قد اعتبروه مفقوداً، وهو الآن، متصالحاً مع نفـــسه، يتـــناول الغداء بصحبة المنحرفين، ويطلق التهديدات، وإذ خرج من نفسه لعـــدم الكفاءة، فإن العقيد الآمر جمع العاجزين من رجال الشرطة وفرض، مهدداً: إني أريـــد أخباراً في الحال عن القس! وأمر بمضاعفة المراقبة، وتحديد مكان الشرير

السيئ، وملاحقة خطواته: وحتى الوصول إلى فراشه إن اقتضى الأمر. كان رجال الشرطة قد فقدوا كل أثر له قبل الغداء، فتمكن القس من تضليلهم، ولا يعرفون كيف: لقد ضلل رجال الأمن الداخلي والشرطة الفدرالية، على السواء.

أما المفوض بريرينيا، ولتفسير الأمر، فإنه اخترع كسوفاً شمسياً جعل عينيه مظلمتين في لحظة. وأي عذر أقبح من ذنب!

فقط في الحادية عشرة صباحاً استنفر الصحفيون فيما هو متعلق بالقس أبيلاردو كالفاو، وإذ لم يتمكنوا من تحديد مكانه، فقد استمروا يلهثون خلف مفقود آخر هو الدون ماكسيميليانو فون غرودن. كان المحققون الصحفيون، ومعهم المصورون، قد وصلوا إلى المطرانية بعد خروج مدير متحف الفنون الدينية، ولم يعودوا يعرفون عنه شيئاً. كانوا يملكون تأكيداً واحداً: إن الدون ماكسيميليانو لن يعود إلى دير القديسة تريزا، مقر المتحف. وكانت تنتشر شائعات متناقضة حول مصير المحتال: لقد شوهد في المطار مستقلاً الطائرة إلى ريو دي جانيرو وأنه شوهد أسيراً، ولا مجال للاتصال به في مقر قيادة الجيش.

في المتحف، الصحفيون المداومون بانتظار المدير يشاهدون، وهم يهذرون، أعمال تركيب معرض الفنون الدينية. كان قد انضم إلى جيلبربرت شافس وليف سمارسيفسكي، مهندس تصميم ثالث هو سيلفيو روباتو، الطيب المحادثة والكثير النكات: يساعد المحترفين في الشركة في عمل قتل الوقت. وفي مسرح كاسترو ألفيس الذي أقيمت في ساحته أجهزة تلفزيون القناة الثانية، كان يقف رجال الشرطة متهيئين منتبهين للتسجيلات والأفلام، عند المداخل والمخارج، وأعينهم على باتريسيا، مطية القس أبيلاردو كالفاو. أما باتريسيا، بتبرجها وخشاخيشها، على طريقة كارمن ميراندا، فإنها كانت تعرض كل ما لدى المرأة الباهيانية، وقد بدت مطية أقوى بكثير مما أن تكون لقس واحد.

كان رجلا الدين المحترمان، قس بياسافا وعالم الآثار، موجودين في مكان قريب جداً من المسرح، وفي معبد سان ينتو، عند أعلى المنحنى فوق محلة كاسترو ألفيس. وهنا كان ينزل القس أبيلاردو في كل مرة يأتي إلى العاصمة. والنزل نصح به الدون هيلدر كامارا، مطران ريسيفي الشهير، والرئيس الأعلى للقسس المتجولين، زعيم العاطلين وفقاً لرواية العسكريين في السلطة الذين كانوا يكرهونه.

الـدون ماكسيميليانو فون غرودن، مدير المتحف الفني الديني الملتاع، والوجه البارز في الحياة الثقافية، والحضور الإلزامي في حفلات الطبقة الراقية، كان، كما يعلم الجميع، ولكنهم لا يتذكرون، عضواً بارزاً في جماعة البنيديكتيين. وكان قد احتفظ بفرقته الصغيرة في المنسكة، الغرفة الصغيرة والمتواضعة كسائر الغرف، ولكنها تختلف فقط بما وضع على الجدار من إعادة رسم ألمانية، شبيهة بالأصل، للأناجيل الأربعة، لجوردانس.

كان ممكناً تخيل دون ماكسيميليانو قابعاً في أي جزء من المدينة، إذ كان واسعاً مجال صداقاته، وعديدة المواقع التي كان يقوده إليها فضوله الثقافي والشبق إلى الحياة. ولا يثير أية غرابة العثور عليه في مشغل رسام، أو في قصر مصرفي، أو في عمق مكتبة من المكتبات، أو في جمهورية طلاب، أو في قمارة كوندومبليه. ولكن لم يفكر أحد قط بالتفتيش عنه في غرفة منسكة ساوبينتو.

جاثمة على أعلى الهضبة، ووجهها إلى البحر، قلعة الله، منسكة ساو بنتو: ذكرى الوطن، حارسة الحرية، وملجأ المضطهدين.

مسرح الشاعر

كان مسرح كاسترو ألفيس يعج برجال الشرطة: معاناة هو وجود رجال الأمن قالت نيلدا سبنسر إلى نلسون أراوجو. رجال أمن، مفوضون، رجال تحرٍّ، عملاء سريون يرتدون ما تتسم به المهنة: العباءة، والقبعة الملتوية الجوانب، وحجم المسدس، وعسكريون، ولم تكن تنقص العيون الثاقبة للأمن العام الداخلي. كان كل أولئك قد تمّ تعيينهم من قبل الهيئات المدنية والعسكرية في دنيا الأمن، لمرافقة تصوير برنامج "الغراند إيشيكييه" الفرنسي المقرر له أن يقوم ليل ذلك الخميس في ساحة المسرح الخارجية. من المستحيل التمكن من الدخول. الذين أوكلت إليهم المهمة المحددة لاكتشاف الضراط، القس أبيلاردو كالفاو، كانوا يرصدون كل حركة من حركات باتريسيا.. إنها ستنتهي إلى قيادتهم إلى مكان المهترئ.

في جيوب العباءات، وفي طيات السترات كانوا يخفون أجهزة تسجيل معقدة، مستوردة من الولايات المتحدة الأميركية، واليابان، وألمانيا، وهي صغيرة الحجم جداً، ولكنها كبيرة الأداء والكمال؛ إنها التقليعة الأحدث في مادة أجهزة

الإلكترونيات. وتلك الأجهزة السحرية، كما رأيتم ما حدث في شرايين المدينة، مما كان يصل إلى أوعيتها الدقيقة لاستجلائه، تجعل مؤكداً ما عليه العقيد راوول أنطونيو من حق عندما يلقي باللائمة على وكلاء الأمن المحليين الذين كانوا يحملون تلك الأجهزة، والتي في أيدي الأميركيين واليابانيين كانت تعمل بكفاءة ومما يستجيب للذوق. والمثالي، كان يضيف العقيد، هو استيراد المادة الإنسانية. وكان يستثني من تلك المادة الإنسانية المستوردة مَن اختصاصُهم التعذيب، وهؤلاء لا يدينون بشيء بعد كل ذلك لمشاهير البلاد المرفهين، وهم مواطنون من العالم الأول، ومتمدنون.

إن ازدحام المتبارين الأمنيين نتج كون مجمع كاسترو ألفيس المسرحي مغلقاً على الجمهور في تلك الليلة، وكون الدخول مسموحاً لبعض المدعوين القلة، وذلك بسبب قرار فريق القناة الذي كان من هناك سينقل التسجيلات بحضور أربعة أعلام كبيرة في الموسيقى البرازيلية، مؤلفين موسيقيين ومترجمتين، والذين أشير إليهم في الرسالة الملعونة إلى مانيلا بالجيد والأفضل: كايتانو فيلوزو، جيلبرتو جيل، ماريا بيتانيا، وغال كوستا. أما الرقص والألحان التروبيكالية، فهي حركة موسيقية تتهمها الدكتاتورية بالإباحية، وتطور الفن القبيح، وتعبّر عن معارضتها فنياً: إنها منحرفة.

كانت التروبيكالية قد كلفت جيل وكايتانو غالياً، فرائداها الكبيران قد دفعا سجناً ونفياً ثمن الأغاني التي أشاعت الأمل، وأحيت النفوس، وغدت بيارق الشباب. وقد عادا حديثاً من لندن التي أقاما فيها بعد السجن والعنف والإذلال: الشعور متطايرة، والقيثارات خرساء، والأفواه مكمومة. كانوا عائدين ليستقبلوا استقبال الأبطال، تحيط بهم مشاعر الجماهير وعيون رقابة الشرطة الدائمة.

بآلات التسجيل الحساسة، كان المتلصصون يزمعون التسجيل لإحاطة السلطات المختصة علماً، واعتباراً، بالتصريحات التي كان المؤلفان الموسيقيان قد جاءا للتصريح بها إلى ميكروفون محطة الإرسال الفرنسية. وقد نجم عن ذلك تأخير طويل التسجيل، بسبب الاهتمام الفضولي أو الخارج عن المألوف: فبينما كانا يسجلان الأغاني أو يتحدثان عن الموسيقى، لا بأس، ولكن فقط كايتانو وجيل

كانـــا قد بدآ بالإجابة عن الأسئلة السياسية المطروحة من قِبل شانسيل، الأجهزة التنـــصتية الـــتي يحملها رجال الأمن السريون، كانت تزداد تقدماً، وهكذا كانت جمالـــية العـــالم مندلعة عالياً حتى لتصم الآذان في مسرح كاسترو ألفيس. لم يكن ممكناً سماع أو فهم وإن كلمة واحدة. في آخر الصالة، وفي الصف الخلفي، كانت زنجـــية تـــرتدي ملابـــس شـــبيهة بملابس باتريسيا، تبدو مستأنسة إلى حدٍّ كبير للمـــداخلات والمدافعات. وعلى الكرسي المجاور، كان عراها إيشو ماليه يضحك للرايات الخفاقة. جاءت لدى مناداته لها، لتعرية ورود الليل من أوراقها.

وبموافقة إجماعية، شانسيل والتروبيكاليون قرروا إجراء التحقيقات في يوم آخـــر، ومكـــان آخـــر أقل مشاهدين وإزعاجات محيطة. ولكن، بمعرفة بما تم تـــسجيله مـــن تصوير وتسجيلات موسيقية وغنائية، فإن الأمر يستحق العناء لتذكـــر عـــناوين الأنغام الشجية التي تمّت ترجمتها لأن البرازيليين الذين كانوا موجودين في فرنسا، وحدهم، أعطوا الامتياز لمشاهدة بث "لوغران إيشيكييه" المخصص لباهيا.

كان أول من تمّ التسجيل له هو جيلبرتو جيل الذي غنّى السامبا التي ودّع بها البرازيل لدى مغادرته إلى المنفى: "ذلك العناق": "لقد سبق أن أعطتني باهيا مسطرة وفـــرجاراً". أقامـــت الأغنـــية بالمـــشاهدين عـــن كراسيهم وأخرجتهم ليرقصوا متماســـكين، متمايلين على أنغام اللحن الذي لا يقاوم. وتلته ماريا بيتانيا، صوت الغضب والثورة، أغنية الحرب، "كاركارا":

"كاركـــارا ينتـــزع، يقتل، ويأكل، وكاركارا لن يموت جوعاً".. الشعر منطلق، الأنف مرتفع الأرنبة ومستقيمها، كأنها الطير الكاسر، وفي الوقت نفسه نعـــومة العالم كله، كأنها جانايينا، إينابي، يمنجا، بيتانيا. الفرح! الفرح! انفجر كايـــتانو: لقـــد وصل سائراً ضد الريح، دون غطاء، ودون وثيقة، حتى رجال الشرطة ذوو القلوب الباردة، والدم الرخيص، فإنهم قد اهتزوا، وأحسوا بروعة الحـــياة والجمـــال وأمسكت غال كوستا بالمكيروفون، وكانت لا تزال صغيرة خجـــولة، وبذلك الصوت الذي وهبها إياه الله لتغري وتسيطر، فإنها سجلت أغنية قديمة لحنها كايتانو لها. وكان اسم الأغنية "بيبـــي": "تحتاج إلى أن تعرف عني وأن تراني عن قريب، بيبـــي".

في الساحة الخارجية، وضيفة على شانسيل، كأنها التجسيد الكامل للكوندومبليه، مسيطرة، ساحرة، كانت باتريسيا تضحك لآلات التصوير، ولكن عينيها المرتبكتين كانتا تفتشان لتلمحا في ظلمة الصالة، بين الموجودين، معلمها القس، والشاب الجميل. كان قد اتفق معها على المجيء فلماذا لم يأتِ؟ سجين في السجون، في محبسة نساك، أو في نذورات الأعزب، ويلاه! إن باتريسيا لم تتخيل قط أن الإقطاعية الكبيرة يمكن أن تقاوم في أيامنا الحالية.

وكذلك في ساحة المسرح، وبصمت، مسحوراً بتلك الألحان البرازيلية، وتلك التمردات التروبيكالية، كان جورج موستاكي يتابع التسجيلات.. مستلقية عند رجليه، والرأس ممسوك به من الخدين، كانت مرلين، في حالة عبادة.. المغامرة الإسبانية، الطير المحلق، الطفلة المتألمة، الهائمة - "أنت تحتاج أن تعرف عني؛ خذني، اقتلني، كلني.. بيبي.. بيبي".

أخبار برنامبوكو

لم تكن مشاغل الأعزب، والنذور في احتفال التكريس الديني في بورتو الليغري هي التي منعت ظهور القس أبيلاردو وفقاً للموعد مع باتريسيا، في مسرح كاسترو ألفيس، لحضور التسجيلات، وسماع صوت التحرير للمغنيين جيل وكايتانو، وصوتي بيتانيا وغال الرخيمين، ولكل ما يمكن أن ينتج عن ذلك.

في فضيلة السبر، الإلزامية، فكّر وأعاد التفكير لدى عودته من حفلة غداء ميركادو: وعد ثقيل، تبعية قدرية أكثر مما هي متعبة. ففي تلك الليلة، مع ذلك، شاء الله أن يخضعه لتجربة جديدة بزجّه في حدود أبرشية ساو بنتو: جاء الخبر من برنامبوكو، وكان مفزعاً. ومنضماً إلى الرهبان والأصدقاء، كان قس بياسافا قد انطلق في الصلاة والتأمل استذكاراً للقس القتيل، قبل أيام في ريسيفي، على أيدي رجال الشرطة الذين كانوا قد قطعوا يدي القتيل قبل أن يقتلوه، مثلما أخبر مبعوث الدون هيلدركامارا، واسمه باولو لوريرو، الذي كان هو نفسه قد خرج لتوه من السجن.

كان الضحية يدعى الأب هنريكي بيريرا، مساعد ثقة لمطران ريسيفي وأوليندا. وهو أحد رموز مجموعات الفلاحين، ولكنه، بالأخص، صاحب

الحـــضور المتميز في أوساط الشباب الذين كانوا يتجاوزون خلافاتهم العقائدية وينظمون صفوفهم حوله في النضال ضد السلطة العسكرية المتسلطة.. ولأنه لم يكـــن يـــتعب من مطالبته بالديمقراطية، فإن الأب هنريكي أصبح رمزاً لمقاومة الدكـــتاتورية.. واختفى لدى عودته من أحد الاجتماعات مع الطلاب. وعثر علـــى جثته بعد أيام في أعلى أحد الوديان، ويداه مقطوعتان، ووجهه معجون بالـــدم. وجاء باولو لوريرو ببعض الصور للجثة، وشوهدت علامات التعذيب على ظهر القس العاري.

الانحـــراف والوحـــشية كانـــا ما يميز القمع السياسي في برنامبركو. وبقامته الـــصغيرة، النحيلة، وبجبته البيضاء الذي يبدو فيها كعصفور ضعيف، كان الدون هـــيلدر كامارا يقاوم التهديدات والمكائد ويستنكر فظائع الدكتاتورية العسكرية، ويغـــذي بـــذلك شـــجاعة المقـــاتلين، ويضم موالين جدداً. كان صوته المجلجل بالاتهامـــات يخـــترق حـــدود الوطن البرازيلي وتصل أصداؤه إلى القارات الخمس لتسمعه الشعوب وحكوماتها. ووصل مبعوث المطران المنـــزعج إلى ساو بنتو برفقة امرأة كانت، بعد أن تحدثت ثلاثة أرباع الساعة مع دون عبادي، قد ذهبت لموافاة جـــيل وكايتانو بعد التسجيلات في مسرح كاسترو ألفيس، وقد تعرفت إليهما في أوروبا عندما كان الجميع مقلوعين من أرضهم وهاربين.

تأخـــر السيد لوريرو، السرتوني الأشقر في منتصف العمر، برفقة رهبان ساو بنـــتو، وهـــو يـــروي تفاصيل النضال في برنامبوكو. وأخبر عن غريغوريو بيريرا، الثمانـــيني، وقد وضعت في يديه الأصفاد، وشدّت عنقه بحبل، كالحيوان المهان في شـــوارع ريسيفي. وكان الجميع قد شاهدوا التنكيل المماثل، في وضح النهار، في الـــشارع الجديد، وشوارع إمبراتريس وأورورو وفي وسط المدينة. وجاء المبعوث كـــذلك بأخـــبار أريانو سواسونا، روي أنطونيس، باولو كفالكانتي، وبيتوبيداس ســـيلفيرا: كانـــوا كلـــهم صامدين. كما منعت هناك المشاهد المسرحية الرمزية المضحكة كما منعت بعض الفولكلوريات في الكرنفال.

وإذ كـــان مدعـــواً ومتعاطفاً فإن السيد لوريرو رافق البندكتيين للصلاة في الكنيسة عن نفس القس هنريكي بيريرا، الذي هلك في المحرقة ضد الدكتاتورية. لم يصل لأنه كان ملحداً، ولكنه أحس بالارتياح.

أساطير الرقصة الأنغولية (كابويرا أنغولا)

في "لارغـــو دو بيلورينـــيو"، في مدرســـة الرقـــصة الأنغولية التابعة للمعلم "باســـتينيا"، كـــان قد أقيم في تلك الليلة من الخميس أول لقاء لأساطين الكابويرا أنغـــولا. الاجـــتماع هـــو نتيجة الاستعداد الطويل والجهد المضني: لم يكن المعلم "باستينيا" يرغب في الموت قبل أن يثبت بالبرهان وتعلن الصحف عن وعد الشرف الـــذي وعـــد بـــه أولـــئك الذين كانوا يمارسون الكابويرا دون أصول، وبصورة مضحكة.

بـــدءاً مـــن الصباح التالي، وقد قسموا إلى مجموعات، فإن الأساطين كانوا سيناقشون المشاكل المتعددة التي تؤثر في دراسة وممارسة الكابويرا أنغولا في باهيا، في زمـــن التـــصنيع والسياحة.. المنافع والمضار، وعلى الأخص خطر القضاء على السمات الأصلية القادرة على تحويل النضال الوطني إلى عرض فولكلوري، فخم أو وضيع، غني أو فقير، وبلباقة وخبث، لمشهد يراه الإنكليزي، ويصفق له الأرجنتيني، ويـــصوره الأميركي. كانوا يخططون لتأسيس هيئة مقرها باهيا تجمع كل أساطين الـــبلاد حـــول تمثال لراقص الكابويرا الذي يؤسس لقواعد التصرف، والقوانين، والموجـــبات، والتـــصورات.. وكـــان فاسكونسيلوس مايا الذي كان راقصاً، هو الآخر، ومعه ولداه: المحامي والمهندس.

بصفتها سلاحاً دفاعياً، ومولودة في أوساط العبودية، وكون العبيد مبدعيها، فـــإن الكابويـــرا أخـــضعت لأشرس أنواع الاضطهاد: ممنوع ممارستها، ومعاقبون اتباعها. وقد اعتبرت، مع الكوندومبليه، تعبيراً عن البربرية: وكل الأصول الإبداعية الأفريقية في الثقافة البرازيلية كانت آنذاك مرجومة، والمعرفة بها أمر مدان، وممنوع التعـــبير عنها. ومع كل ذلك فإن الكابويرا المقنعة بالرقص الجماعي، تمكنت من أن تقـــاوم ألحان الطبول الموضوعة على البطون، وفرضت فعاليتها وجماليتها، في كونها "بالـــيه" من الخطوات السحرية، ونضالاً انقلابياً قاتلاً، وحازت على أعلى مراتب الفـــن. كانـــوا يفـــتحون كل يوم مدارس جديدة، ويتنكب مسؤولية التعليم فيها أســـاتذة متميزون.. ولكن جمعهم في مكان واحد أمر صعب. ولكن المعلم باستينيا كـــان متعوداً على التغلب على الصعوبات و لم يكن من كان ينكر عليه الريادة بلا مـــنازع، وأحقيـــته بالشرف الكبير: إنه كائن بشري مصنوع من الكرم والتمدن،

وهو واحد من الكبار، ومن أكثر المشاهير شهرة في باهيا. كتب غلوبير روشا عن باستينيا في مجلة "مابا"، وكان الشعب يحترمه.

في ذلـك الخميس، ليلة افتتاح اللقاء الأول، الكبير، وفي ختامه، يوم الأحد، لاحتفال المساعدين بالمناسبة، كان على الرواد أن يعرضوا أنفسهم في قاعة استقبال المدرسة. ويوم السبت صباحاً سيكونون في أعماق منطقة السوق النموذجية، وبالتحديد في الميدان التقليدي للتحديات، حيث سيتم تصويرهم من قبل فرقة "لوغران إيشيكييه".

مع التسعين من سنوات عمره التي احتفل بها، أعمى ومحدودباً، يكاد يكون إنساناً، ولكن قدميه ثابتتان، وبعقله المتزن، وصوته الآمر، حيا المعلم ريكونكافو. أما زوجته، روميليا، بائعة الفستق، والكرزات الحارة، والكسكوز، والفطاير المقلية، والحبوب المطحونة والممزوجة بالبهارات، فإنها كانت تعلن عن اسم كل مشارك، وكان المعلم باستينيا يردده ويرحب بصاحبه: لقد كان يعرف الجميع ويعرف قدره وإبداع كل واحد منهم.

يمكن انتهاز هذه المرحلة من الرواية لتسجيل أسماء الرواد، ولتزيين هذه الصفحات المتسلسلة، الباهيانية، بأسماء المتدينين والملحدين، وتكبيرها، لا لأن بينهم أساتذة، ومثقفين، وأثرياء، وسياسيين، ولكن لأن الأساطين الذين يعلمون الكابويرا الأنغولية، ويحافظون على أصولها، هم الصناع الحقيقيون للثقافة البرازيلية.

فلتكن البداية حيث يجب الابتداء، أو بما معناه، الاستشهاد بأسماء الخالدين من كبار رواد الماضي: بيزورو، شيكو بوريتا، زي دو، تيبيري دا فوليا غروسا، بانتالونا، كيبرا - فيرو، سسنتا، بيلواكا، غازولينا، غازومبا، ناجا التي ماتت وهي تواجه خمسة مسلحين بالبنادق أمام قلعة سانتا ماريا. لقد عاشوا جميعاً في زمن الاضطهاد، وعرفوا الجلد بالسوط، والسجن، ولكنهم لم يعرفوا الخوف.

لقد استجاب لدعوة باستينيا وشارك في اللقاء الأول الكبير الرواد الذين أسماؤهم حقيقية، أو مستعارة في زمن الحرب، المدرجة أسماؤهم هنا وفقاً لظهورهم عند باب المدرسة حيث روميليا والمعلم الأكبر يستقبلانهم. وصل أولاً حبيب الله. فالديمير دا ليبردادي جاء برفقة ترايرا وبون كابيلو. المعلم بيمبا، مربي الكابويرا الإقليمية، وصل يحيط به تلامذته الذين يساندون أصالته. كامافيو دي أوشوسي،

بأفـــضل تسريحة، يعتمر قبعة ويشد ربطة عنق، كوبرا كورال، غاتو، كانجيكينيا، باولو دوس أنجوس، الأساتذة باستحقاق. جايمي دو مار غراندي، قيصرة، جورجي ســـاتيليني، رينـــيه، جـــيفاني، فالكـــاو، كينغ سيناك، جايرو بتروليو، تامونيا، ســـينافوكس، أنغـــولا، زي بويـــتا، دويس دي أورو، بوبو، سيفيل دا لوا، مالا، ديوغو، بولا سيتي، بولا برانكا، بولا بريتا أي بولينيا كارميلو، مانغيرا، فيرميليو دا مونيدا، بيرا دا بومبا، ميديسينا، بورو إينشادو، لويس غوتنبرغ، فيرجيليو كوستا، ميلـــتون ماكومبا، كاكاو، إينويو، جواو غراندي، جواو دا ماريكوتا، جواو لواندا أي جواوزينـــيو، لـــوا دي بوبو، نو، إريستيوس، بوا جنتي، إيتاجوا، جيني لولو، ألاباما، كوبرا مانسا، كوبرينيا فردي، كارابيتا، دالاديه، تونينيو موريتشي، ماكاو، بياوي، كوريد، أزولاو، دينلسون، إيشيكيو، فريرينيا دي سانتو أمارو، ماريو بون كابريتو، بينيفالدو، زي دي لينسو، زي دا تريبا، زي ماكاكو دا فاريغ، باتيستا دا أمـــبازا، ديـــسنتي، كيينشادا، بوزو، إيمانويل فيليو دي ديوس، شوريسا، أوروبد، بـــيرو، أوغوســـتو سارارا، ماريتا، فيفي دو كامينيو، رايموندو، المير لولو، لازينيو سينفال، ساليس، شينا، دالترو، لوسيو ديندي، لازارو، إيدينيو أراتو، تونيو ماتيريا والأســـتاذ مانوا.. إذا كان أحد قد نسي فليسامح على هذا الفعل الخاطئ الجاهل وفقاً لما أثّر به التمثال المحتفى به تهليلاً.

ممـــن وجهـــت لهـــم دعوات خاصة، حضر بعض الدبلوماسيين الذين كانوا يـــستحقون اللقب لو لم يكونوا يمارسون المهنة.. الأغلبية كانت من تلاميذ المعلم باســـتينيا القدماء، والبعض من تلاميذ بيمبا. بين هؤلاء الأخيرين المزارع الثري من إيتابونا مويزس ألفيس، وبين أولئك الكاتب ويلسون لينـــز. وتمّ الاستشهاد باسم القصـــصي فاسكونـــسيلوس مايا، ولكن لم يكن أقل شأناً منه ومن كاتب "أفاعي العقيد" الكتاب الحاضرون.

كـــتاب آخرون، عديدون، ومعروفون بالقدر نفسه، جاؤوا يعطون اللقاء الكبير امتـــيازاً! فالدير فريتاس دي أوليفيرا، فيفالدوا كوستا ليما، إيداسيو تافاريس، أنطونيو لوريـــرو دي سوزا، أنطونيو ريزيرو، لويز أديمير، جيوفا دي كارفاليو أي سيد تشيرا، الـــذي وثقه في تحقيق مشهود له للجامعة الكاثوليكية، وبمساعدة روي سيماونس. وقد شـــوهد أيـــضاً مثقفون جاؤوا من أماكن مختلفة: المخرج المسرحي فرناندو هوبسيل،

الـــنحات ماريو كرافو، والرسام كاريبيه - هذا الأخير يحشر نفسه في كل مكان، ولا ينتظـــر أن يستدعى - والأستاذ الأميركي الشمالي جون دواير، وكذلك برونو أمارو، الـــشاب المحـــبوب. كل هؤلاء يمكن مشاهدتهم في فيلم وثائقي سينمائي أداره سيري، وأنتجه رجل الأعمال ريناتو مارتينـــز، وهو عمل موهبة واحتراف.

المؤلفون والشعراء في ميركادو أنشدوا معاً:

"باهيا، يا هيتي،
يا باهيا السلفادور،
من لا يعرف "الكابويرا،
لا يمكن تقديره،
الكل قادر على إتقالها:
عقداء وأساتذة..".

دكاترة، سينمائيون، مسرحيون، باحثون في التراث، أساتذة، فاحشون ثراءً، أدبـــاء كـــبار وصغار، فنانون بالريشة والسكين، كلهم شوهدوا كما شوهد كل شـــيء في قاعة استقبال المدرسة. ولكن أين هو العميد؟ إن العميد إلتهمه القط في الطـــريق: إن النـــبوءة يجب أن تتم، وأكثر من ذلك قد ترى في كل مكان عميداً بأربعـــة نجوم، يضع عليه رداء راقص الكابويرا، ملقياً الطبل على بطنه، رافعاً يديه، وســـاحباً قدمـــيه على أنغام المطرقة، من ساو بنتو الصغير إذا لم يكن من ساو بنتو الكبير. الجميع يستطيعون أن يتعلموا.

مـــن الشخـــصيات المدعوة للاحتفال باللقاء الأول الكبير لأساطين الكابويرا أنغـــولا، لم يتخلف سوى دانيلو كوريا، المهر الأصيل السابق في إيبارينغا، وتلميذ باستينيا سابقاً، والأكثر إطراءً على المعلم الكبير: وهو في رقص "ميالو"، و"البركة"، و"الرأســـية"، و"ذيل العنكبوت"، و"المناطحة البهلوانية"، أفضل منه في قذيفته إلى المرمى، والتجاوز، والورقة اليابسة.

عهد الشرف

كانـــت الحيوية قد انبعثت مرتفعة، والقاعة مكتظة، آلات التصوير التلفزيونية قد سجلت الحدث لمشاهدي الساعة الحادية عشرة ليلاً.

كـــان ســـيري مع فرقته - فرقة سيري هي زوجته - يصور من زوايا مختلفة الأبطال في انطلاقاتهم الأكثر شجاعة.

فالـــديمير وكمافيو، أكبر العازفين، كانوا قد أعطوا دليلاً ساطعاً عن الطبل، بانـــتظام وانـــسجام مع خشخشات النقود العشرينية. وكان صوت كمافيو دي أوشوســـي الجهـــوري يصدح عالياً في القاعة، ويمتد في أنحاء بيلورينيو وماسييل ثم منخفضاً تاركاً لمجموعة دوكارمو ودوتريرو دي جيزوس أن تنشد:

الرقص على أضواء القمر الممتلئ،
هو عيد البدر، يا رفيقي،
لقد صاح الديك يا رفيقي،
كوكوريكو...".

كـــان فالديمير الذي كانت صناعته الحرفية للطبول في شارع الحرية لا تقبل مزاحمة مع الصناعات الأخرى، يطلق حنجرته عند لازمة الكابويرا:

الصداقة، هي!
الصديق الأوحد،
الصديق......
صداقة الرجال الأحرار، والوفاء للأصدقاء:
عودة العالم، آه!
آه لعودة العالم!

في وسط القاعة، وكل واحد أكثر نباهة من الآخر، وأكثر سيطرة على نفسه، وأكثـــر حنكة وإثارة مفاجئة، ولمعاناً، كان ترايرا وبون كابيلو اللذان لن ينسى من شـــاهدهما يـــؤديان الرقـــصة، ذلـــك القلق والارتعاص، حين أخذا يقومان بتلك الدورات الهوائية الخطيرة مع خطوات باليه ليس أصعب منها: إن الكابويرا قد تقتل أحـــداً مـــا. وبينما يطلقان من حنجرتيهما الأغاني الكلاسيكية، القديمة قدم زمن العـــبودية، وقـــدم حـــرب الـــباراغواي، كان كمافيو وفالديمير يجمعان صوتيهما الجهورين الدافئين:

"كنت هناك في البيت،
لا أفكر، ولا أتخيل، ...

وجاؤوا ليأخذوني،
لأساعدك،
في حرب الباراغواي...
أجل يا صديقي، ...
وهكذا الأمر
يا صديقي...".

وأخذت الأكف بالتصفيق لتحيي تطوراً مفاجئاً في أداء بون كابيلو عندما ظهر ميرو عند الباب، فبدأ كأن المصفقين كانوا يحيون وصوله. وهذا مما لا يثير الدهشة لأنه كان مرحباً به فعلاً في المدرسة وفي بيت روميليا وباستينيا اللذين كانا يحبانه كما لو أنه نسيب قريب، ولقد كان باستينيا أباً آخر لطلابه. وعندما كان العجوز يريد أن يتنقل في المدينة، كان ميرو يذهب للمجيء به في سيارة التاكسي، ويقوده إلى مكان دون أن يستلم منه أي أجر، وحتى سعر البنزين.. استلام ماذا؟ إن المدين هو أنا.

وبينما يرافقه ألفارو، كان ميرو قد وصل حانقاً، محتدماً. ثم توقفت الأكف عن التصفيق لبون كابيلو، وتابع أصحابها الواصل الجديد وهو يطالب بالإصغاء لما كان يريد أن يبينه لهم:

- عن إذنك يا معلم باستينيا، وليعذرني السادة الموجودون لمقاطعتهم ولكن الموضوع خطير، إنه مسألة حياة أو موت. واطلب المساعدة.

- من هو؟ - ألقى باستينيا السؤال على روميليا: - إني أعرف هذا الصوت.

- إنه ميرو. ميرينيو الحب.

- ما الذي جاء بك إلى هنا يا ابني؟ إني أعرف من صوتك أنك مصاب بلوعة. أجل، تكلم، وافتح قلبك.

كان ميرو تلميذ المعلم باستينيا، وكان يتابع دروسه بامتياز، ولكنه لم يتمكن من إنهاء البرنامج، إذ أين الوقت لذلك؟ كان الوقت قليلاً لمشاغله الكثيرة وملذاته الشخصية. وعلّق ترايرا وبون كابيلو التحدي. أما فالديمير وكمافيو فقد وضعا الطبلين وراءهما.

وبحـــديث مـــتدفق، أخبر ميرو قصة مانيلا، حبيبته، التي أخذت عنوة إلى دير دالابـــا، السجن الأسوأ من أي سجن. لم ترتكب جريمة، و لم تعتد على أحد، و لم تهـــدد و لم تنتقص من أحد: إذا كان حب أحد ما خطيئة، وكذلك الزواج من هذا المحـــبوب، فهـــذه هـــي خطيئة مانيلا.. إن خالتها السيئة، اللامتسامحة، الإسبانية، إســـبانية، لا، الروح المتعصبة الفرنكوية، العنصرية، الفاشستية، الخالة القائمة مقام الأم تعترض على الزواج لأنه هو، بالإضافة إلى كونه أياً كان، سائق تاكسي، فهو أسود خلاسي. لقد كانت مانيلا خلاسية فاتحة اللون، وطالبة في المتوسطة، وكانت ترتاد حفلات رقص ومناسبات الأعياد التي ترعاها كنيسة سانتا آنا الجديدة. يتيمة الأب والأم، تعيش تحت رحمة سوط مربيتها.

– هذا ما فعله بحبيبتي هؤلاء الناس السيئون؟

– لا يمكن أن يكون – قال المعلم باستينيا وكرّر: – لا يمكن. لا أوافق.. إن عهـــد الشرف الذي تعهد به راقصو الكابويرا وعشاقها، ينص في المادة الأولى من مواده الست عشرة التي يتكون منها، على أنه واجب على كل من يمارس الكابويرا أنغولا أن يساعد من يطلب النجدة، والتخفيف عمن يتألم، وإغاثة المضطهدين. إن صـــوت الحرية هو منارة الرواد الذين يدرسون، ويمارسون، ويعلمون على النضال البرازيلي، لأن الكابويرا ولدت من صرخة العبيد في وجه العبودية – هكذا يقال في نص الوثيقة الغريبة.

– سنذهب لإخراجها من هناك! – أعلن حبيب الله المعتاد على اتساع البحر، والذي كان ملاحاً لأحد المراكب، بالإضافة إلى كونه كابويري الهوى.

– والآن فوراً – أكمل كوبرا كورال الذي لم تكن لديه مهنة أخرى غير المحادثة الحمـــيمة، وشرب عصير الفواكه في ميركادو، وأكل السمك الحار ولعب الدومينو مع العربي مرشد. خارج هذا النطاق، كان يمارس الحب على شاطئ البحر.

– سوف نقوم بغزو هذا الدير، وليست المسألة صعبة – قال بصوته الرخيم، الراقص ترابيرا، الذي طلع من أحد الأزقة، والمعروف في الشرطة كمثير شغب: و لم يكن يستنكر استعمال الأسلحة النارية إذا كان الأمر ضرورياً.

أما النحات ماريو كرافو، فقد كان يضحك تحت شاربيه الكثّين (الكثيفين)، وهـــو أيضاً صديق الشغب فكان لذلك مثلاً أعلى لترابيرا. في السابق كان قد سطا

علــى كنائس وأديرة لينتهب صور القديسين، فلماذا لا ينتهب من أجل الخطيب كاعباً جميلة؟

– سأمر بالمشغل لآتي برافعة تفتح الباب دون ضجيج.. وبمبرد أيضاً.

أمــا كاريبـــي، الوجيه، فقد فرك يديه تعبيراً عن رضاه الكامل. كانت المرة الأخـــيرة الـــتي حـــرّر فيها عذراء وضعتها عائلتها عنوة في الدير في مدينة سالتا الأرجنتينـــية، منذ عدة سنوات، كما أخبرت دونا نانسي أنه، ليحقق بطولته فقد ارتدى عباءة حمراء وامتطى حصاناً أصيلاً.. ويمكن أن تكون القصة حقيقية.

تحـــرر ألفـــارو من شكوكه الأخيرة، لأن جيلديتي، أمه، سوف توافق على الفكرة الطيبة:

– إذاً هيوا بنا إلى هناك.

– اركضوا بسرعة – طلب ميرو الحب.

مدّ المعلم باستينيا يده، فأعطته روميليا ذراعها:

– بـــسرعة، يا إخوان، لأن وقت العذاب طويل جداً. من كان كابويرا حقاً فليتبعني.

انتـــزع القـــيادة واتجه إلى الطريق العام. إذا كان أحد قد أحس بالخوف، أو تـــردد، فإن سجلات المدرسة لم تسجل عليهم الخوف: إن ما تمّ الحديث عنه هو القـــرار بالإجماع. هكذا، قبل أن يتم التوقيع عليه في ختام الاجتماع، أصبح عهد الشرف معمولاً به.

عـــند لارغو دو بيلورينيو، المحلة الشهيرة، حرّك كمافيو الطبل، وفتح صدره ليطلق منه الأغنية القديمة:

"ماذا تبيعين أيتها الزنجية؟

أبيع الرز الممزوج بالروبيان،

لقد أمرتني السيادة،

ببيعه في قبر سليمان...".

إن مانيلا موجودة في قبر سليمان، ووقت العذاب طويل، وأطول منه عذاب الانـــتظار، والليل بلا نهاية. وهزّت جوقة الكابويرا الأرض السوداء، ذات الحجارة الملساء، أمام كنيسة سيدة روزاريا شفيعة الزنوج:

"هذه هي، يا صديقتي

يا صديقي الأوحد،

يا صديقي...".

وبيـــنما يعطـــي ذراعه إلى روميليا، كان المعلم باستينيا يقود طليعة الشعب. تسعيني، أعمى، مهدم، وكليته، في عهد الشرف الذي وضعه ارتفعت راية باهيا.

السؤال

ومانـــيلا؟ سؤال مؤلم، يطرح ويتكرر بحدة: جيلديتي تتصل بالمحامي، ودانيلو يزور قاضياً، داميانا والأستاذ جواو باتيستا يتعهدان بالملاحقة، في حين أن راقصي الكابويرا يلهون مستأنسين. ومانيلا؟

لمـــاذا الاحـــتقار إلى هذا الحد، ما هذا الصمت المطبق حول التعيسة؟ أليست هـــي، بالمناسبة، الشخص الرئيسي في الحبكة الروائية؟ إنها ليست الشخص الوحيد ولكـــنها تشكل واحداً من الأوائل، فمنها تنطلق المأساة، ومن أجلها يتحرك أهل، واتـــباع، وجيران، من المعروفين والمجهولين، ووجوه قمة في العدالة والمجتمع، ولكن لا يحكى عنها هي بالذات: ألا يكفي دفنها في الدبر، وتمويه القبر الذي يحتوي على الـــوجه الآخـــر مـــن الموضوع. إنه احتراز غير مقبول، ووضع عبثي: يجب معرفة تصرف مانيلا، وكيف تتحمل المحكومة التحول في حياتها وتواجهه.

في الـــنهاية كانت مانيلا قد اقتيدت سراً إلى دير الحبل بلا دنس بعد الظهر، وهـــا هـــو منتصف الليل قد اقترب. بعد قليل يبدأ يوم الجمعة – وهو يوم افتتاح المعـــرض، هـــل تذكـــرون؟ – وحـــتى الآن لم يتم توضيح الطريقة التي قامت بها جولييت، جادة "السلام عليك يا مريم". وهنا تطرح الملاحظة الأدبية، وإن لم يكن سهلاً تصور ميرو يتنكب ورقة روميو، إذ كانت تنقصه جانبية الرأس اللاتينية كما ينقـــصه المـــيل الجـــارف إلى الانتحار. بالإضافة إلى ذلك، فإنه يتميز بالاستعداد للمـــواجهة والتغلب على الأحكام المسبقة لخالة حبيبته: زواج، أجل، أما الانتحار فلا.. مانيلا أو جولييت، كيف تتصرف الفتاة المضطهدة؟

من يخبر قصة فعليه أن يخبرها كاملة دون إخفاء التفاصيل، ودون تحديد العمل على هواه، أو وفقاً لعدد صفحات الحجم النهائي.. لكي تروى بصورة سيئة، وفي

إهمـــال التفاصيل، يكفي ويزيد عدد الناهين الذين يحررون روايات نحيلة، معاصرة، لـــتوقد الـــنقد؛ مع ذلك، ومع كثرة المدعين والعاجزين ما يزال هناك أمل: إصرار أولـــئك الـــروائيين الناهين، سينتهي بهم إلى التعلم. كما حدث للأساتذة فيما هو مـــتعلق بالكابويرا أنغولا. السؤال موجود في الهواء، ملح: يقتضي جواباً في الحال. ومانيلا؟

الأم الرئيسة

الجـــواب لـــن يتأخر، فبالإضافة إلى كونه فورياً، ولا بدّ من أن يكون صائباً وواضـــحاً، ودقيقاً في تفاصيله: إن التفصيل هو سر الرواية، كما يتم تعلمه بقراءة دون كيشوت، لسرفنتس.

إن الـــشعب يعلـــم أن مـــن يشعر يتألم جداً، والمعلم باستينيا، صوت المعرفة الشعبية، قال لتوه إن وقت الألم طويل، والمتألم لا يلمح له نهاية. لذلك كان المعلم يحـــث الخطـــى على رأس الكابويريين الذين توجهوا إلى لابا حيث دير الحبل بلا دنـــس. ولإعطاء لمسة إثارة إضافية لهذه السطور المكتوبة بصورة رديئة، وزيادة في إعـــلاء التحرير الكتابي، يمكن تسليط الضوء على من قتلت برصاصة ذهبية أطلقها علـــيها الخطيب الذي افترسته الغيرة. حتى في قتلها، فقد فعل الأفضل: رصاصة من الذهب المسبوك مطلية بتنهدات الحب.

بطيـــئة كانـــت ســـاعات مانيلا، وطويلة مصنوعة من سبحات ثلاث، تمّت صـــلاتها في كنيسة الدير بأفواه المقيمات القليلات، ومن بعض الراهبات المتعبات والمـــتقدمات في الـــسن ولم يكـــن بينهن أية واحدة كانت قد سهلت العشرينات الثلاث للخطيب أو العشيق.. ولم يكن غير مانيلا كاعباً تمّ إيواؤها للمحافظة على الـــبرعم المهدّد باحتمالات ولوج ذيل قاسٍ. كانت الأم الرئيسة قد تعجبت عندما أطلعتها أداجيزا على قرار قاضي الأحداث. وكان القس جوزي أنطونيو قد وصل قبلها وأعلن النبأ.

– لقد مضت سنوات على الأخيرة التي استقبلناها هنا، وتلك فتاة صغيرة من بايـــشو سان فرانسيسكو، جاء أبوها بكتاب توصية من مطران دابارا. وقد ماتت المسكينة، هنا، بالسل. أو ربما اكتئاباً، ووحده الله على علم بالحقيقة.

– إن بـيت الله هذا أقيم على أيدي أسلافنا للمحافظة على الفضيلة ومعاقبة الرذيلة، لا تنسي، يا حضرة الأم الرئيسة – قال الكاهن بشيء من القساوة:

– إن الأم كان يجب أن تحتفل في كل مرة تأتي مناسبة لإعلاء كلمة الله.

أطرقت الأم الرئيسة برأسها، و لم تناقش قرار القاضي، ولكنها لم تبدِ أي حماس:

– أرجو ألا تبقيها هنا لزمن طويل، وإلا فإن الأمر يصبح فقداناً للعطف.

الأم لـيونور ليما التي كانت تنادى بالرئيسة، أرسلت الأخت أيونيسي لتأتي بمانيلا من المنسكة حيث كانت تجلس على مقعد مزخرف بالسيراميك تقضي وقتها متأسـفة علـى سرور الذهاب إلى مسرح كاسترو ألفيس لتسمع، وبقربها ميرو، فنانـيها المفـضلين في عرض أكثر إباحية منه تحفظاً.. كأنما هو شُعْلول (لهب نار) متوقد، وكانت زميلاتها سيمتن غيرة. تجنبت أداجيزا والقس الذي يقوم بالاعتراف المرور بالمنسكة، وانسحبا متخفيين من الباب الخلفي. رافقت مانيلا الأخت متأكدة من أنها كانت ستلتقي بخالتها عند باب الخروج.

قدمت لها الأم ليونور كرسياً، وتفحصتها بنظرها قائلة: سأخبرك بنبأ سيئ، يا ابـنتي، فكـوني قوية. وتأخرت مانيلا في فهم ما كانت تقوله لها الرئيسة. وعندما اقتـنعت مانـيلا في الـنهاية أن خالتها كان ستسجنها في منسكة التائبات، وقد حـصلت لـذلك على أمر من قاضي الأحداث – كانت الرئيسة قد أطلعتها على الأمـر، ورأت عليه توقيع القاضي – فإنها، وقد خرجت من نفسها، انتفضت من مكانها وصاحت بأعلى صوتها:

– هنا، لن أبقى. سأذهب الآن بالذات.

صـرخت، وضربت بقبضتيها على المكتب، ورفضت يد الرحمة التي مدتها لها الأخت أيونيسي، وانطلقت في شهقات عنيفة كما لم يسمعه دير دالابا منذ عقود: كانـت فتاة مدينة دابار، التائبة الأخيرة، وعيناها جاحظتان، قد بكت بكاءً مراً، ومحـزناً. ودام اليأس القاتل بعض الدقائق التي أمكن عدّها على تيك – تاك الساعة القديمـة، المعلقة. الشعر الأبيض يعلوه الغطاء، والوجه هذيل، واليدان بائنتا العظم، أمسكت نفسها هادئة، فلم تأمر مانيلا بالسكوت. تركتها تنفجر، وتتهم، وتهاجم الخالة، وتقول ما كانت تفكر فيه عن الأب جوزي أنطونيو – كان ظل ابتسامة قد مـرّ على شفتي الأم الرئيسة – وتقسم بالحفاظ على الحب الخالد لحبيبها. وفي قمة

التعـــبير عن الحب، وعندما تحول صوت الغضب والتمرد إلى صوت متماوج لدى اختلاف نبرته، فإن الأم ليونور ليما تكلمت، أخيراً، بصوت لم يكن منتظراً منه أن يكون صوتاً ودوداً.

– أصـــغي، لـــبرهة، إلى ما سأقوله لك، يا ابنتي. لا تفكري في أنني أريد أن أحـــتفظ بك هنا؛ إني أرغب في أن تبقي أقل وقت ممكن، وأرجو من الله أن تعود مـــربيتك عن القرار الذي اتخذته، وبرأيي أن القرار مؤسف ولكني لا أستطيع عمل شيء ضده، لأنك هنا بأمر من قاضي الأحداث.

طلبت برجاء إلى مانيلا أن تخبرها القصة، فأخبرتها مانيلا بين التنهدات، وهي تشهق، فتكلمت عن أبويها، وحادثة السيارة، والخالتين جيلديتي وأداجيزا، الأولى مربية مارييتا، وهي كانت من نصيب الثانية التي هي... وسكتت، إذ لم يكن سهلاً الـــتحديد، بينما كانت تصنف الخالة تصنيفاً جيداً حيناً، وسيئاً حيناً آخر، إذ هي عطوفة وعدوانية، متناقضة:

– أعتقد أنها مريضة.

وأشـــارت إلى العـــم دانيلو بالشخص الطيب ولكنه يخاف سورات غضب الزوجة، أما الخالة جيلديتي فكانت تواجهها، وميرو كان شمس حياتها: إنه الفرح، يـــا أمي، والظرافة، ويجب أن تتزوج منه.. ولكن الخالة أداجيزا كانت تعترض – لأنـــه كـــان فقـــيراً وأسمر اللون، ولكنه خلاسي جميل، يا أمي. كما لو أن مانيلا والخالـــة نفـــسها لم تكونا خلاسيتين، والخالة لا ترى نفسها.. هل يمكن أن تعتقد بأنهـــا كانت بيضاء نقية؟ في أحسن الحالات، يمكن أن تكون بيضاء باهيانية، كما يقال ليكون سبباً للزعل.

أخـــذت الأم الرئيسة الكلمة بينما انفرجت أسارير وجهها الضعيف، ودبت الحيوية في عينيها المتعبتين بسبب ما رأت من أشياء محزنة، وبصوتها المقنع، الأمومي، أكدت أن مانيلا كانت على حق في اعتبار نفسها ضحية وفي الاحتجاج، ولكنها، إذا فكـــرت جـــيداً، لم يكن هناك من سبب يحملها على اليأس، لتستسلم للأفكار السيئة. بالتأكيد، فإن العم الطيب، والخالة العسكرية، والفتى الموله، عندما يعرفون بمـــا حدث، فإنهم سيتحركون لإخراجها من المنسكة، وإلغاء أمر قاضي الأحداث. يجب إلغاء الأمر، وبدون هذا لا يمكن عمل شيء.

ربمـــا يكـــون الوقت قد تأخر اليوم للحصول على تحريرها، ولكن في اليوم الـــتالي، وبالتأكيد، فإنهم سيأتون للتفتيش عنها، وربما تكون أداجيزا نفسها نادمة، من يدري؟

وإذا لم يحـــدث هذا، فإنها، هي، الأم ليونور، ستذهب إلى الكاردينال لعرض قـــضيتها وطلب توسطه في الموضوع. إن ليلة واحدة مسألة سهلة إذا كان عندها صبر وإيمان بالله.

أمـــا تلك التجربة فستكون مسجلة لها في سجلها السماوي: إنه يوم واحد، وإذا فكرت بالآتي، فإن مانيلا سوف تنطلق بالضحك. إن أفضل ما يمكن عمله هو تهدئـــة النفس، والانتظار بصبر، دون أن تمعن في إيذاء نفسها. إن الأخت أيونيسي ســـتأخذها إلى زنـــزانة ستكون زنزانتك ما دامت في إقامتها القصيرة في الدير - وستكون قصيرة، يا ابنتي، وسأذهب إلى الكاردينال إذا كان الأمر ضرورياً. وهكذا قبلت مانيلا بيد الأخت أيونيسي.

في عـــبودية الله، في قـــبر ســـليمان، وبالرغم من تأثيرها بكل تلك البراهين الـــصحيحة، في الظاهـــر، لم تكن تمضية الليل سهلة. يتألم كثيراً من تتوجع نفسه، ووقت العذاب لا يقاس بالساعات المعلقة، بل يعد بما في القلب والأحشاء من نار.

الإجراءات السريعة

منتـــبهة لنـــصيحة ألفـــارو، أخذت جيلديتي تتصل هاتفياً بمقر إقامة المحامي أورلاندو غوميز. وأخبروها بأن رجل القانون، موجود في البرتغال، في سفرة مجيدة، إذ ذهب ليتسلم لقب دكتور شرف من جامعة كويمبرا. أما ديونيزيو. الابن الآخر، وقـــد عـــاد من ضاحية ميركادو فقد وضعته أمه جيلديتي على علم بكل الموضوع وتطوراته.. وإذ كان طيباً بصورة عامة، وانفعالياً، فإن الشاب تألم:

- سوف أخرجها من هناك وإن بمعركة!

طلـــبت إليه جيلديتي المحافظة على هدوئه، وأطلعته على أنها لشدة انفعالها لم يكـــن ممكناً أن تدفئ مكاناً. كان دخول ابنها ديونيزيو قد ذكرها بصديق مشترك لدانيلو هو الأستاذ تيبورسيو باريروس: فهذا، بالإضافة إلى كونه متحدثاً لبقاً، فهو صـــديق حمـــيم. وافق ديونيزيو على الفكرة، إذ إن تيبورسيو يعرف نصف العالم،

وكانت ذراعه طويلة وعقله حصيفاً، وسوف يشير عليهم بما يمكن عمله، وإذا كان عاجزاً.. عن ذلك فمن هو القدير؟ فتش دانيلو عن رقم الهاتف في الدليل، واتصل، فـوجد المحامي في البيت مزمعاً على الخروج، وأنه سينتظر وصول سيارة الأمير.. الأمير؟ شيء من الماضي.. من كان دائماً ملكاً فهو صاحب جلالة، تذكّر المحامي.

– لم يـشأ ديونيـزيو أن يتعـشى "سـأذهب معك". وأنا أيضاً. – قررت جيلديتي –؛ – لا أتحمل البقاء هنا دون عمل شيء. الأمر الصعب هو إقناع فيوليتا وماريتا بالبقاء في الانتظار. ووعدت جيلديتي بالعودة لإخبارهما، ومع ذلك تمكنت من أن توقفهما عن البكاء.

تيبورسيو باريروس، أربعيني شاب، حياهم بحرارة: كنت أنتظر صديقاً وها أنا أرحب بثلاثة أصدقاء، فبماذا أدين لهذا الشرف؟

دفع بمقعد وثير إلى جيلديتي: اجلسي هنا، يا حارستي القديسة. أما ربة البيت الـسيدة داغمار، سمراء أخاذة، وفي حمأة اللياقة، حتى في البيت، وفي تلك الساعة، اسـتأذنت وذهبت لتعد القهوة. وعرضت جيلديتي الموضوع يقاطعها دانيلو مرة، وهـو يفـتش عـن أعذار لأداجيزا، وديونيزيو مرة أخرى، بفمه المليء بالشتائم والتهديدات. وإذ عادت من المطبخ ومعها الصينية التي وضعت عليها الإبريق ودلة القهوة، فإن السيدة داغمار مكثت لتسمع، وفمها مفتوح تعجباً:

– في منـسكة التائـبات؟ أمـا زالت قائمة؟ – وكونها مديرة معهد لتعليم الإنكليـزية، ومـسافرة، وتنفيذية، فإنها لم تكن تفهم سبب وضع الصغيرة هناك، والأفكار المسبقة المتخلفة، والحماقات. – يا للجهل!

قـال المحامـي إنه لم يكن يعرف كيف يمكن تحرير مانيلا في تلك الليلة. إن قاضـي الأحداث، الأستاذ دافيلا ذاك، لم يكن زهرة يمكن شمها؛ وهو منظور إليه بنظـرة السوء في أوساط العدالة، ولكنهم كانوا يلاطفونه ويخشونه لأنه رجل الثقة لـدى القرود المتوحشة أسوأ رجال السلطة، وفاشستي كبير – لقد كانت عواطف الأسـتاذ باريـروس اليسارية واضحة في تعابيره اللغوية.. إن صاحب الاستحقاق القاضي، فظ ذو خلق رديء، يطرح نفسه بطلاً محلياً في الحفاظ على المناقب ولكنه كـان يعيش في بيوت الدعارة، وله صاحبات دائمات. إنه مزور أكثر من يهوذا، وقـد قطـع علاقاتـه مـع تيبورسيو منذ أكثر من عام، لسبب كيفي، ولم ينشر

الموضوع... واستنتج دانيلو أن ما حدث يمكن أن يكون وقيعة قامت بها امرأة ما، وسيستجلي الأمر في مناسبة أخرى.

في تلك الليلة، فإن أقصى ما يمكن عمله هو المحاولة للحصول على إذن - لا من القاضي بل من راهبات الدير - لزيارة الأعمام لمانيلا. إن حضور الأهل سيكون عزاءً وتهدئة للفتاة: تعرف أنهم كانوا مهتمين بها، وأنها لم تكن مهملة. وكان وضع دانيلا ذا أهمية أساسية. وكونه مربياً وغير موافق على القرار الذي اتخذته زوجته، يستطيع أن يحاول إقناعها طالباً إلغاء قرار قاضي الأحداث.. لم يكن الأمر سهلاً لأن قربي دافيلا قرنا جامح عنيد، لن يجعلاه يغيّر عاداته للرجوع إلى الوراء. ولكن لا تنسوا أن الزوج هو رب البيت.

- غداً سوف نرى كيف نتصرف، ولكني أحتاج إلى وكالة هنا من الأمير. الآن سوف نهتم بالزيارة، لا أعرف رئيسة الدير، ومن تكون. اتركوني أحدد مكان أحد يستطيع مساعدتنا.

أخذ الموضوع على عاتقه، بدون أية مصلحة سوى القيام بخدمة، وهكذا تصرف تيبورسيو باريروس طيلة حياته.. ذهب إلى الهاتف وقام بعدة اتصالات. أما السيدة داغمار، بعد توزيع الفناجين المليئة بالقهوة، فقد جلست في حلقة المراثي: اعتقدت أن ذلك المدفن لم يعد موجوداً، إنه مدفن سن الماضي.

لم تكد تمضي خمس دقائق حتى عاد المحامي إلى الصالة:

- لنذهب إلى بيت الأستاذ مونتيرو، قاضي دافارا. إنه شخص ممتاز ويعرف الأم الرئيسة.

استقبلهم القاضي إغنالدو باهيا مونتيرو عند الباب، واعتذر أن يكون بملابس النوم لأنه لم يعرف أن صديقه تيبورسيو سيأتي برفقة سيدة، ثم قادهم إلى غرفته حيث كان يدرس القضايا ويحدد العقوبات: وفي قاعة الطعام كانت العائلة تلعب "البيريبا"، وتسمع هناك ضحكات وتعجبات.

بالرغم من كونه زميلاً في القضاء، فإن الأستاذ مونتيرو لم يعترض على تصنيف تيبورسيو لقاضي الأحداث واصفاً إياه بالسافل. ولم يكن القاضيان على وفاق منذ كان على قاضي دافارا أن ينوب عن القاضي دافيلا بممارسة الحكم على الأحداث. كانت المدة قصيرة، ولكنها كافية ليتكشف مونتيرو مجموعة من

المآســـي التي سببها. الأصدقاء لا يمكنهم أن يتصوروا: مظالم وأحكام اعتباطية بالأكوام!

زيارة مانيلا في تلك الليلة؟ يمكن، ومن يدري، بالرغم من الشكوك بسبب تقدم الساعة، والمسألة متعلقة بدير راهبات له قواعده وأصوله. ولكن، إذا كانوا يـــريدون أن يحاولوا، فسيعطيهم رسالة يقدم فيها دانيلو وجيلديتي، عم وخالة الــصغيرة، إلى الأم الرئيسة. كان يعرفها منذ قام بجرد ملكيات أختها: إن الأم لـــيونور امـــرأة مـــستقيمة، وذات خلق طيب. لقد وهبت حصتها من الإرث للأعمـــال الخيرية التي تديرها شقيقتها دولسي. والتمعت عينا القاضي تعكسان فكرة راودته:

– إن أخـــتها دولسي خيرة أكثر مما يمكن تصوره، ألا تعتقدون؟ إنها قديسة، وثلاث مرات قديسة.

كـــتب الرســـالة على بطاقة وضعها في مغلف، ووجهها: الأم ليونور دي لـــيما، باليد، وسلمها إلى دانيلو: أعتقد بأنها ستسمح، ولكن يجب الذهاب في الحال. في الحال لم يكن ممكناً، وقد تأخر الأمر قليلاً لأن جيلديتي أرادت أن تمر بالبيت، لتفي بالوعد الذي أعطته لابنتيها فلم تقبلا إلا بمرافقتها في الزيارة. وفي تلـــك الأثـــناء ظهرت داميانا والأستاذ جواو باتيستا تفتيشاً عن أخبار: كانت صـــانعة الحلويات مغرورقة بالدموع، والأستاذ بمعدة معتصرة يشتم بالفرنسية: "مي نون! ميردالورا!"

وقبل أن يجتمعوا ملتفين على بعضهم أهلاً وجيراناً للاتجاه إلى الدير، علينا أن نعلـــن عـــن سر انتشار الخبر الذي شاع في جادة "السلام عليك يا مريم". داميانا عرفت من الأستاذ جواو باتيستا وهذا، متعجباً، من قاضي الأحداث. فأي رباط، قولـــوا لي، يمكن أن يكون مشتركاً بين حامي النظام التسلطي والقيم البورجوازية، وبين الأستاذ الفرانكوفوني الليبرالي، محب الحياة – وهذا التعبير خاص به – المقاوم للعفونة التاريخية، صاحب الوجه المقطّب والضحكة الطليقة؟

أجـــل كـــان هناك رباط وهو كناية عن موقع رفاهية، هادئ، ومحترم. كان ذلـــك الموقع هو مبغى دي أنونسياتا، ويقع في محلة بروتاس، في "شاليه" قديم ظلّ محافظـــاً علـــى مستواه، تحيط به الأشجار، هرباً من عيون الفضوليين. وهناك كانا

يلتقيان، في الساعات الأولى من الليل، القاضي العادل والصحفي المشهود له، وكلاهما زبون دائم للسراي الترحيبي والمريح. إن الأستاذ يخرج وذراعاه تحيطان بالفتاة "موسينيا دا بريوزا"، آلهة الوحي للشرطة العسكرية، وكان صاحب الاستحقاق القاضي يخرج ملتفاً على الفتاة "برودينسيا بوسيتا دوسي"، الجديرة: وفي الممر كانا يلتقيان ويتبادلان تحيات المساء. وبهيئة من لديه القدرة على الأخبار بنبأ مهم، فإن قاضي الأحداث، الأستاذ ليبيراتو مندس برادو دافيلا، أخبر سلفاً زميله في الإبداع أنه، عصر ذلك اليوم بالذات، أمر بوضع فتاة قاصر في دير التائبات، وربما يعرفها الصديق العزيز لأن الأستاذ والقاصر كليهما يقيمان في الشارع نفسه: قضية، أليس كذلك؟ إن الخالة، شخص مسؤول، انتشلتها قبل أن تنحرف القاصر. وكان يقول "تنحرف" وهو يفصّل الأحرف والمقاطع تفصيلاً.

نفاذ المواكب إلى جادة "جوانا إنجيليكا"

واصلين تباعاً، هذا من بيلورينيو، وذاك من توررورو، فإن الزمرتين نفذتا إلى الاستدارة نفسها في جادة جوانا إنجيليكا، على وثبة من دير دالابا. وانتهوا إلى التجمع موكباً عديداً، مع صف صغير من الوافدين صدفة، ومسيرة صاخبة شبيهة بكتلة بشرية من كتل الكرنفال.

بعد تجاوز تريرو دي جيزوس، ومحلة "داسي أي أميزير يكورديا"، فإن هواة الكابويرا هبطوا نزلة لاديرا دا براسا، ثم خرجوا من نقطة مقابلة لهيئة الإطفاء، واجتازوا محلة دوس فيتيرانوس ليصعدوا مرتفع دا أندبندنسيا، واحتلوا مخيم دابولفورا حيث تمّ تنفيذ الإعدام بالأخ كانيكا: الثوري.

عند كل ركن كانت القافلة تزداد، ثم تتخذ حجماً أكبر في المسيرة. وكانت زمر الفضوليين والعاطلين تجعل المسيرة تزداد سمنة: طلاب، بنات هوى وبوهيميون، صيادو أسماك، علماء يخرجون من اجتماع حول التطور التكنولوجي، متأدبون وسواح، والمستشارة في البلدية أمابيليا الميدا. كانوا يتبعونها دون أن يعرفوا إلى أين أو لماذا، مجذوبين بقرع الطبول والنشيد العام. في المؤخرة، كان نقباء الرمال يقومون بقفزات الكابويرا، هلوانيون كانوا قياديين بالدم، كأنما القيادة إرث لهم،

وكـــذلك سماحة الأخلاق.. لا بدّ من أن تكون هناك مباراة فوق العادة في مكان ما، ولا يريد أحد أن يفقد المشهد.

أما المجموعة المتكونة من الأقارب فقد زادها الجيران عدداً – كانت داميانا قد تنكـــبت مـــسؤولية المجيء بهم – وقد انطلقت من أجل ذلك من بيت جيلديتي في تـــورورو دي ســـيما –: الأعمـــام، أبناء العمومة، والأصدقاء، حثوا الخطى بغية الوصول في الوقت.

ومقابـــل نهاية سعيدة فإن الجارة إلينا، الموسومة، نذرت بالامتناع عن ممارسة الجـــنس أمام العبدة أناستاسيا، القديسة الحديثة لمظان الشعب؛ والرقيب ديوليندو ارتدى بزة الحرس الوطني ليفرض الاحترام.

في جادة جوانا إنجيليكا امتزجت عناصر الفرقتين، وذابت الواحدة في الأخرى دون ســـابق اتفـــاق، ولكـــن ليس بالصدفة: فكل ما حدث، تلك الليلة، كان له وصاية، ونتيجة، وهدف، والمخطط المحنى في تنفيذه لإرادة الكلمة.

في تلك اللحظة من التآخي الكامل، ارتفعت قرعات طبول الحرب وإذا بنشيد الكابويرا أنغولا يجعل المقيمين في البيوت واقفين عند النوافذ، وإذا القديسة بربارة، أم الـــرعد تـــدق جرس الباب الكبير لدير الحبل بلادنس، حيث، بأمر من قاضي الأحداث، تمّ التدشين لإجبار المنحرفات على التنسك.

الأمر الذي وقّعه قاضي الأحداث الأستاذ مندس دافيلا

بصفتها حارساً ليلياً عند المدخل، فإن الأخت أيونيسي، حين سمعت الناقوس، ونظرت من فتحة المراقبة إلى الخارج، عرفت في الحال القديسة الزائرة، إذ كانتا قد ســـافرتا معـــاً مـــن سانتو أمارو إلى باهيا. ولدى وصولهما، فإن المباركة ارتدت معطفها وانطلقت في هذا العالم.

نسيان لا يغتفر، وإهمال لا تفسير له – عذراً! عذراً! أقصى الاعتذار! – إذ إن أي نـــبأ أو إشارة إلى الأمر التالي لم يرد ضمن أحداث صباح ذلك الخميس: ففي الـــصباح الباكـــر كانـــت الأخت أيونيسي قد استقبلت في الدير زيارة المفوض باريـــرينيا. والـــشرطي النبـــيه قال لها إنه أتى ليصغي إليها سراً في موضوع متعلق بالعدالـــة: أراد أن يعرف من الذي سرق التمثال. سرقة؟ من تكلم عن سرقة؟ إن

القديسة قد خرجت تمشي على قدميها، حتى إنها قالت لها وداعاً. واستنكر المفوض: مسخرة، إن الأديرة مليئة بالعجائز التالفات. إنه التحقيق الأكثر غوغائية، ولا يمكن التمييز بين وجهه وقفاه، ولا نتيجة له.

عندما شاهدت القديسة بربارة، أم الرعد، في الخارج، واقفة في الممر، فإن الأخت أيونيسي ابتسمت، وشاحت بوجهها عن الفتحة، ودفعت المزلاج الحديدي، وفتحت الباب الصغير في داخل المدخل الخشبي الكبير، وإذا القديسة تلقي عليه الابتسامة:

- مساء الخير، يا أيونيسي.. عليك سلام الله.

- البركة يا قديسة بربارة سيادتك هنا؟ هل جئت تقضين الليل هنا؟ ادخلي، فالبيت بيتك.

منحتها القديسة بربارة، أم الرعد، البركة، وبعد ذلك، قدمت لها الورقة الرسمية والمختومة، مع التاريخ، والتوقيع، وكل الشروط البيروقراطية.

- إني أضع بين يديك أمر إطلاق سراح موقعاً من قاضي الأحداث للفتاة مانيلا بيريز بيليني، التي، بموجب أمر سابق من القاضي نفسه، تمّ إيداعها هنا، اليوم، بعد الظهر.. هل الأم الرئيسة ليونور ما تزال مستيقظة؟

سألت لتتابع الحوار، وكانت مستعجلة لمعرفة الأم الرئيسة الغارقة في حلمها الأول، وهو أثقل الأحلام.

- لقد أوت إلى فراشها، ولا بدّ من أن تكون نائمة. ولكني سأناديها إذا رغبت يا صاحبة السيادة.

- لا داعي لذلك. ضعي الأمر عند أعلى طاولة عمل الأم الرئيسة، وستراها غداً صباحاً. بسرعة، اجلبي الفتاة، الآن بالذات، وسأبقى منتظرة.. لا يستحق الأمر عناء الدخول.

استلمت الأخت أيونيسي الأمر، ونظرت بصورة آلية إلى التاريخ والتوقيع، والخربشة، وانطلقت مسرعة بخطوها المتئد، الشبيه بالزحف، ولكنها كانت سعيدة. كم هو طيب! لقد ندمت المربية، وأعطى القاضي أمراً جديداً ألغى به الأمر السابق، السيئ. لقد جاءت القديسة بربارة، أم الرعد، بنفسها إذ لا بدّ من أن تكون عرابة الصغيرة بالمعمودية.

يجب أن يتم الأمر بأقصى سرعة إذ لم يكن ممكناً تركها تنتظر. لا القديسة، ولا الصغيرة: المسكينة كانت قد ارتدت رداء راهبة، ولم تذق لقمة طعام واحدة، في الكنيسة، وهي تصلي مع الراهبات وتذرف الدموع الأخيرة. وبينما هي ترتدي ما ترتديه، ومتمددة على الفراش الضيق، لم يكن ممكناً معرفتها في رداء الرهبنة، لقد كانت كمنتهية لم يعد لها وجود. في تلك الأمسية كانت الأخت أيونيسي قد رافقتها في طريق المرارة، وقلبها دامٍ لشقاء الصغيرة. وحثت الخطو وهي تتمتم بصلاة النعم.

لم تعطِ مانيلا نفسها المجال لتغيير ملابسها، وإضاعة الوقت. لقد خرجت راكضة، متلهفة، كما أنها تخيلت أداجيزا نادمة، والخالة كانت غير مرئية، وكانت تتصرف بفعل الانفعالات، دون تفكير، ولا بدّ من أن تكون قد فهمت عملها اللاإنساني المرتكب. فتحت لها الأخت أيونيسي الباب، وقبلت مانيلا يدها، وتجاوزت الباب الحديدي: وبطريقة قوية، انغلق الباب تلقائياً، وأقفل المزلاج وتصلب نهائياً تاركاً الراهبة ترى أمامها مراكب. وإذ لم تتمكن الأخت أيونيسي من توديع القديسة بربارة، أم الرعد، فقد أنشدت لها نشيداً علمتها إياه جدتها "أياكاسو".

"يا قديسة بربارة،
يا أم النخوة،
وأم الرعود والبروق،
أعيريني ثلاث قطع من النقود،
لأشتري حريتي،
يا قديسة بربارة، أم الرعد".

وفي الشارع، وإذ كانت الزنجية مرتدية مشالح نبيذية اللون، جميلة كما لا أجمل، ابتسمت لمانيلا، وسلمتها الذيل المصنوع من عرف حصان واختفت.

الراهبة المتدرجة

نسيم الليل، هبة البحر لمدينة باهيا الغارقة في القيظ، كان يداعب بلطف الرداء المستعار، زغب الراهبة المتدرجة، والمدفونة فيه أكبر حجماً. اهتزاز قوي، كاد النسيم به أن يكون ريحاً.

متقدة، تنفست مانيلا عميقاً، إذ غدت حرّة. لقد أحست بالرعشة نفسها التي امتلكـــتها في كانون الثاني/يناير الماضي، في يوم خميس القديس بونفين حينما، عند مـــذبح الباســـلية، تمّ تغطيس رأس ميرو في مياه أوشالا. إنه لأمر مضنٍ ألا يتمكن مـــيرو من رؤيتها ترتدي رداء الراهبة المتدرجة، لكان أبو الفرح قد أطلق الضحك قهقهات. أبو الفرح لا بدّ من أن يكون زعلاناً، لأنها تركته في الانتظار، ولم تأتِ إلى اللقـــاء: لم أســـتطع أن أذهب، يا ميرينيو، حبيبـــي؛ لقد أوقفوني في منسكة التائـــبات. ونظرت حولها ساعية إلى رؤية الزنجية التي سلمتها الذيل، إلاّ أن الزنجية اخـــتفت، ولكـــن من رأته أمامها لم يكن إلا ميرو يأخذ بذراع روميليا. وكانت الجمـــوع قـــد أخذت تدخل في المنفرج الصغير حيث يشكل دير دا لابا مثلثاً مع مدرسة باهيا التكميلية.

صامتين، متباطئين، فإن الكابويريين لم يعودوا يغنون ولا يضربون على الطبول المفرحة. كانوا يتقدمون متكدرين، لأن ساعة العمل قد اقتربت، ولا أحد يستطيع أن يعرف مجرى المواجهة، لا ميرو ولا المعلم باستينيا.. ومن خلال التجمع المتلبك، خـــرجت إلى الظهـــور سريعاً صورتا الخالة جيلديتي والعم دانيلو، وجيلديتي بيدها مغلـــف، ملوّحة: إنها الرسالة التي وجهها القاضي إنالدو إلى الأم الرئيسة. صرخة ميرو عندما لمح مانيلا أمام المدخل الكبير، هزّت السماء، وزلزلت الأرض:

– مانيلا! هنا! مانيلا!

– مانيلا؟ أين هي؟ – سأل المعلم باستينيا.

– هنا ترتدي رداء الراهبة – أشارت روميليا بإصبعها.

تمكـــنت مانـــيلا بجهد من أن تبتسم لحبيبها، وتتعرف إلى عمها دانيلو، وتميز خالـــتها جـــيلديتي.. وعندما أرادت أن تناديهم، وتتقدم لملاقاة جماعتها، فإن فمها وقدميها لم تعد ملكاً لها، إذ إن الإلهة يانسان كانت قد غزتها ووضعتها على صهوة حصان.

خرجت ترقص في ممر الدير، وهبطت إلى لارغو حيث تمّ كل شيء. لم يكن المعلم باستينيا قادراً على الرؤية، ولكنه كان قادراً على التكهن فحرك يديه، وأحنى رأسه كما يقتضي الواجب، وحيا الأوريشا:

– إيباري، أويا!

الشعب بصوت واحد ردّد وراءه، وأكف الأيدي على أعلى الوجوه، وكلها مكرسة للمشرف: إيباري، يانسان أم الرعد! إيباري، أويا! كان وجه مانيلا بهياً، والجسد ممشوقاً في رداء الراهبة، وضمن حلقات الرقص، لم يرها ميرو يوماً جميلة بهذا القدر: انحنى، احتراماً.

جالت يانسان في لارغو طولاً وعرضاً، وعرضت للشعب رقصة الحرب، الحرب التي لا تخافها يانسان لأنها واجهت الموت وانتصرت. توقفت قرب المعلم باستينيا وارتمت على صدره، وطال العناق التقليدي، كتفاً مقابل كتف، ووجهاً مقابل وجه، ثم انطلقت تحيي اتباعه، المستحقين منهم.

بدأت جيلديتي، ففتحت ذراعيها لتتلقى بهما خالتها وحاميتها. وترنحت جيلديتي على قدميها، وبصقت جانباً، وانتزعت حذاءها وكان أوشالا من استجاب لعناق يانسان: كان قد وصل ليساعد أياو على التجسد.. أما أويا فقد أخذ العم دانيلو من قرب قلبه وسلمه الذيل مما يعني أن دانيلو قد غدا أباها الصغير، وأنه في سوق المزاد لبيع العبدات سيشتري حرية أياو بعشر قطع من العسل المصفى. وأخيراً وصل دور ميرو: محترماً، مبجلاً، كان ينتظر. رقصت له أويا خطوات الحرب والانتصار: واهتز جسد المشرف، وامتلأ فمه بالبصاق، وصوته لهاث حب: آلهة وحبيبة. أخذت ميرو من جنبيه، وأعلنته عالياً أوغا - يانسان، هناك أمام الدير، وهي ترتدي رداء الراهبة.

وهي ترقص دون توقف، ويواكبها أوشالا، فإن أويا اتخذت الطريق العام متجهة إلى كوندومبليه دو غانتويس، حيث كانت تنتظرها آلام مينينيا، لكي، فقط عندئذ، تمسك بالسكين، وترفع مشكاة المركب. ورافقها الشعب الغفير في سكة الاتحاد معها حتى لارغو دي بولكيريا. وتحول نسيم الليل إلى ريح، وأخذت الرعود والبروق تمزق السماء الصافية، والليلة الرائقة، وسط المطالبة بالحرية. كانت أويا يانسان، ترقص في شوارع مدينة باهيا.

سفينة "الأياوات"

وهي ترقص، صعدت يانسان درجات الباب إلى كوندومبليه دو غانتويس.. وفي الداخل القليل الضوء - فقط قنديل من عدة شمعات كان يبعث بعض الأضواء

الخافـــتة الـــصفراء – وبينما هي محاطة من الجانبين بالفتاتين كلوزا وكارمين، أيا كيكيري وأيا لاشي، وجالسة على العرش استقبلتنا الأم مينينيا. والجمع المتنوع كان قد توقف عند لارغو دي بولكيرا، وأخذ يتفرق شيئاً فشيئاً.

– كنت أنتظر سيادتك يا أمي.

لمـــست الأم مينينيا بأصابعها رأس الأياو المنحني أمام قدميها.. ومع النفخ في الأبـــواق، والنشيد إلى "إيناه"، نظرت الأيالوريشا ورأت: كانت أويا تأمرها بحجز مكان لفتاة على متن المركب الذي كان سيقلع تلك الليلة إلى سر الغرفة الغامضة، وإلى مرافئ البداية.

الأخريات كن قد أُحصين. كانت بينهن أوشون المساوية لأم الإله، وأوغون، وإيـــوا، وشانغوان "اثنان" وأوشوماريه، واثنان من الأوشالا شاب وعجوز، وشيء يحـــدث نادراً وهو وجود أوساي الآتي من الغابة. لم يظهر هناك أي أوشوسي إذ كانـــوا جميعاً مشغولين بالصيد الكبير في الغابة.. وكذلك "أومولو أو أوبالوايه" إذ كانوا يواجهون الجذام في سيرتاو الشيكي – شيكي. ولم تأتِ أويا، إذ قيل إنها لم تأتِ لتجنب اللقاء مع يانسان التي كانت متحفظة منها بسبب الغيرة. كان المركب متعدد الركاب وفيه أبحرت مانيلا بصفة قديس.

الأم مينينـــيا دو غانـــتويس أخذت الدفة، وكانت ستستعمل السلطة المخيفة ملامـــسة رؤوس المخـــتارات، لتفتح الطريق أمام مظاهرة الأوريشاس. ولكن دقة الخشخاشة، أخرست هزيم الرعود، وإذا الشمعة المضاءة عند مذبح الكوندومبليه قد أطفأت بريق الأشعة.

المسيرة الطويلة من الآلام
في يوم الجمعة العظيمة

استعدادات الحرب

عند الصباح الباكر، مغالباً النعاس، محموماً، مبلل الثياب، مشتعل الوجه بفعل لدغات البرغش، فارغ المعدة، وناشف الفم، رافق مفوض الشرطة بعينيه، عن متن الزورق العالق، حركة الإبحار المستمرة، والناس المتجمعة عند شاطئ النهر.

واستجابة لنداء مطران سانتو أمارو، كانت تصل على طول مجرى نهر باراغواسو، ومن مدن وقرى ريكونكافو، مراكب وزوارق صيد شراعية، تجتمع هناك وتتحول إلى مراكب حربية. وكان الأسطول غير المرئي يستعد للانطلاق على مرأى مفوض الشرطة ورغم أنفه.

مجموعات مسلحة كانت تتلقى الأوامر من القس الحربي تيو.. كانت النساء مسلحات بالسبحات، وأوراق الأناشيد الدينية، وكتب الصلاة، وأزهار مقطوفة من حدائق إقامتهن حتى يشرفوا بها، عند العودة، محمل القديسة بربارة، أم الرعد. أما الرجال فكانوا مسلحين بسعف النخيل وقضبان قصب السكر. وكانت السيدة كانو توزع على المتطوعين صورة ملونة: على الوجه الأول منها صورة القديسة المطبوعة بالألوان، وعلى الآخر معلومات قابلة للنقاش، عن قيمة تاريخية مشكوك فيها، وهي بقايا من العيد السابق، ودعائية لأحد مصانع الكحول المتخصص بصناعة شراب "الجوروبيبا". الشباب بأزيائهم الموحدة وبسراويل الجينز والسترات المختلفة: أزياء صيفية، وصدارات جلدية، وقمصان صخابة؛ كانوا ينشدون أغاني كايتانو، وقد ولد هناك طفل غاية في الظرافة، ولا أظرف!

في توازن الزورق غير المستقر، وفي أوضاع غير ملائمة، وإذ لا يزال تحت

تـأثير المعاملات السيئة والمواجهات المهينة، فإن مفوض الشرطة ريبوليتو لم يتنكر لمواصفات المحقق من الدرجة الأولى مع عشرين سنة في خدمة الشرطة، فهو ما يزال يمسك بمهامه، ضعيفاً ولكن برجولة. إن هذه الإبحارات العديدة من المرسى، وذهاب وإياب الأشخاص، وتلك الحركة الصباحية بدت له موضع شك كبير كأنما الجوع واللكمات قد أرهفت حاسة الالتقاط لديه.. متمسكاً بمهامه، فقد عمل على تقييم التفاصيل، في دماغه، والوثبات، والافتراضات، وارتفاع الماء، وقوة التيار، وسرعة وفعالية ساقيه ليكوّن فكرة أكيدة ويرسلها عندما يصبح الأمر ممكناً إلى سكرتير الدولة للأمن العام.

الخروج من المأزق، والحصول على واسطة نقل إلى العاصمة، والحضور أمام رئيسه، وتقديم أخبار، الإيفاد الذي طبقه حرفياً، كلها كانت الأهداف المباشرة للمفوض. وعلينا أن نضيف القول سراً: لم يكن سهلاً عليه مغادرة الزورق والوصول إلى الضفة. وكان قد بدأ يصاب باليأس عندما انحل كل شيء.. في المحصلة كانت تلك هي الحقيقة.

الشباب المتصلبون الذين هاجموه، أمس، وأرسلوه، جاؤوا تفتيشاً عنه فأخرجوه من مأزقه واقتادوه إلى أحد المراكب التي كانت تستعد لبدء البعثة التأديبية، وجعلوه يبحر معهم. إنهم لم يخرجوا المفوض ريبوليتو من الزورق الغارق، ومن ضفة المقصبة، وحسب، ولكنهم عرضوا عليه، ودون أن يطلب ذلك، أن يقود المركب إلى العاصمة. كان ذلك حلاً مرضياً ولم يتم إطلاقاً شد الأيدي خلف الظهر والأرجل بالقيود. لقد كان المفوض مأخوذاً كرهينة.

قراءة الصحف

1 - الإعلان

في يوم الجمعة ذاك، نشرت صحف العاصمة الباهيانية اليومية، جميعها، إعلاناً مثيراً على صفحة كاملة في وسطها تمثال القديسة بربارة، أم الرعد، أعيد طبعها بحجم كبير مأخوذة (دون إذن) عن كتاب دون ماكسيميليانو فون غرودن. لم يكن الكتاب قد عرض للبيع في المكتبات بعد، ولكن نسخاً منه كان قد تمّ إهداؤها من المؤلف إلى بعض النقاد والأصدقاء.

العنوان بأحرف كبيرة: هذه القديسة اختفت، كان عنواناً ملفتاً للنظر، ومثيراً لفضول القراء. وإذ تمّ إنجازه بنزق المحترفين في المجال - الإخراج كان من وضع غيرا روشا - فإن الإعلان كان يشير إلى أنه مكتوب بحروف طباعي: ثمانية على عشرة، والخبر يركز بدقة على التمثال مبيناً قيمته التي لا تقدر بثمن:

وقد نسبت إلى الفنان إليجادينيو لمن كان يفهم تلك الملكيات، والدون ماكسيميليانو فون غرودن كان معلماً وجيهاً وشهيراً. ولتكوين فكرة عن أهمية القديسة المختفية، يكفي القول في شأنها أن مدير متحف الفنون الدينية قد كتب كتاباً كاملاً في الموضوع، باللغة الألمانية.

تحت الصورة، وبالأسود، كان يقرأ السؤال والجواب: إذا كنت تملك أية معلومة عن مكان هذا التمثال، أو أي خبر يمكن أن يقود إلى اكتشاف الرسم الذي يشاهد في الصورة، فإنه سوف يستحق مكافأة (مجموع المبلغ بالكروزبرو)، وهذا المبلغ هو مكافأة تقدمها.. (اسم الشركة المتميزة بإبداعها الهندسي)، وهي شركة تتعاون بفعالية من أجل التقدم في وطننا، كما أنها تعمل بالحماسة نفسها، للمحافظة على عظمتنا: إن تمثال القديسة بربارة، أم الرعد، هي جزء لا يتجزأ من عظمة البرازيل.

إن محور الوكالة، الأستاذ سيرجيو، والإعلاني المؤهل، المعروف دون ذكر اسمه، فقد هنأه على الأسلوب والنوعية في النص المنوّه عنه.

حسمت كلفة هذا النص النموذجي، بالكروزيرو، لأن مستوى المعيشة ذاهب في الارتفاع الجنوني، وقيمة المكافأة المرتفعة في وقتها، يمكن أن تبدو مضحكة إذا حسمت منها الكلفة.. وبعد قليل يقرأ اسم الشركة التي دفعت من حسابها الإعلان المتميز والذي استنزفها كلفةً، أو ما يشكل حسماً قليلاً من المبالغ الخاضعة للضريبة التصاعدية، مصاريف، وقبل أي شيء، غير معلنة في سجل ضريبة الدخل - لقد كلفت باهظاً ولكنها ظهرت مجاناً. هل من الضروري شرح لماذا الحذف؟ حتى وإن كان السبب ملحوظاً، فلا يكلف الترداد شيئاً: إن الصفحات المزخرفة والملونة، في هذه القصة من الأحداث الدينية والثقافية يمكن اعتبارها وسائل دعائية، وحتى وإن كانت تتيح تسامي النفس للشركات العابرة القومية. تسامٍ، ويجب إضافة، مجانية: لم يصل إلى أيدينا أي عرض.

إذا كان أحد راغباً في المزيد من المعلومات فيما هو متعلق بالإعلان: فإن قيمة الجائزة يمكن معرفتها في مقر الشركة الراعية، وإذا ظهر أحد الراغبين، وإذا دفعت المكافأة، وإذا كان ذاك النزق قد جاء بمفعول أو كان تزويراً، فإن المهتم بالأمر يجب أن يتوجه إلى السيد سيرجيو أمادو، وهو رجل مظفر. إنه مدير الوكالة المسؤولة عن الإخراج والإعلان من يستطيع أن يوضح وأن يخبر بدقة وليس الكاتب المسكين الذي يجهد، ضارباً بإصبعيه على الآلة الكاتبة – وهي آلة من تلك الآلات القديمة، السيدوية، التي لم يعد يستعملها أحد في نهاية هذا العصر، عصر الإلكترونيات والحواسيب – للدفاع عن حقوق الكاتب المالية التي تقلصها ضريبة الدخل إلى النصف، وفي النهاية: أي أقل من النصف، إلى لا شيء، إلى غبار.

2 – مقابلة مطران سانتو أمارو الصحفية

ما عدا الصفحة التي احتلتها المادة الصحفية التي دفعت كلفتها الشركة عابرة القومية، فإن صحف يوم الجمعة كانت قد خصصت مساحة مهمة عن اختفاء تمثال القديسة بربارة، أم الرعد. عناوين كبرى على الصفحة الأولى، زوايا مخصصة للموضوع، تعليقات، واستشهادات ومقالات خاصة.

ويستحق التنويه المقال الداخلي في جريدة دي نوتيسياس اليومية، بتوقيع مستعار، في أعلى الصفحة الثالثة: وفيه كانت إدارة جمعية الصحف اليومية في باهيا تتبادل التهاني مع القراء للسبق الصحفي الذي حققته أمس. لقد كانت صحيفة دي نوتيسياس الوحيدة في المدينة التي كشفت القناع عن اللغز الذي أحاط بوصول التمثال إلى مرفأ السلفادور.. وفي حين كان المتزاحمون يتعاملون مع الرواية الرسمية – لقد تم إنزال التمثال بسلام، واستلمها مدير المتحف بحضور المحققين الصحفيين (كذا)، وهي تحفة أصيلة سوف تعرض في المعرض – فإن صحيفتكم شهدت وسجلت، بما في ذلك من صور خاصة بها، يأس المتحفي الشهير لدى ملاحظته اختفاء القديسة.

ولولا تحقيق صحيفة دي نوتيسياس اليومية، فإن سكان باهيا ما كانوا ليعلموا شيئاً عن تمثال القديسة – كانت المسألة سرقة، وكيف يمكن أن تكون غير سرقة؟ إنها مواجهة شجاعة، يتم تنفيذها في وضح النهار، وحاولت إدارة المتحف أن

تروجها، مخفية الحقيقة، تاركة الصحافة واهمة تتراءى لأنظارها السفن، وبالمناسبة، المـــراكب الشراعية، لأن التعبير بهذه هو أكثر دقة. هل هي من عمل عصابة دولية، كمـــا كان يدافع عنه العقيد راوول أنطونيو، مدير الشرطة الفدرالية العام، أم تراها تكون عملاً تحويلياً لصور القديسين القديمة عن مذابح الكنائس والمعابد الفقيرة إلى بـــيوت الأثـــرياء أصحاب المجموعات الفنية الكبيرة، كما كان يؤكد سكرتير عام الأمـــن الداخلي؟ ولإزاحة الشكوك وتوضيح كل شيء، وبغية تقديم الخدمة الطبية إلى القـــراء، فإن تحقيق صحيفة دي نوتيسياس اليومية كان ملتزماً بالأمر دون أي حد لجهده. إن الصحيفة التي تخبر وتعمل بصدق، كانت تؤكد، مظفرة، المنشور.

بطـــل اليوم، الذي هنأه المدير شخصياً - كان الدكتور أودوريكو تافاريس الذي قد ضرب على كتفه: هَاني، يا سيد غيدو، لقد قمت بعمل دقيق وصعب - والمرشح لزيادة مرتبه الشهري، الصحفي غيدو غييرا لم يكن ينام فوق الأمواج. إنه نمـــوذج المحـــرر في الصحيفة التي تحمل تحت الإبط، إذ في الصباح الباكر انتقل إلى سانتو أمارو وفي نيته الحصول على مقابلة خاصة مع الكاهن. وقد وصل إلى هناك قـــبل أي صحفي آخر، يرافقه المصور جيرفازيو باتيستا فيلبو - ابن المجلة الشهير، مانشيت، قفا واحد، ووجه آخر - وكان يقود "عقرقة" التحرير: (الفوكسفاغن).

اســـتقبله الأب تـــيو وبيده أربع قطع من الحجارة، إذ إن هذا الصحفي التافه كـــان قـــد كـــتب قصة تسيء إليه من سطرها الأول إلى الأخير، في أكبر عملية انـــتقاص، إنه متهتك كامل، وفضائحي. وقد انتقده الصحفي لامتناعه عن إعارة التمـــثال للمعـــرض، وعرضه الرذيل للسخرية، وعامله كوضيع، ومتخلف، وذي عقلـــية محـــدودة: روح من القرون الوسطى، ونخبوي عاجز عن فهم الضروريات الثقافية للجماهير، وهو لم يكن يستحق أن يكون راعياً لأبرشية سانتو أمارو، أرض المـــنورين، ولا أن يكون قيماً على تمثال بهذه القيمة. وقد ألصق الصحفي به لقب غراب الرداء الأسود.

ولم يكـــن الأب تيو رجلاً يحمل غضبه معه إلى البيت. وهكذا، فعندما أعلن غيدو عن نفسه، وجهاً لوجه، فإن راعي الأبرشية، وقبل أن يرد عليه السلام، قال:

- غيدو غييرا؟ - قاس بعينيه الجسد النحيل للصحفي: - كنت أريد فعلاً أن أراك، حتى أقول لك إن غراب الرداء الأسود هو أمك السيدة صاحبة الفخامة.

- وسحب منه عنوة مقطوعات من القصة - المحرقة، المروية للإساءة، وقد آلمه منها اللفح الناتج عن الانتقاص من الثقافة: هو، الأب تيو، القَرَوَسْطي والنخبوي الجاهل! كان هذا ما ينقصه! ورفض التحقيق معه.

ولم يكن غيدو غييرا محققاً صحفياً يستسلم بسهولة لسلبية ما، وإن تكن ترافقها تعابير قاسية من الاحتقار والامتعاض: رجل عصا، وقح، وغير ملائم. لقد قضى غيدو العقوبة، واعترف بأنه خفيف: إنه في ممارسة كتابة القصة، لا التحقيق الصحفي، لا غبار على قدرته. وقد دعا إلى الجهل: إن وظيفته كانت مهددة، وهذه كذبة تقليدية، فإما الحصول على المقابلة الصحفية أو يخسر وظيفته؛ ومودّعاً، سأل راعي الأبرشية كيف له أن يؤمن الخبز اليومي للزوجة والطفلين البريئين؟ كان قد اخترع وجود العائلة هناك في اللحظة نفسها، كان مع بكاء الولدين الصغيرين قد انتهى بتهدئة الأب الغاضب تيو. وإذا بصحيفة دي نوتيسياس تجعل من التحقيق عنواناً رئيسياً من سطرين، وعلى الصفحة الأولى:

سكان سانتو أمارو جاؤوا ليستعيدوا التمثال - إن مكان القديسة هنا وليس في أكداس المتحف.

المنع المهني جعل غيدو يترك مكاناً لعدم موافقته على بعض التصريحات التي صرّح بها المحقق معه. لقد نظّف رداءه، ولم يوافق: وغداً لن يستطيعوا أن يتهموه بالكذاب والمزور والمفتري. إنه شاهد عيان على يأس دون ماكسيميليانو دون غرودن، في ميناء المرفأ، ولدى إثباته اختفاء التمثال، لم يكن قادراً على موافقة راعي أبرشية سانتو أمارو الذي كان يتهم بالسرقة، بصوت جلي عالٍ، ولأنه سلم كل ذلك الهرج لكي، وبحك الخصيتين، يحصل على أن يكون تمثال القدّيسة بربارة، أم الرعد، موضوعاً تحت إشرافه في أكداس المتحف. إن التأكيد الذي دمغته الصحيفة بدمغتها كان قد أخذ ينتشر على حساب ومسؤولية الأب تيوفيلو لوبيز دي سانتانا: اكتب أيها الشاب وانشر، وإني أتحمل المسؤولية.

في الخلاف الحاد والمثير الذي نشب بين القس والراهب - يفيد، لا يفيد - فإن دون ماكسيميليانو، وفقاً لقاعدة الطاعة، بدا ليِّناً، وفقد اتجاهه. تاه، وبصوت خالٍ من الاحترام، وبلهجة احتقار: إنه تمثال جدير بالعرض في متحف دي أشكولتورا دي فلددوليد، أو أي متحف في أوروبا أو الولايات المتحدة، وأن تبقى

لمـــتعة المواطـــنة المجهولة، الميتة، في روكا نكونكافو لأمر مخالف للمعنى. وإن زبائن سانتو أمارو لم يكونوا يمكنون المهتمين بدراستها من زيارتها و لم يكونوا يكفلون لها حـــتى الحمايـــة الأمنـــية اللازمة. في يوم، وعندما يكون القس بلا أدنى توقع، فإن اللصوص المتخصصين بالكنائس والأديرة، النشيطين سيلوحون له بالأصابع الخمسة وداعـــاً أيها العود، إن المكان الذي كان يمكن أن يجد فيه تمثال القديسة بربارة، أم الرعد، الأمان فهو متحف الفنون الدينية في جامعة باهيا حيث كان يمكن مشاهدتها والتمتع ببهائها من قبل الآلاف المؤلفة من الزوار.

أمـــا القـــس فلـــم يكن بحاجة إلى براهين أخرى لاتهام دون ماكسيميليانو، ومناداته باللص، علناً، واتهامه في الشرطة. إنه على صلة جماعية بوجهاء الإكليروس والـــصحفيين المنحرفين. و لم يسمح لغيدو بأن يستشهد به في كون الأخير نموذجاً للـــوجهاء المتورطين في العملية المعقدة: لا تسبب لي المتاعب، ولكن إذا رغبت، يا عزيـــزي، فـــبإمكانك الاستشهاد باسمك بصفتك أفضل نموذج للصحفي الجاهل المـــتورط في مؤامـــرة دون ميموزو – إن القس كان أيضاً جيداً في الهجاء وإضفاء الألقاب.

وعـــندما أوقـــف آلة التسجيل ومدّ يده إلى الكاهن، شاكراً ومودعاً، قال له غيدو، ممازحاً:

– دون مـــيموزو!! لقد أعجبني اللقب. كم كنت تعيساً عندما لقبتك بغراب الرداء الأسود، وإني قدمت الاعتذار. ولكن لكي أصلح خطأي نهائياً، فإنني سوف أعطيك في هذا التحقيق الصحفي لقب حمامة الرب.

– إن حمامـــة الرب، يا عزيزي الشاب، هي تلك التي خلفتك. هل تعلم؟ إذا كتـــبت في الصحيفة إنني حماية الرب، فسأذهب إلى هناك وأحطم خلقتك، وبعد ذلك أطلب المغفرة من الله. – وعاد يقيس صندوق العظام، الهذيل، الطويل الأنف، والـــوجه البشع الممض، الطير المعوق، الأب لولدين صغيرين: – سأفعل أسوأ من هذا، أذهب إلى هناك، وأمام كل زملائك، أشد أذنيك. وليس من الضروري معها أن أطلب المغفرة من الله.

وبينما هو يضحك – هذا القس نبأ بحد ذاته – دخل غيدو إلى أحد المحلات، وجلـــس مع جيرفازيو فيليو، وطلب القهوة: إبريق كامل مع فنجانين يا صغيرتي.

وراح يـــضع في جهاز التسجيل الشريط المليء بحديث القس الهجومي، وأخذ يحرر التحقـــيق.. أما الزبائن الذين كانوا، على الطاولات القريبة منه، يناقشون بحماس موضــــوع القديـــسة، فـــسكتوا في الحال لدى سماعهم صوت القس تيو، وأخذوا ينظــــرون الواحد إلى الآخر. وبسرعة كان الصحفي يملأ الصفحات، وبخط طالب. لم يكن يعيد قراءة الصفحات تاركاً التصليح لسكرتير التحرير، وإذ انتهت المهمة، ســـلم الكاســـيت والأوراق إلى المـــصور، الذي يقوم أيضاً بمهمة السائق وأرسله مستعجلاً إياه:

– أعـــطِ المادة إلى كليبر، وقل له أن يضع الألقاب في مكانها. وعندما تنهي تحمـــيض الفيلم وتختار الصور التي ستستعملها، ضع جانباً صورة واحدة لإعطائها إلى القـــس، ثم خذ "العقرقة" وارجع في الحال. إن هذا، هنا، المعلم جيرفازيو، يكاد يلتهب.

3 – مقالات خاصة، صفحة المجتمع، وقصيدة

افتتاحـــية صـــحيفة "أتاردي"، العمل الرائد للمعلم كروز ريوس، كانت قد طرحت عدة أسئلة تركتها بلا أجوبة، وتأكيداً واحداً: إن تمثال القديسة بربارة، أم الرعد، وصل إلى العاصمة، أمس، عند انتهاء النهار، وفقاً لما أصبح القراء على علم بـــه من خلال عدد البارحة الذي نشر فيه مادة إعلامية وافية عن موضوع الساعة. وتحقيق "أتاردي" كان قد تضمن التالي: وكما حدث سابقاً في مناسبات كهذه فإن صـــحيفتنا لا توفـــر جهـــداً لتقدم لجمهور قرائها العريض، الذي يشرفنا بتفضيله لصحيفتنا، النبأ الدقيق والحقيقي. إن "أتاردي" لم تتعود اللجوء، في حمأة التطورات وتعقيداتها، إلى الإثارة الرخيصة، ولا تعيش من خلال تخلفها. وقد ذهب الناشر في قـــوله مستخدماً التصريح المباشر للمحقق الصحفي: أطلقت بربرت شاهد العيان علـــى فـــرح مديـــر المتحف المتقد لدى وقوع نظره على التمثال وملامسته لدى استلامه. إنه تفصيل ثانوي لم يستحق التفسير أو الإشارة إليه. إن التفسير يستطيع المحقـــق وحده أن يقوم به، ولكن زي بربرت طيلة يوم الخميس لم يضع قدميه في قـــسم !! حرير. هل كان ذلك ليتجنب اللقاء بالأستاذ جورج قلمون، رئيس تحرير الـــصحيفة، أو للبقاء متأهباً، وبانتظار مدير المتحف لانتزاع المقابلة الكبرى التي لم

يستطيع الصديق دون ماكسيميليانو أن ينكرها عليه؟ إن يداً واحدة تغسل اليد الأخرى، واليدان الاثنتان معاً تغسلان سرة العالم.

وفي صفحة النبالة، صفحة الرأي، تمّ نشر مقالين أساسيين عن موضوع التمثال، من زاويتين مختلفتين. سطوة لا يقبل نفوذها النقاش هي سطوة محرر إحدى الزوايا الصغيرة المروءة منذ أكثر من خمس سنوات، وصاحب أول دراسة جدية فيما هو متعلق بتمثال القديسة بربارة، أم الرعد، فإن آري غيمارايس كان قد استخلص من خلالها، متطرقاً إلى ما كتبه مؤخراً دون ماكسيميليانو الذي أكد أن التحفة هي من عمل الفنان إليجادينيو، ما مفاده أن التمثال يحتمل أن يكون من عمل التلميذ الباهياني لمعلم ميناس جيرايس.

المقال الآخر كان موقعاً من باولو تافارس، وهو أحد الباحثين في الأدب والفن، وصاحب قاموس أعلام الخيال العلمي الباهياني، والحاصل على جائزة الأكاديمية البرازيلية للآداب: وفي المقال استخلص من خلال وثائقه الشخصية اللائحة الكاملة لما تمّت كتابته عن التحفة الشهيرة. مقالات، قصص، توضيحات، زوايا صحفية، مجموعات مطبوعة، أسماء الكتاب، تواريخ الصحف والمجلات، ودون إغفال كتاب دون ماكسيميليانو فون غرودن، والذي لم يوزع بعد، وتحقيق غيدو غيبرا الذي نشر أمس في صحيفة دي نوتيسياس اليومية. إن المقالين يكملان واحدهما الآخر تاركين القراء على علم أكيد، ونور مبين.

وفيما هو متعلق بتطورات التحقيق، فإن "أتاردي" استحدثت مساحات جديدة خصصتها للتصريحات المقتضبة للعقيد المفوض من قبل الشرطة الفدرالية: إننا نقتفي آثار المجرمين، وأن أمر توقيف يمكن أن يصدر اليوم، ربما، ولكن الموضوع معقّد لأنه يمس رجلاً بسيطاً من الكنيسة، ولعرض ثرثرة الأستاذ كاليشتو باسوس، مدير شرطة الولاية: إنه موضوع بسيط، فبالرغم من كونه واحداً من سرقات الصور المتعددة، فإن كل شيء يتم ضمن العائلة الواحدة، وللقول هذا، فإن رجالنا يجمعون البراهين الأخيرة ولكننا حددنا المتهمين. واستكمالاً للنبأ، فإن الصحيفة كانت تنشر المكالمات الهاتفية التي تلقتها هيئة التحرير: كانوا يسعون إلى نسبة اختفاء القديسة إلى كاهن معيّن. وكانت "أتاردي" قد خصصت سطرين لكل إخبارية، دون أن تثبت مع ذلك، اسم المشار إليه، منقذة نفسها بذلك من أي عمل طائش.

أمـــا في صـــفحة المجتمع، وهو الغذاء الدسم للإنتلجنسيا والطبقة الراقية، فإن جـــولي كانـــت تكشف، قبل أي شيء، عن أسماء الشخصيات المنتظر وصولها في طائرات الصباح، آتية من الشمال والجنوب لتدشين معرض الفنون الدينية، الحدث الـــثقافي والاجتماعـــي الـــذي سيستمر أسبوعاً كاملاً من ولائم الغداء والعشاء، والكوكتـــيلات، والسهرات، والسفرات البحرية في باهيا جميع القديسين. المنتظر وصـــولهم مـــن الريو: طبيب نجوم هوليوود والأميرات العربيات، إيفو بيتانغوي، ومديرة متحف الفن الحديث، نيومار مونيز سودري، والأكاديمي إدواردو بورتيلا وزوجـــته سيليا، وصاحبتا قاعات عروض فنية هما جيوفانا بونينو وآنا ماريا نمير، وصـــاحب مجمـــوعة فنـــية هو كرافاتا كالفاو، والسادة كارلوس ليونام وجوان كـــوندي، وحضور الأخيرين قدري وسط الذوات. ومن ولاية فورتاليزا، الزوجان باولو البيديو مينيزيس، هو عميد، وهي، زيلدا، مديرة متحف الجامعة الفدرالية في ولايـــة سيارا. ومن بيلين في بارا، روس ورودولفو ستيز، أصحاب جزيرة ماراجو. ومـــن ســـاوباولو، قافلـــة عديدة ومتنوعة مدير متحف الفن، بيترو بردي، ولينا بوبـــردي، المهندســـة المعماريـــة ومؤســـسة متحف فن باهيا الحديث، والإخوة سيـــسيليانو، وهـــم موزعـــو كتب مهتمون بالتعاقد على التوزيع الداخلي للنشرة الـــبرازيلية للكتاب دون ماكسيميليانو، والدكتورة فاني، والدكتور جويلسن أمادو يـــرافقهما تاجر اللوحات الثري فالديمير تزانييكي. وكان المتمول قد جاء مع بيلينيا وســـينتهز الفرصـــة لينهب لوحات زيتية، ومائية، وتخطيطات من الفنان كريبيه، ولكي ينقب في المدينة تفتيشاً عن لوحات للفنانين دي كالفالكانتي، ودي بانشيتي، وبينما الآخرون يتمخترون بين المآكل والمشارب، فهو، ليندينيو، سيكون في وسط النضال.

على رأس المفكرة الثانية، تخطيط لفلوريانو تيشيرا، دقيق التفاصيل، قوي، جميل، يبيّن وجه القديسة، وجانبيتها، وعليه، عند الأعلى، قصيدة لغودوفريدو فيلـــيو. وكانت القصيدة قد نظمت في 1958، بمناسبة الزيارة المكرسة لسيادة كـــاهن ســـانتو أمارو، وقد نسيت في أحد المجرات من حيث تمّ سحبها لدى الضجة المثارة حول التمثال.. وشاعر شهير آخر، كارفاليو فيليو – زائداً واحد، وهـــذا مـــن أفـــضل الشعراء، جاء من أركو وفليشا، ومن لم يقرأ له "الوجه

الخفـــي"؟ - اعتبر القصيدة رزمة لدى التسجيل بصوته في أكاديمية الآداب في باهيا ما نشرته جريدة "أتاردي" عن استعراض الخلاسيات والزنجيات للقديسة بـــربارة، أم الرعد، القديسة الثنائية والبرازيلية. إنها غرزمة، كشف بنقد ثاقب. عمـــل شـــاعر غنائـــي في ليلة احتفال عادي، كعيد قديس أو تجلٍّ، وفي لحظة انخطاف بسحر القديسة أو الإبحار في عالم الزنجية، ولدت القصيدة عند انبلاج الفجر، غامضة متسامية، خالدة.

الوفاق

بـــضمير مرتاح، نامت أداجيزا من شدة النعاس، ليس إلا. كان اليوم ضاغطاً ومتعـــباً، لكثرة المشاغل المتلاحقة والتوقد الذهني، إذ ما إن خرج دانيلو من البيت، متوتراً، حتى قررت هي أن تغسل الملابس، ثم دلفت إلى الغرفة. لم يغرها التلفزيون، ولم يؤثر فيها انفصال الزوج إلى درجة تمنعها عن النوم.

خلال هذه السنوات العشرين من الزواج، كم من المرات، وهي ليست كثيرة على كل حال، خرج الزوج ضارباً خلفه الأبواب، فائراً، مهدداً بالزعاق، متوعداً بأنـــه ســـوف يفعـــل كذا أو يُحدث كذا.. لم يفعل ولم يحدث: كان يعود، بعد ساعات، حملاً وديعاً وقد انتهت سورة غضبه، ومعها انتهى الخلاف. ولكي يمسح بالإســـفنج بقايـــا العراك فإنه كان يأتي لها بشيء يعجبها: ثمرة أوروبية، دراقة أو تفاحة، أو لوح شوكولاتا بالحليب، أو زهرة حمراء.

راكعـــة قـــرب الفراش أدت الصلاة، وأطالتها في تلك الليلة. عدة مرات "أبانـــا الـــذي في الـــسماوات"، وأخرى "الخلاص"، لتشكر الله الذي ساندها ونـــصرها في المعـــركة، ليقودها إلى النصر. ثم تمددت غير مبالية، وغير مكترثة بالهـــيجان الـــذي حرّك جادة "السلام عليك يا مريم"، منذ ما يقارب الساعة. كانت تعلم أنها، لدى استيقاظها، ستجد دانيلو في الفراش، قربها، لطيفاً وديعاً كـــأن شـــيئاً لم يكن: لن يعود إلى مفاتحتها بسبب العراك، وإلى المطالبة بوضع مانيلا في الدير. متحررة من الكوابيس فإن أداجيزا غنّت وتابعت مشاهدة حلم لذيذ طيلة الليل رأت فيه ميرو يلقى في السجن: إن القرد كان قد اقتيد بواسطة رجلي شرطة للحضور أمام قاضي الأحداث.

وتكـــرر ما كان دائماً يتكرر: إن أول شيء رأته أداجيزا لدى استيقاظها كان دانيلو. لم يكن آنذاك في الفراش إذ كان قد اتجه إلى الحمام، وأنهى اغتساله وارتـــدى قميصه وبنطاله مستعداً لقضاء اليوم في المكتب. وألقى تحية الصباح دون إظهـــار أي زعـــل، وأجابـــته مبتسمة ثم أقفلت عليها الحمام آخذة معها المـــذياع. وإذ انتهى دانيلو من ارتداء ملابسه اتجه نحو أسفل باب المدخل ليأتي بعدد الاشتراك في جريدة "أتاردي"، وجلس متكاسلاً ليطلع على الأخبار بينما ينتظر تقديم القهوة له. وكان يقرأ الأخبار عن سرقة التمثال عندما وصلت دادا من المطبخ آتية بالصينية وعليها قطع خبز الفاكهة، وأجبان ميناس، والبسكوت الممزوج بالقرفة. وعلّق دانيلو:

– إن قصة القديسة هذه منتشرة على كل الألسنة.

– أيـــة قصة؟ – كانت أداجيزا قد قلّصت قراءة الصحف وجعلتها مقتصرة على الجرائم والأخبار الاجتماعية.

وانتظر دانيلو ريثما تعود أداجيزا مع إبريقي الحليب والقهوة حتى يتحدث في الموضـــوع الذي كان قد أهاج المدينة: إن تمثال القديسة بربارة، أم الرعد، جاء من سانتو أمارو ليتمّ عرضه، وحين وصل إلى الميناء تبخر. ولم تكن الصحيفة تحمل غير هذا من الأخبار:

– إن قيمـــتها المالية باهظة. يبدو أن قس سانتو أمارو هو من باعها، وهناك كـــاهن آخـــر متورط، فيا لها من زمرة. سوف ينتهي التمثال إلى منـــزل الأستاذ كليميـــنتي مارياني أو منـــزل ثري آخر، ممن يعيشون وهم يشترون الأشياء القديمة ويعـــيلون مـــنها زمـــرة من المحتالين – وكان يضحك، مستأنساً، وبوجه بشوش، منطلقاً: – إن هؤلاء الكهنة هم عصبة محتالين، حقاً.

حدّقت أداجيزا في وجه دانيلو. ضاحكاً، بدا الوجه منوراً، مسروراً بالجناس، الدلـــيل علـــى موهـــبة لا شك فيها، وسوف يكرره لزملائه في المكتب. وكانت أداجيزا تسأل نفسها عما كان في أساليب زوجها من غرابة.

– إن ســـرقة قديس ليست سبباً للمزاح. إنها خطيئة ومن أفحش الخطايا. لا أعرف كيف يستطيع كاهن أن يتاجر بالقديسين، وكيف تستطيع أنت أن تضحك بهذه الطريقة.

– مكائـــد كهـــنة المعابد.. – كان دانيلو يفخم قراءة العنوان الصحفي، سعيداً بتلاعب الألفاظ. الجناس "كاليمبورغو" أية لفظة هي هذه! تقال في اللغة الفرنسية كما يقولها الأستاذ جوان باتيستا فتصبح ذوباناً في الفم كما لا يذوب المصقول "كالامبوغ".

وقـــف قـــرب الطاولة متكاسلاً، ارتدى السترة، واعتمر القبعة، ثم اتجه إلى الـــباب، بيـــنما كان يصفّر مرحاً. كانت أداجيزا تجده كل مرة أكثر غرابة. لقد نـــسي، في مـــا نـــسي، أن يطرح سؤاله كما كان يفعل عادةً عندما يودعها: هل تـــريدين شيئاً من السوق، دادا؟ سؤال شكلي ولكنه مع ذلك دليل على الانتباه. وكانت دادا معتادة على سماع السؤال وعلى الإجابة عنه: شكراً.. لا شيء.. وها هي تحس بالاشتياق إلى السؤال. نعم، كان هناك ما يثير الدهشة في تصرف دانيلو. في مناســبات سابقة عندما كانوا يحتفلون بالوفاق إثر الشتائم المتبادلة والعراكات، فإنـــه كـــان يحيطها بأنواع الاهتمام، ولكنه في هذه المرة لم يأتِ لها وإن بالتفاهة المعـــتادة، زهرة أو فاكهة، شوكولاتة أو غصن زيتون. بقدر ما يكون العراك كبيراً تكـــون اللطافـــة والملاطفة في التصالح. لقد كان عراك أمس واحداً من العراكات العنـــيفة، ويمكـــن تشبيهه بعراكات الأزمنة الأولى: كان هو مستعداً لأن يعضها، وكانت هي ثابتة في الرفض، وأبداً في الحياة!

متعجـــبة، عصبية، مطعونة في ذاتها، عندما رأته يفتح الباب واثقاً من نفسه، مطمئـــناً، بالإضافة إلى لحمه الجاف، ولم يقل لها وإن "إلى اللقاء"، فإن أداجيزا لم تستطع أن تقاوم، وأثارته:

– ألم تقل أمس إنك لن تعود إلى البيت إلا ومعك مانيلا؟

وبيـــنما الـــباب نصف مفتوح، ويده على المزلاج، استدار دانيلو نحو دادا، والـــوجه ثابت، والصوت حيادي. كما لو أنه كان يعطيها أتفه نبأ، وكما لو أن الأمر لم يكن شيئاً، وقال:

– لم تـــرد مانيلا أن تعود إلى البيت. لقد ذهبت تحتفل بالعيد في كوندومبليه دو غانتويس.

عـــندما اســـتعادت أداجيزا الكلام، كان الزوج قد ذهب بعيداً، ولم يفدها بـــشيء خروجها راكضة، وهي ترتدي ما ترتدي وفي قدميها تنتعل مَشّاية موشاة. عند مدخل الفيلا تمكنت من أن تراه يصعد الحافلة في طريقه إلى العمل.

إذلال

إذلال تفصيلي، وحشي، وكريه، جاء الإذلال الذي خرج على لسان داميانا، أم "الرز المحلى"، المرأة العادية كما عرفتها أداجيزا. كانت الجارة داميانا قد رأتها تمر راكضة، ثم واقفة مشرئبة على عتبة الباب، عندما طلعت لها وقد أطرقت هي، أداجيزا، برأسها همّ بالدخول.. حتى إنها لم تلقِ التحية مستعجلة تفريغ جعبتها وسحب النبأ منها على مرأى من الممتحنة أمامها وذوات العرف دائم الاشرئباب. إلى جانب الارتعاب الذي بلغ ذروته لدى أداجيزا عندما تمّت الإشارة إلى الكوندومبليه فإن صانعة الحلويات لم تتمكن من إخفاء الرضى الذي شعرت به إزاء تطلعها إلى إلحاق الأذى بالأم بالوصاية، السيئة، المغرورة، والنموذج الكريه. ولكي تتمتع بتحويل رأس أداجيزا إلى رأس ميت:

- أنت على علم الآن، أليس كذلك، يا سيدة أداجيزا؟ خبر مانيلا.

كانت الحركة الأولى التي قامت بها أداجيزا هي إدارة ظهرها للدخول إلى البيت متظاهرة بأنها لم تسمعها. ولكن الرغبة في المعرفة فرضت نفسها على التأكد من نوع الامتحان الذي أرادت الجارة أن تخضعها له:

- إذا كنت أعلم بأي شيء؟

- لقد كانت مانيلا جميلة جداً، ليلة أمس، عندما أخذها القديس أمام الدير. لقد رأيت كل شيء.

لم تقل داميانا لأي سبب غامض كانت موجودة عند منتصف الليل أمام مدخل دير دالابا، كما أنها لم تشر إلى الطريقة التي غادرت مانيلا المنسكة، ولكنها وصفت بإسهاب ودقة في التفاصيل الحماس الظاهر في العيد، في لارغو، ورقصة يانسان يرافقها أوشالا جيلديي، إنها الجمال بعينه يا سيدة دادا. إن يانسان مانيلا لم يكن ينقصها شيء بالنسبة إلى الأكثر شهرة في المدينة، وقد وضعت في مصاف أويا أوياتشي، ويانسان دي مارغاريدا دو بوغون الرفيعة التقدير عند اليونان والطراودة.

كما أنها استشهدت بالأشخاص الذين كانوا موجودين هناك وهم شهود على صحة ما تقول: بالإضافة إلى جيلديي، كان هناك السيد جوان باتيستا، ألينا، الرقيب ديوليندو والمعلم باستينيا، المعلم باستينيا بشخصه، نعم يا سيدة. وبالتأكيد فإن السيد دانيلو قد أخبرك بالشيء الرئيسي، إذا لم يكن قد أخبرك بكل شيء،

لأنه كان حيوياً وقد شرفته يانسان وسلمته ذيل الثور، الرمز.. وكذلك فإن يانسان قـد ضـمتها إلى صدرها، هي داميانا، دليلاً على الصداقة وكانت اللحظة الأكثر تـأثيراً – ألم يخبرك السيد دانيلو؟ – عندما رفع ميرو إلى درجة أوغان. أين عثرت مانـيلا علـى القوة الضرورية لترفع الحبيب على فخذيها ومعه، معلقاً في الهواء، رقـصت رقصة الافتتاح؟ هل هي قوة خارقة لأحد الأوريشات أو هي قوة الحب، ومـن يـدري، أهـذه أو تلـك، يا رفيقتي، أو الاثنتين مجتمعتين بين ذراعي أياو الواهيتين. أشعر بأنك لم تحضري الحفلة، وكان يمكن أن تتذوقيها يا سيدة دادا. يا حبيبتي.

عقـدة في البـلعوم كانت تخنقها، ووجع الرأس كان يأكل عينيها، ويطحن صدغيها، ومع كل ذلك تمكنت أداجيزا من أن تخرج وتراً رفيعاً من صوتها لتسأل:

– وكيف خرجت من الدير؟

وبيـنما كانت تعرض أسنانها البيضاء عبر الشفتين المعججتين لخلاسية سمينة، والضحكة مقهقهة، غير محتوية نفسها، اعتذرت داميانا:

– آه. اعـذريني لأنـني لست على علم بذلك، سيدة دادا. حبيبتي. – وإذ أهملـت الـرهافة والخـبث، فـإن داميانا، أم "الرز المحلى"، غسلت صدرها من التصرفات الصفيقة، والغلاظة، والسوء لدى جارتها، وبصقت على جثة أداجيزا.

– فقـط أعرف أنها خرجت. لقد أعان الله، وأعرف شيئاً آخر أيضاً، وهذا أستطيع أن أقوله لك: إن من وضع الفقيرة المسكينة في منسكة التائبات لا روح له ولا قلب، وهو إنسان ملعون وتعيس. وهذه هي الحقيقة يا سيدة دادا، يا حبيبتي.

حيث الأخبار، وإن غامضة، عن سيلفيا إزميرالدا

منتفـضة، أدارت أداجيـزا ظهرها لداميانا، وأطبقت الباب في وجه المقرفة. توقفت في الصالة لتتنفس، خائفة من أن يصيبها بالتالي شيء غير مستحب. دخلت إلى الحمـام، ورطبت وجهها بماء الحنفية الباردة. كان بإمكانها أن تسمع نبضات قلبها المضطربة.

ارتـدت فستاناً للخروج، وانتعلت حذاءً، وحملت حقيبتها، ثم اتخذت السكة إلى كنيسة القديسة حنّة في ريو فيرميليو. كانت في الحافلة تستعيد إجراء الحسابات

مـــع التافه، ويخنقها، قربها، شخص كان يمجّ ملتذاً دخان سيجار رخيص. كانت تحـــرك شفتيها في الصلاة، بينما رجل السيجار، وهو صلف التصرف، ينظر إليها شزراً. الحافلة تقف عند كل ركن، ولكنها لا تصل أبداً.

كـــان الكاهن جوزي أنطونيو يقوم بمراسم المعمودية وقد تجمع حول الطفل المعمد جماعة من الإسبان. ومرّت أداجيزا مباشرة لتتجنب معارفها، وجلست تنتظر في الممر. تأخر الكاهن في الظهور إذ كان يعمد برعماً من براعم عائلة غنية له الحق بمـــوعظة طويلة. وأخيراً وصل يرافقه الأبوان والجدان والعرابان فلم تستطع أداجيزا أن تتهـــرب من إلقاء التحيات. وقّع الأب جوزي أنطونيو على شهادة المعمودية، وتلقـــى المبلغ المقدر، ونزع جبته و"بطرشيله".. وفي الموهف الذي فرغ من الناس، ولدى توجهه إلى مواطنته المفضلة، أحس بعصبيتها:

– هـــل أنـــت هـــنا منذ وقت طويل يا عزيزتي؟ – عندما يكون وحيداً مع أداجيـــزا فإنه يحدثها باللغة الإسبانية، متجاهلاً جنسيتها البرازيلية، مقرباً إياها منه أكثـــر وجـــاعلاً من نفسه أكثر عطفاً. – لماذا أنت واقفة؟ ما الذي يجري فأراك ترتجفين؟

– لقد هربت مانيلا من الدير.

– "ســـي فوغو؟ ديل كونفينتي دي لابا؟ أمبوسيبلي، هيجا؟ أمبوسيبلي هيجا. نو تي كريبو؟" – هربت؟ من دير دي لابا؟ مستحيل يا حبيبتي. مستحيل. لا أصدقك.

حكـــت لـــه أداجيـــزا ما كانت تعرفه، وبسردية متعثرة ترددت معها أسماء المشاركين في الجريمة، كالزوج دانيلو، والجارة، والمعلم باستينيا، وأوريتاس. ولكن ذلك كلّه لم يكن يعني شيئاً، وقد بلغ الأمر بالقس حدّ التفكير بأن النعجة الصالحة في قطـــيع الـــرب لم تكـــن متأكدة مما في دماغها. كان يحدث بسهولة أن إحدى العجائـــز الخرفات تصاب بالهوس فتخرج على النساء لتروي أشياء متخيلة: وعامة هي من العجائز، ولكن الأمر هنا مختلف.

– لا أســـتطيع أن أفهم. الأفضل أن نذهب ونتكلم مع الأم الرئيسة لمعرفة ما حدث. هيا بنا يا حبيبتي.

في حافلة الركاب، كشف الكاهن لأداجيزا عن عدم رضاه عن ردة فعل الأم الرئيـــسة لدى تسلمها أمر إدخال مانيلا إلى الدير. إن الراهبة لم تترهب لتعلن عن

عدم رضاها. إنها وقحة ليبرالية، فيا للفظاعة! سيئة التربية، يا للوقاحة! لقد قللت من الاحترام له، ولم تأخذ بعين الاعتبار وجهة النظر التي عبَّر عنها، هو، القس جوزي أنطونيو؛ لقد كانت الأم الرئيسة واحدة من تلك الراهبات الحديثات اللواتي يظهرن أكثر.. أقفل فمك! لم يكن يصدق أن ذلك ممكن، ولكن الأمر لم يكن يبدو مستحيلاً، وهو أن الأم ليونور نفسها قد سهّلت هرب القاصرة، ولم يكن يجد تفسيراً آخر. إذا تمّ إثبات أمر عبثي كهذا فإن الأم ستدفع الثمن غالياً، وهو، الأب جوزي أنطونيو نفسه، سوف يذهب لمقابلة مساعد المطران.

الأم الرئيسة ليونور ليما اكتفت بالتمني للأب بيوم سعيد ولكنها سلمت بحرارة مرحبة بوصول أداجيزا:

- لا أستطيع إلا أن أعلّي من شأن قرارك. إن الخاطئ الذي يتوب تلقائياً يستحق رحمة الله مضاعفة. إني أشاركك الغبطة الغامرة.

كان عدم الاعتبار وانحراف الراهبة سببين تركا الأب جوزي أنطونيو عرضة للسكتة القلبية. فقطع على الراهبة مرحها وفرض عليها إعطاء التفسيرات عن هرب مانيلا، وإخباره بكل شيء، حرفاً حرفاً، مهدداً بتقديم شكوى ضدها إلى دون رودولف. ولم تكلف الأم الرئيسة نفسها عناء الإجابة، وسحبت من الدُّرج أمر قاضي الأحداث وعرضته. قرأه الكاهن وأعاد قراءته، وتفحص الورقة، والأختام، والتوقيع: لم يكن ممكناً الشك، إنه أمر القاضي كاملاً غير منقوص، وكذلك أداجيزا، فإنها تأخرت في قراءة أمر إطلاق السراح:

- لقد تمكّن دانيلو من ذلك.. وكما قال..

- زوجك؟ - كان الأب جوزي أنطونيو راغباً في التأكيد.

- قال إنه سيتكلم مع القاضي.. إنه أيضاً أب بالوصاية لمانيلا.

- "بيرو أو جويز افيرمو نامينيا كارا كييه سولامنتي أتو بيديدو أي دي ناديه ماس كمبياريا لا أوردن.. تي أكويرداس؟"

"لقد أكد القاضي أمامي أنك أنت، وبطلب منك، وحدك، ولا أي أحد آخر سواكِ يستطيع أن يتصرف بالأمر.. هل تتذكرين".

كان الأب جوزي أنطونيو معتزاً بنفسه لأنه يتكلم البرتغالية جيداً كما الإسبانية، وبمعرفة لغوية مطلقة، ولم يكن يكشف عن هوية المهاجر إلا تلك اللهجة

البرتغالية الممصوصة على شفتيه. ولكنه حين كان يضيع هدوءه، ويثور، فإنه كان يمزج بين اللغتين، ويخلط الأسماء، ومع ميل لجعل لغته الأم هي المسيطرة. أراد أن يأخذ معه الأمر، أما الأم الرئيسة فقد اعترضت بصراحة، ولكنها وافقت، مع ذلك، على إرسال الأمر للاستنساخ على جهاز مدرسة باهيا المجاورة. وبينما هو يخرج، والنسخة في جبته، فإن الأب جوزي أنطونيو تجشأ رجولة:

– لا تشغلي الغرفة يا حضرة الأم الرئيسة – حرَّك إصبعه مؤكداً: – الخاطئة سوف تعود؛ مع إيمان بالله. – رسمت أداجيزا إشارة الصليب.

ليس قريباً، بل بقدر ما يعجل الكتائبي في الذهاب إلى الحرب، ولكن قاضي الأحداث لم يأتِ في ذلك اليوم إلى المحكمة. أما الكاتب المساعد للقاضي الذي استقبلهما فإنه نصحهما بعدم الذهاب إلى مقر إقامة القاضي:

– الأستاذ ليس في البيت: إن زوجته السيدة ديانا أصيبت بوعكة صحية جدية ويجب نقلها إلى المستشفى. الدكتور ليبيراتو معها، وفقط، مساءً العثور عليه هنا إذا تحسنت السيدة ديانا.. ارجعا بعد الثالثة ظهراً، وقبل ذلك لن يفيدكما المجيء بشيء.

السيدة ديانا، زوجة قاضي الأحداث.. صاحبة السيادة، السيدة ديانا تيليس مندس برادو دافيلا، زهرة الأرستقراطية السلفادورية. في أوساط المسرح، وفي عمليات تركيب القرون، تدعى سيلفيا إزميرالدا، تلك التي هي من هي لمن يعرفها.

المنفى

أسداً جريحاً، تائهاً، كان دون ماكسيميليانو فون غرودن في ذهاب وإياب في زنزانته المتواضعة كالقفص الضيق، والزئير يتردد في ممرات الدير المظلمة.

إنها لمجازفة قول العبارة كاملة: التمثال مزور، بالإضافة إلى كونه مكرراً: مرتّب وأنيق، وبقرعة بدأت تتسع، لم يكن دون ماكسيميليانو يشبه بشيء أسداً ذا أظافر مشحوذة وعرين جليل. لقد كانت مزورة بداية المشهد، بالإضافة إلى كونها صارخة وعديمة الذوق. في الممرات العريضة من دير ساو بنتو، الممرات المضاءة لا المظلمة، لم يكن هنالك زئير، وصراخ، وجلبة، بل تنهدات. إنه الأسف على موت القس هنريكي بيريرا الذي قتل في برنامبوكو على أيدي عملاء الحكومة العسكرية،

وقـد كـان لـه المقام بين الكهنة والعلمانيين، فإن الاحتجاج لم يعبّر عن نفسه بالخطب الديماغوجية والهستيرية الجماعية.. لقد تمّ، في يقظة الضمير وتحديد الهدف، رسـم شـكل متابعة وتوسيع المعارضة، وإن كلف النضال من أجل إقامة العدالة والحـرية أيـدي مقطـوعة، وأجـساداً مـشوهة، وجثثاً مسحولة. ولكن دون ماكـسيميليانو الموضوع في زنزانة التأمل لم يشارك في المحادثات المدنية والمهمات الدينية.

دامت السهرة دهراً من الإذلال والشعور بالعار، قبل أن ينتهي به الإرهاق إلى إغـلاق عينـيه دون أن يحرّر قلبه من الخنجر المغروس فيه. ودون أن يجعله الحـزن يخلـد إلى الـنوم، ودون أن يجمـد قلقـه، ويلطف شعوره بالهزيمة والاستنـزاف.. كان دون ماكسيميليانو، وهو شارد في فراغ العالم، قد حرّر وثيقة تخلٍّ عن وظيفته. والوثيقة موجهة إلى عميد جامعة باهيا الساحر تضع بين يديـه مهمـة إدارة مـتحف الفنون الدينية التي مارسها خلال أكثر من عشر سـنوات بفعالـية وزهـو. كان يقال، ويكتب، بحثاً، إن المتحف مدين لدون ماكـسيميليانو بتنظـيمه الكامل، وبقيمة ونوعية المحتويات، وبالشهرة الوطنية والدولية، حقيقة مشهودة، وتخلٍّ لا عودة عنه.

قـرار مؤكد، في صمت الزنزانة، وحيداً مع نفسه، مرهقاً. وهناك في الخارج كانوا ينتظرونه ليذبحوه، ويمزقوه بالسكين، ويحملوه المسؤولية، ويصلبوه. في المحادثة التلفونية مع العميد، صباح يوم الخميس، فكّر في الإعلان عن الاستقالة في حال لم يتم العثور على تمثال القديسة، ولكنه أطبق فمه، إذ كان لا يزال هناك وقت وأمل: وفي محادثـته مـع الأسـقف المساعد قال إنه مستعد للاستقالة والمنفى. وصاحب الـسيادة وافق: في الحقيقة، دون ماكسيميليانو لا يستطيع البقاء في مسؤوليته، وفي المدينة، بعد حدث فظيع وخبيث إلى هذا الحد. الاستقالة والمنفى، فأي فرق بينهما، للموت؟

المنفـى؟ أجـل، كلمة منفى هي الصائبة. إذ كان قد ولد في ضباب ألمانيا، وبعـدما طاف طرقات العالم، أوروبا وآسيا، أميركا الشمالية، وكاد يغرق في عدة مـرافق، مستنـزفاً نفسه في العمل، والدرس، ساعياً إلى تنازع البقاء، فقد توصل إلى اكتـشاف باهـيا وطـناً يتبناه، باهيا التي احتوته ورعته: أرض الميعاد.. عند

منعطف بحر باهيا، في التوقد، والإبداع، والمودة، وفن الملاطفة، وطقوس الصداقة، والـــتمازج كـــشرط حياة، ومنبع الإنسانية، وجد نفسه ومكث: كان قد اجتاز الصحراء والعاصفة ليعترف بنفسه.

في لـــيلة الكلب، وفي الميناء المتصحر لاختفاء القديسة، فإن إديميلسون في عـــته الرؤى، ودون ماكسيميليانو، المذهول، الضائع، اشتكى إلى السماوات، لاعـــناً الساعة التي جلبه الله فيها إلى أرض باهيا ليعيش ويعمل. وقام بالتوبيخ للأمة التي يمتزج فيها كل شيء ويذوب، وحيث لا يميز أحد بين حدود الواقع والحلـــم، وحيث يستغل الشعب العجائب والسحر.. فم لعنة، وعقوق ونكران جميل ولسان كالممسحة، لأن الهذيل لم يكن يعلم ما يقول، ولم يتأخر في إعلان الـــندم. ولـــدى ملاحظته أنه يمكن أن يجبر على الخروج، وترك المدينة وأناسها الـــسمر الطيبين الذين أووه، ذلك الشعب الطيب، فقد علم أن أي ميدان آخر سيكون المنفى.

من يدري، فالباحث النبيه والشجاع، والمثقف اللامع، والمتحفي الحاذق، العـــالم، ربما يستطيع أن يبقى حياً ويعمل في دير آخر، أو متحف آخر، أو في مركـــز بحوث للفنون الدينية. ولكن ليعيش الحياة كما كان يفهمها ويستثمرها دون ماكـــسيميليانو، فلـــم يكن هناك أرض غير باهيا! أجل لم يكن هناك غير باهيا.

مـــزّق الكثير من الورق وهو يفتش عن قول ما جعله يذهب. حرّر صفحات وصـــفحات، ودبج مقالة، وذكريات حية، وتفسيراً وطلباً للمعذرة. ولم يصل إلى الـــنهاية في أيـــة واحدة من المحاولات الثلاث ليحسم أمره ويقول وداعاً.. وانتهى اختـــصار النص إلى ما دون نصف الصفحة هو كل ما بقي. وفي هذه الخلاصة قال فقـــط إنه سيتخلى عن المسؤولية وينسحب كيلا يعود أبداً: لو كان عليه أن يعود، لكان طلب أن يبقى.

عـــندما انـــبلج الفجر ذهب دون ماكسيميليانو إلى الكنيسة وركع، ورسم إشـــارة الصليب. في المطبخ قدموا له القهوة، وقطعة خبز، ثم أمر بشراء الصحف. كمـــا طلـــب أن يتصلوا بدون عبادي ويقولوا له إنه كان موجوداً هنا ويرغب في رؤيته، وفي أسرع وقت.

دون عبادي

بيـــنما دون ماكـــسيميليانو يجـــبر نفسه على التجلد والصبر، وينتظر أن يتم استقباله من قبل دون عبادي الذي، في تلك الساعة، كان مشغولاً بمراجعة الخطبة الـــشعبية – المكـــتوبة عـــن جريمة قتل كاهن برنامبوكو، والتي سيقرأها عن منبر الكنيسة، خلال القداس، يمكن انتهاز فسحة الوقت هذه للحديث عن منعطف آخر من مسار هذه الرواية المتعرج.

– إن نـــوعاً من الاستفهام الناتج عن الاحترام والصداقة يهدف إلى إدخال الأب تيموتـــيو أمـــوروزو، راعـــي ديـــر ساو بنتو، في الحبكة، مع التشريفات الواجبة التي يستحقها بتواضعه، وذلك بغية تحية حضوره الملهم في الحبكة حيث كان يتبارى العديد من الكهنة والشعراء، بعضهم رائع، والآخرون سيئون، في العقيدة والقانون.

بـــدا جسداً نحيلاً في ردائه الأبيض الذي قبل أن يرتديه. كان قد تزوج، ورزق أبـــناءً، شأنه شأن سواه من المواطنين، ويقال إنه لا يعرف الأشياء. انتسب إلى السلك الكهنوتي وسيم قساً عندما، بعد موت الزوجة، وجد نفسه منكسراً، عطوفاً: فتّش في الله عن العزاء والفرح. شاعر نظّم عدة قصائد لم ينشرها ولكن الشعر ملازم في كـــل لحظة، ومرتبط بكل خطوة يتم اجتيازها بالنسبة إلى الكائن الإنساني. والسيد تيموتـــيو أمـــوروزو جدّد في باهيا تقليد الرسل المؤثرين الذين لم يكونوا يكتفون بتعميد الزنوج والهنود وتوجيه النصائح إليهم لحملهم على الخضوع.

جاء الأب مانويل دا نوبريغا في موكب اليسوعيين الأول، فأسس مدرسة في الجـــبل، وساعد في غرس المدينة في غرب العالم، وبين الجميع كانت الأجمل. وفي كنيسة داسية أرعدت كلمة الأب أنطونيو فييرا، العجائبي والمثابر، والديان، ومحامي العبـــيد والفلاحين الرازحين تحت كيد الإقطاع الزراعي.. ولإخراس ذلك الصوت الـــناري، فـــإن محكمة التفتيش المقدسة لم تكتفِ باضطهاده في حياته بل استمرت بـــذلك قـــروناً لاحقة. فأمرت بهدم كنيسة داسية دا باهيا، رامية بذلك إلى إطفاء أصداء الاستنكار لأعمال اللصوص، الجبناء، والمتهتكين.

شماســـان، كلاهمـــا يوقع: أغوسطينو، واحد من جمعية بييدادي، والآخر من جمعـــية جيـــزوس، توجها إلى قديسي السماوات لإعطائهما الحياة الخالدة بجعلهما يتربيان في فن النحت، والحجر، والخشب، والطين الحر.

الأخ كانسيكا، الهارب من برنامبوكو، سَلَف الأب هنريكي بيريا تمّ إعدامه بالرصاص في كامبو دا بولفورا، في وسط مركز مدينة باهيا، ليكون مثلاً لسواه. آخرون، نسيت أسماؤهم بسبب الجهالة المزدوجة: التاريخية والدينية لدى من يسجل هذه الرواية من العادات، كانوا قد كرسوا أنفسهم في خدمة المدينة والشعب بمحبة وإنكار ذاتي. ولكن لم يكن أحد أكثر حباً وإنكاراً لذاته من الدون تيموتيو أموروزو في ديره في ساو بنتو.

عدة أيام قبل الجمعة، تلك، كان دون تيموتيو قد أقفل مزاليج أبواب الدير ليأوي ويحمي الطلاب الذين يهاجمهم عملاء الشرطة المدنية والعسكرية، عندما تظاهروا في محلة كاسترو ألفيس.. طلائع وقياديو المسيرة التي تمّ القضاء عليها بالهجوم المعاكس، احتفظوا بهم معلّقين، علناً، خلف مدارج الدير. وللقضاء عليهم، وتدميرهم، ولتوقيف الطلاب الذين كانوا يقودونهم، فإن كلاب الحراسة كان يجب أن تغزو الدير، وتمر فوق الراهب الضعيف الذي بذراعين مفتوحتين أنكر عليهم الدخول. لم يتجرأ أحد أن يفعل ذلك وقبعوا متذمرين في محلة لارغو عند أعلى الشارع.

بمناسبة الأعياد الاحتفالية بذكرى مرور خمسين سنة على ولادة أم القديس مينينيا دي غانتويس، حارسة الطقوس الأفريقية - البرازيلية، والثقافة المضطهدة والممنوعة على العبيد الأفريقيين، فإن أكبر أيالوريشا في المدينة والبلد، دون تيموتيو، أقام في كنيسة دي ساو بنتو قداساً احتفالياً وأعلى من شأن الكهنوت: إن السيدة مينينيا تحمي بحب الأوريشاس وشعب باهيا.

لحظتان، حركتان، عملان اثنان بين العشرات منها، النموذجية، الكامنة لتقدير المكانة الرفيعة وعظمة الشخص الذي سيدخل في الحبكة الروائية، فقط، ليصغي إلى دون ماكسيميليانو في كرسي الاعتراف.

العهد على الإيمان بالأعجوبة

ما قيل وسمع في كرسي الاعتراف لا يمكن قراءة أية إشارة إليه، هنا، لأنه سيتم الاحتفاظ بالسر، كاملاً، كما تأمر به وصية الكنيسة الأم المقدسة.

يروي فقط أن دون تيموتيو استقبل دون ماكسيميليانو بالإعجاب، والتقدير، والصبر، التي استحقها دائماً الراهب الشهير، مجد سلك رهبنة البندكتين. فبعدما

مسح خطاياه وفرض عليه العقاب اللازم، فقد وعد بمساعدته لتنفيذ قراره في تحويل نفسه إلى دير ريو دي جانيرو: كان دون ماكسيميليانو قد خطط للسفر ما إن يسلم إدارة المتحف.

وإذ رآه حازماً ولكنه غير مرتاح، فقد أمسك به دون عبادي، وأطال اللقاء في محادثة صدوقة. سأله لماذا هو دون ماكسيميليانو، كان يشك بالرحمة الإلهية، وقدرة الله، ووجود الأعاجيب:

- إن الأعاجيب موجودة، وتحدث أمامنا في كل لحظة، ووحدها الكبرياء تمنعنا عن رؤيتها والاعتراف بها.

ما الذي يمكن أن يكون ما رآه إديميلسون غير أعجوبة؟ لماذا يتساءل دون ماكسيميليانو عن رواية مساعده ولا يثق بأن أعجوبة أخرى يمكن أن تلي الأولى؟ إن الأعاجيب هي الخبز اليومي من الله القدير. هنا، في مدينة باهيا هذه، فإن الآلهة كثيرة والمعجزات عديدة، إلى درجة لا عدَّ لها، ومع ذلك لا ينتبه لها أحد، وهي سهلة الإدراك، وشائعة:

- أليس العيش في الظروف التي يعيش فيها الشعب، أعجوبة، ومن كبريات الأعاجيب؟

لم يذهب دون عبادي بعيداً في أطروحته عن بؤس الشعب لأنه كان ملزماً بالاستجابة لحالة الطوارئ في نزاع الراهب: إذ كان الحزن يهدد بالتحول إلى قساوة، والاستحالة إلى كره. ألقى عينيه المضيئتين بالماء والنور على الكتفين المنحنيتين، وعلى الوجه المتألم للمتحفي العليم، وتألم معه. لم يكن لديه بلسم آخر للجرح المعروض أمامه بالإضافة إلى طرح المعلم، والتلميذ في وحدة الميناء.

قيل إن المعرفة الواسعة تحددنا، وتجعل منا قساة، ومتكبرين، وحمقى، وملحدين. وكونه ملاكاً مختاراً من عند الله، فلا يتركنّ إديميلسون للمعرفة أن تحدده، وتجعل منه علمانياً، متعجرفاً ذا أفكار مسبقة، ومليئاً بحب الذات، وإلى درجة جعله يخسر الإيمان بالعجائب. لا تترك للمعرفة أن تحددك، وألجم خيالك، وقلّل من فنتازيتك يا ابني، ويا أخي، يا معلمي، دون ماكسيميليانو: أكبر من العلم الذي نتحكم به، هي نعمة الله والشعر.

كفّا الشهيد

في دير بياسافا، تعلّم الأب أبيلاردو كالفاو بعض الأشياء بالتجربة الشخصية، وأشـياء أكثـر منها بما سمعهم يقولون.. كان يسمعهم يقولون ويكررون المفاهيم الكلـية، والـثوابت، والحدود، والواجبات، والممنوعات، منذ مراهقته الغامضة في المدرسـة الدينـية حيث أوصلته دعوته الوجدانية. كانت الحدود ضيقة، وكانت الممنوعات بلا حدود.

في عـيادة شـهيرة يملكهـا أبـوه، الطبيب، كان يُشاهَد أبيلاردو وبقبضته الـسماعة، يـساعد أبـاه في المستشفى والاستشارية. وكانت الأم، المولعة بقراءة الـروايات، ترغب في رؤيته متعلماً، وأستاذاً في الجامعة.. ومن مدفوعات المزرعة، مـع ذلك، كانت جدته لأمه تساعده مالياً، في الخفاء: ثرية، وآمرة، فإنها فرضت القرار. أريد أن أرى حفيدي وقد سيم مطراناً، تقبل خاتمه الرسولي وتعطيه البركة، أنـا أعطـيها، وليس هو من يعطيني إياها. وكانت تدعى إيدلوابيس دوس ريس ريزيريو، ترملت وهي صبية، قبل أن تكمل الثلاثين من عمرها. طبعة امرأة كبيرة، منظورة، وقوية الشكيمة.

وإن بنظارتين، لم يكن قس بياسافا يرى مؤشرات الوصول إلى المطرنة، كما لـو أنهـا نـيّة في الاختيار أو تفضيل: كانت الجدة تستعمل نظارات لقصر النظر لتـسيطر من شرفة دارها الكبيرة على آفاق مزرعتها. وفي الرسائل، النادرة، كانت الجدة إيدلوابيس: أية فكرة هذه، هي فكرتك، تناضل من أجل أن تكون رجل دين في باهيا؟

إن نظارتيك تخدعانك يا جدتي. إن خاتم صاحب سيادة، وعصا مطران، هما شـرفان لا مجـال للوصـول إليهما. حتى القس الفقير في السرتاو كانت تواجهه المخاطـر: إن المطـران المساعد أملى عليه الإنذار فإما أن يقفل على ملف العمل الجماعـي – الانحرافي، كان يقول دون رودولف – أو يتم نقله. لا مطران، ولا نصف مطـران، يـا جـدتي، بل قس مهدد. وخلف هيئة الوقار الدينية تلك، تجهم المزارع كوستا، الأمر بالموت على أصحاب الممتلكات. مؤشرات سيئة للمستقبل، يا جدتي.

قـريبة، أجل، هي كف الشهيد: هناك، أمامه، بمتناول يده ونظره، وفي الخبر الآتي مـن ريـسيفي مع السيد باولو لوريرو. خلال التقرير عن الجريمة والتحليل

السياسي للوضع الوطني، قال البرنامبوكي: إننا نعود إلى أزمنة الشهداء، واستعمل كلمة رفاق إشارة إلى الموجودين هناك.

كان الأب أبيلاردو يوافق. عودة نعودها إلى أزمنة البطولات في نشر الإنجيل، حـيث كان الشهداء المسيحيون يدفعون حياهم ثمناً للمهمة المقدسة. أزمنة خطيرة ومقززة هي أزمنة كنيسة الفقراء في عالم اليوم المقسوم، إذ إن كنيسة روما المتنازعة بين الأغنياء والمدقعين، مقسومة بقدر ما المجتمع عليه من انقسام. وحفنة من رجال الدين التقدميين تواجه فرقة كاملة من أصحاب الرداء الكهنوتي ذوي ردود الفعل.. تركيبة تهديدية ولكنها مثيرة، وكان الأب أبيلاردو قد تأمل في دائرة الإكليريكيين والعلمانـيين المتقلـصة، وكان لكلمة رفاق قشعريرة أخوية، تهدم السدود، وتلغي الفـروقات، وتطفئ المسافات. تذكر عبارة الجدة في احتفال السيامة - إني أفرض علـيك أن تكون كاهناً بكل معنى الكلمة، وليس واحداً من هؤلاء الحمقى الذين يقومون بالمسيرات في شارع دافرنيتي، هنا، في بورتو الليغري، المسرفين في أناقتهم، المعطرين، الخداعين، المعتاشين باسم الله. ولم تكن الجدة إيدلواييس تستعمل المكابح للسانها، بل المهماز لتمتطي وتهاجم.

بكليـته، كما كانت الجدة - تفرض عليه، وهو على الأقل لم يعد قادراً أن يقرّب منها خاتم المطران لتقبله.

لقـد تـسجل على لائحة أوامر الله، في جيش الفقراء، والتزم بالانضمام إلى قـوافل الأكثر فقراً، البدون - أرض، العبيد. وبينما كان يقوم بذلك، كان ملتزماً بالقـسم الـذي تعهـد به عندما تمدد على أرض الكنيسة حصولاً على السيامة المقدسـة.. إقطاعية جنوبية، كانت الجدة تعرف مدى فقر البيادق، ولكنها لم تكن قادرة وإن على تخيل البؤس في أوساط الفلاحين في مجاهل الشمال.

كان الأب أبيلاردو ينفذ الوعد بالرغم من التهديدات، وتلميحات الصحف، وضـغوط الرؤسـاء، والإخباريات الخبيثة.. وبين الذين وضعوا أنفسهم للتصرف بـصدور مفتوحة، كم منهم قد منح الحياة تضحية، وكم منهم من وقع قتيلاً على أيـدي القـتلة. رجال شرطة، حملة مسدسات، قتلة مأجورون، ينفذون بأمر من أسـيادهم؟ اللائحـة طويلة، وتطول بلا توقف، إذ لم يكن يمر أسبوع لا يقتل فيه كـاهن في أدغال السيرتاو، وأحراج الإقطاع، وفي أحواض نهر سان فرانسيسكو،

حيث الويل ثم الويل للعبيد الذين يتجرأون على المطالبة بملكية الأرض التي كانوا يملكونها.

كان كاهن بياسافا، كلياً، وينفذ واجبه عندما أعلن المقاومة بدلاً من خضوع العبيد لأقسى أنواع البؤس، والعيش كالحشرات. ولكن هل كان التصرف برجولة كافياً لاستكمال الكلية في تصرف الكاهن الكاثوليكي؟ أو كان إلزاماً ملاحظة القسم بمحدودية ضيقة؟ استعداداً للشهادة، فإن الأب أبيلاردو كالفاو قرّر أن يخلع من صدره المتقد كالجمر كل أثر، وكل اكفهرار في عدم إطاعة نذوراته التي يجب أن يفي بها. لم يكن قادراً بالسماح للجمر في صدره أن يتقد، بل كان عليه أن يطفئه، مرة واحدة وإلى الأبد، ولكي لا يترك الحريق الذي تغذيه نار الخطيئة يلتهم قلبه.. وكان قد حدث أمس، في السيارة، وعلى الغداء، وعند الوداع – إلى اللقاء أنتظرك في المسرح – عندما قدمت باتريسيا شفتيها المرطبتين إلى شفتيه اليابستين الشبقتين، وقع في الخطيئة المميتة، فهل يكون كاهناً بكليته؟ ويلي، يا جدتي، إن الأمر أصعب بكثير مما تفكرين فيه. في الحقيقة لم يكن يعرف بالدقة ما كانت تفكر فيه الجدة. بالمناسبة ألم تكن الناس تهمس حول الأرملة الغنية وكاهن المحلة؟ الكاهن العلماني المرح جيزوينو سانتو دومينغو قاد جنوبيين في حروب البائسين، وكان يمتطي فرسه وهو يرتدي الرداء، وفي سرجه البندقية وكان ينام مع الجدة إيدلوابيس، مقهقهين بالضحك.. كاهن بكليته؟ ماذا تعني الجدة بذلك؟

المصطفى

بسبب قوة قاهرة، سوف أخبرك، قال الأب أبيلاردو لباتريسيا عندما أرادت الصبية في المكالمة الهاتفية أن تعرف لماذا تركها تنظر إلى المراكب، بعدما اتفق معها اتفاقاً لا يقبل الخطأ على أن يلتقي بها على مسرح كاسترو ألفيس. كنت أصلي من أجل شهيد وأسعى إلى معرفة سبب استشهاده. شهيد؟ تعجبت باتريسيا. إننا نعيش من جديد زمن الرسل والتضحية، وإن حمل رسالة المسيح والعمل بها يمكن أن يعني الاضطهاد الوحشي، واتهامات كاذبة، وعدم التكافؤ، ويمكن أن يكلف الإنسان حياته، أجاب الكاهن، وبصوت يكاد يكون فرحاً، ومتوقداً. أراد أن يقول لها صاحبتي، ولكنه لجم لسانه.

أصغت باتريسيا إلى التصريح الاحتفالي بشيء من عدم الصبر.. في منهاج التسجيل لبرنامج لوغران إيشيكييه، كان يوم الجمعة الأكثر ازدحاماً لأنهم كانوا سيصورون في بيلو رينيو عرضاً تجريبياً للكرنفال الباهياني، بمشاركة مجموعات أفريقيا، وأفوشيس، دولية، من أبناء غاندي وكتلة جاكو، وهذه بقيادة المؤلف والتينيو كيروز وأمه المحبوبة والنجمة الحيوية السيدة لوز دا سييرا. منذ ليلة أمس، كان الشعب قد دعي بواسطة محطات الإذاعة والتلفزيون إلى الحضور بأعداد غفيرة، في الساعة الثالثة بعد الظهر إلى لارغو دي بيلورينيو حيث الثلاثي الكهربائي بقيادة دودو وأوسمار ستتركز عليه الحفلة غير المنتظرة. وكانت نيلدا سبنسر قد ضمنت لجاك شانسيل ظهور آلاف الأشخاص، من ألفين إلى ثلاثة آلاف، في الأقل، وإذا الفرنسي يهتز طرباً.

– سوف تشرح لي لاحقاً.. – قاطعته باتريسيا. – لا ليس الأمر كذلك لأن موضوع الشهيد يهمني جداً.. ولكن عليَّ الآن أن أقطع الاتصال، إذ اشعر باختناق شديد.. أنتظرك في تمام الثانية في المدرسة، في الثانية بعد الظهر، بالتأكيد.. لن يكون لديَّ الوقت لأتغدى، وإذا استطعت جئني معك بسندويش.. أجل يمكن أن يكون قطعة من فخذ خروف، ولكني أفضل المورتاديلا التي أحبها أكثر.

أحبك جداً، هل تعلم؟ إذاً اعلم يا شهيدي الحبيب، يا قديس سان سيباستيان، وضع عليك قميصاً مفرحاً تظهر في التلفزيون – قالت المنحرفة وهي تتكلم على الهاتف.

تخيلت لرمي حجر، ولم تقل الأشياء مفصلة، التائهة، الساحرة: ما قصة القميص المفرح، والتلفزيون؟ من جديد؟ ألم تكتف بالغداء في ميركادو؟ ما الذي لن يقوله المطران المساعد إذا علم أنه يقف أمام الكاميرات بين الفنانين وراقصات السامبا شبه العاريات؟ وعند الوداع، همس الشفاه المرطبة. كانت قد زعلت من الشهيد: يا قديسي سان سيباستيان، أحبك كثيراً، فاعلم هذا! ويلي، يا جدتي، إن الكاهن بكليته، وهو صاحب الرسالة الأكثر تناقضاً ومجازفة.

في سلسلة الأفكار التي كانت تشغله أراد أن يكرر لها أن العمل بوحي المسيح هو مهمة المختارين من الرجال، وهو لا يحس بنفسه جديراً بها ومستحقاً لها. وإذا أراد الله، مع ذلك، أن يصطفيه ليكون صاحب كفي الشهادة، ويضعه بين

المختارين من أبنائه، فإنه سيكون متأهباً لذلك ولن يتراجع. ولكن باتريسيا أقفلت الخط قبل أن يقول لها قس بياسافا إنه لا يخشى الخطر، ولا يتركه الخطر متخلياً عن الفقــراء، وتلاشي الأمل في نفوس أهل الأرض، وإسكات كلمة الله.. إنه ناري، صلب، متوله، مكتمل، وجاهز للشهادة.

حامل المسدس

مـــع ذلك فإن القس أبيلاردو كالفاو، الشهيد المصطفى، ومتنكب المسؤولية، لم يكـــن يعلم أن في محلة لارغو دي ساو بنتو، أمام الدير، كان ينتظره رجل الأمن زي دو ليريـــو الـــذي يعتمـــر قبعة كبيرة منحنية إلى الأمام، وعلى عينيه نظارتان سوداوان، يمضغ بين أسنانه عود ثقاب، ليسيرا معاً إلى أن يبلغا المكان الملائم، ومعاً يـــدركان الفرصة المثالية لرصاصة الذبيحة. كان في بيت المسدس ست رصاصات، ولكنه لم يستعمل أبداً أكثر من واحدة.

إنه رجل متدين، زي دو ليريو، يخشى الله والأب سيسرو، القديس الحارس للمـــسترلين والقـــتلة المأجـــورين، وبنوع خاص لحملة المسدسات، وليس من الـــضروري التأكـــيد علـــى شـــفاعة القديس، بنوع أخص، لرجال الشرطة والتعذيب، والقناصين من الجنود، وغيرهم من المجرمين.. كان زي دو ليريو قد حضر القداس في كنيسة الدير وفكره متجه نحو السماء، والمكان جميل ومؤنس حـــيث تسمع الموسيقى طيلة اليوم ويؤكل المن وحلويات الفاكهة الغريبة.. أما عيناه فملقيتان على الأب أبيلاردو، ليحدد شكله فلا يرتكب خطأ آخر كالذي ارتكـــبه في معـــرض دي كاروارو. كان قد حضر لرصد البريء، وتناول بلعة كاشاســـا صغيرة، ومضغ حبة كمثرى، ورأى وجهه عن قرب: كان على وجه الـــبريء بعـــض علامات المذنب، ولكن الشبه بين البريء والمذنب قليل، ولم يـــذهب إلى أبعد من تماثل الشوارب على طريقة كارليتوس، وهذا التماثل هو ســـبب الالتـــباس. وفي كنيسة ساو بنتو، فإن زي دو ليريو طلب من الله مرة أخـــرى العفو. فوفقاً لحساباته كان قد أرسل إلى العالم الآخر دزينتين كاملتين من الوضعاء، ولم يكن يشعر بتأنيب الضمير، بل لم يفكر في ذلك: إذا دفع أحد لقـــتل حي يرزق فلا بدّ من أن يكون هناك سبب وجيه، إذ لا أحد يبذر المال

دون سبب.. وهو، تعويضاً عن فعلته الخاطئة بقتل البريء، فقد وضع الجثة في نعش، وحمله إلى الكنيسة وطلب إقامة الصلاة على روحه.

لقد حفظ بدقة وجه القس الصغير، وهذا بالتأكيد قليل الحياء، نسبياً، وبلا روح. إنه واحد من أولئك الكهنة السيئين الذين لا يعترفون بشريعة الله ويريدون مع ذلك انتزاع الأرض من أسيادها، دون أن يحترموا الحجج العقارية، والمكاتبات في قصور العدل، وحدود الفرز العقاري.. ومن يدري ربما يكون هذا القس الصغير قد ضمّ إلى صدره إحدى ابنتي العقيد الجميلتين، أما جمال المتزوجة فلا يتكلمن عنه، وهؤلاء الكهنة ماهرون في أداء الخدمة، إنهم يمضون ضرباً، ويأكلون، ومنهم من يفضل الممارسة خلافاً للطبيعة.. الفئة الأولى منهم، لم يكن زي دو ليريو ينتقدها، لأن من يجد قِدْراً مليئاً بالحساء ولا ينتهز الفرصة فإنه لا يستحق ملكوت السماوات، أما المخالفون للطبيعة فإنه يكرههم لأنهم أناس حقراء.

العقيد جواوزينيو كوستا دفع مسبقاً، وبالتالي، فإنه اتخذ الطائرة باكراً في يوم الجمعة ذاك. لقد كان زي دو ليريو يعرف المخطط: إن الأمر يفضل أن يكون بعيداً في الساعة صفر، ساعة العدالة. عدالة الله، قال الرئيس كوستا للشرطي زي دو ليريو، ما دامت عدالة الأساتذة قد بدأت تتعثر، وأولاد العاهرات، أولئك الكهنة، يلعبون دور الحيوان الأعجم، وهم يغزون أراضي الغير في طليعة القتلة المسترلين.

في لارغو دو ساو بنتو، عند الصباح المنعش، زي دو ليريو، ذو القلب النظيف من الإثم، والضمير الحي، والمنفذ لواجباته، ينتظر القس المحكوم بالموت الذي لا طريق لنجاته. إن العقوبة قد أمليت من قبل صاحب الحق والقانون، والعمل مدفوع الأجر، ومدفوع الأجر جيداً، وزي دو ليريو طبع وجه القس في ذاكرته، والمحترم هناك أنه ميت، وأصبح ممكناً القيام بالصلاة لراحة نفسه.

الأقطاب

الطائرة الأولى المنطلقة من برازيليا ظهر يوم الجمعة، ذاك، كانت مليئة بالبرلمانيين الذين ينتهزون عطلة نهاية الأسبوع لزيارة العائلة، والأراضي، وإقامة الاتصالات مع القواعد الانتخابية، وقد ترجّل من الطائرة التي هبطت في باهيا صاحب النيافة الموقر الكاردينال بريماز، والعميد السامي للجامعة الفدرالية.

إن مـنطادنا مليء بالأقطاب، علق، وقد رفع صوته، النائب هاميلتون ترينيزيو، وصاحب الاقتراحات الراديكالية الجديرة بالتقدير. ربما لأنه كان رفيق سفر للشخصيتين المهمتين، فإنه وجد نفسه مرتاحاً لتقدير المنح، للطلاب، التي حصل عليها الكاردينال والعميد، بدفعهما الثمن إذلالاً، من السيد الوزير – وزير الحربية، لا التربية. لقمع الإضراب والمسيرات الطلابية الحديثة، فإن طلاب الجامعة كانوا تحت التهديد بخسارتهم العام الدراسي والمقعد الجامعي.

متخوِّذاً، ومتفارساً، وبنظامية حديدية، فإن معالي القائد العام ترك الكاردينال بريماز والعميد السامي ينتظران في الصالة الجانبية خلال خمس عشرة دقيقة، كاملة، بالرغم من الساعة المعينة، منذ ليلة أمس، للقاء: وذلك لكسر شوكة أولئك الفلاحين المتجرئين على الوجهاء. بدأ اللقاء وقد أشار على العميد بالتزام الصمت: احتفظ بهذه الولدنات، واخفض العصا؛ إنهم جميعاً اشتراكيون، فأين وضعت سلطتك؟ وتابع آخذاً من الكاردينال ثمن العمل الصاعق للكهنة: إلى أين يريدون أن يصلوا؟ إنهم أسوأ من الاشتراكيين ولكننا نضعهم تحت الأنظار والرداء لا يمنح الحصانة: الحصانات انتهت، من أجل مصلحة الوطن وسلامة المؤسسات. وإذ وضع العميد والكاردينال في مكانيهما الطبيعيين، تهيأ ليصغي إليهما. ناقش الأسباب المقدمة ولكنه انتهى إلى أن يستجيب للتوسلات: كان سيعطي الأوامر إلى وزير التربية، إذا ذهبا لموافاته. وفي الوداع كان قد أصبح حباباً، تقريباً.

مدني ولبق، فإن وزير التربية والثقافة استقبلهما محتوياً نفسه، بالرغم من أن الزيارة غير مسجلة في مفكرة المواعيد، والتزم بالصمت فيما هو متعلق بالمكالمة الهاتفية التي أجرتها غرفة عمليات الجنرال: لقد كان شهماً.. إنه أب لطلبة جامعيين وكان يعيش المشكلة في داخله. إنهم شباب بلا خبرة، مثاليون، لقد كان الطلاب الضحايا المفضلة للاشتراكيين البرازيليين السيئين الواضعين أنفسهم في خدمة روسيا، وهم الذين دفعوهم إلى الانحراف. ليس فقط للطلاب الأغرار: فما الذي يمكن أن نقوله عن بعض الكهنة، يا صاحب النيافة؟ في غزو الأراضي، وحتى في حرب العصابات، في بارا، لعب الكهنة الورقة علناً، كمثيري شغب خطيرين

ووقحين. هو، الوزير، لم يكن يمزج بين أولئك الكهنة الماركسيين وبين كنيسة المسيح، معقل المجتمع وبيرق ثورة 1964 المجيدة التي استلهمت من الكنيسة مبادئها. مقنعاً، ومؤثراً في المشاعر، تساءل: لولا الثورة أين كنا اليوم؟ لولا الثورة لكان السوفيات، الفوضى، والإلحاد. الإلحاد منصوص عنه بقانون، يفرض بالحراب، يا كاردينال! كيّف صوته، واستعاد الحراب الحمراء، وأصبح المحبة بشخصها. أكد قبوله الدعوة لتدشين معرض الفنون الدينية: سيكون هناك ليلاً ليقطع شريط الافتتاح، ويعود بعدها إلى برازيليا في طائرة الجيت الخاصة بالوزارة: بالإضافة إلى كونها مريحة، فإن هذه الطائرات ذات فائدة كبرى، إذ تسهل التنقلات السريعة، وتساعد الحكومة على الحركة.

عانق العميد، وقبّل، باحترام، خاتم الكاردينال خلال ساعة ونصف الساعة من الرحلة الجوية، تعبين، مهانين، راضيين، منتصرين، عائدين إلى الكرامة، فإن الكاردينال والعميد تبادلا المدائح والتهاني: لقد تمّ إنقاذ العام الدراسي لهؤلاء الذين لا يشعرون بالمسؤولية، وتمّ إبعاد التهديد بالفصل من الجامعة، وكان ذاك هو أقل ما يهمهما. لم يكن سهلاً أن يكون الواحد عميداً أو كاردينالاً في أزمنة الحكومة العسكرية، حكومة وزراء الأحذية والسترات العسكرية وهم على أمتنة أحصنتهم يحكمون، وحكومة آمرين صغار ضحلين وسيئي التربية: لم يتكلما عن تلك الأعباء ولكنهما تلفظا بكلمات المديح للطاقة وزير التربية. كان العميد يعرفه عن قرب، ولهما علاقات عمل، ومعالجة دائمة.

– إنه رجل مرهف. خطيب مفوه، ومثقف لامع. العسكريون لا يثقون به، وينتقدون ميوله الليبرالية.

واعترف الكاردينال بفضائله ولكنه أضاف:

– المسكين، لا أحسده على وظيفته.

لم يضف شيئاً، مفضلاً تحويل الحديث إلى شوكة أخرى تزعجهما: اختفاء تمثال القديسة بربارة، أم الرعد. في مسيراهما في برازيليا، متحملين ما فوق طاقتهما بسبب الوضع الطلابي والتدابير القمعية؛ لم يقاربا الموضوع، ولم يكن لديهما الوقت للتعليق على النبأ المؤسف. في الطائرة، مع ذلك، فإن القديسة جلست بين القطبين، وفرضت نفسها.

– إنها عمل نموذجي من أعمال عزيزنا دون ماكسيميليانو. عمل بالزائد.. علّق العميد واضعاً الإصبع على الجرح. عطوفاً، رحيماً، خرج الكاردينال دفاعاً عن الراهب:

– دون ماكسيميليانو عالم، والعلماء، عادةً، معرضون للإشكالات.

– بعضهم هكذا كلياً، هذا العميد لا رحمة في قلبه، لم ينزع الكاردينال بريماز القفاز. كان يفكر في كاهن رعية سانتو أمارو وفي الفوضوي الذي كان في تلك الساعة يسلح نفسه. لم يكن الكاهن تيو متعلماً، ومن صفات العالم لم يكن لديه شيء، ومن المؤكد أنه نسي اللاتيني الذي تعلمه في المدرسة الدينية، ولكنه كان عظماً قاسياً يصعب ابتلاعه، وبطريقة ما، هو، الكاردينال، قد أجبره على إعارة التمثال، وكان يحس بنفسه مسؤولاً عن ذلك. إن كاهن الرعية، الأب تيو الصعب الهضم كان في تلك الساعة..

الأسطول غير المرئي

في تلك الساعة، كاهن رعية سانتو أمارو الأب تيو المشوش، على رأس وجهاء المدينة، كان يتخذ التدابير اللازمة لانطلاق الأسطول الذي لا يقهر باتجاه العاصمة. وذلك، بغية استعادة القديسة، وجلبها من جديد إلى هيكلها في كنيسة دا بوريفيكاسياو. فلتكن أينما هي: كان عليهم أن يحددوا مكانها ويعيدوا تمجيدها في سانتو أمارو.

لم يساور الأب تيو أي شك حول مصير التمثال: إنه بالتأكيد مخبأ في موقع سري، ومن خبأه هو مدير الفنون الدينية: الدون ميموزو، بالاشتراك مع الكاردينال بريماز.. إذا تمّ وضعه أمام الحائط، على أيدي سكان سانتو أمارو الثائرين، فإن الأخ اللص سيكون ملزماً بالاعتراف بالسرقة وإعادة التمثال إلى هيكله. ولن يكون هناك من كاردينال بقادر على إنقاذه.

مدينة سانتو أمارو معرضة لخطر إخلائها من السكان الذين كانوا يقدمون أنفسهم جماعات، جماعات، متطوعين؛ وكانت وسائط النقل البحري غير كافية، لنقل الآلاف ممن رغبوا في المشاركة في البعثة. لم تكن الصعوبة في دعوتهم إلى المشاركة، بل كانت في منعهم عن ضرب مركز، أو مقر، أو وجه أحد المسؤولين:

في النهاية، فإن السيدة كانو، المتعبة من تعاملها مع التصفيات وفضّ النزاعات الصعبة، والمعتادة على الاكتشاف وإملاء الحلول العادلة، تمكنت من إقناع الرافضين: كل عائلة ترسل ممثلاً عنها، وبهذا فإن السفن الشراعية سوف تتسع للنخبة، وسانتو أمارو لم تكن تستنكر النار.

الأخويات بدأت بالإبحار عند الظهر. بعض المراكب كانت قد وصلت إلى سانتو أمارو مكتملة الحمولة في جلبة مفرحة. المقاتلون كانوا قد جاؤوا معهم بمؤونة متنوعة ومقلدة: سندويشات، فاكهة، بيض مسلوق، فراريج مشوية، أقراص صغيرة مصنوعة من الفادس، وسمك مقلي ولحم مجفّف ملوح بالبصل، ولحم عجل مشوي ومغمّس بطحين الذرة، ضلوع، فطائر وسنبوسك محشوة بمعجون الكستناء؛ لائحة لا نهاية لها، مصنوعة خصيصاً لفتح الشهية، ووضع المياه في الفم.. ولا داعي لذكر علب "الغوارانا" والبيرة، ودون الكلام، بسبب المنع، عن زجاجات العرق. أما في زوادات الأثرياء التي لم تتعد الأربع، فإن الويسكي كان يسيل بغزارة.

عجائز أخوية سيدة الموت الهنيء، في كاشويرا، البطولية، كن قد أعددن واحداً من أكثر الزوارق حيوية، مرتديات الزي الموحد: تنانير بيضاء تحملها حواشي الزينة فوق سراويل ضيقة، والسترات تظهر بوضوح كتفيات الأخوية: خيط عريض من الذهب 18 قيراط مع معدنيتين معمولتين برهافة الصياغة.. زنجيات، ضحوكات، عتيقات، ثمانينات بأغلبيتهن، بعضهن تجاوزن التسعين، وبادو كانت، بسنواتها الست والسبعين صغيرتهن. أما الكبرى المئوية ماريا بيا، فقد ولدت في زمن العبودية. لم يكن لديها أسنان، ولكنها كانت تمص بعض عقدات قصب السكر ملتقطة إياها باللثتين.

محاطاً بالشباب الرياضيين الذين كانوا يعتنون به منذ ليلة أمس، فإن المفوض ريبوليتا وجد ذراعيه طليقتين ليتمكن من أكل فخذ دجاج مع الخبز الجاف، وموزتين، وثمرة كمثرى: إنه لن يموت جوعاً. وعاد الشباب يربطون ذراعيه خلف ظهره لأنه إذ دخل ليلبي نداء الطبيعة ليخرج فإنه حاول الفرار. وبالرغم من الامتعاض والخوف – ألم يكن في نيتهم إغراقه وهو في الزورق؟ – فقد ظلّ واعياً موجباته، وكان المفوض ريبوليتا قد سجّل في ذاكرته، الضعيفة مع الأسف، المملاة

علـــيه من رؤسائه، وكلمات الأمر المحفوظة في الوثائق والملفات. التوجيهات: نريد القديـــسة بربارة، أم الرعد! - القديسة قديستنا! - فلتسقط إمبريالية المتحف! - لتعش القديسة! - ليسقط دون ميموزو! ليعش الأب تيو!

بوجـــوب الوصول إلى العاصمة مع الوقت اللازم للهبوط إلى اليابسة والقيام بالمـــسيرة إدراكـــاً لديـــر سانتا تريزا لإنشاء الموقع حول المتحف قبل الافتتاح، في التاســـعة ليلاً، فإن الأسطول غير المرئي، غدا في الثالثة بعد الظهر، مرفوع الأشرعة ينتظر فقط الأمر بالانطلاق.. الأشرعة مطلقة للريح، الاستعدادات كاملة وجاهزة للإقـــلاع، والفرق مهيأة للمعركة. القباطنة والبحارة يرفعون القبضات واللافتات والبيارق والأسطول غير المرئي من الزوارق، والمراكب الشراعية كان سيترك مرفأ ســـانتو أمـــارو، ويهبط مجرى نهر باراغواسو، ويرسو عند رامبا دو ميركادو. إن أسطولاً كهذا لم يشاهد منذ زمن الحروب الهولندية.

بانطلاقة الصفارة، محاطاً بأبنائه ومواطنيه، ومعه للتنسيق المحقق الصحفي غيدو غـــيرا والمـــصور باتيـــستا، فإن كاهن رعية سانتو أمارو، الأب تيوفيل لوبيز دي ســـانتانا، بعدما قال وداعاً للسيدة مارينا، استلم القيادة، وواقفاً عند مقدمة مركب باكـــيتي الطيار: بدا أميرالاً حربياً، وأحد أبطال الثاني من تموز/يوليو، وفارس أمل، والقديس جورجي دو كابادوسيا.

القرار

إثـــر المقابلـــة مع دون عبادي، فإن ماكسيميليانو فون غرودن تأخر في تأمل أفضل طريقة للذهاب من المعبد إلى المتحف فليتجيء هناك دون أن يلمح في الشارع ودون أن يحدّد الصحفيون مقره.. بين المعتصمين في ساحة دير القديسة تريزا، كان هـــناك مـــن كان يقتل الوقت في المقامرة بالورق، وآخرون يسمعون الموسيقى من أجهزة تعمل على البطارية.. وباطلاعه الجيد فإن جوزي بربرت دي كاسترو التجأ إلى مصنع دي روك، مقابل الكنيسة، متكاسلاً شأن فنان إطارات يمول بالزبائن، - هكذا وصفه في إحدى حلقات المسلسل الموحى به من اختفاء القديسة.

بعد أن فكّر ملياً، وطويلاً، مستعرضاً العذابات التي قاساها خلال اليومين من الجحـــيم في حياته، ومتخيلاً العذابات التي تنتظره من الآن فصاعداً، فقد اتخذ دون

ماكسيميليانو حلاً حاسماً. ما دام قد أصبح ضائعاً - فقط الأعجوبة المعلنة على لسان دون تيموتيو تستطيع أن تنقذه، ولكنه بالرغم من فصاحة الدون عبادي، فإن العالم استمر غير مؤمن بالأعاجيب - إن مواجهة الوضع هي أفضل من هزّ الرأس، فلا يجب أن يهرب، أو يختبئ. وإذا كان قد قرّر ما يفعله حين تصل ساعة الصلب، فلماذا إذاً يستمر متصرفاً مثل جبان عاجز عن المواجهة ووضع الحل؟ مستعداً لكل شيء، أحس بنفسه مرتاحاً. ومثل ساموراي ياباني مهزوم ومهان، بطولي وانتحاري، وضع في جيب ردائه السلاح الذي سيستعمله في الهاراكاري، أمام القضاة قساة القلوب: السلاح هو طلب الاستقالة ما دام قد قرّر التخلي والانصراف، فما الذي يمكن أن يخشاه؟

في حشرجات الغزل، أعد الرداء المجعلك، تنقصه المرآة لتصليح سحنته المتعبة، الكئيبة، لعرضها نشيطة مع مسحة من حزن، ولكن الشحوب كان يليق به. وإذ أضفى مظاهر خيبة الأمل وفوضى اليأس، فقد ترك المعبد في لارغو دي ساو بنتو، ودفع بنفسه وسط المارة المتزاحمين، فصعد باتجاه ساو بيدرو، وتجاهل الثنائي الذي راح يوشوش لدى اصطدافه - أشارت إليه المرأة بإصبعها، ألم يكن الكاهن في الصورة المنشورة في الصحف؟ وفي ببيدادي، التفّ عند الركن، وتابع باتجاه الشارع إلى الأسفل، ورأى من بعيد الأستاذ أودوريكو تافاريز: كان متوجهاً إلى الصحيفة آخذاً الكاتدرائي أدفالدو بوافنتورا من ذراعه، متحدثاً معه، وهو يضحك. كان يضحك على دون ماكسيميليانو، ولا يمكن أن يكون الأمر غير هذا.

لأي سبب مجهول، ومهم، تحوّل الدكتور أودوريكو إلى عدو حتى الموت، وهو الذي كان دائماً يبدي نفسه صديقاً، معطياً إياه المساندة المطلقة في إدارته الشائكة، ومعيراً إياه قطعاً فنية من مجموعته ليعرضها، كاتباً عنه كلمات جليلة في مجلة روزا دوس فنتوس؛ لماذا تغيّر فجأة، وبصورة كاملة؟

من حسن الحظ أن دون ماكسيميليانو كان يعرف السبب. كان يدفع ثمن الوقاحة على اللسان السليط، العاجز عن مقاومة التقولات. في حضوره، متوسل كما لا أحد، وفي غيابه، همّاز، يبصق في الصحن الذي يأكل منه، لا بدّ أنه قال ذلك، على ما يبدو، حين جاؤوا يخبرونه: هناك دائماً أحد ليخبر. وللمبالغة،

والتعقيد، واصماً الوقار بالعار، اللاذع ربما، السيئ الذوق، المذلة، وهي ليست أكثر من هفوة، محولينها إلى وقاحة وعمل خطير.

تعمّد المرور أمام الصحفيين ولكن لم ينتبه أحد إلى العمل المثير. وعاودته أفكار مذبذبة للدخول، ولكن ليفعل ماذا؟ من أعلى المدرج الذي يصل بين شارع دي بايشو وشارع دو سودريه، تأمل دون ماكسيميليانو في كنيسة ودير سانتا تريزا، والساحة الأمامية، والحديقة إلى جانبها، وهي إحدى أجمل حدائق المدينة: متحفه، بيته، حياته. رجل قصير، يرتدي سترة جلد، كان يتوجه إلى لاديرا دا بريفيسا، يشد من عنق حمار قذر، بطيء، وعلى ظهر الحيوان، سرج كبير، واسع، ومقرف، يكسوه حتى البطن. ورافق دون ماكسيميليانو بعينيه الرجل والحمار، وحدّق في الخرج، ثم أغمض عينيه ليحفظ في ذاكرته تلك اللحظة.. بدأ هبوط المدارج درجة درجة، ملقياً التحية على الجيران بهزات من رأسه.

توقف أمام مشغل النحات زو كامبوس ورآه منشغلاً وهو يقطع الخشب بالمنشار. فابتسم الفنان فرحاً لدى لمحه الأخ.

– مساء الخير، دون ماكسيميليانو.

– ما الذي تفعله يازو؟ أية قديسة هي هذه؟

– عجباً أليست القديسة بربارة؟ ألا ترى الرمز؟ إذا لم يظهر تمثال قديسة سانتو أمارو، فإنك تستطيع أن تضع هذه مكانها، يا حضرة المدير.

ملاك يطير في سماء من الأزهار الزرقاء، وعصافير بلون الورد، على قماش "كنفاس" صغيرة، معلقة على الحائط قرب الباب.

– كم تريد بالملاك يازو؟

– الملاك الخلاسي؟ هل أحببته؟

– كثيراً.

– هل تأخذه لنفسك أو لتقدمه هدية لأحد؟

– لنفسي.

– لك، لا يكلف شيئاً، ما هو هنا، هو ملكك يا دون ماكسيميليانو. كان دون ماكسيميليانو يعرف أنه إذا أصرّ فقد يشعر الفنان بنفسه مهاناً.

– أجـــل، إذا كـــان الأمر كذلك فشكراً لك.. احفظه، وسوف أرسل من يأخـــذه بعـــد قليل. وأنا أيضاً سوف أقدم لك تذكاراً: الكتاب الذي وضعته عن القديسة بربارة. قديسة سانتو أمارو، أم الرعد. إن نسختك من الجمال بحيث تشبه إلى حدٍّ كبير النسخة الأصلية.

أراد أن يخـــبر زو كامبوس أنه، من ضمن مشاريع المتحف للسنة المقبلة، كان قـــد خطـــط لإقامة معرض آخر، غير الديني، في باهيا، معرض الفن الحديث، من بريـــسليانو إلى زو، ونادا دو نادا وأوسموندو. وهو تكملة للمعرض الذي سيفتتح اليوم في التاسعة ليلاً، دون أية قديسة بربارة، أم الرعد أو الذيل الرمز.. ولكن ذلك المـــشروع ســـوف يبقى في ذاكرة المدير السابق، ولن يتحقق أبداً، فلماذا الحديث عنه، والإعلان عنه؟ إنه سيكون مديراً. سابقاً، خلال الساعات القليلة المقبلة.

هـــبط الدرجات الأخيرة، ولم يكد يضع قدمه في الشارع حتى، وجد نفسه محاطـــاً بالـــصحفيين، والمسجلات مهيأة، وسيل من الأسئلة.. من باب مصنع دي روكي، فإن زي بربرت، الحركي بالرغم من هيكله الضخم، مرَّ أمام الراهب. طال انـــتظارهم لـــه، وهو يتمختر هناك بينما كانوا يتخيلونه في الريو دي جانيرو، في طريقه إلى ألمانيا.

لا مجال للمرور، وبمسحة كآبة على الوجه الحيوي، وبشحوب رخامي – من الأفـــضل القول شحوب العاج – وقد حافظ على خطوته بالوقع نفسه، فإن دون ماكسيميليانو لم يتوقف، بل تابع باتجاه الدير، دون أن يجيب عن أسئلة الصحفيين ولكن بدون أن يبعدهم. أما زي بربرت فقد استحوذ عليه ممسكاً بردن الرداء.

ولدى وصوله إلى الباب المؤدي إلى مدخل الدير، فإن السيد من تلقاء نفسه، وبصوت وقور، اتجه إلى المحيطين به:

– لحظة انتباه، يا أصدقائي، رجاءً. اسمعوا ما سأقوله ولا تقاطعوني. منذ أمس يـــريد الـــزملاء المحترمون في الصحافة أن يسمعوني. دعوني أقل لكم – تطلع إلى عقـــارب الساعة – إنها الآن الساعة الرابعة عشرة والدقيقة الخامسة والأربعون، إنها الثانية وخمس وأربعون دقيقة من بعد الظهر.. وبالتحديد في الثامنة والنصف مساءً، لـــنقل في الساعة العشرين والدقيقة الثلاثين، تماماً، يعني من الآن وللخمس ساعات المقـــبلة، أكثـــر أو أقل، – عاد يتطلع إلى عقارب الساعة، وصحح: – من الآن –

وللساعات الخمس المقبلة والدقائق الواحدة والأربعين، سيتم تدشين معرض الفنون الدينية في باهيا الذي أدعو إليه كل السادة الموجودين. في تلك الساعة، وفقط عند الافتـــتاح، سوف أتكلم. خمس ساعات فقط، وأكثر بقليل، فإنكم لن تخسروا إذا انتظرتم.

ابتسم لزي بربرت، وأبعد يده، وردّ درفة الباب، وأقفلها بالمزلاج من الداخل.

قديسة مع التوقيع

كـــان علـــيه أن يعـــتمد على المصافحات الودية، مع تقوّس الظهر، والعينين المنكسرتين، والمعدة الفارغة إذ إنه لم يتناول وجبة الغداء، ولم يكن جائعاً، ويشعر بالمرارة في حلقه. سحب دون ماكسيميليانو المنديل من جيب ردائه، ونظّف وجهه مـــن العرق والانقباض، وارتدى قناع عدم الرضى: لن يضحك أحد في وجهه. ثم ارتقى الدرجة الأولى من السلم.

في القاعـــات المخصـــصة للعرض، كان بعض الأشخاص يتحركون بصمت، جاميسون بيدرا، فنان ومهندس معماري، خرج لملاقاة مدير المتحف.

– جئت لإلقاء النظرات الأخيرة.

– لطف منك.

وفي الحال أصبح محاطاً بالآخرين. وأخبره جيلبرتو شافيس:

– وصلنا إلى النهاية.. من الأشياء المهمة لم يعد ينقص إلا قطع ميرابو الفنية. واقترح أن يرسل أحداً للإتيان بها، ولكن الدون رفض، وقال إنه سيأتي بها بنفسه، ولكننا عيّنا الأمكنة التي يجب أن توضع فيها.

لم يتمكن دون ماكسيميليانو من أن يمنع نفسه عن الابتسام لدى الإشارة إلى الحـــرص والحذر – التي قام بها صاحب المجموعة ميرابو سامبايو: نحات حائز على جوائز، مصمم، ورسام ذو سوق واسعة. وكان ميرابو سامبايو يملك أكبر وأفضل مجموعة رسوم لقديسي باهيا القدامى.

– حتى إنني أتعجب لموافقته على إعارتنا اللوحات، خوفاً من ألا أعيدها إليه.

لم يكـــد ينهي كلامه حتى دخل ميرابو إلى الصالة. بين ذراعيه، وبحرص من يحمل مولوداً جديداً كان يحمل الرسم المشتهى للقديسة كاترينا الإسكندرانية. من

أجلها كان يتنهد هواة التحف القديمة وأصحاب المجموعات الفنية، ويحلم بها مدراء المتاحف، لأنها كانت تحمل على معطفها توقيع الأخ أغوسطينو دا بيبادي. وهي واحــدة مـــن أربع لوحات وقّعها المعلم الشهير، الأكبر، بعد إليجادينيو، وجعلت ميرابو مالكها الحريص، تائهاً.. تقدّم دون ماكسيميليانو لملاقاته:

– اقبل أن يحمل بين يديه فقير فانٍ هذه الغالية.

– انتبه، إنها ثقيلة الوزن.

ثقيلة وكبيرة. وبيديه الهزيلتين، وأصابعه الطويلة، أمسكها دون ماكسيميليانو بثبات، وللمرة العاشرة، ترك للإعجاب أن ينعش وجهه، وللتحفة أن تضيء عينيه لـــدى تفحصه التوقيع النادر والأصلي. منتبهاً منشغلاً، رافق ميرابو تفحص سانتا كاتـــرينا. ابتـــسم مرتاحاً عندما تمّ تسليمها إلى القوي سيلفيو روباتو: لم يعد من خطر عليها والعلامة لم يتم اكتشافها ولم يعر الراهب الأمر اهتماماً، ولم يكن ممكناً فعل ذلك. هو وحده ميرابو سامبايو يعرف، ولا أحد آخر، أين وضع الإشارة من يكشف عن هوية اللوحة: لقد حفر الإشارة في المشغل، ودون شهود. لا لأنه يثق بكـــل مـــا يقـــال عن دون ماكسيميليانو وينسب إليه، ولكن كما تنشد الجوقة: الحريص مات عجوزاً. ودون أن يفعل ذلك عمداً، علّق دون ماكسيميليانو:

– سنفتش عن موقع خاص لها، يكون ملائماً كما يليق بها. ومن يدري، ربما اقتـــنع العزيـــز ميرابـــو بأن القديسة كاترينا الإسكندرانية لن تبقى ضمن مجموعته الخاصـــة. إن مكانها هو هنا، في متحف الفنون الدينية. ومن يدري، في كونه كريماً كما هو، فقد يمنحها هبة.

كـــريماً كان أو لا، كانت هناك شكوك، وميرابو لم يكن يجد الأمر مفرحاً في مـــزاح من هذا النوع. دون ماكسيميليانو لم يكن يستحق الثقة، وهو حتى الآن، ســـبب في تلك القصة المعقدة للقديسة بربارة، أم الرعد. خدعة إثر خدعة، وتهديد إثر تهديد، وأجاب في الحال:

– انظـــر، إني أعـــود بها في الحال.. لا هبة، لا بيع، لا مساومة.. ولا مبادلة وبأية صيغة. – وإذ غدا زعلان، غيّر ميرابو لهجته.

كـــلام عامـــي، كان يفهمه دون ماكسيميليانو. ولتهدئة سيئ التربية، فكّر، للمـــرة الثانـــية، بعد ظهر ذلك اليوم، في الإشارة إلى مشروع عرض الفن الديني

المعاصر. إن القديسات اللواتي رسمهن ميرابو، ومنحوتاته، أبيتا وأوكريستو، سوف تعــرض بمـــا تستحق من اهتمام. وللمرة الثانية أمسك نفسه عن الكلام: غداً لن يكـــون مدير المسرح، ووداعاً يا مشاريع. فراغ في الصدر: غداً لن يكون مديراً. أخذ من ذراع ميرابو:

- دعنا نختر المكان لقديستك كاتارينا.

يـــرافقهما مساعدون وموظفون، فإن الشريكين، الوجهين للعملة الواحدة في الكـــثير من التصرفات والرهافات، راحا يطوفان في الصالات. كان العرض عملياً كـــثير الأعمـــال، مؤثراً، ويعود إلى الأزمنة الاستعمارية وحتى نهاية القرن التاسع عـــشر، ويجمع كنوزاً ذات قيمة وجمال لا يقدران بثمن. في وسط القاعة الكبرى، المنـــضدة الفارغـــة المنتظـــرة وصـــول تمثال القديسة بربارة، أم الرعد: أمر دون ماكـــسيميليانو بجلبها من المستودع وهي كناية عن طاولة صغيرة، نادرة من البقايا الهولـــندية، وفوقها وضع القديسة الإسكندرانية التي أعاد إبداعها في باهيا الراهب أغوسطينو دا بييدادي: إن النحات أحب كثيراً الصورة التي وقّعها. لقد وقّعها على مرأى منه.

أرسل دون ماكسيميليانو البواب الميريو ليأتي بالقطع الفنية المعارة من ميرابو، والتي كانت قد أبقيت في السيارة تحت حراسة إدغارد: العصا لكل الأعمال. كان ميرابو شاباً لعوباً، ونجماً، وملك أرجنتينيات دو باتاكلان، عندما تعاقد معه كسائق وحارس شخصي: وكانا يتقدمان معاً في السن، مشاكسين.

بالـــرغم مـــن كـــونه موشكاً على الموت لفضوله، وقد جنّ لمعرفة مصير تمثال القديـــسة بـــربارة، أم الـــرعد، فإن ميرابو سامبايو لم يلمح إلى الاختفاء المعلن عنه في الـــصحافة، ولم يشر إلى زيارة الشرطة لمشغله: الفم مطبق، والسمع مرهف. ولكنهما، عـــندما، في نهاية الركضة، التقيا واقفين عند مدخل قاعة الاستقبال، أمام الباب، وبينما يودعه، لم يستطع ميرابو المقاومة وسأل كمن لا يريد شيئاً ولا يعلم شيئاً.

- والقديسة بربارة، أم الرعد، هل قررت أين ستضعها؟

وإذ أخـــذ على غفلة منه، ولم يكن يتوقع السؤال، وغير مستعد للإجابة عنه، وعلـــيه أن يقول ما يقول، فإن دون ماكسيميليانو أجاب، ودون مواربة، بالشيء الأول الذي خطر له:

– بالـــتحديد، هـــنا، حـــيث أنا، عند المدخل. فكيف ترى ذلك يا عزيزي ميرابو؟ ودون أن ينتظر جواباً، مدَّ له يده، وترك للآخرين مرافقته حتى الدرج، وإذ غدا مصدوماً فإن الملاك الحارس جاء يخطره:

– إن الكاردينال على الهاتف، يا معلم.

ألقـــى الكارديـــنال التحية على دون ماكسيميليانو، بعطف، وقبل أن يطلب توضـــيحاً حـــول مـــسألة القديسة. كان قد أنهى الإصغاء إلى تقرير طويل من فم المطـــران المـــساعد، ولكنه يرغب في معرفة الرواية من مدير المتحف. قال له دون ماكـــسيميليانو دون تحفظات، كل ما كان يعرف. في ذلك اليوم، بالرغم مما كان يقرأ في الصحف، لم يصل إلى سمعه أي نبأ، ولا حتى ذرة من أمل لم تمنح له. ومن المعبد اتصل هاتفياً بسكرتير الأمن العام. ودون أن يقدم أي رأي عن الشخص لأن نيافـــته لم يكن ليوافق على هذا التشهير، وأخبر أن الأستاذ كاليشتو باسوس كان يصر على الإشارة إلى الأب تيو كمتهم، كمتهم لا، بل كمذنب..

علـــى الطرف الآخر من الخط سأل الكاردينال متعجباً: من؟ الأب تيو؟ هو نفسه، نعم، كاهن رعية سانتو أمارو.

مـــن جديد أوقف دون ماكسيميليانو التعليقات، وتابع يصف الأمور. حاول الدخـــول باتصال مع مندوب الشرطة الفدرالية، فلم يوفق إلى ذلك، فأرسل العقيد مرسالاً مع أحدهم ليقول: لم يكن لديه ما يقول. وانتهى دون ماكسيميليانو معلناً نفسه سعيداً إذ لا يزال في الحرية. لكم من الوقت، العلم عند الله.

وعـــده الكارديـــنال بمعلومات جديدة ما إن ينهي حديثه مع العقيد راوول أنطونيو. وقبل أن يقفل الخط، سأله إذا كانت المعلومة التي أعلمه بها دون رودولفو دقـــيقة. إن دون ماكـــسيميليانو كان يفكر في الاستقالة من إدارة المتحف ويغادر باهـــيا إذا لم يتم العثور على التمثال قبل افتتاح المعرض. كانت تلك هي الحقيقة. أجل.

– هل يبدو ذلك الأمر كما لا بدّ منه؟

– لا أرى أمراً آخر أفعله يا صاحب النيافة.

انتظـــر ليـــسمع من الكاردينال كلمة اعتراض أو رأياً مختلفاً أو رفضاً لقبول الاستقالة، أو أمراً لإبقائه في مهمته. لم يسمع. وصاحب النيافة اكتفى بالأسف:

- أمر موجع، وجع مؤلم، ولكن، في الحقيقة ليس لك مخرج آخر.

كـان يمكـن في الأقل، فكّر ماكسيميليانو، أن يشير إلى مساعدة الكاردينال للحـصول على التمثال، وأن بعض المسؤولية تقع عليه؛ إنه ملتزم معه أمام كاهن رعـية سانتو أمارو، ولكن، بالتأكيد، فإن الكاردينال قد نسي التفصيل. في تلك الخطوات من آلام الجمعة، كان على دون ماكسيميليانو أن يحمل الصليب، وحده، ولم يكن معه سمعان الأسخريوطي لمساعدته في صعود الجلجلة.

راكبة الدراجة النارية

عندما انتبه الأب أبيلاردو كالفاو للأمر، وجد نفسه رديفاً يجلس على ردف الدراجـة الـنارية ويداه ملقيتان على بطن باتريسيا العاري. ملتصقاً بها، وذراعاه تطـوقان جـسدها، متحسساً الاتصال والحرارة: هكذا اجتازا وسط المدينة، من المدرسـة إلى المسرح في كانيلا، ومن هناك إلى لارغو دو بيلورينيو حيث الجموع آخذة بالازدياد.

تعـال معـي، أمرت هي: كالمعتاد، نحن متأخران؛ لقد ذهب جاك مع نيلدا، وغي أصبح في بيلورينيو من زمان.. كانت سيارتان قد انطلقتا، منذ قليل، ممتلئتين. سوف نصل قبلهم، أعلنت باتريسيا؛ الأب أبيلاردو لم يكن يعلم كيف، ولكنه ما لـبث أن علـم، ما إن وجد نفسه رديفاً على الدراجة النارية وبسرعة مئة/كم في الساعة.

القمـيص الملـون المطلق فوق جينـز "لي" كانت القميص التي جاء بها للـسفرة القـصيرة، بالإضـافة إلى المخيطة كملابس الإكليروس، والقميصين السريتين المكتوب عليهما أشعار، من نظم ماريو كينتانا، مطبوعة بالأبيض على القمـاش الأسود. أما باتريسيا، الأصح القول إنها كانت شبه مستعدة للسباحة بملابسها المقلصة. تحت السترة الهايتية، "الباريو"، المزركشة، كان سهلاً ملاحظة وجود اللباس الأبيض. معلقاً بالحزام بعقدة تفتح وتغلق، كان "الباريو" يعرض جـزءها الأسـفل، وبطـريقة مغرية. أما صدرها فكان أكثر عرياً منه ستراً.. وربطت شعرها الهندي على أعلى الرأس وفي وسطه عقد من الزهر، عقد ملكة. ملكة الكرنفال ليراها الفرنسيون ويصوروها.

بالرغم من أنها ارتدت خوذة راكب دراجة لتحافظ على العقد وعلى الماكياج من الريح الغاضبة، فإن باتريسيا توقفت عند مدرسة المسرح، ونزعت ملابسها، مثيرة بعريها. معرضة للهواء والرؤية، ولضوء الشمس، القاسي، المحرق، بدت صرحاً، تمثالاً. التماثيل لا تتحرك: إنها ثابتة على قواعدها، جميلة في متاحفها، فينوس لميلو، وإيفا لرودن، بينما باتريسيا كانت تنتقل من مكان لآخر وعندما تمشي كانت تتمايل، وينفتح الباريو ويظهر كل شيء.

شبقة ولكنها ليست نزقة، شهوانية ولكنها ليست فاحشة، ولا يبدو عليها أي دليل من دلائل السقوط، واحترمها الأب أبيلاردو عندما حدّق فيها: لم يشح بنظره عنها، لم يعتبر نفسه مخطئاً، ولم يحس بنفسه مرتكباً لخطيئة. كانت كما رآها، طيران النسر، زهرة آكاسيا، وعصفور الجنة. هل تكون؟

مرشحون عنيدون للنجومية في سماء الفنون المسرحية؛ الطالبات مرتديات بعري مشابه، كن متوجهات إلى السيارتين، إحداهما سيارة ميرو. واستغرب الأب غياب سيلفيا إزميرالدا، في الليلة الأكثر حيوية، وسأل عنها. مسكينة سيلفيا، تمرضت ليلة أمس، ولكن دونا أوليمبيا دي كاسترو، المحبة المرهفة صديقتها، اتصلت من المستشفى منذ قليل، منبئة عنها: إن سيلفيا ما زالت في الفراش ولكن الخطر زال عنها المسكينة! تعاطفت باتريسيا: إن الوقوع مريضة في ليلة الكرنفال الكبير، لعثرة لا تتكرر كل مئة سنة.

حوار موزّع الجوانب، تتم مقاطعته كل لحظة. كانت باتريسيا تقرر، تستعجل، تملي أوامر على زميلاتها، والمساعدين، والسواق، وعليه هو الأب أبيلاردو كالفاو. بعد تصوير مشاهد الكرنفال، وعندما يغدو هو قائداً للتريو الكهربائي، في فرقة المتميزين الصغيرة، فإنها سوف تأخذه للمشاركة في وليمة "كورورو". في بياسافا كان القس قد شارك في عدة حفلات كهذه، وهذه مشاركة شائعة في الداخل. ولكن تلك كانت وليمة يانسان، وسيكون في سوق القديسة بربارة عند أسفل ساباتيرو. وسيخرجان مباشرة من بيلورينيو إلى حفلة العيد، ولم تكن الطريق أكثر من خطوة.

هكذا، وكما لم يتوقع الأب أبيلاردو كالفاو، اكتشف نفسه جزءاً مشاركاً مع أناس كانت عاداتهم حتى أمس معروفة لديه بالسمع فقط – وكان يسمعها

بصورة سيئة وفقاً للقاعدة السائدة. كل شيء يشكل اكتشافاً جديداً بالنسبة إليه، من اللغة المؤنسة العفوية، إلى الملابس الخفيفة الناعمة. متعبون أيضاً، وسئمون كانوا يستعملون الحرية ويستخدمونها، بما في ذلك الحرية الجنسية، وكل ذلك لم يشعره بما كان يشعره به ولا يستحق الأحكام القاسية التقليدية؛ لقد اكتشف أشخاصاً ظرفاء، محبين، ورفاقاً طيبين: لم يعره أحد بكونه قساً، والذين كانوا يعرفون بعمله التضامني كانوا يهنئونه كمتعاونين، واجداً نفسه وسط مافيا المسرح والتلفزيون، ونجمات برامج آيروس مارتينز غونزاليس، وأفلام غلوبير روشا، والبوهيميين، والمتحررين، والمحررين، فهو، الكاهن المتخلف، لم يحس بنفسه غريباً أو بعيداً. وعلى العكس، كان يحس بالانسجام مع الذات مستأنساً.

كانت باتريسيا تقوده في تلك المتاهات، وتملي عليه التفاصيل، وتضيئه. إن حفلة المشرفين، كانت تعلمه، هي نوع من التوقد المرتبط بتقاليد الكوندومبليه، وليس واجباً إجبارياً؛ إنه العيد التقليدي للأوشيه عندما تأتي "الأوريشات" للغناء والرقص مع الساحرات و"الأياوس". ولكن يمكن أن يكون.

– ألم تذهب قط إلى حفلة كوندومبليه؟

– حتى الآن، كلا.. ولكني راغب في ذلك. سمعت أنها جميلة جداً.

– في يوم سآخذك معي. هل تعلم أنني ابنة يانسان؟ كشطت رأسي، وأصبح لي شفيع، ألم أقل لك؟

– أبداً. لم أكن أعلم.

– حسناً فعلت لأن شعب يانسان ليس مزحة، إنه شعب مستقيم، ولكنه قوي. ومن عساه يكون شفيعك؟ من خلال حركتك أعتقد بأنه أوشالا، ولكني كنت أفضل أن يكون شانغو.

– لماذا شانغو؟

– لأنه زوج يانسان. – وكانت تضحك وقد غسلت نفسها.

إن الكهنة لا يستطيعون أن يتزوجوا يا باتريسيا، فالنذور تمنع ذلك. لقد أقسم الكهنة على العزوبية، والعفّة. لم يكن يقول شيئاً، ويبلع على الناشف: من يدري فقد تكون كل تلك الأشياء نوعاً من المزاح الخالص، وفتاة المدينة ترفه عن نفسها مع كاهن الغاب. على الدراجة النارية، عندما جسّ جسدها، ولدى الإحساس

بكفيه تلامسان طراوة الجلد، وانحناء البطن، فإن كاهن بياسافا، واعظ قطيع الأرض، المرشح للشهادة، كان يتساءل: أين، بتجارب الشيطان، كانت ستتوقف القرارات المأخوذة عند طلوع اليوم عندما كان يهيئ نفسه ليقدم حياته ضحية. قاسية، ثابتة، غير قابلة للتخريب، وطيدة. وطيدة؟ بل هراء، كيف ستتصرف واحدة من طالبات المدرسة إذا سمعت بالكلمة الكبيرة. الشهيد كان هو من يتألم، هناك، في تلك الساعة، رديفاً على ردف الدراجة النارية، بين الجنة والنار، بين اللعنة والهاليلويا.

كان يسعى إلى إبقاء المسافات، بينما يرى نفسه ملتصقاً بجسد باتريسيا ولكي لا يقع عن الآلة، عند منعطف السرعة فيه ممنوعة، تمسك بها، ولم يمنعه القلق عن أن يحس بنعومة العالم بين يديه، وقد أحس بصقيع منعش يجتازه من رأسه إلى أخمصيه، - ويهفهف على خصيتيه. وهل للكاهن خصيتان، يا أبيلاردو؟

محزنة، عبثية، لا نهاية لها سفرة الأب أبيلاردو كالفاو، كاهن رعية بياسافا، راعي المجموعة المعدمة ممن لا أرض لهم، ودامت عدة دقائق من كانيلا إلى بيلورينيو. متجاهلة إشارات المرور، كان النيزك يجتاز حافلة الركاب والسيارات، وتاكسي ميرو، ومرسيدس جنر أوغوستو، سفينة فضائية في تحليق خارج الجاذبية. اليدان المتوسلتان تحسان البطن المقوّس لباتريسيا، أرض الحلم والخطيئة. اليد اليمنى حيناً، وحيناً آخر اليد اليسرى كانت تنزلق، وتنحرف، وتبتعد، وتعود، وتتطاول، فالمكان لهيب، شعلة بركان، أعماق الجحيم، اليد أو الأخرى تنزلق من جديد وليس من قوة بقادرة على منعها. منحنية على المقود، ومستقيمة على المقعد، وظهرها إلى صدر الكاهن، إنه كاهن في خطر الموت والحكم الأبدي. ماذا يعني كاهناً، بكليته، يا جدتي، قولي لي؟ إن للكاهن خصيتين كما للآخرين، فهل كنت تعلمين هذا يا جدتي؟

في ذرى التجربة، وفي تهديدات الوقوع، وفي مجازفات الحرم، يسافر الأب أبيلاردو كالفاو إلى كرنفال الفرنسيين. هل يذهب بعد ذلك إلى يانسان، زوجة شانغو. ويلي يا باتريسيا، حتى وإن يكن من نسل شانغو، فإن الكاهن لا يستطيع ان يتزوج. باتريسيا، إلى هنا، لا.

بعدما عينت موعداً لموافاة الأب جوزي أنطونيو في المحكمة، في الساعة الثالثة بعد الظهر، عادت أداجيزا إلى البيت. إذا قيل، مطعونة في كرامتها، مثقوبة، فلن يصف هذا القول حالتها، وهستيريتها. كأنها بطارية من الأعصاب، وفي الوقت نفسه حاسمة، وواعية.

أوشكت على الانفجار، لدى رؤيتها الأبواب والشبابيك، تفتح عند مرورها، والجارات متلهفات للأخبار الجديدة، ومستعدات للتمتع برؤية جمجمتها. قررت أداجيزا ألا تكترث بالناس التافهين في المحلة، وتنكر عليهم تمتعهم بأي نبأ جديد، وإن بأي خبر مهما يكن صغيراً، أو أي دليل على الشكوى، أو أي احتجاج، واللذة العلوية للثرثرة والاغتياب. من بضعة الوقت، التافهات، المقرفات اجتازت برأس مدار عنهن، وبهيئة مغلقة عبوس، إلى حدٍّ أن داميانا نفسها، المتدخلة في كل شيء، النفاجة المنتظرة لها، لم تتجرأ على أن تطرح أسئلة. إن المتهتكة اكتفت بالضحك لدى رؤية وجهها البشوش: يضحك كثيراً من يضحك أخيراً، وهذا المثل عزاء لا معنى له ولكن بهذه المناسبة لم يكن لدى أداجيزا أي قول آخر.

كان دانيلو سيسمع القليل من الكلام الطيب لدى وصوله إلى الغداء. وفقاً لما سمعته وتخيلته، قررت أداجيزا أن تجدد الورقة التي أسقطها الزوج في الأحداث المشؤومة من الليلة الماضية. لم يكن دانيلو رجلاً يصمم وينفذ مخططاً دقيقاً ومعقداً كهذا. لقد فقد في ملاعب كرة القدم كل طاقة للمبادرة، وترك مع الزوجة دفة المركب لتبحر في مياه واسعة.

أما جيلديتي، الطاعون المتدخل، بنت الشارع، المرأة الضئيلة، هي التي مشت في الطليعة، ونسجت المؤامرة وقادتها من "الطقطق إلى السلام عليكم". وبمساعدة الشمبانزي الزنجي المصاب بالطاعون. كانت تبدو أداجيزا لمن يصغي إليها تتفوه بالحجج لإقناع دانيلو: إذا كان هو مربياً لمانيلا، بقدر ما هي دادا، فلماذا لا يذهب في الحال إلى قاضي الأحداث؟

يعرض دوافعه، ويخبر ما هو متعلق بتربية الصغيرة في حضانة خالتها. أو بمعنى آخر: يخترع سلسلة من الأكاذيب، مبيناً إياها، هي أداجيزا، بمظهر الوحش، وغير

الطبيعية، ودون أحشاء. هكذا حدث بالتأكيد، وأشياء شبيهة بهذه قيلت عنها وإلى درجة إقناع القاضي والحصول على الأمر المضاد.

باستنتاجها ملخص ما حدث، غاضبة ومعتدى عليها، اعتبرت أداجيزا نفسها محكومة بحكم غير عادل. إنها كانت تقتل نفسها، وتتلف صحتها، ولا تعرف لحظة راحة، مكرسة نفسها لتربية الابنة بالتبني وفقاً لشريعة الله، لتدافع عنها ضد الرذيلة والخطيئة، وتمنع عنها التخريب والانحراف، ولتعمل منها امرأة سيدة. الأهل، وبضمنهم زوجها هي، بدلاً من أن يشكروها على إنكار الذات، فإنهم يرمونها في شارع المرارة، ويطعنونها في ظهرها. لا بدّ أن تكون قد صدرت عنها، هي الجنية، فكرة استنفار زمرة المحلة الوضيعة، وإيقاظ الأستاذ جوان باتيستا، والمقيتة داميانا، وسائر أفراد الوضاعة ليتمكنوا جميعاً من الشهادة على عفة مانيلا، ضحية أداجيزا. لم تنهزم بعد، ويضحك كثيراً.. إلى آخره.. وهكذا.

كانت تعتمد على سلاح فعّال: دانيلو نفسه. عندما يصل، في فترة الغداء، سوف يسمع ما لم يسمعه في حياته، وما الذي لن تقوله له أداجيزا، ولجاراتها الصلفات. لم تحس قط بنفسها غاضبة عليه بهذا القدر، وحتى في شهر العسل في المسبح، أو خلال الأشهر الأولى من الزواج عندما حاول دانيلو أن يجبرها على هبوط سلم الممارسة درجة درجة. كان عليها أن تكون صلبة، وأن تتكلم بكلمات كبيرة، ولكن لا شيء يمكن مقارنته، مع كل ذلك، بالأهجية التي كانت تنتظره.

بعد أن تكون قد وصلت له الحبات الأخيرة من السبحة، فإن التي زوجها ضدها، ويؤكد أنه كان موافقاً موافقة مطلقة على إدخال مانيلا إلى منسكة التائبات بتخليصها من الأمر السيئ وممارسات السحر. هل كان يعرف القاضي لويز أن مانيلا كانت قد ضمّت إلى كوندومبليه دو غانتويس؟

أحد الأمرين، فإما أن يسلم دانيلو بالأمر، ويخفض الراية، ويتصرف كما تريد، وإما أن يكون الزواج – الرباط الكامل بين قلبين متحابين في إرادة واحدة – سيذهب إلى حيث ألقت رحلها... عليه أن يقرر مختاراً بين الذهاب معها إلى قاضي الأحداث، أو الخروج نهائياً من البيت، وليس هناك بديل آخر. وعليه أن يفعل فوراً أحد الأمرين: الباب مفتوح على الشارع، كل شيء يجب أن يرضي الزوج، بإرادته أو رغماً عنه، كل شيء، ما عدا شيئين. لم تكن لتسمح بأن يمر

الـــرجل بيده على رأس مانيلا، في مناسبة كهذه، حاسمة، فيساعدها على الهرب، سامحاً لها بالارتماء في أحضان التهتك والزنى. وهذا أول التنازلين المستحيلين. والثاني أصـــبح معـــروفاً ما هو، وقد تمّ الحديث عنه بمتعة لدى الوصف بالألوان الصارخة للتفاصيل الواقعية في الحياة الجنسية للزوجين الصالحين. إنها لن تستجيب قطعاً وأبداً للطلبات المتنهد بها تنهداً في الفراش طيلة هذه العشرين سنة، من وضاعات لسانية، ومقاربات خلقية، وقاحات، وضاعات. لا مانيلا، ولا القفا، "أولليه"!!

وحـــدث، مع ذلك في وسط البلبلة الصباحية البائسة، أن أداجيزا نسيت أي يوم مـــن الأسبوع هو اليوم: الجمعة. خارجة عن طورها، لم تتذكر وليمة غداء تابيليون، والخبـــز المـــنقوع بالمـــاء الحار. منذ عشرين سنة، بالإضافة إلى كونه رئيساً لدانيلو في العمـــل، فقـــد كان الوجيه ويلسون غيمارايس فبيرا صديقاً، وفي كل يوم جمعة يأخذ معه مجموعة من المدعوين إلى أحد المطاعم في أسفل المدينة، كولون، حيث كان يؤكل لحـــم نـــصف محروق يتراوح طعمه بين السامي والإلهي. وكانت أداجيزا تنتهز فرصة غياب زوجها لتحضير وتذوق الخبز المحمص المفتوت في الحساء، وهو الصحن المفضل. كان دانيلو ذا حساسية للخبز المحمص، والأغرب من ذلك حساسيته لكل ما له ذيل.

مـــا كانـــت تجهله أداجيزا ولم تهتم أبداً بمعرفته كان السبب في ذلك الغداء الأســـبوعي. كـــان يـــوم الجمعة مكرساً لأوشالا، وأولاده نساء ورجالاً يرتدون الأبـــيض ويحتفلون. وكان الوجيه فبيرا يحتفل به بغداء مع الأصدقاء، جوان باتيستا الذي كان يحول الموضوع لفتح الشهية بمدخل هو كناية عن صحن من الحلزون - دانيلو يقرف من ذلك.. وأبعد من كونها أكلة مرهفة، وراقية، فالحلزون "إسكارغو بالفرنـــسية"، "ليـــزما" و"كاراكـــول" بالبرتغالية، "أغبين" بلغة - مسرح الدمى، "كاتاسول" بكل اللغات، أكلة أوشالا المفضلة.

الممر والصالة الخلفية

وصلت أداجيزا إلى محكمة الأحداث قبل الساعة المعينة إذ لم تتحمل الانتظار، في البيت.

حاولـــت عبثاً الاتصال بدانيلو، فذهبت هاتفه من مخبز مارتينيز، ومن جديد وقـــف أناس المحلة الوضعاء على النوافذ ليشاهدوها مارة، فأجابت هي بالاحتقار.

المدعوون إلى الغداء كانوا قد تركوا المطعم، والخادم الذي ردّ عليها، عندما علم مع من كان يتكلم، منتبهاً، متأسفاً: لقد خرج دانيلو لتوه مع الأستاذ ويلسون. ولتفريغ عبء عن ضميرها، اتصلت أداجيزا بالمكتب وهي تعلم أنه لم يكن هناك.

كان "تابلسيون والكويتب"، العشيران، أيام الجمعة، وبعد الأكل اللذيذ لا يعودان إلى العمل قبل الثالثة. كانا يطيلان ساعة الغداء يتناولان "بعضاً وأخرى"، هنا وهناك، مع هذا ومع ذاك، ومع غيرهما من عشاق الحياة، إنها ممارسات رجال جديرة بالرقابة، في رأيها: وهذا من التنازلات التي كانت تقدمها للزوج رغماً عنها.

في البداية، انتظرت في الممر لتدخل مع القس. كانت تسير من جهة إلى أخرى، تصل حتى قاعة المصاعد، غير مطمئنة لغياب دانيلو، وهو دعم أكبر كانت تعتمد عليه لتربح الجولة أمام قضي الأحداث.. وإذ إن الأمر متعلق أكثر بالعناية الإلهية، فقد نذرت: إذا ساعدها الله على إعادة مانيلا إلى المنسكة، فإنها ستحرم نفسها خلال سنة، وابتداءً من يوم الجمعة المقبل، من تناول الخبز المحمص المغمس بالحساء. في مناسبة سابقة، بين عوق أمها وشفاهاً، فإنها ظلت ثلاثة اشهر كاملة دون أن تذوق صحنها المفضل.

وجع الرأس لم يتركها بسلام، وإن لحظة واحدة، وكان يحرق صدغيها، ويدمع عينيها. وكانت ساقاها قد أخذتا تؤلمانها لكثرة ما اجتازت الممر من مرات، عندما، أخيراً، ظهر الأب جوزي أنطونيو معتذراً عن التأخير: إن حركة المرور رهيبة.. الحقيقة أنه كان قد تأخر في حفلة الطفل المعمّد حديثاً، فملأ الجعبة، وتمتع متذوقاً. عند باب المحكمة، فإن الكاتب انتهى بالاستجابة لهما، فجاء من الداخل، متمهلاً، وهو يدخن سيجاراً رخيص النوعية. عرفهما: لم يتصل القاضي بعد لإعطاء أية أخبار، إذا رغبتما فبإمكانكما الانتظار في الغرفة الخلفية. هل الموضوع مستعجل؟ مستعجل جداً، أجاباه. من يدري، إنه يأتي، إذا لم يأتِ فإنه يتلفن. أدار لهما ظهره وانصرف وهو يبدو طويلاً وقوياً، وكان مصاباً بقَحة قديمة بسبب التدخين.

إنهما أقل تعباً، وأقل نزاعاً في الانتظار في الغرفة المجاورة: كانت جالسة، وتمكن الأب جوزي أنطونيو من أن يرفع من معنوياتها المنخفضة جداً:

- "نـو بيركـا كونفيانـسا هيجاً" - لا تفقدي الثقة يا ابنتي.. إني أتحمل المـسؤولية: القاضي دافيلو يعرفني منذ زمن بعيد. كنا زميلين في مدرسة كروزادا أنتيكومونيـستا، التي يديرها الميجر ساترونينو، مباشرة بعد الثورة، وقد حملنا نفس المثاليات.

في الحقيقة كان هناك سبب يفوته، ويتركه مرتبكاً:

- لا أسـتطيع أن أتخيل ما يمكن أن يكون السبب الذي جعل الأستاذ دافيلا يغيّـر مـوقفه، فيستجيب لقلب زوجك. خلال ساعات قليلة تحول من الماء إلى الخمـر، لا بـدّ أن أمـراً مهماً قد حدث. ولكن، ليكن ما يكون، فإننا سنوضح الموضوع. لا تحزني، إن قضيتنا مقدسة. الله معنا. "ديوس آي غراندي، هيجا ميا".

في الغرفة الخلفية، أدرك الأب جوزي أنطونيو النعاس، وكان العرق ينبع منه، فالحر قاتل، والتبريد معطّل منذ أكثر من سنة.

وكانـت عقـارب الـساعة قد تجاوزت الظهر عندما أطل القاضي آتياً معه بالـنعمة. وبالـرغم من ذهابه إلى البيت للاستحمام وتغيير الملابس، فإن صاحب الـسيادة كـان قد أتى معه على وجهه بآثار الليلة التي لم ينم فيها مرتاحاً، وأثار الصباح المقلق في المستشفى.

الأب جـوزي أنطونـيو، لائـق، وطلب معرفة أخبار السيدة ديانا، الزوجة الفاضلة، فأعلن القاضي عن انشغال فكره، فوعده الكاهن بالصلاة لتشفى سريعاً، وانـضمت أداجيزا إلى النذورات الموعودة. لم تكن تعرفها شخصياً ولكنها سمعت عـن الإطراءات الواسعة على جمال وأناقة زوجة الأستاذ، ومن فم إحدى معارفها السيدة أوليمبيا دي كاسترو: إني صانعة قبعات وأوليمبيا هي زبونتي.

المتفانية

تمكّـن قاضـي الأحداث من الحضور إلى المحكمة لأن زبونة أداجيزا، السيدة أوليمبـيا دي كاسترو، المتميزة، المتفانية، تخلت عن مشاغلها الاجتماعية المتعددة، وضـمنها الكوكتيل الذي أقامه منظمو الرحلة إلى الكاريبـي، وذلك بغية البقاء علـى رأس صديقتها.. ولمرافقتها في انهيارها المروع في أبشع الوعكات.. الهذيان المفاجـئ ترك المسكينة ديانا تتكلم وحيدة، دون أن تربط الأشياء، مجنونة مقفلة.

خلال الهذيان كانت تنادي على أوليمبيا وهذا الاسم هو الوحيد الذي كان يتردد على لسانها.

في اليوم السابق، لدى عودته إلى البيت، مرتاحاً، بعدما كان قد قام بتدليك جسده في نزل أنونسياتا، فإن الأستاذ دافيلا وجد زوجته متمددة على الفراش، متخبطة، وتحرك رجليها، مطلقة الزعاق المتواصل، وعيناها تكادان تخرجان من حدقتيهما.. وإذ استدعى على عجل، فقد لاحظ الطبيب روبين دي بنتو وجود انهيار عصبي خطير فحقنها بإبرة مهدئة. واستحسن الطبيب إدخالها المستشفى وإبعادها عن البيئة العائلية المعتادة. وهكذا فعلوا. وكان ليلاً صعباً ليل الأستاذ القاضي.

عند الصباح، في الساعة المعقولة - سيدات المجتمع الراقي يخلدن إلى الفراش عند الفجر، وينمن حتى العصر - فإن الدكتور دافيلا اتصل هاتفياً بالسيدة كاسترو، وطلب أن تعذره للإزعاج الذي سببه ولكن الأمر متعلق بموضوع حساس وملح. إن ديانا موجودة في المستشفى معانية من انهيار عصبي. وأوضح: ليس انهياراً عابراً، فقد شخّص الطبيب روبين دي بينيو بأن الأزمة عنيفة من الهستيريا.. إنها تسأل عن السيدة طيلة الوقت.

كشفت السيدة أوليمبيا عن مشاعر طيبة وتربية مرهفة، إذ كانت قد أصغت إلى كل شيء بصمت، وبعض علامات التعجب، هنا وهناك، وأبدت اهتماماً كبيراً وانشغال فكر ولكنها لم تبدُ متفاجئة. أمس، وفقاً لما روت، حاولت أن تتكلم مع سيلفيا - عذراً، أراد أن يقول ديانا - فاتصلت بها هاتفياً مرات متكررة دون أن تتمكن من تحديد مكانها. إني سأذهب إلى هناك راكضة، وعدت، هكذا. كانت قد أجابت، وهي في الفراش، عن المكالمة الهاتفية الموجعة، في الساعة الحادية عشرة صباحاً.

حوالى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر، ظهرت السيدة أوليمبيا في المستشفى، متأنقة كما لو أنها كانت ذاهبة إلى عرض أزياء. عند سماع اسمها يتردد على لسان القاضي باحترام، فإن ديانا، يعني سيلفيا إزميرالدا، حتى تلك اللحظة، ملتفة بالشرشف من رأسها حتى أخمصيها، وهي تئن بصوت منخفض، فإنها انتفضت في الفراش، وأمسكت بيد الصديقة، وعيناها جاحظتان، محدقتان في أوليمبيا كما لو أن استمرار حياة ديانا كان متوقفاً على صديقتها.

اذهب إلى مشاغلك، دكتور، اقترحت السيدة أوليمبيا على القاضي، الزوج المندهش، واترك حبيبتنا لعنايتي، فإني سأشفيها خلال ساعتين. كل شيء لا يعدو كونه إفراطاً في الإحساس المرهف. إن زوجتك، يا دكتور دافيلا، امرأة حساسة، وأقل الأشياء تمزق أعصابها. اذهب إلى صغارك، وأنا سأهتم بالصغيرة.

وإذا صباح القاضي، مع ذلك، يجيء أسهل من ليله.

المعتوهون

توقف القاضي لإلقاء التحية عليهما واقتادهما إلى المحكمة حيث كانا أمس، وطلب إليهما أن يجلسا، وجلس هو أيضاً، وعلى الناحية الأخرى من الطاولة كانت الأوراق مكدسة. بالرغم من قلقه على حالة زوجته العقلية، جهد نفسه ليبدو متحبباً، إذ كان الأب جوزي أنطونيو يمثل عنده المرتبة العالية:

– بمَ أستطيع أن أخدمكما؟ – تعباً، شاعراً بالمرارة، وعقله بعيد: في المستشفى. – والآن، هل وضعتما الصغيرة في القسم الداخلي؟

كانت أداجيزا تنتظر تفسيراً، وقد أزعجها السؤال الذي بدا لها خالياً من المعنى، فتلعثم لسانها متعجبة:

– نعم، سنيور... مساء... ولكن، ليلاً، كان القاضي هو من أطلق سراحها.

– وجاء دور القاضي ليكون مرتبكاً، ودون أن يفهم:

– من الذي أمر بإطلاق سراحها؟ إني لا أفهم شيئاً، أوضحي لي بصورة أفضل يا عزيزتي،

– إن سيادتك.. – عاجزة، نظرت أداجيزا إلى الأب جوزي أنطونيو تطلب النجدة. حرّك الأب يده، وكيّف صوته، وتنازق في لفظه:

– يمكنك أن تتركيني أشرح، "هيجاميا". اسمع يا عزيزي الأستاذ دافيلا ما حدث. البارحة عصراً أخذنا القاصر إلى الدير وهناك تركناها في سلام الله – قال الله بالإسبانية "ديوس"، ثم صححها – "دي ديبوس". واليوم صباحاً، فإن السيدة أداجيزا، الموجودة هنا، اتصلت بي وأخبرتني بأن ابنتها بالتبني غادرت المنسكة عند منتصف الليل. ذهبنا إلى هناك فأكدت لنا الأم الرئيسة: إنها سمحت لها بالذهاب، حقيقة، ولكنها فعلت ذلك بأمر من الصديق العزيز:

– أمـــر مـــني؟ أي جنون هو هذا؟ من نقل الأمر؟ من تكلم باسمي؟ أريد أن أعرف من الذي ارتكب هذا الاستغلال لأضعه في السجن وأقيم عليه دعوى.

لغـــط، في كـــل مـــرة أكثر صعوبة على الفهم: استقر وجع الرأس وكذلك التعاســـة، والقرف. أحست أدالجيزا بنبضات قلبها. وكذلك الأب جوزي أنطونيو كـــان قد أضاع رأس الخيط، "كيبروكو دي كوبون ديفينو"، وأخذ يمزج البرتغالية بالإسبانية:

– "نادبمـــيه فالـــو أن نوميه دي أوستيلد" – اهتاج القاضي لدى سماعه الأمر المحير: مسألة التباسات، وحديث معتوهين: – أمر كتابي، مني؟ سخف! هذا الأمر لا وجود له. مدَّ الأب جوزي أنطونيو يده:

– أيـــن هو الأمر، "هيجا"؟ أعطني إياه. سحبت أدالجيزا الصورة المستنسخة، فاستلمها الأب، قرأها، وقدمها للقاضي:

– أمر أكيد.. "فيا أوستو".

الأســـتاذ ليـــبراتو مـــندس برادو دافيلا، صاحب الاستحقاق، قاضي محكمة الأحـــداث في قـــصر عـــدل السلفادور، عاصمة ولاية باهيا، أخذ الورقة الصغيرة مـــتأكداً من أنه يتعامل مع مجنونين: فهو منذ أمس لم يعطِ أي أمر. قد بدأ مع ديانا المـــتمددة على الفراش، وجسدها مليء بآثار اللطمات، تطلب المغفرة، بزعاقها.. مـــرة تلـــو الأخـــرى، وأمام القراء والإثباتات، كانت تهذي بالتفسيرات، وتقدم الاعـــتذارات: إنهـــا لم تعتذر قط، كون الزوج كان دائماً المذنب. فلماذا المغفرة، هكذا، فجأة؟

لـــدى إبقاء عينيه على النسخة قطب جبينه. وبقدر ما يمعن في دراسة الورقة بقـــدر ما يزداد ذهوله. أصلية بصورة مطلقة، لا نقاش فيها. وإذ غدا شاحباً، فإن الأستاذ دافيلا قال:

– ما هذا؟ ماذا يعني؟

حدج النسخة من جديد، وأخذ يدرس التفاصيل. كل شيء صحيح، الورقة، الأختام والتوقيع، والتوقيع: توقيعه ولا يمكن الفصل بينهما.

– لقـــد زوروا توقيعـــي. – رفـــع صوته ليسمع في الغرفة المجاورة: – سيد ماسيدو تعال، بسرعة.

سيد ماسيدو، الكاتب، جاء بسرعة، ينقل قدميه، ويمسك طرف قطعة السيجار المتبقية، لقد شاخ في قصر العدل، وخدم مع عدة قضاة، البعض جيدون، آخرون سيئون، والأستاذ دافيلا عندما يثور فهو أسوأهم – إنه محتال في رأي ماسيدو الذي لا يقبل الشك.

– انظر إلى هذا وقل لي ما تفكر فيه.

تلصص السيد ماسيدو بطرفيه على الورقة، ورآها أمراً بإطلاق سبيل، والشيء الوحيد المستنتج الذي يمكنه تركيبه كان أن هذا الأمر لم يتم تسجيله خلال الدوام:

– هل كتبه السيد القاضي في البيت أم جاء إلى هنا أمس، ليلاً؟

– لا في البيت ولا هنا. – توقف عن امتحان النسخة: – تزوير ممتاز، أريد أن أرى النسخة الأصلية. إنه عمل أحد معتاد على عملي، وله مدخل إلى الأختام، وإلى ورق المكتب. سيد ماسيدو، ماذا تقول لي؟

– لا أقول لك شيئاً، أستاذ، إني أعرف ما تعرفه، لا أقل ولا أكثر. قضيت الليل في البيت، وحضرت مسلسل الساعة الثامنة في التلفزيون، ثم ذهبت إلى النوم. ظهر أن زواجاً سيتم بين تارسيسيو وكلوريا – كان يعطي رأياً، مشيراً إلى حلقة أمس.

يعرف القاضي كما لا يعرفه أحد أفضل منه، ويعلم أنه معلم في المكائد، يستعمل ويسلح جيداً الفخاخ، فلم يستطع السيد ماسيدو مع ذلك أن يستبدل مشاعر الشك والتهديد. القاضي دافيلا، وإذ سلم هذه المرة ما سلم، فقد اخترع هذا "الفتوق" من التزوير، وعمداً، لمخادعة هذين الأحمقين: الأب والطيبة أداجيزا بنظره: إن هذا الأب الختيار كان يتدبر أموره، وهؤلاء اليسوعيون يأكلون الطيب والأفضل. أدار ظهره، بوقاحة، كان يريد العودة إلى غرفته عندما رنّ الهاتف. أجاب السيد ماسيدو، وقدم الجهاز لصاحب الاستحقاق:

– من المستشفى!!!

مقاطعة هاتفية لنبأ مقابل مكافأة: – على الهاتف السيدة أوليمبيا دي كاسترو السنيورة الظريفة، تنقل الأنباء المفرحة، المعوقة الحبيبة، وصغيرتنا المحتالة، أصبحت أفضل بكثير، عملياً في حالة طبيعية، وغداً تستطيع أن تعود إلى البيت.

صوت السيدة أوليمبيا، في العادة، متموج ومثير – صوت ناي – وفقاً لما نظم فيه الشاعر سيد سيشاس في نسائم الوله – تحول سكراً، متناغماً، مغلغلاً. بعد

قـرف كهـذا، وانهـيار مروع، فإن الحبيبة المسكينة كانت تحتاج إلى فترة نقاهة تنسيها، وتسمح لها باستعادة الهدوء والفرح في الحياة. ألا تعتقد، أستاذ؟ بالتأكيد، أجل، أجاب الأستاذ.

اسمـع، بصدفة سعيدة، فإن السيدة أوليمبيا دي كاسترو كانت تستعد لتقوم بجـولة سـياحية في الكاريبـي، على متن السفينة الإيطالية الحديثة، خلال خمسة وعـشرين يوماً في البحر والجزر المدارية، في أكبر هدوء مطلق. فما الذي تعتقده يا عزيزي القاضي؟ أجل أعتقد أنه أمر جيد.

مـا دام الأمـر كـذلك، وكونه موافقاً، فإن السيدة أوليمبيا كانت ستنقل النبأ الجمـيل إلى حبيبتنا المتماثلة للشفاء: كان نبأ عظيماً لأن زوجي، زوجها، زوج السيدة أوليمبيا، لم يكن قادراً على مرافقتها في الجولة السياحية بسبب الارتباطات – المسكين إسـتيريو مـع أعماله الكثيرة لم يكن يتوفر له الوقت للراحة – وهي ستكون برفقتها أفـضل صديقاتها. شكراً، أستاذ. ومع الشكر أقفل الهاتف. كان الأستاذ دافيلا لا يزال يـضع الـسماعة على أذنه، متحيوناً. تأخر في الانتباه إلى أنه، لتوه، قد قدم للزوجة، لحبيبتـنا، جولة سياحية في بحار الكاريبـي، لكي تشفى من القرف والانهيار المروع. ولكـن سبب الانهيار والقرف لم يكشف له، ولم تعطه السيدة أوليمبيا أي تفسير كما لم يكـن يـتوقع أن يسمعه من ديانا. لمرة واحدة طلبت ديانا المعذرة، لماذا، لا يعرف. هل يستحق الأمر عناء المعرفة؟ بالتأكيد لا..

مفكراً، وضع قاضي الأحداث سماعة الهاتف، وعاد للاتجاه المعاكس، إلى التيه، إلى وجـع الـرأس: أمر إطلاق السراح، الموقع منه، النسخة على الطاولة. ألم يغد مجنوناً، بالمناسبة؟

متحببة. وقفت أدالجيزا، وقاطعت:

– ومانـيلا، أسـتاذ؟ كـيف سيكون الأمر؟ هل تعلم إلى أين أخذوها؟ إلى كوندومبليه دو غانتويس!!

كرنفال الفرنسيين: معلومة قصيرة

نـيلدا سبنـسر وعدت جاك شانسيل بحضور ألفين إلى ثلاثة آلاف شخص يجـتمعون في بيلورينـيو في الكـرنفال غير المنتظر للقناة ليطلعوا الفرنسيين على

الكرنفال الأصيل الباهياني: لقد كانت توقعاتها متواضعة. ففي الأقل، خمسة آلاف محتفل كانوا قد أخذوا يرقصون على أنغام التريو الكهربائي لدودو وأوسمار. عندها ترجلت باتريسيا والأب أبيلاردو عن الدراجة النارية في شارع ألفريدو بريتو، شاقين دربهما وسط الجماهير، وقد تركا الدراجة النارية مقابل كلية الطب القديمة: كانت تصل الناس من كل صوب. كان التريو الكهربائي قد حطّ عند أعلى محلة دولارغو، بين متحف المدينة وكنيسة روزاريو شفيع الزنوج.

أمام واجهة المحلات الخشبية، على يسار النازل من لاديرا، كانت قد أقيمت قاعدة خشبية وكانت آلة تصوير مسلطة على المشاهد العامة. وكانت ثلاث كاميرات تنتقل بين الجموع لتصوير التفاصيل، وكل تفصيل قادر على أن يجعل الفرنسي فاغراً فاه، سائلاً لعابه: لا مجال للوصف.

في شارع غريغوريا دي ماتوس، كان الأفوشيه والكتل الأفرور برازيلية يتركزون مستجمعين، وكل فريق نصف دزينة كاملة، وكل واحد مع موسيقاه القديرة وزنجيته الأصيلة نتاج التمازج البرازيلي، الذي لا يعتريه التباس. ومقابل مقر الأفوشيه أبناء غاندي، مجد الكرنفال الباهياني، كانت مجموعاتهم تنتظم: ومن داخل التخشيبة كان يصل دوي الطبول. وبعض الوجوه من جماعة جاكو كانوا ينتظرون وهم جالسون على مدرج الكنيسة.. وانضمت إليهم طالبات كلية المسرح وبدأن الرقص على درجات الهيكل. كان الشعب ينزل من محلة كارمو ودو تريرو دي جيزوس، ويصعد إلى تابوان، ويدخل في ازدحام بايشا دوس ساباتيروس. كان قد جاء هازجاً مردداً أغنية جيلبرتو جيل:

"يانسان، ها هي يمنجا تنادي شانغو،
وأوشوسي يأمر بالنزول،
لمشاهدة أبناء غاندي،
يا أبي الذي في السماء،
على الأرض كرنفال...".

ترافقه نيلدا سبنسر، فإن جاك شانسيل فتّش في المجموعات المختلفة، مقرراً الأمر بالمسيرة، ولم يكن يخفي الحماس. شيء واحد كان يؤسف له: غياب سيلفيا إزميرالدا التي كان يحسب أنه سيلتقيها وهي ترقص الباريو عارضة أجزاءها. سأل

باتريسيا عنها، وكانت باتريسيا قد تركت معلمها - الأب عند مدخل التريو الكهربائي، بين الوجوه الجميلة، قنصل فرنسا، جاك فلاح، والبرتغالي فرناندو أسيس باتشيكو، والأميركية فرنسا سويت، ووطنيون مختلفون، وجاءت تكمل فريق المسؤولين.

- "أويه سيلفي جونلافوابا؟" - أين سيلفي فإني لا أراها؟

- "إيليه مالاد" - إنها مريضة.

- "كومان، مالاد!" كيف مريضة! يا للأسف! أنا الذي فكرت بأن أحتفل معها بالعيد. عيد الكرنفال، بالتأكيد.

- فقط الكرنفال؟ - تخابثت باتريسيا.

انطلقت نيلدا سبنسر بالضحك، و لم يفقد الفرنسي اهتزازه:

- إنها جميلة.

ضحكت الجميلتان، متواقحتين، أفلم يكن ذاك هو الوقت الملائم للبكاء على سوء حظ الصديقة؟ مسكينة سيلفيا، عندما تعلم أن جاك شانسيل، كبير الفريق، الشهير، الفاتن، المتنازع عليهن والتي كانت هي تتنهد من أجله متأوهة، رومنطيقية، عارضة نفسها، هو نفسه، لا أحد غيره، من يشعر بغيابها في ساعة البدء، وقال، بأعلى وأطيب نغمة، إنه كان قد فكّر في إقامة العيد معها، وتفجير القنبلة.. إنها قادرة على الموت حزناً، المحرومة سيلفيا: فمن أرسلها لتمرض في يوم الكرنفال؟

الكرنفال غير المرتقب، المقام على عجل، المدار لبرنامج "لو غران إيشيكييه" المخصص لباهيا، استحق المال المصروف عليه والجهد المبذول. فجاء بهجة في موسيقاه ورقصه، أهواء مبتكرة، نساء جميلات، سامبا الغرينغو السريع، الغرق، الأفوشيه، سفارات الممالك الأفريقية، حيوية الشعب المحتفل بالعيد الساحر، أفراداً وجماعات، والأغراب تمكنوا من أن يشاهدوا عرضاً لا مثيل له في العالم.

لقد شاهدوا استعراض أبناء غاندي، في موكب هائل في سطوة البياض، وأمامهم غاندي يقود الأفعى. وشاهدوا استعراض جماعة جاكو - ها - جا - كو - تو - باو - كانوا يغنون، وكانت صبايا الباريو المفتوح مغريات، أمام البرهان. في طليعة الصبايا؛ كان والتنيو كيروز يدفع وقع خطاه آتياً معه بلوز دا سييرا، أمه:

ولكنها كانت تبدو كأنها شقيقته.. وشاهدوا جورج موستاكي: يوناني من الإسكندرية، باريسي من جزيرة سان لويس، الكرنفالي الباهياني بعباءة من القطن الخالص منسابة على جسده، معرضاً لالتصاق وقبل لونوكا، الأكثر عرياً من طالبات كلية المسرح.

وشاهدوا، تحت قيادة الرئيس روبينيو، الدوليين، يعرضون أنفسهم على أنغام موسيقى فينيسيوس دي موارِيس المؤلفة خصيصاً للمتبارين من الجمهور. شاهدوا هذا وذاك وذلك، وسجلت آلات التصوير الجنون المنطلق، والعيد بلا قيود وبلا حدود، وانبعاث الفرح، والحرية. بعض المشاهدين الأكثر انتباهاً ألقوا بعض النظرات البعيدة على الأب أبيلاردو كالفاو الواقف في الأعلى عند التريو الكهربائي، وفي يده الرباب، وعيناه على باتريسيا في الأسفل.

حول التريو الكهربائي، كانت باتريسيا تذهب من ذراع إلى ذراع، وكان الهدف يرافق خطواتها، موثقاً الرقصة التي كانت تمتد من تحت قدميها لتتضاعف على آلاف الأقوام من راقصات الباليه والأكروبات. وقد رآها الفرنسيون، هندية، زنجية، وبيضاء: الهولندية باتريسيا دا سيلفا فالسيربرغ، الباهيانية باتريسيا أم الزهور، انفجار الخلاسية.

في لحظة ما عرضوها في حلقة كبيرة ثم طوقوها في فضاء مفتوح على إعجاب الشعب حتى هناك على نغمات الألف، منطلقة، وحيدة، ترقص. كامافيو دي أوشوسي، ابن غاندي في أناقته العلوية في ملابس أفوشيه، يخشخش بعلبة ثقاب، ويتصرف كرائد صالة، في حين كانت باتريسيا، حاملة العلم، ملكة الكرنفال الباهياني، تترنح بالخطوات الأكثر صعوبة، مغالية في الإبداع، تهز ردفيها في الاستدارة، والسامبا في قدمها، جاعلة من نفسها غير قابلة للوصف كي يعرف الفرنسيون كيف يكون الكرنفال، العيد الأكبر للشعب البرازيلي. ولكن، من أعلى التريو الكهربائي لدودو وأوسمار، يراها قسها الجميل المغري، ويرغب فيها.

ملحمة إقليدية

إن وصف الركضة الطويلة لزي دو ليويو في بيلورينيو هي مهمة جديرة – لما فيها من مشقة – بهوميروس، شكسبير، إقليدس داكونيا مع مشاركة مزاحمات

دوستويفسكي أو غوغول: مأساة يونانية ورواية روسية مهمة ذات عبء ثقيل على الكاتب الترفيهي، المبدد للظلمة المدوية وناظم الأرجوزة الصغيرة ذات القافية والروي (دو)، وكاتب باهياني يكتب أدباً شعبياً.. تنقضي عظمة الشعراء الغنائيين، والرهافة النفسية الاجتماعية للوجدانيين، وبريق الأسلوب، والنوعية الفنية، ولا يزيد على المعادلة القلبية هذه إلا شجاعة متهورة هي شجاعة الجهلة – وبها أتابع المسيرة إلى الأمام، أعرج.

طيلة أبدية كاملة، ساعتين من الكرنفال، وسط الجلبة، واللغط، والعديدات من النساء العاريات العارضات أنفسهن، مبغى واسع ومفتوح، كان زي دو ليريو تارة مستعجلاً، وطوراً متأملاً، عائشاً مع الخوف، والخطر، والعبودية والموت.. رسم مخططات، وحلل تفاصيل، وغزا أماكن، وانتهك قوانين، وارتكب أعمال استغلال، تأمل، تخيل، واعتقل، وأخضع للحكم والعقوبة، وهبط إلى أعماق الجحيم، وقتل ورأى نفسه مقتولاً.

بدأت المعركة، تجاوزاً للصعوبات، أيضاً، أمام كلية المسرح عندما صعد القس، ابن البغلة، خلف ظهر مملوكته، والتصق بها، وانطلقت الدراجة النارية لا يعيقها عائق. وتمكن زي دوليريو من أن يستقل تاكسي لحي كامبو غراندي، بينما كانت الدراجة قد ابتعدت، ومن المستحيل إدراكها، ولكن السائق طمأنه: كن مطمئناً، إنهما ذاهبان إلى الكرنفال في بيلورينيو. والله الذي يساعد المؤمنين به، ساعده، لأن التاكسي توقف في الوقت الذي رأى فيه الزوجين المعوقين عقلياً يصعدان إلى التريو الكهربائي. الملعونة نزلت بالتالي، وتركت الهر الوضيع بين الوجهاء: كاهن أكثر نسونة منه لم يرَ، ولم يكن يكتفي مع ابنة العقيد كوستا المتزوجة، وهو، مع كل هذا، حوت أكول.

وإذ رآه مستوياً في مكانه، صرف زي دو ليريو اهتمامه إلى دراسة الميدان والشروط ليستطيع أن يؤدي المهمة بنجاح، في اللحظة المناسبة. إن إرسال محكوم عليه بالموت إلى مدينة "القدمين – معاً" ليكون مسألة موضوعاً لها الحل بسرعة، يجب أن تقتضي بالتأكيد، في ظروف معقدة أقل من هذه، كطريقة مثلى، إعارة الانتباه، وحذراً في التخطيط: دقة رياضية.

فكّر، أولاً، أن يطلق النار عندما يكون الأب عند أعلى التريو الكهربائي، وسيكون سهلاً التركيز عليه من أية نافذة من طابق أول في الجوار. وقد اكتشف

زي دو ليريــو، فــيما اكتشف، الموقع المثالي: الصالة في الطابق الأعلى من متحف المديـــنة حيث كانت معروضة المجموعة المثيرة من التحف الباهيانية، التي تزيد على الـــثلاثمائة. دخـــل إلى المتحف متخفياً، من الباب المقابل، بينما الموظفون، ذكوراً وإناثـــاً، مجـــتمعون في المـــدخل، أمام الواجهة الرئيسية، متجمعين للغناء والرقص الطـــارئ. ومـــن درفة مفتوحة في النافذة، أعجب حامل المسدس بالشعر الطويل السابل غير المسرّح للكاهن، القريب جداً منه، وهو هدف ممتاز. ممتاز، بل "منتاز": إنـــه كان معرضاً لمجازفة كبيرة. بالرغم من التأكيد الكلي من التصويب، يكفي أن يتحرك العاطل حتى يقع بريء قتيلاً مكانه.

إن أصحاب الحياة الطيبة كانوا يتحركون دون توقف ويغيرون مواضعهم في كل لحظة، ويستقرون في أفضل المواقع. زي دو ليريو خرج من متحف المدينة كما دخل، في الخفاء. صموت.

درس طـــرقاً أخـــرى، ولم يجد طريقة تخدمه، كلها مخيفة، لأنها لم تكن توفّر ضمانات للخروج. يستطيع زي دو ليريو أن يجد نفسه مع صريع آخر بسبب خطأ في التـــصويب: واحـــد كان حملاً ثقيلاً، ولم تكن لديه القوة لتحمل اثنين.. وبعد الكـــثير من التفكير وصل إلى نتيجة منها لم يبقَ لديه طريقة سوى مواجهة الأسوأ، وهـــو خطـــر الجـــرم المشهود. الأسوأ يحدث مرة واحدة، ولكن العقيد أولسيس كـــاردوزو آمـــر المهمة وفي ولاية الأغواس، الرجل المستقيم، ذهب ليخرجه من الـــسجن: لم يكن يعرف اسمه ولكنه لم ينسَ وجه المخبول ذاك.. مع ذلك، محاطاً بالقناصـــين، ومجازفاً بالسجن، ومواجهة الدعوة، والانتهاء إلى محكومية ثلاثين سنة مـــن الـــسجن، كان عليه أن ينفّذ الاتفاق، ولم يكن يسمح بتعريض اسم وشرف رجل خير لألسنة الجماهير.

رجـــل خير، ومحترف حاذق، اختصاصي، ويضاف إلى ذلك: صبور. لو لم يكـــن حاذقـــاً، اختصاصياً، صبوراً، فإن الأب الخادم كان يمكن أن يودع الحياة مستأنـــساً وديعاً. وقف خلف التريو الكهربائي وعيناه في من هو والذي، مستعداً للانـــتظار كل الوقت الضروري. الوحيد المتحرك في المكان القريب، مواطن يمتطي حمـــاراً لتكون أفضل رؤية المشهد.. كان القس يبدو كاملاً، بين اللوردات، عندما ينقض عليه زي دي ليريو ليطلق عليه النار ويقطع رأس الهر: إذا تمكّن من الوصول

إلى لاديــرا دو فراو يصبح في مأمن. تسلح بالصبر وبالاحتواء الذاتي، ومنح بعض النظـــرات السريعة للإنصاف السفلي وبطون العاريات، والصدور الصلبة، والأقفية المقوسة، والقس مسؤول، لأن زي صرف وقتاً طويلاً في مراقبة الملعون.

امـــتدّ العيد من الكاتدرائية الباسيلية إلى دير دو كارمو. "تريووان" كهربائيان خـــرجا إلى الشارع، على حسابهما الخاص، دون دعوة ودون عقد، فوضع واحد عـــند ركـــن شارع ألفريدو بريتو، وآخر عند مدخل دا لاديرا دو تابوان. وحضر الرانـــشوس، والأفوشـــيه، والفرق الأفرو – برازيلية، غير المرتقبين من قبل الإنتاج التلفـــزيوني، جـــاؤوا بعفـــوية خاصة يشاركون في الحدث المهم: ويستحق الأمر الاستـــشهاد بفريق دوباراو، وأباش تورورو، وكتلة كوردجاس، وأولودوم، وتجار بغـــداد، وشـــبيبة دو غارســـيا. مع المبالغة العادية ولكن بلا إفراط، فإن المحققين الـــصحفيين قـــدروا بعشرة آلاف الجموع التي استمرت برقص السامبا حتى ساعة متقدمة من فجر اليوم التالي: لم يظهروا بسبب كاميرات التلفزيون، وقد جاؤوا من أبواب المدينة السبعة ليحيوا الكرنفال.

لـــتكوين فكرة عن نجاح كرنفال الفرنسيين – التعبير مأخوذ من قصة قصّها الشاعر روي إشبينيرا فيليو: "أونكور". – يكفي ذكر الرقم الرسمي الذي أدرجته الـــصحافة، كرقم دقيق: بين أكثر من ألفي مشارك من أفوشيه فيليوس دي غاندي الـــذين ســـاروا في الاستعراض بصورة عادية، فإن خمسمئة وتسعة وسبعين منهم اســـتجابوا لـــنداء المديرة. ولاستكمال المعلومة يجب الاستشهاد بتريزا دي مايو، منتحلين ما كتبت يوم الأحد في زاوية الأيام السبعة: تحولت بيلورينيو إلى بحر هائج من الرقص، ومحيط غاضب من الصدور والأجساد العارية، وفرنسا الخالدة، فرنسا فولتير وسارتر كانت قد انحنت مرة أخرى أمام البرازيل. وصف غض، مكسو بنعم الفنتازيا والمعرفة، وشيء من الشوفينية المبررة. جيدة يا حاجة تريزينيا.

بلغـــت الجموع أوج الجنون عندما كانت الكاميرات، في اللقطات الأخيرة، توثـــق الـــصعقة التي لا مثيل لها في موكب أبناء غاندي: جاك شانسيل في الصف الأمامـــي يعانق الرئيس. كان عندئذ أن جاءت باتريسيا تفتش عن الأب أبيلاردو ليستأنسا معاً وسط الناس: كانت قد اشتغلت حتى تلك اللحظة بالذات، كانت قد ساعدت فقط. متحركة بكليتها لتصبح مرئية، وبالصرخات ليسمعها الأب طلبت

منه النزول. تحرك زي دو ليريو، مبتعداً من الشخص المتخلف الذي ترجّل عن الحمار، وإذ جلس وسط الصخب، فانطلق في النوم.. فقط الصعلوك يستطيع أن يأتي بمثل هذه المأثرة: النوم بتنكر كامل. كان الحمار يمضغ ورقة ملونة من الجدار. وكان الناس منهمكين كلياً بموكب أولاد غاندي، يصفقون.

أمسك زي دو ليريو، في جيب معطفه غير المضاد للماء، بالمسدس "تاوروس"، عيار 38، ست طلقات، وكل طلقة قاتلة: اليد ثابتة، والتصويب لا يخطئ، إيمان بالله، ورباطة جأش.. وداعاً يا ابن الناقصة، لقد جاءت ساعتك الأخيرة، فودع الحياة وودع التائهة، فإنك لن تذهب لترقص معها السامبا، وتنام في فراش الحرام، لقد انتهى كل شيء. ولن تتقاسم أراضي الغير، ولن تضع امرأة على صدرك، فالكاهن لم يصنع لكل هذا. وداعاً ابن الزانية، فمن الذي أرسلك لتلعب دور الحيوان؟

هبط الأب أبيلاردو، الطبلة الطويلة بيده، ومدت باتريسيا ذراعها حول الزنار، فتقدم زي دو ليريو، صوب السلاح إلى رقبة من أصبح في حكم الميت، ومن مسافة متر واحد منه، ضغط على الزناد. تحركت ذراعه، هباء، انطلقت قطعة البلاستك، وضاعت الطلقة في الأفق. وعاد زي دو ليريو، مستعداً لتصفية المنحرف الذي تجرأ على دفع كتفه. لم يرَ أحداً، ما عدا النائم، وحماره المنهمك بمضغ الورق المطبوع، اللذيذ، والمغذي.

تقدم الزوجان إلى الأمام في خطوة كرنفالية، ولم يكن لدى زي دو ليريو الوقت ليستجلي ما حدث، فشقّ لنفسه ممراً، وركّز نظره على رأس الكاهن الذي أصبح في حكم الميت، ومن جديد رفع ذراعه وانطلقت الرصاصة في الهواء. وعاد ليحدث الشيء نفسه بالرصاصة الثالثة، مع محاولة رابعة وخامسة، ثلاث رصاصات ضاعت، ولم يبقَ إلا واحدة في المسدس. فأضاع زي دو ليريو صوابه:

إن السرتاوني يموت، يقتل نفسه إذا اقتضى الأمر، ولكنه لا يفقد معنوياته، لأن السرتاوني، كما كتب إقليدس، هو قبل أي شيء: قوي. إن زي دو ليريو احتفظ لنفسه بالرصاصة الأخيرة. جلس على الرصيف ليكون أكثر راحة، واعترف بأن للكاهن شأناً مع الشيطان، وأحس بالشوق إلى زوجته، "أبنديا مومي". وضغط بالمسدس على صدره، في النقطة التي كان يخفق فيها قلب الشجاع، ودّع الحياة،

وبرنامبوكو وطن الشجعان. شدّ على الزناد، وأحس بالدم يسيل، ويلوث المعطف المانـــع، واعتـــبر نفـــسه ميتاً، فأرخى جسده، وتمدّد. لم ينتبه إلى أن الردن الصغير الـــرطب لم يكـــن رطباً بسبب الدم النازف من قلبه المصاب، ولكن من ماء قذرة خرجت من فوهة المسدس؛ لقد غدا مسدس تاروس لعبة من لعب الأطفال.

الصعلوك وحماره

حتى ذلك الحين كان الصعلوك ما يزال نائماً، فنهض سريعاً، وغدا على عجلة مـــن أمـــره. بدين، ذو ذراعين طويلتين، ذراعي قرد، وبسرعة رفع حامل المسدس اللعوب ووضعه رديفاً على السرج الكبير والعريض، حركة غير عادية.. انطلق مع الحمـــار والحمـــل المزعج، وهبط مسرعاً منطقة لاديرا دو فيراو، خبباً وجرياً. وفي محطـــة المسافرين حيث كانت حافلة الركاب إلى ريسيفي تستقبل المسافرين، التقى بزي دو ليريو الذي يعود لتوه من العالم الآخر.

كـــان دون ماكسيميليانو قد رآه، الهجين، يدفع حماره البطيء الوديع، هابطاً لاديرا دا بريفيسا.

في تلك الليلة، أناس كثيرون رأوه دون أن يعيروه أهمية، وإذا كان أحد قد تفرّس فـــيه فقـــد ضـــحك على الشكل الهزلي.. إنه شكل شمال – غربي مألوف، نازح إلى العاصـــمة بسبب الجفاف الذي كان يقتل القطعان والأطفال.. ولو كان ذا لحية طويلة كان يمكن أن يكون مغامراً من داخل كانودوس، بديلاً مسرحياً في فرقة كونسيلييرو.. ولـــو كان يحمل سلاحاً معلقاً على سرج حماره الضخم، البطيء، كان يمكن أن يكون رجـــل مكامن، وأحد أحياء عصابة فيرغولينوفيرير لامبياون.. سائر على بركة الأقدار من داخل كاريري، مخلص للأب سيسرو روماو، الأب القديس والراعي.. كان يمكن أن يكون قاطع قصب سكر، جذّافاً في زورق من زوارق نهر سان فرانسيسكو، قاطف جوز هند، وسعف نخيل وخرنوب، يستعمل قبعة جلدية، يمكن أن يكون راعي بقر في قفـــار شوك الشمال الغربي، عازف صنفور، راقصاً على هواه، هجيناً أبيض – هندياً، كان ذا سحنة هي سحنة سرجيبيـــي.

شمـــالي – غـــربي، لا يكل ولا يمل، شجاع وحميمي، مع جحشه المشوق، الـــسريع، الـــصغير الأكبر بقليل من كبش كامل.. أولئك القليلون الذين يعلمون

أشـــياء عن احتفال "الپادي"، الذين ينظرون إلى الهندي "التارامبي"، أولئك الآتون من ماء، "إيفا"، والشحاذون الموجودون في كل المياه، المثبتون، آلهة التكهن وكهنة إيفـــا، شفعاء الشفيع، أولئك وحدهم كانوا يعلمون أن القصير، البريء، المرتدي سترة مجعدة، رثة، تصل حتى ركبتيه، وينتعل الصندل، ويلف الدخان بورق الذرة، تفح منه رائحة الكاشاسا، هو "إيشو ماليه"، الشاعر والثنائي، وجذع يانسان، جاء ليساعد بطلب منها.

عـــندما صعد الهجين الهندي - الأبيض مع حماره لاديرا دو باباغايو، في نهر فيرميلـــيو، على متن السرج كان يمكن رؤية سوط مجدول من الجلد، في الاستعمال منذ زمن قديم.

الهدوء

انـــساب الأسطول غير المرئي في نهر باراغواسو، بنسق احتفالي. حملت المياه الـــساكنة المـــراكب الـــشراعية، والـــزوارق، والشخاتير، وسط الأناشيد الدينية واللادينية، ورقصات سامبا كرنفالية وتراتيل كنسية، وموسيقى احتجاج، عدة منها ممنوعة من الرقابة، ومحكوم عليها من النظام:

"منطلقاً ضد الريح
بلا غطاء أو هوية،
والشمس تتوزع جرائم،
أساطيل جوية، وحروب عصابات...".

كـــان مجموعها ثماني وعشرين وسيلة إبحار، الأشرعة خفاقة، وعلى الصواري البيارق الملونة، بعضها من القماش، وأغلبها من الورق النباتي، ولكن نسيم الصباح لاطفهـــا. عـــند عبور المرافئ النهرية، كانت البعثة تستقبل بالترحاب من الشعب المـــتجمع عند حافات المراسي. وفي بعض المناطق المأهولة كانوا يمشون في مواكب ويرتلون من أجل نجاح الحملة.

في تلك الأثناء، عندما، لدى الغروب، دخل الأسطول غير المرئي في مياه باهيا جمـــيع القديسين، وأصبح ممكناً رؤيته من الجزر حيث كان الشعب يتجمع أيضاً، متعاوناً، فقد حدث ما لم يكن متوقعاً. إنه السكون، الكامل، المطلق، حيث لم يعد

من همسة للهواء، ولا أية إشارة، فتوقفت المياه، وبدا البحر كأنه سجادة خضراء - زرقاء، وأعطى الانطباع بأنه كان ممكناً المشي فوق الماء. وهبط صمت مطبق فوق المراكب.

كم من الوقت سيبقون هناك واقفين، في الترنح؟ قبل هبوط الليل يحتاجون إلى الترجّل إلى اليابسة في مرسى رامبادو ميركادو، للقيام بالمظاهرة الصاخبة أمام جدران دير القديسة تريزا، وعند أبواب متحف الفنون الدينية، في الساعة التي يستقبل المدير فيها الحاكم والكاردينال لافتتاح المعرض: القديسة قديستنا. كانوا يحملون معهم اثني عشرة يافطة، واثنتين وخمسين لافتة. هل يصلون على الوقت؟

– لقد هزمنا، يا أب تيو، فهذه السكينة قد تدوم أياماً وأياماً.. – قال المنيع غييرا، الذي أصبح في لحظة كئيباً.

– اخرس يا قليل الإيمان، إن القديسة بربارة، أم الرعد، لن توافق. سترى أن السكينة مسألة عابرة، وبعد قليل ستصل الريح عاصفة. – كان الكاهن يسعى إلى رفع المعنويات، ولكنه فقد أيضاً، التألق..

وكان ما هو مرتقب، عندما سمع نشيد قديم منذ زمن العبودية، آتياً من المركب الشراعي "زهرة الليل" الذي يقل عجوزات أخوية سيدة الموت الهنيء:

"يا قديسة بربارة، أم الرعد،
أعيريني ثلاثة مثاقيل،
من البروق والرعود،
لأشتري حريتي،
يا قديسة بربارة، أم الرعد".

أما السيدة كانو، أم الموسيقى والشعر، فقد ارتجلت:

"يا قديسة بربارة، أم الرعد،
أعطيني ثلاثة مثاقيل من ريح عاتية،
ومعها البروق والرعود،
وضعي نهاية للسكينة..."

وانطلق صوت البوق، يغطي البحر، وإذا المعطف الأخضر - الأزرق يطير إلى السماوات. لتكن أينما هي، مشغولة بما هي مشغولة، فإن القديسة بربارة، أم

الرعد، انتهت بأن سمعت وفهمت. وإذا كان أحد يشك ويريد أن يراهن، فقد قبل التحدي، فمن يربح يأكل مجاناً، ومن يخسر يدفع بدل الأسهم النارية.

الممثلون الصامتون السعداء

حصلت أداجيزا على ترضية كاملة.. خرجت من محكمة الأحداث وفي حقيبتها الأمر الجديد من صاحب الاستحقاق الأستاذ دافيلا، بالتسيد على مانيلا، حفيدتها والموصى بها إليها، وإعادتها سليمة معافاة إلى منسكة التائبات في دير دالابا، تحت رعاية الأم الرئيسة لتجمع الحبل بلا دنس، حيث ستبقى القاصر إلى أن ترى الوصية عليها ولا أحد آخر غيرها أن إخراجها أصبح ممكناً. وبالإضافة إلى الأب جوزي أنطونيو، فإن رجلي أمن في خدمة القاضي يجب أن يرافقاها في المهمة لتنفيذ الأمر، بالحسنى أو بالإرغام، مستعملين قوة القانون والشرطة، إذا اقتضى الأمر. وفي حال أية مقاومة – عقبة، مناقشة، اعتراض – من قبل جماعة غانتويس: من زنوج الكوندومبليه وفقاً لقول قاضي الأحداث.

ترجلوا من حافلة الركاب عند ركن الكاردينال داسيلفا، اسم رمزي، وجاؤوا يمشون باتجاه طلعة لارغو دي بولكيريا، حيث، متواضعاً، ومهيباً، يقوم إيليه أومين أشيه إيامانسيه، بيت كوندومبليه دو غانتويس وأكثر فرحاً من أداجيزا، هو الأب جوزي أنطونيو الذي لم يكن يتسع لفرحه.. متخماً من الأكل، وممتلئاً بالرضى، فقد ذهب يقبل في كل لحظة المصلوب المتدلي بحبل من الفضة، طويل، على جبته السوداء والمخيطة بدقة... أنيق الأب جوزي أنطونيو هرناندز.. في شبابه في سيليفيا الإسبانية، عندما كان إكليريكياً شاباً في بزته العسكرية في مسيرات الكتائب، كان قد سيّب كل التولهات.. عشيقتان مخلصتان، وأرملة ثرية أربعينية، وصبية أخرى، تنهدن له – المراهقة تنهدت، ثم انتحرت – هكذا كما لو كان مصارع ثيران مشهور الفتوة ووجيهاً مقلقاً. الصبية الأخرى هددت بالانتحار بابتلاع الشَبيّة، وأما البلزاكية فقد غمرته بالهدايا، هو الفتى المجيد – كان قد قضى في ميدان المصارعة على دزينات عديدة من الثيران التي لا تقهر – واتجه مباشرة إلى الفاضلة يخبرها بكل شيء، ويقدم لها عروضاً وضيعة ولكنها مغرية وحاول أن يقبلها من شفتيها.

إن ممارســـة الحقيقة الأساسية والجوهرية في هذه الرواية الباهيانية، وبما تكون هـــي فـــضيلتها الوحـــيدة، تقضي برواية أن الرذيل والكتائبي المدلل، المأخوذ بوله الكنيـــسة – الأم – المقدسة، والجنرالية، منكراً ذاته بصلابة، الفم مقفل، والعصا في أمـــان العذابات القاسية، – وافترس التائهات الثلاث، والأنثيين المشبوقتين بجنون. وإذا حـــدث لاحقاً شيء آخر، وكان هنالك تلوث، فقد حدث في الحلم، خطيئة عرضـــية، والقليل من الصابون ومرة واحدة "الأبانا" كفيلة بأن تمسح كل أثر على الشراشف، وكل معاناة في النفس.

أصـــم أذنيه لإلحاحات المرأة الفتية، فللكلام المجنون أذنان لا تسمعان، وخجل مـــن مقدمات الأرملة ورفضها دون أن يرفض منها، مجاملة، الهدايا، ستر النوم من الحريـــر الخـــالص، ولباســـات زرقاء وصفراء، وقوارير العطور، وحبل الفضة مع المصلوب المطعم بالذهب: كانت تساوي الكثير من المال، ولكنها لم تفسده. وكان الأصعب من ذلك تجاوز التوله القدري في أن يكون مصارع ثيران، لأن "الريخوزو" كـــان مـــنذ زمن طويل المثل الأعلى للشاب المحرر، قاتل العرب، جوزي أنطونيو، المرتاد الملحاح لحلبات مصارعة الثيران.

حاول، دون نجاح، أن يحولها إلى صداقة ولكن "الريخوزو"، البقرة المتهتكة، كان عنيفاً وفرضياً: كل شيء أو لا شيء، والصداقة هي لا شيء! مصاباً بخيبة أمل، راح يجوب في المكسيك، حيث تصادق مع موسيقي كثيف الشارب يمجّد الحـــب الـــسامي. وهكـــذا أثبتت نفسها الفضيلة الجنسية لدى الأب جوزي أنطونـــيو. أمـــا فـــيما هو متعلق بالتلوثات الليلية: فأترك الصابون و"الأبانا"، للتحريين، الأسمر جوزيليتو ماساراندوبا، المكتمل سناً، والأب لعائلة كبيرة، وفي ســـاعات الفـــراغ صـــانع حلويات ليربح بعض النقود الإضافية لشراء بعض الفاصولياء السوداء لفراخه، وأوغون من أوغونات أوشوسي في إيليه أوغونجا، والآخـــر ذو الشعر المجعد، باولو كوتوفيا، الذي ما زال عازباً، وإن خاطباً، في الأوقـــات المتبقية هاوٍ للموسيقى، وليستأنس فإنه يعمل كمسؤول عن بطارية إحـــدى فـــرق الجـــاز: أخوه شانغو، وهذان التحريان يتبعان الكاهن وصانعة القـــبعات اللذين اختصرا الطريق معلقين على التزوير فوق العادة لأمر إطلاق السبيل مع التوقيع المزور للقاضي. ووفقاً لرواية الأب جوزي أنطونيو، لم يكن

هناك لغز يتم الكشف عنه، لأن التحقيق المعلن عنه سوف يثبت شكوك صاحب الاستحقاق: القاضي.

لقد أوصى القاضي دافيلا بمن ستقع عليهم الشكوك: الكاتب. إن السيد ماسيدو كان يستطيع أن يدخل إلى مقر القاضي في أية ساعة، وكان له إمكانية وصول إلى الورق المدفوع والأختام، ومتعود على توقيع القاضي، ولا أحد أفضل منه لتزويره.. لم يكن ينقص سوى توضيح من طلب إليه أن يقوم بهذا العمل، وكم هو المبلغ المدفوع لذلك؟

بطلب من جيلديتي، ارتعصت أداجيزا. إن الكوندومبليرا انضمت إلى دانيلو ليجمعا المكافأة، البخشيش، إذا كان قد دفعا مالاً. والأكثر احتمالاً هو أنها هي، السامة، صديقة ماسيدو ذاك. هذه الناس الوضيعة، تعرف بعضها، وهي متحدة مثل ظفر ولحم، ومتعاونة في السراء والضراء وقادرة على كل شيء. وكانا قد ذهبا يتحدثان على ذلك المنوال، فاقتربا من كوندومبليه دو غانتويس: واحزر بمن تواجها في جادة الكاردينال دا سيلفا؟ إنه الرجل القصير السمين: كان قد جاء لمقابلتهما وكان يأخذ بحماره من رسنه.

الإيقاع الموسيقي السريع والمتكرر

هوائيات محطات باهية التلفزيونية، التي كانت أبراجها تقوم في ضواحي محلة لارغو دي بولكيريا، التقطت، في عصر يوم الجمعة العظيمة من الآلام المتتالية، إيقاع "أداروم" الموسيقي. كان ذلك الإيقاع يتردد في الآفاق داعياً الأوريشاس الأولى، في مرافئ البداية، من مركب الأياونات الراسي في كوندومبليه دو غانتويس.

سحر وغرابة: فالإيقاع ذو السطوة على الجميع، المنقول بالأقمار الفضائية، راح يتردد من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، ومن الساحل إلى الصحراء مجتازاً البحار، من قارة إلى قارة، ومن بلد إلى بلد، وتسمع في أطراف الدنيا. أية إشارة هي تلك، لم يرها أحد من قبل، وفجأة راحت ذبذباتها تتردد على كل الأقنية؟ من أين كانت تأتي، وأية رسالة كانت تسعى إلى نقلها، ومن أي تقليد، وأي طوفان كانت تعلن، ولأية رؤى مستقبلية تبتهل؟

مجتمعين في البرلمانات والجمعيات العامة، والخلوات الدينية، وقاعات العلوم، فإن العلماء، الأكثر أصالة وشهرة، قسموا أنفسهم وفقاً لطعم الأيديولوجيات الموضوعة، كما هو الأمر دائماً، في خدمة السلطة. وبصورة أدق، سادة السلطة. علماء الغرب، أرباب الحضارة الغربية المتقهقرة والرد - فعلية، أعلنوا أن الأمر متعلق بإشارة مذاعة من كوكب جوبيتر. أما علماء الشرق المدافعون عن حضارة الاشتراكية البيروقراطية والمتسلطة، فإنهم لم يوافقوا لا على الحرف ولا على الرقم: إن الإشارة كانت آتية من نبتون. وتبادلوا الاتصالات التثقيفية والشتائم الكلاسيكية.

اشتعل السجال، وتم تبادل النيران بين واشنطن وموسكو، وبين اليمين واليسار. وإذا بتيار ليبرالي يفرض نفسه متكوناً من تيارين: تيار وسط اليمين، وتيار وسط اليسار. وبيان راديكالي عنيف صدر عن ميول مختلفة مستعدة للنضال المسلح في جوبيتر أو في نبتون، ولم يكن يهم المكان. وتعددت الانشقاقات، وتمّت كتابة آلاف الكتب، وانتفض أصحاب المطابع يطبعون بالأحرف اللاتينية، والسلافية، والعربية، والعبرية، وبالخطوط الصينية واليابانية والكورية، كما تمّ إخراج الأفلام السينمائية، والفيديو، والتسجيلات الإذاعية، وبرامج الكومبيوتر. وإذا بجماعة يابانية غير معروفة من المنظرين الصينو - يابانيين تطلق، بنجاح عالمي، الملامح الدقيقة لبرج بلوتون، برج بوذا وماركس.

السجال الواسع والحاسم مال إلى التقلص في البلاد الغنية، والنامية، ولوحظت إمكانية الوفاق على المدى القصير بين الدول العظمى، ولكن، في العالم الثالث، ويلاه، فإن السجال استمر بين اتهامات وشتائم، والوضاعة التقليدية.

في أفريقيا، وكوبا، وهاييتي، سمع الأوريشاس إيقاع الأداروم، فتخلوا عن الحياة الحلوة، وحمام النهر، وجمع أوراق الغابة، والنقر على الرأس بالأصابع، والمزح بالصياح دون شعور بالوجع، فاجتازوا السماء، واتجهوا إلى حفلات باهيا الموسيقية.

1 - الحرب الحاسمة

لدى سماعه إيقاع الأداروم، اقتاد الصعلوك حماره، واستحث الخطو، مقترباً من الفرقة المحترمة المكلفة بتنفيذ مهمة التعليم المناقبي التي أمر بها قاضي الأحداث.

في محلة كارديال دا سيلفا كان المرور مزدحماً، وكانت السيارات تمر بسرعة فائقة.. ومحتقـــراً قوانين المرور، فإن الرجل المرح وحماره راحا يرقصان كمعلونين في وسط الشارع.

كذلك السيد جوزيليتو مار ساراندوبا، والشاب باولو كوتوفيا، ما كادا يبتعدان قلـــيلاً عن مرأى الثنائي الغريب، حتى خرجا من جديتهما، وابتدءا يتحركان، منفذين الرقـــصة نفـــسها، وكانا بالتأكيد يعرفانها. وكان الأب جوزي أنطونيو يجهل الخلقية الوثنـــية لرقـــصة الاهتزاز، رقصة الوداع الخاصة بتحية إيشو الباسط ملكه: "لاروبي"! ومـــع ذلـــك فقد أحس بالخجل لحضوره المشهد المنحط: إن خادمين في العدالة، مع كـــونهما متواضعين، يسلمان نفسيهما للتهتك في وسط الحياة العامة، وبصحبة شخص لا تـــصنيف له. وما القول في البغل؟ أين رأى أحدهم حماراً بحافرين يرقصان الفالس؟ بالإضـــافة إلى ذلك، فإن راقص الباليه ذاك يعيق حركة المرور، مجبراً الخلائق على تغيير مسيرها، وعلى استعمال المكابح والانعطافات، وفقدان الاتجاه.

– مـــا معـــنى هذا كلّه؟ "كييه هسين أوستيدس؟" – كان يمزج اللغات دليلاً على الانزعاج، مخبولاً من الجسارة والفوضى المفاجئتين.

الصعلوك، البهلوان، الشفيع، الشمالي الغربي الموجود في كل الطرقات، إيشو مالـــيه، الزنجـــي، فـــتح فاه فبدا منجماً، ومدَّ لسانه المعدني، المتقد، مثيراً الكاهن المـــشتعل. انـــصرف! قال الكاهن وهو يشعر بالاعتداء.. فردَّ عليه الحمار برشق ضرطات، بينما كان إيشو يحدق في وجه أداجيزا.. أمامها، عيناً بعين: كانت عينا "إيليغـــبارا" جمـــرتين. وأحست أداجيزا بالهزة الأولى، والتراجع الأول، دليلاً على وصول أوريشا القريب، ووضعت يدها على فمها، وطلبت النجدة:

– أنقـــذيني يـــا سيدتنا، أنجدني يا أبا السماوات! تواجه النقيضان وكما في النـــشيد الطويل المغنى للشاعر كاسترو ألفيس، التعصب والتسامح، المعرفة والحلم المـــسبق، العنصرية والتمازج، الظلم والحرية، في المعركة الملحمية بين أوريشا وإله الغـــضب، في الحـــرب الحاسمة. تلك المعركة تقوم في كل أصقاع العالم، وفي كل لحظة: ولا تبدو نهايتها.

كانت المواجهة سريعة، ودامت الوقت الضروري، ودون ثانية إضافية، وبدت أن لا نهايـــة لها. كان السائقون والمارة يتابعون غير مكترثين بالسيارات السريعة، دون أن

يهـتموا بمـا كان هناك، في جادة كاردينال دا سيلفا، التي تحمل اسم الخالد، المتشيع، الطائفـي وحـارس العقـيدة، الصلب، عند أسفل لارغو دي بولكيرا، الذي يذكر بالأيولوريـشا المولـودة عـبدة، فقـيرة، مخلوقة لطيفة، وحيث كانت تتواجه الضعة والعظمـة، الأمـس والمستقبل، دعوة الموت وحب الحياة. في فريق الظلمة والتجهيل الأب جـوزي أنطونيو هرناندز، الكتائبي، وإحشاء الصليب المعكوف، وفم الطرد من الكنيـسة، والتعابير المحرقة. في حرب الإنسانية، "الأوريشات" الثلاثة الذين جاؤوا من أفـريقيا كانوا أوشوسي، شانغو وإيشو ماليه. وفي أوج العدو ليربحوا مالاً، كان المشاة يمـرون عمـياناً، في عجلتهم للوصول بأسرع ما يمكن. وحدها الصبية روزانا كوفوا، الـسكرتيرة، وراء مقود سيارتها "البوغي" المستعملة، وهي تمر بطيئة باستمرار، سألت زوجها هومبرتو لأي سبب ذلك الكاهن الغاضب، والصليب بيده، كان متعجلاً باتجاه السيدة الجاثية على قدميها.. لم يكن هومبرتو يعرف و لم يكترث.

السيد جوزيليتو والشاب كوتوفيا، أوشوسي وشانغو، الزوج والعشيق، كانا يرقصان حول أداجيزا دليلاً على الترحيب والشوق، ودعوة لحفلة الكارورو المعلنة في سـوق دا بايشينيا. والتفت أداجيزا على نفسها، وعضت على شفتها، وعيناها متقدتان غضباً:

لم تعـد قادرة على تمييز العصر الملتهب من الشمس، وأخذت تحس بطلوع الفجـر، وصباح الولادة الجديدة. وأخذت شفتاها تتمتمان بأشياء غير مسموعة، فإذا بصوت ينطلق بثلاث صرخات في الهواء، وكل صوت أعلى من سابقه. الأب جـوزي أنطونـيو، في أعنف سَوْرة التياع، حرّك الصليب فوق رأسها، وصرخ، بصوت متقد بالتعجب والإدانة:

"كيـي تي باسا، هيجا؟ كونترولاتي دشفرا سيادا" – ما الذي يجري يا ابنتي؟ راقبي نفسك أيتها التعيسة.

حاولت الإسبانية المنورة أن تراقب نفسها، كاثوليكية القديسة "أنكيزيسيون"، وفتـشت عـن طريق للهرب من الزحام، لتهرب من القديس. مرت بيديها على جسدها، من الأعلى إلى الأسفل، لتبعد السوائل، وتحتفظ بقوة أوريشا. منع عليها المرور مقفلاً الباب المفتوح بالمزلاج عندما ترجلت الأم من القمارة دون أن تتخيل أنها كانت تحمل في أحشائها ابنة "دون باكو".

- انتظري يا ابنتي! سوف أحررك من الشيطان! الآن بالذات!

وقعت أداالجيزا على ركبتيها، واليدان مفتوحتان، والذراعان ممدودتان إلى السماء، إنها لا تريد أن تتخلى عن كونها سيدة.. وبينما هو يأخذ بيده الصليب المعكوف كما لو كان يحمل ويشهر سيف القديس دياغو، قاتل العرب، فإن الأب جوزي أنطونيو أسرع في تحريرها من السحر:

- "فادي ريترو ساتاناس" - اذهب بعيداً أيها الشيطان!

لم يذهب الشيطان، لم يطع الرقية، بل على العكس: سريعاً، فإن "سيتي بينوتس" جاء من فوق الساحر، يرافقه الحمار الراقص. كان القصير البدين يحرك السوط في الهواء وقد سحبه من السرج، وراح الحمار يرقص على إيقاع الباسو دوبليه، وهو يضرط، يلبط، وينهق. لدى المحاولة للهروب من الدائرة، فإن الأب جوزي أنطونيو تلقى على قفاه لبطة قوية من الحمار، الذي راضياً عن نفسه بلا شك، رفع ذيله وأظهر أسنانه ونهق، منتهكاً متهتكاً.

تمدّد الأب بطوله في وسط الجادة، كمن يمشي في غابة.. وإلى الأمام، منهكة، تمددت بجسد ميت، الرأس مصدع، وكان وجع الرأس مزمناً عندها، والتنفس متضيقاً، لقد كان قلبها الحجري دامياً، ولا يمكن تصديق ذلك!

وظلّ معلوماً في تلك المناسبة أن الأب جوزي أنطونيو هرناندز، فم المطاولة، وأحشاء جبان، لم يلد ليكون شهيداً، وكان ينكر كفي التضحية. حرّك ذراعيه وعاد مقترباً من الشياطين الثلاثة، المستعدين، بلا أدنى شك، لإنهائه.. كان جوزي أنطونيو راغباً في إنقاذ حياته، وإذا أمكن، بالمحافظة على كليته.. بالنسبة إليه، الشياطين والاشتراكيون والأوريشاس والهيبيون كلهم سواء.

القتلة المخيفون، من الأوريشاس المزاحين، وبعض الفوضويين، أحاطوا به ضاحكين، في ذروة الزعل. واكتفوا بالقليل: نزعوا عنه ملابسه ثلاث مرات متتالية وتركوه عارياً، أو شبه عارٍ، لأنهم تركوا عليه جواربه القذرة وحبل الفضة مع الصليب المطلي بالذهب.. وفي النهاية ضربه إيشو ماليه على قفاه الضعيفة ليرسله. متعثراً ثم واقفاً، اجتاز الأب جوزي أنطونيو جادة غاريبالدي، ثم رمى بنفسه في أوندينا: وكان المارة يصيحون: انظر إلى الكاهن عارياً! لقد غزا بيت الأستاذ كارلوس ماسكارينياس، الثري الكبير، والمعروف بكارلينيوس

كافاكينيو، وكارلينيوس – ماو – دي – غاتو، بسبب مهارته الفائقة في العزف ولعب الورق.

وقد علم الوزير بجامع الحسنات، وإذا لم يكن قد قدره، فقد استقبله بفخامة، وعاد إلى مرافقته بالويسكي مع الثلج الخاص بالماء:

– إنك تريد أن تبدو كآدم، يا كاهني القديس؟ هل تهرب كالزوج المخدوع؟

– وحرّك الكأس على شرف الواهبة.

ولكـــي يتمكن الكاهن من الوصول إلى كنيسته دون أن يعرفه الزنوج، فقد أعـــاره عـــباءة كـــان قـــد ارتـــداها في الكرنفال الأخير: عباءة سوداء جديرة بميت فقير، مع جمجمة بيضاء عند الصدر. ونظارتان سوداوان ليموّه بهما وجهه.

قوس التحالف أو "أوشوماريه"، قوس قزح

المـــشرفون الثلاثة سحبوا السرج عن ظهر الحمار ووضعوه على أداجيزا التي كانت تعتصر نفسها في تمتمات الفرائض. سرج كبير جداً فوق الوركين، جعل قفا دادا أكثر إيحاءً، وكذلك ذيل تنهدات دانيلو.

في معـــبد غانـــتويس، في القمارة السرية للاستعدادات، جاءت يانسان لتعلن مانـــيلا، "أيـــاون" رائعة، ومهراً أصيلاً: ستكون أعجوبة عندما تظهر وسط حلقة الكاملات، لا سيطرة عليها.

وإذ أقـــرت حقـــوقها فـــوق رأس مانيلا، وتمّ التأكيد على جودها، تركتها أويا مـــرتاحة، متمددة على المسند، ورأسها مفروك، ووجهها مصبوغ بالأزرق والأبيض، وعلى مفاصلها حنجلات الخضوع. يانسان، ابتسامة عريضة، وفقط عند ذلك جاءت تعلن عن نفسها في الجادة في ضوء البروق، وفي صرخة الحرب، في الرعد. قفزت أبعد مـــن أبـــراج التلفزيون، وهبطت على أداجيزا: وأمرت إيشو ماليه بوضع السرج على المتمردة، وامتطتها، وأوفت بالوعد. لم تستعمل السياط بسبب دمعة ذرفتها المربية البلا روح، الأم بالوصاية، على مانيلا حين وضعتها في منسكة التائبات.

وبعـــد أربعين سنة بعد أن عملت من نفسها قديساً، كادت تكون في بداية التكون في رحم أمها أنديريزا، تخلت أداجيزا عن حال الشريعة السرية، واتخذت لها طـــريقة ابـــنة أويا يانسان.. يانسان السرج، المأتي على ذكرها كثيراً في محادثات

الكوندومبليه الشفهية. وفي اليد، بدل الذيل - الرمز، سوط من الجلد هو ذاك السوط نفسه.

أوشوماريه، قوس.. قزح، أفعى ذات رأسين، القديس برتلماوس بأسنانه الثلاثة، قوس التحالف، مدَّ في سماوات باهيا الطيف الشمسي، وفتح علبة الألوان السبعة، طريق الغرابة - كان الحمار أول من دخل ينفث الهواء. وفقاً لما يقوم به بعض القصصيين من ذوي الخيال المحدود والثقافة التنبؤية، لقد كان الحمار هو نفسه الحمار المشار إليه في العهد الجديد الذي قاد العائلة المقدسة في هربها من مصر.

لا يفترقان، أوشوسي وشانغو، حبيبا يانسان دخلا في قوس قزح من بابي الأخضر - الأزرق، والأحمر والأبيض. معاً ذهبا إلى الغابة، والصحراء، أراضي أيوكا. ذهبا يغنيان مقطوعة لكايتانو:

"من راهن ليرى
تعلم،
من في الجهة الأخرى،
من الجهة
التي هي هناك من جهة،
هناك،
هو من جهة هناك...".

السي جوزيليتو ماساراندوبا والشاب باولو كوتونيا وجدا نفسيهما وحيدين في الجادة. إلى أين ذهبا ليتوقفا! الأب القديس، من الخارج جميل الرداء، ومن الداخل خبز محروق، والسيدة التي لا تزال تفتح الشهية: ألم يخجلا من أمر ذهابهما دون أن يودعا، لأنهما معتادان على التعامل مع الناس غير المعتبرة، يا لهما من حقيرين، وإن شكراً جزيلاً يقولانه، ولا عشرة نحاسيات لنقتل العطش. السيد جوزيليتو، كونه مدعواً إلى كارورو جاسيرا، الرفيقة الطيبة، جاء معه زميله لمشاركته الحفلة:

- سيكون الأمر رائعاً بما فيه ومن فيه.

"لاروييه"، إلى هناك ذهب إيشو قفزاً هوائياً: وأقفل باب قوس - قزح. وراحت أويا تضرب في طرقات المدينة، الداخلية، والخارجية، والسرج على ظهرها: "إيياريه".

حفلة "الكورورو"

على امتداد منطقة "دو تريرو دي جيزوس" إلى متسع "دوكارمو"، في المركز التاريخـــي، وميراث الإنسانية، اشتعل كارنفال الفرنسيين حتى الفجر: آخر المحتفلين بالعـــيد لم يـــتوقفوا عـــن اللهو إلا عندما أقفل سطوع الصباح باب قوس – قزح وأضاء يوم السبت "بالهاليلويا".

الفرنـــسيون، بالمناسبة، انسحبوا بعد الخامسة مساء، مباشرة بعد التسهيلات الأخـــيرة لمشهد الجموع الراقصة للسامبا، الكبير والمتسع، وكذلك تفاصيل جسد باتريـــسيا، المـــثيرة، الملهبة، المعروضة أمام الأب أبيلاردو كالفاو، راقص الكرنفال عنوة، في اختلاجات النـــزاع.

وإذ وضـــعت المعـــدات التلفزيونية في الفندق، فإن الغرباء تراكضوا جميعاً، ليـــستجيبوا للدعوة الملحة، إلى كورورو جاسيرا دو أودو أويا، في سوق القديسة بـــربارة. وكان ميرو قد تحمل مسؤولية المجيء بهم. لم يغب أحد منهم، من الرئيس شانسيل إلى الشاب ذي الشعر الملفوف والحلقة في الأذن، الذي كان يبدو منحرفاً وقد لا يكون كذلك.

الكـــورورو المقـــدم وعلـــى رأسه جاسيرا لم يكن لسبب خاص، ولم يقدم الوعـــود، ولم يعـــرض ذبيحة مطبوخة مع الذرة الصفراء والفاصولياء السوداء، بل كان يهدف ببساطة إلى الاحتفال بيانسان، سيدة السوق، وشفيعة واجهة التخشيبة الـــتجارية. وكانـــت أيوا لتأتي بعد أن تستحم في الينابيع، وخزانات المياه، والآبار المحفورة في المدينة، وفي بدايات الماء، في إيتاباريكا.

أما "إيلويو"، عراف المستقبل، الذي كان قد وصل من احتفال غانتويس قبل البارحة، فأسرّ إليها بأن المشرف سيكون في المدينة في زيارة ليهتم بعمل ذي طبيعة جوهرية، ومن أسرَّ إليها كانت تعرف الأشياء، ولم تكن أياً كانت، أو أحد أولئك المـــدعين للمعرفة الذين يظهرون في بيوت الكوندومبليه معقدي الأعناق بالماركات المـــسجلة. إنـــه حجـــة عظيمة لجاسيرا لتجمع أصدقاءها، في حفلة صداقة كانت

للكـــثيرين، ولإنقـــاذ أويا، أمها، وهي تدين لها بكل الخير الذي يأتيها من التجارة والحب. لقد خرجت تدعو من في السماء ومن في الأرض.

كـــارورو قـــيم: اثـــنا عشر صندوقاً من عصير الإجاص. أصحاب التخشيبات والأكـــواخ ســـاهموا بشراء المواد الغذائية، ومصانع الجعة قدمت عدة صناديق حديدية كـــبيرة مـــن منـــتوجاتها، ودخل الأستاذ زيزي كاتارينو، المحامي المحلف، مع ليترات كوكتـــيلات الكاشاســـا بالعصير التي أوصى عليها لدى التاجرين بالمفرق في السوق: فـــيلار وديوليـــنو. كوكتيلات الليمون، وجوز الهند والإجاص، والكاجا، والأفندي، ومعهـــا كوكتيل الكاشاسا: غزارة، تنوع، ونوعية. أما القديس الشفيع فإن ابنة الملك كانـــت تحتفل به في البيت، في الرابع من كانون الأول/ديسمبر، مقدمة كميات كبيرة مـــن الكافيار والشمبانيا، على عشاء من المدعوين المختارين. لا لأنها هناك بلباس ثرية بيضاء كانت يانسان تحتقر الوليمة، بل لأنها لم تكن تربي في داخلها الأحكام المسبقة.

جاســـيرا دي أودو أويـــا لم تكن تعد الأصدقاء بأصابعها. كانت تمتلكهم، ومن الجـــيدين، لـــيس فقط بين الناس البسطاء الذين كانوا يكتسبون خبزهم اليومي بعرق الجـــبين، أصـــدقاء القلب، أمثالها، ولكنها أيضاً تحصل عليهم من الدوائر المالية العليا، الـــسياسية والثقافـــية. فهـــي قبل أن تتفرغ لمسؤولية التخشيبة في سوق بايشينيا، فإنها كانـــت تديـــر نـــزلاً سرياً في أمارالينا: أما التخشيبة، فقد ورثتها من أخيها، الوحيد، الأعزب، وذي الحياة السيئة الذي قتل برصاصة في محنة توزيع الأرباح في ليلة الخلاف.

وإذ كـــان المكان حافلاً بالعديدين، فمن الأسهل تعداد من لم يكونوا في حفلـــة جاسيرا الذواقة.. ليس ممكناً إدراج أسماء كل النبلاء الكبار الذين كانوا هـــناك يمـــصون أصابعهم - إن الكورورو لا يمكن أن يكون ألذ مما كان، وإن مـــصنوعاً بـــيدي أنالـــيا دو يمـــنجا - يـــتلمظون بالكوكتيلات، يتحدثون، ويـــضحكون، ويتحافون. وتقتصر اللائحة على الأسماء القليلة من الشخصيات التي هي شخوص الذين أوصوا بما تم الكلام عنه في هذه المذكرات اليومية لزيارة يانسان إلى مدينة باهيا في ذلك العام المشار إليه بعام معرض الفنون الدينية الهائل الذي ما يزال يذكر حتى اليوم.

في محادثـــة حـــيوية مع شانسيل، فإن عزيزنا وضيفنا المكرم حتى اليوم، الأستاذ جـــوان باتيستا كان يبذر فرنسيته الخالصة بلهجة سرجيبية تثقل عليها: كان يفسر له

الكارورو المصنوع من اللحم المطبوخ مع الفاصولياء السوداء والذرة الصفراء، ودجاجة "شينـــشين" المحشية بالرز واللوز والجوز والبهارات نصف الحارة، والفاصولياء الخضراء المبـــتلة وغيرها من مزات المطبخ الأفريقي الباهياني، وكل ذلك بخبرة وعلم ورضى. أما الناقد الفني أنطونيو سيلستينو فقد كان يقطر معه ويتباهى عالمتي آثار بديعتين – جميلتي المتحف وجميلتي الجسم – وثالثة بجمال الاثنتين الأخريين، ولكن فقط بالجسم: لم يكن لهـا لقـــب جامعي لتحمله، فحملت فقط الذيل، وكانت تستحق لقباً ما، مثل لقب أستاذ شرف جامعي، أو حامل دكتوراه فخرية.

وفي ولـــيمة الأرســـتقراطي النبيل في سان جواو ديل ري، كان يمكن مشاهدة الشاعر البرتغالي فرناندو أسيس باتشيكو، ذي الفضول في معرفة المزيد عن عادات باهيا الـــتي تـــسحره.. أمـــير الـــشعر في كويمبرا جندل وبرجولة، عدة صحون عميقة من الكـــورورو، وارتـــشف متذوقاً عدة كوكتيلات مختلفة الطعم، وكما تمّت ملاحظته لاحقاً، فقد سقط عليه الإلهام في الحفلة فنظم قصيدة محكمة مبنى، ورؤية، ومشعة كراية الحرب. مكملاً الغداء بين الظهر والمغرب، فإن صاحب المؤسسة ولسن غيمارايس فييرا وكاتـــبه المخلص دانيلو كوريبا أصبحا أكثر اتقاداً من الجمر في ملذات كوكتيل عصير الإجاص، والبيرة المثلجة. وكانت شعبية نجم الكرة السابق في إيبارينغا المبعد عن ميادين كرة القدم منذ سنوات، كانت لا تزال حية: كانوا يأتون ليشدوا على يده ويغمروه:

– كيف هي حالك يا سمو الأمير دانيلو؟ ألم ترد السيدة أداجيزا أن تأتي؟

أداجيـــزا لم تكـــن ترتاد تلك الأماكن، ولا تظهر في وليمة كورورو، لأنها كانـــت تـــستنكف من مثل هذه الأشياء. وكان دانيلو قد أخّر رئيسه وصديقه في ميركـــادو دا بايـــشينا وفي نيته أن يؤخر ساعة العودة إلى البيت. عليه في البيت أن يـــواجه غضب دادا، وسيكون هناك نجنا يا الله. لم يندم بين الحيوية والخوف. قرّر الوصول إلى البيت متأخراً، مفشلاً نقمة حياته: إذا وصل سكران فالأمر أسهل. في كـــل الحـــالات كان لا بدّ من أن يسمع خلال ربع ساعة من الزمن الشكاوى، وانفجـــارات الغضب، والتهديدات، ودادا مصابة الصداع، لدى عودتها إلى ركن الاستقبال وهي تحس بالمرارة. أخيراً فليكن ما شاء الله.

ويجب الاستشهاد أخيراً بالأب أبيلاردو كالفاو، قس بياسافا في مروره المحرج بالعاصـــمة. كان يحاول إظهار حيوية مرحه، فقام بتشريف الكورورو، وارتشف

كوكتـيل الكمثـرى، مشروب الآلهة، ولكنه لم يكن يستطيع أن ينسى ما تعلمه بارتـشافها صامتاً.. الغياب الذهني لم يكن آتياً من وجود عملاء الشرطة الفدرالية والمفـوض باريـرينيا، في ميركادو، وكان مزاحماً للشاعر أسيس باتشيكو في مدح وإطـراء الكـورورو.. إن انشغال الكاهن كان بسبب باتريسيا التي فقدت كلياً الـسيطرة على نفسها وراحت تبدي نفسها مستعدة للوصول إلى مسالك الواقع. كانـت تأخـذ الكاهن من ذراعه، وتلقمه الأكل تلقيماً، وتمر بيدها على وجهه، وتحـك في الشعر المجعد، المرتد بدوائره، وتهمس في ركن مسمعه، وتناديه بقديسي سـان سيباسـتيان الممتلـئة جعبته بالسهام، وحبل الله، وإلهي الصغير، وخروفي، وجميلـي، وتقـول حبي بصوت خفيض، وتلتصق فيه، وتحف نفسها به، وعضت أذنه. وقبّلته في عنقه - ومع كل ذلك لم تكن ثملة في حين كانت فرحة جداً.

يانـسان، غير وديعة وعازمة: اليوم أو أبداً.. الأب أبيلاردو بين نارين، بين الـصليب والقـيظ، الخير والشر، متوقد وفاقد لمعنوياته. إن الكاهن لا يستطيع أن يتزوج يا باتريسيا، والنذور لا تسمح بذلك. كانت باتريسيا تبدو كأنها لا تعرف، ولم تكـن علـى علـم بالمنع القدري. لم تكن وحدها تنكر الزواج، ولكن قلب الكاهن كان ينكره أيضاً، القلب المحترق بالحب الملعون.. والخصيتان، إذاً؟

جمهور الكوندومبليه، غفير. ما عدا الأم أولغا دي تيمبو، أولف دي يانسان، ملكـة الآلاكاتـو، كان يميز الحضور وجود الأب أردي أوشاغيان، والعراف نيزينيو، مانويل كاركيرا دي أمورين صاحب بيت - قديس في موريتيبا، ماريو أوبا تيلا، مصلح أحذية، وبئر معرفة، وأب القديس لويس دا موريكوسا الذي يغـار من إيشو سيتي بينوتس، والأب بالبينو دي شانغو، أوريليو سودري، أوغان دو بوغون، وكلهم في اللباس الأبيض لأن اليوم هو الجمعة، يوم أوشالا. وأكثر من ذلك كان اللون الأبيض طاغياً على بزات المدعوين إذ حتى من لم يكن قديساً كان يخضع للعرف.

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة وأشرفت الوليمة على النهاية، والمشروبات علـى البداية، ومحلة وميركادوا متخمة، عندما، باقتراح من العراف نيزينيو جاؤوا مـن تخشيبة العربي جميل بالطبول الموضوعة هناك لحراستها بأمان. وفي الكورورو كان فيض من العازفين، وتقدم أحد رؤساء الفرق. كانوا قد قرروا وضع الفرقة في

فضاء أكبر، في المكان الذي أخرجوا منه الأواني والصحون. وبدأت تقرع الطبول، وقامـــت بعـــض الجميلات يرقصن، كانت الأولى جيلديتي، وليس من الضروري القول. وأطلقت أولف أغنية تحيي بها الأوريشاس:

"أغو ليليه
أغو لو داكيه
أوو شاووردة..".

بعدها حيَّت يانسان صاحبة العيد وسيدة السوق:

آي إيولويا
آي إيالويا أوو... أوو...

لم تنهِ الغناء: إذ كانت قد تجاوزت كرنفال الفرنسيين ظهرت أويا عند الباب المركـــزي، ووصـــلت تهـــز جسدها، تتمتم بكلمات الشوق، وتبصق ناراً، وعلى ظهرها السرج وبيدها سوط الجلد. أداجيزا، يانسان السرج، لم يرها أحد من قبل وتجهـــم الجمـــيع. وشاع الضجيج في جوانب السوق، وإذا جاسيرا دو أودو أويا تـــتمدد علـــى الأرض، كمـــا لو كانت في أرض عفراء واسعة. كان صحيحاً ما أخبروها به سراً: يانسان كانت في المدينة، وقبلت بالدعوة إلى الكورورو، وجاءت تحـــتفل. رفعـــت أويـــا ابنتها وعانقتها ثلاث مرات. وخرج القديس من سجنه، فصعدت أودو أويا جاسيرا، وامتدّ الرقص.

وصـــلت اليانـــسانات، الـــواحدة تلو الأخرى.. وكان المدعوون يتدافعون، فجميعهم يريدون أن يروا. وامتدّ قرع الطبول، وسمعت مرافقة الدندن والكاباسا. وانطلقـــت أولغا دو ألاكيتو، وحصانها يخب، مبتعداً، فيا للروعة! بعد ذلك حضر أوبياســـي، زعيم أمة العجول الحمر، فامتطى مارغاريدا دو بوغون، مارغاريدا دي يانـــسان، وامـــرأة الأوغون أوريليو. بالتالي، جاء دو فيرا دي فولودو، كانت قد وصلت في ذلك اليوم من ريو دي جانيرو.

عـــندما أخـــذ الأب أبـــيلاردو علماً، كانت باتريسيا مأخوذة بالقديسة، قد خلعـــت نعليها ودخلت في الحلقة. رقصت اليانسانات الخمس حول أويا المسرجة الـــتي كانـــت تقـــدم للشعب ابنتها أداجيزا التي، خلال أربعين سنة من الأحكام المـــسبقة، ظلـــت غـــير قابلة للخضوع، ولكنها الآن وديعة ومطيعة. متكلمة بلغة

الجوروبا، ولاتينية الكوندومبليه، أمرت بنـــزع السرج، وكان الشعب قد رآها في شـــوارع المديـــنة، وضحكت الأغلبية معتقدة أن المسألة تقنع، ولكن البعض منهم فهموا وابتسموا بتكتم. ينـــزينيو، ماريو أوبا ثيلا وجيلديتي قاما بالواجب، ووضع الـــسرج في تخشيبة جميلة. وإذ انتهى العيد، فإنهم فتشوا عنها، ولم يعلم أحد كيف يعطـــي خـــبراً عـــن ذلك، شيء كبير وثقيل، فقد اختفت كما لم تختفِ القديسة بربارة، أم الرعد نفسها.

ست يانسانات تبارين في كورورو سوق بايشينيا، وكلهن جميلات حتى الموت، وكانـــت يانسان أداجيزا أجملهن، ولا يمكن مقارنتها. فقط من رآها ترقص، بنصفها الأعلى المهتز، رافعة ردفيها المدهشين، يعرف بكم من القضبان يصنع السرج.

كان دانيلو قد أطال المكوث في داخل ماركادو، وقد أنهى تخطيط الحيلة بينما كان يناقش موضوع ضربة الجزاء المثير الذي سجله الحكم البارانايبـــيي الذي منح الفـــوز لسانتا كروز في مباراتها ضد باهيا، منذ فترة قصيرة. كان الحكم قد خرج مـــن الملعـــب مسحوقاً بثقل الذين ارتموا فوقه، وفي لحظة، سمع دانيلو أحداً يناديه باسمـــه، وكـــان صـــاحب الصوت، الكاتب ولسون الذي يناديه عصبياً مذهولاً. ووصـــل بطل الملاعب السابق وبيده زق البيرة، ونظر إلى حيث كان يشير رئيسه وصديقه بإصبعه، وكاد أن يقع على ظهره:

– يا إلهي، إنها دادا!

ممتطـــية أداجيـــزا حصانها ذا المتن العريض، فإن أويا جاءت متجهة إلى دانيلو الطيب وسلمته سوط الجلد وأخذته من فخذيه، وعلقته كما فعلت مانيلا مع ميرو، وقدمته للشعب: وكان أوغون جديد في بلاط يانسان، مفضل عندها.

عندما جاء الليل بدأ العيد يهدأ، وذهب كل واحد إلى بيته. وسلمت أويا السيدة أداجيـــزا أم الـــسرج إلى الأب القديس "البابا لوريشا". لويس دا موريكوسا: اهتم بها بـــرهافة. وظلت طيلة أربعين يوماً تحتل قمارة "إيليه" لتتعلم النقاط، وخطوات الرقص، وأغاني القديس، متحررة من الصداع، والتعصب، والخراب:

"كنت قد أغلقت الباب
وعدت فأمرت بفتحه".

البرنقة

العقوبة

أملــيت العقوبة في الساعة السابعة مساءً عندما حلّ ظلام الليل مكان ظلال الغسق فوق بحر الخليج وجبال المدينة. تركيب المعرض وصل إلى نهايته، وختمت، في آخر وأدق التفاصيل، التعهدات.

اهــتم دون ماكــسيميليانو بكل شيء، وظلّ منتبهاً لكل شيء، لا يفوته شيء. رافق حتى الباب الأصدقاء الأربعة: جيلبربرت، ليفا، سيلفيو، جايسون – وشــكر لهــم تعــاونهم بالكلمة الأكيدة لكل واحد منهم، ولم يفد بشيء ما هــو مــتعلق بقــراره في الاستقالة، ولكنهم كانوا يحملون الشكوك، إذ إن في معايــشة الأخ الإكليركي كان الصمت خروجاً على المألوف لأنه كان يتكلم عامياً.

جَمَعَ الموظفين، وأملى عليهم الأوامر الصاعقة، كما هي العادة. ليس لأحد، وإن لأعلــى ممثل في السلطة، حق الدخول إلى غرف المعرض حيث سيتم العرض، قــبل أن، هو دون ماكسيميليانو، بشخصه ولا أحد آخر، يعطي أمراً. السلطات العلــيا – الكارديــنال، والآمرون العسكريون الثلاثة، والسيدة ريجينا سيماوس، ورئــيس البلدية، والمطران المساعد، الأستاذ نوربرتو أوديبرخت، والمصرفيان أنجيلو كالمــاو دي سا آي لافاييت بونديه، دون تيموتيو وكاريبيه – سوف ينتظرون في مقــر المديــر، والمدعــوون الآخرون والصحافة في غرفة الأرشيف. كان عليه أن ينــسحب لــبعض الراحة، ولا ينادونه إلا حين يتلقون من المطار الخبر عن خروج وزير التربية. قبل هذا كان يرغب في عدم الإزعاج: أما إذا كان المزعج صحفياً فلا نــتكلم.. أمــا الموظفون النكرات وخبراء المتاحف فكانوا يجدونه عصبياً ومكتئباً، فأحاطــوا بــه بطاعــة مليئة بالحب، وبلا عزاء: في استعدادات كهذه تعود دون ماكسيميليانو أن يضحك ويمازح، ويلقي النكات حول الحديث ليجعل الأعصاب أقل توتراً، رافعاً من معنويات مساعديه.

وقبل أن ينسحب أجاب على مكالمة الكاردينال الهاتفية، وأصغى إلى العقوبة، فقلب سحنته، وهزّ للكاردينال بيده خفيفاً، أحنى رأسه: العقوبة لم يكن لها وقع.

صورة القديسة ذهبت إلى العظيم الرائع: انتهاء تحقيق الشرطة الفدرالية

اتـصال هاتفـي متأخر، به نقل الكاردينال إلى دون ماكسيميليانو جزءاً من المعلومات التي استلمها لتوّه، مفصلاً له قصصاً عن النتيجة النهائية للمطالعة المحددة مـن قبل الشرطة الفدرالية لتوضيح غموض سرقة تمثال القديسة بربارة، أم الرعد. منطلقين من أوليات صحيحة، ومتبعين طرقاً أكيدة، فإن المحللين الأمنيين وصلوا إلى نـتائج أكيدة.. إن المنورين من المؤسسة الأمنية تدخلوا ليس فقط للتوضيح ولكن أيـضاً للحل الكامل للمشكلة الذي يبدو حلاً صعباً فهمه في الظاهر، واضعين كل شـيء في صحون نظيفة، في أقل من ثمان وأربعين ساعة: إنه لإنجاز مشرف.. وفي التحقـيق المفتوح في سكرتيرية الأمن الداخلي. ولا دخان: إذا كانت هناك نتيجة يعلن عنها فهي بالتأكيد شيء للتقويم اليوناني.

العقـيد راوول أنطونـيو، مفـوض الشرطة الفدرالية، جاء بشخصه لزيارة الكاردينال، و لم يرسل أحداً أقل رتبة. دليل مجاملة واعتبار، يجب أخذه في الحسبان في أزمنة الدكتاتورية العسكرية: باستثناء آمر المنطقة العام، فإن العقيد المفوض كان أكـبر سلطة موجودة في الولاية. خلال ما يقارب الساعة وضح له التقرير الظرفي، مع الكفاية من التفاصيل التقنية.. طرح نظريات، وقام باتهامات، واستشهد بأسماء. لم يعـد ينقص، مع ذلك، إلا نقطة واحدة غامضة تعيق العمل الرائع الذي حققه رجالـه، تحـت إدارته: نتائج سريعة، ومع ذلك فقد أضاعوا الوقت. وقت ضائع، نعم، سيدي، لقد وصلوا متأخرين إلى المطار، و لم يستطيعوا استعادة التمثال.

وجـد الكارديـنال أنـه مـن غير الضروري نقل تفاصيل المحادثة إلى دون ماكـسيميليانو، كالأسمـاء والأمكنة التي استشهد بها العقيد: اسم الأب كالفاو، واسم رعية ساو بنتو. الأب كالفاو، في تدخل واضح في مسألة الأراضي المشتعلة، مـتهم من الصحافة في كونه قد حرض، إذا لم يقد الغزو لمزرعة القديسة أليودورا، فكـان ذلك المفتاح الذي فتح الباب لحل اللغز.. حيث إنه سافر إلى العاصمة عبر

ســانتو أمارو، مطيلاً الرحلة، مع نيته الواضحة للإبحار مع التمثال في نفس المركب الــذي يحمله، لفت نظر العقيد.. وفور اكتشافه الوجود المشكوك فيه للكاهن في مــركب المعلــم مانويل، بالرغم من أن دون ماكسيميليانو قد أنكر، عندما أدلى بإفادته، إنه إغفال مثير للفضولية.

في مــنطقة نشاط الأب، فإن الشرطة الفدرالية حددت مكان المختبئ حيث ستستلم العصابة التمثال: دير سان نيتو. وتتالت الاتهامات: كاهن منحرف، ودير اختــرقته الأفكــار الماركسية، وهو مركز شغب ضد النظام العسكري الموقّر.. في كــونه مثقفاً بالإضافة إلى صلابته، فإن العقيد راوول أنطونيو أعار انتباهاً كلياً إلى الــدفاع الذي بدأه صاحب النيافة: اعذرني يا صاحب الغبطة، ولكن لدينا براهين. رفــع صوته، الضروري لتجنب الاعتراض: نحن نعلم كل شيء عن رعية سان بنتو وعن دون عبادي: إنه سمكة كبيرة.

في مخبأ الأب كالفاو، المعتصم في الدير، فإن مخبري الشرطة الفدرالية لاحظوا وصــول امــرأة أطالت مكوثها هناك أكثر من نصف ساعة، أو ساعة تقريباً. وقد وجــدوها مشبوهة إذا أخذت بعين الاعتبار حركاتها المرتبكة وملابسها الأجنبية: جــزمة من جلد الظبي، وبزة رمادية، وقفازان وقبعة، وكانت تبدو أنيقة، وسجلوا ســاعة الوصول، بالتاكسي، وساعة الخروج، من خلف الدير. وإذ تمّ إخباره، فإن العقــيد وضــع في الإنذار كل جهاز الشرطة الفدرالية، وبعد تبادل البرقيات مع مديــريات إقليمية أخرى، ومع برازيليا، أصبح ممكناً، بعد عدة ساعات، الكشف عن هوية الزائرة الليلية للدير، هل تعرف من هي، يا صاحب الغبطة؟

- لا أكثــر ولا أقل من كونها أخت ميغيل الريّس، الزعيم الاشتراكي الذي كان يمثل منصب حاكم برنامبوكو في عام 1964، وهي أخطر المشاغبات: فيوليتا الريّس.

- فيوليتا الريّس؟

- هل يعرفها صاحب الغبطة؟

قــام صاحب الغبطة بحركة غامضة، إن كاردينالاً ما يعرف الكثير من الناس، وكــيف يتذكر الجميع؟ ولم يصر العقيد ولكنه استمر في التقرير. وإذ تمّ الكشف عن الهوية أصبح سهلاً معرفة وجهة المنحرفة في باهيا حيث وصلت ليلة أمس. لدى مغادرة الدير راحت تأتي بحقائبها من البيت الذي كانت مستضافة فيه. هل تعرف

مـــن يخص البيت: كايتانو فيلوزو. الذي لم يتعلم الأمثولة التي أعطيناها له وأصبح يحتاج إلى أمثولة أخرى. ومن هناك اتجهت إلى المطار.

– عـــندما وصلنا كانت طائرة "فاريغي" قد أقلعت مباشرة إلى باريس حاملة معها مولهة الكابيباريـــي، وقديستنا.

مولهة الكابيباريـــي، أين عثر العقيد راوول أنطونيو على اللقب؟ في شوارع ريـــسيفي؟ أو في وثائـــق الأمـــن العام؟ لقد تأخرت أخت الرّيس في برنامبوكو، متجسسة مع دون هيلدر والآخرين من زمرة الأخ المنفي. جاءت إلى باهيا لاستلام الـــتحفة المـــسروقة، وكان عليها مهمة إخراجها ونقلها إلى أوروبا حيث ستباع لمـــصلحة مالية الانحراف. لقد نفذت المهمة المخططة جيداً، والمنفذة بشكل أفضل: إن العصابة قد خططت بدقة، وبوقت مقاس بميقات ساعة.

– سافرت بجواز فرنسي باسم مزوّر هو فيوليتا جيرفيزو.

مـــن بـــين أمتعـــتها لوحظ وجود صندوق كبير وثقيل، وطلبت من مجهزة الإرسالية أن تضع فيه كل ما هو سريع العطب، وقالت لها إنها تحتوي على قطع من الـــصناعة اليدوية الشعبية في برنامبوكو، وقطع سيراميك للفنانين فيتالينو وسفيرينو دي تراكونيين.

كانـــت الـــشرطة الفدرالـــية، في برهان غاية في الفعالية قد كشفت عن لغز اخـــتفاء القديـــسة وفي أقل من ثمانٍ وأربعين ساعة، ولكن المتجهم العقيد راوول أنطونيو لم يكن يقبل بالتهاني لأنه كانً قد وصل متأخراً جداً إلى المطار.

– كانت المسألة لا تتجاوز الثماني ساعات: لقد انطلقت الطائرة في الواحدة والنـــصف فجراً، وكانت الساعة قد تجاوزت منتصف النهار بقليل حين وصلنا إلى شـــرفة فاريغي. – وضرب العقيد على صدره، معاقباً: – إن قديستك يا صاحب الغبطة في باريس بعيدة عن متناولنا. لقد ذهبت إلى الرائع منهم.

ولكنهم سوف يتابعون النضال ضد عصابة سرقات الكنائس إلى أن يكشفوا كامـــل أفـــرادها ويـــضعوا رؤساءها والمشاركين معهم في السجن؛ لقد خسروا معركة–، ولكنهم سيربحون الحرب.

– مـــن الذي سيوصلنا إلى زعماء المافيا الكبار فهو هذا الكاهن كالفاو الذي يـــشكل عنصراً مهماً في العصابة. سنتركه حراً، ودون علم بنا، وسوف يقودنا إلى

الآخـــرين. عند حك الخصي ستكون هناك مفاجآت عديدة يا صاحب الغبطة. – ومـــن مـــثقف إلى مثقف فقد انتهى العقيد بانتشال شكسبيره من جيب سترته: – هناك أمر سيئ في مملكة هولندا يا صاحب الغبطة.

والكارديـــنال لم يـــصحح الاستشهاد: هولندا أو الدانمارك، لقد أراد العقيد ومفـــوض الشرطة الفدرالية أن يشير إلى الخلاف الإيديولوجي في الكنيسة. في زمن الدكـــتاتورية العـــسكرية، والتهديد والإذلال، من الذي يحترم كاردينالاً وإن كان صاحب نيافة؟

الكأس

في الهاتف أخبر الكاردينال النبأ السيئ لدون ماكسيميليانو: لقد ذهب التمثال إلى أبي الطيبات. ضاع كل أمل، وأصبحا في بيت من لا حيلة له.

أطال في التعليق على النظرية الرائعة التي عرضها العقيد، وأصبحت معروفة مـــن الراهب.. قصة روكامبولية بلا شك: إن تكرار سرقات ملكيات الكنيسة غدا وسيلة تمويل لغزو الأراضي وحرب الأرياف. كان ممكناً عدم التصديق لو أن مفـــوض الـــشرطة لم يؤيدها بالبراهين والإثباتات التي كشفها التحقيق. إن شـــحن تمـــثال القديسة بربارة، أم الرعد، التي خرجت من البرازيل تمّ بواسطة فيوليتا الريّس.

كـــان الكارديـــنال يعرفها منذ زمن بعيد: فيوليتا الريّس جيرفيزو، ولم يكن الاسم منتحلاً كما التبس الأمر على العقيد، وهو اسمها الحقيقي كونها متزوجة من الاقتصادي الفرنسي بيير جيرفيزو، الناصر الصالح والشجاع. وكونه يعرفها جيداً، فـــإن الكاردينال كان يصدق الادعاء البطولي: إن فيوليتا الريّس أو جيرفيزو كانت قادرة على فعل كل شيء.

قـــبل إقفـــال الهاتف، فإن غبطته سأل دون ماكسيميليانو إذا كان لا يفضل الامتـــناع عـــن افتـــتاح المعرض، ويرسل أحداً إلى العميد مع رسالة الاستقالة من منصبه. أما المتحفي فقد انتفض متألماً، حزيناً:

– ســـوف أســـتقيل علناً، يا صاحب الغبطة، لدى إعلان المعرض مفتوحاً، وسأشرب هذه الكأس حتى الثمالة.

كيف الإجابة عن تأكيد ميلودرامي إلى هذا الحد؟ غير عارف ما يقوله، تكلم الكاردينال: في هذه الحال، إلى اللقاء لاحقاً، وأقفل الخط. كان يتكهن شخصية الراهب، وهو يرتشف مرارة الكأس نقطة نقطة، وكان يستطيع أن يقيس المبلغ الذي تبلغه المأساة والمتحفي التعيس. كان دون ماكسيميليانو موهوباً في الجمل المتعلقة بالروح، ويحتقر العلم: إلى ماذا وصل؟ كان الكاردينال يتأسف على خط البندكتيني، العالم، المشغول، المبدع، ولم يكن يعرف أحداً يستطيع أن يحل محله. مسكين دون ماكسيميليانو: كان يجتاز ليلة من الدوامات.

مهما تأخر فإن لليل ساعات معدودة، تمضي وينتهي الليل. في اليوم التالي سيدخل دون ماكسيميليانو الطائرة، ويذهب إلى ريو دي جانيرو، بعيداً عن كل تلك الزمرة الفاسدة، في حين هو، الكاردينال صاحب النيافة، سوف يكون تحت ركبتيه كاهن سانتو أمارو: لا عبارات روحية ولا موضوعية عالية، الجلافة القاسية والمخيبة للأمل.. ودون قصد، فإن سكرتيراً مستعجلاً جاء ليعلن له أنه تمّ هبوط الأب تيو إلى اليابسة في رامبا دي ميركادو، يقود وراءه سكان سانتو أمارو. أحس الكاردينال بشيء من البرد يخترقه ويهبط إلى خصيتيه.

باطل الأباطيل وكل شيء باطل

بدأت عملية صلب دون ماكسيميليانو فون غرودن في الساعة الثامنة، زائدة دقيقة، ناقصة دقيقة، عندما علم بأنه تمّ تهريب تمثال القديسة بربارة، أم الرعد، إلى فرنسا. لقد أظهرت الشرطة نفسها بطيئة، نظرية، بيروقراطية، وعاجزة. لقد وصل الراهب إلى نهاية طريق الحجارة والأشواك، وبلغ الباب الضيق، نقطة النهاية، وبقي له أن يذهب إلى التشرد. هل يبقى في الريو، هل يعود إلى أوروبا، وأين يبدأ من جديد؟ سوف يقرر لاحقاً، وفي ساعة الحزن لم يفكر في الغد، كان يحمل في صدره أيام البارحة، وسنوات باهيا المفرحة، الموقدة. باطل الأباطيل وكل شيء باطل!

بعد ساعة واحدة سوف يستقبل وزير التربية والثقافة، والكاردينال، والحاكم، وعميد الجامعة، بالإضافة إلى ثلاثمائة شخص، أبناء الغنى والسلطة، ونخبة باهيا، ويعلن معرض الفنون الدينية مفتوحاً وقد نظّمه متحف الفنون المقدسة، وقد نظّمه هو، نفسه، مدير المتحف. ها هو المعرض، جاهز بروعته شبه الكاملة. كان يجب

أن تكـون ساعة نصر دون ماكسيميليانو، وتطويبه، وساعة التصفيق الذي سيصل عـبر البحار، اللحظة الكبرى في حياة كاملة من الدراسة والعمل.. ولكن النتيجة كانـت العكـس والانحراف. أمام كاميرات التلفزيون، سوف يتناول من جيب عـباءته الـورقة مع العقوبة، الاستقالة من المهمة، مهمة مدير، ويعلم الموجودين باستقالته التي لا رجوع عنها. باطل الأباطيل وكل شيء باطل!

وثـيقة واضحة وقصيرة، ولن تستغرق قراءها أكثر من دقائق سريعة. وحين ينتهي، فإنه سيسلم المهمة والمدعوين لعناية ليانا غوميز سيلفيرا، الموظفة المجازة التي تقـع علـيها مسؤولية المدير في غياباته القصيرة، أما الغياب النهائي فيبدأ في تلك اللحظة. دون أن يواجه الصحفيين، فهو سيستقل سيارة "الفوسكا" خاصته، ويدير ظهـره للمتحف، ولذة الاستشراف، والإنجاز، وإعطاء الأوامر، ولليوم المفرح من المـشاغل الصغيرة، والاهتمامات، والعلاقات الحميمة. إنه مهان، وهدف للتسكع والمذلات، مستثنى. باطل الأباطيل وكل شيء باطل!

داخـل الـشقة لم يقـم بـأي عمل، إذ لم يكن لديه الوقت وتنقصه القوة والـشجاعة. سـوف يسلم المفاتيح لمانويل أراوجو، الصديق الحميم، ويطلب منه الاهـتمام بكل شيء: كأن يأخذ الأشياء التي تخصه ويرسلها إلى الريو. أشعل فقط القنديل الصغير على المنضدة، وجاء إلى النافذة، وإذا كان عليه أن يبكي فهنا وليس في لحظـة الـذهاب: يريد أن يخرج مرفوع الرأس ومتقد العينين. في الحياة الشعبية كان الليل يذيب المتاعب، والحرمان من الحقوق، ويغرق في التثاؤبات، والشكاوى، وألحان الموسيقى. وفي الأسطوانة التي تدور كان روبيرتو كارلوس يغني، وكان آخر مـنطلقاً في أغنية ترافقها الكمنجة، والمذياع منطلق ببرنامج رياضي، وثلاثة رجال حـوله يناقشون، والمرأة السمينة كانت تحرك يدها في ظل الياسمينة المزهرة، وأمينة الـصندوق في الأسواق الراقية وشاب الدراجة النارية كلاهما كانا يستفيدان: حتى ذلـك المـشهد الـذي لا عظمة فيه سوف يفتقده. ما الذي لن يشتاق إليه دون ماكسيميليانو؟ باطل الأباطيل وكل شيء باطل.

مـدَّ نظـره فوق واقيات المحلات القديمة في منحنيات الشارع، وعلى الشوارع الـنائمة في المديـنة الواطـئة، وعلـى الجو الذي تلمع فيه النجوم، وأضواء المراكب، والفوانـيس في سطح البحر، وعلى الوجه الزنجي لتمثال فورتي دي ساو مارسلو، ذي

الهيكل الواسع الضخم. العينان مبتلتان، والقلب مُعتَصَر، فقد ترك دون ماكسيميليانو لنفسه أن يكون كأي أحد، ولكن لم يسمع أحد التنهد المخنوق و لم يرَ أحد الدمعة المنسابة على وجهه الشاحب. إنه مصلوب. باطل الأباطيل وكل شيء باطل!

الضجيج كان يزداد، في البدء صخب بعيد، وفي كل مرة أكبر وأكثر اقتراباً. إنه وقع خطوات أشخاص في الطريق. حدّق دون ماكسيميليانو ورأى المظاهرة تصعد منحنى دا بريفيا، على أنغام النشيد الكنسي: كانوا حجاج سانتو أمارو، جاؤوا يستعيدون التمثال المسروق. وعندما التقوا متزاحمين أمام واجهة الدير، عرف دون ماكسيميليانو، كاهن سانتو أمارو، الأب تيوفيلو لوبيس دي سانتانا. كان يحمل لافتة تقرأ: دون ميموزو لص! دون ميموزو؟ من يمكن أن يكون سواه؟

دون ميموزو، فيا للتحقير؟ يا رب، لماذا كل هذا التعذيب الثقيل؟ باطل الأباطيل وكل شيء باطل!

احتل المتظاهرون شارع سودري، واتخذوا موقعاً مقابل المتحف. وعلى ضوء الأعمدة الكهربائية تمكّن دون ماكسيميليانو من قراءة بعض الشعارات المكتوبة على اللافتات واليافطات: القديسة قديستنا! نريد استرجاع قديستنا! لقد سرقوا القديسة بربارة، أم الرعد! السجن لدون ميموزو! دون ميموزو منحرف!

وأخفض دون ميموزو رأسه، وتلقى في يديه ورجليه مسامير الصلب، حافياً، عارياً، معرضاً. وانهارت الدموع منسالة عليه. باطل الأباطيل وكل شيء باطل!

وقع ضربات أصابع على الباب، كان نيليتو، الثور الضاحك، الملاك الزنجي، الهارب من وجه يوناني مفزع. اتصال هاتفي من المطار يعلم بأن السيد وزير التربية، يرافقه الحاكم والعميد اللذان ذهبا لاستقباله، وقد انطلق الموكب باتجاه المتحف. كانت قاعة الاستقبال والغرف الأخرى مكتظة، و لم يكن الكاردينال يخفي عدم صبره، وكان هو من أرسل الخبر.

– شكراً، نيليتو، انتظرني.

مسح عينيه قبل أن يشعل أضواء الحمام: وجه كئيب، وجانبية رأس رومنطيقية، وشاحب حتى الموت، وشكل جميل؛ إنه راهب من عاج. وقد أخفيت جروح الانهيار، واختفت علامات الضعف تحت طلاء الرجولة، محزون، ومع ذلك مستحق للتقدير: باطل الأباطيل وكل شيء باطل!

– هيا، بنا، نيليتو، سأقول لك شيئاً لا يعرفه أحد. سوف يعرفونها بعد قليل، غداً أكون قد ذهبت، ولن أكون هنا.
– تـــذهب نهائـــياً، يا معلم؟ لا يستطيع. والمتحف؟ دون الدون المدير كيف سيكون؟ لا أصدق. المعلم يمزح بالتأكيد.

المجد لله في الأعالي

مـــشعلاً القـــناديل، ومضيئاً صالات العرض، فإن الرجل كان قد سبق دون ماكـــسيميليانو فون غرودن الذي كان يمشي بخطى متهم، يفرض نفسه بالتماسك والتمظهـــر غـــير المـــرئيين، وكانا يحيطان به ويجعلانه غير قابل للعقاب في مشيته الـــرواقية. باستثناء شاهد واحد هو المهتز نيليتو، فإن دون ماكسيميليانو في تجاوز الدرجـــة، لم ينتبه، للحظة فقط، للوجه المتعب، ومن انسيابية الرداء الأبيض، ومن البريق الضروري. كأنه في مأتم.

وإذ أخذه غضب الكاروبيم، فإن دون ماكسيميليانو، مهتزاً، قمعه:

– ما هذا يا نيليتو؟ مزيداً من الاحترام.

– هـــذه الليلة هي ليلة بدر كبير يا معلم، ليلة عيد المعرض. إن نيليتو سعيد. لن يراه ثانية، لن يعود ليرى الملاك الزنجي، المرافق، الذي يقفز أمامه، تمثال دييبريه. إن العـــيد، اليوم، يا نيليتو لا يخصنا، سيكون عيد الأسقف المساعد للعميد، وعيد أولـــئك الذين لا يحبونني والذين يرغبون في استلام مهمة مدير الفن المقدس، وهم يعـــدون بالدزيـــنات. ســـأكون بعيداً، ولن أتدخل في الاختيار، وإذا كانت ليانا فسيكون الأمر جيداً.

اسمـــع يـــا نيليتو. سأبقى منتظراً أمام الباب. وسوف تقف أنت عند أسفل الـــدرج، لا تتـــرك لأحد أن يصعد قبل أن يصل الوزير. لأي كان، وإن المطران نفسه.

تقـــدّم نيليـــتو لينفّذ الأوامر. ومن صالات الانتظار كان يصل المزاح العالي، ومقاطـــع من الحوارات، وضحكات امرأة، وتدافع المدعوين القوي بغية الحصول على مكان للدخول، خلف المتميزين المجتمعين في القاعة الكبرى. الساعة الكبيرة في الحـــائط، قطعة من المتحف لا تزال في الاستعمال، توقفت عن الإشارة إلى الوقت.

إن وزيـــر الدكتاتورية العسكرية، بالرغم من كونه فلاحاً، هو الذي يحدد الساعة الأكيدة، ولديه السلطة لإيقاف عقارب الساعة، وتأخير ميزان البندول لتعلن كيفما يـــشاء عــــن الساعة التاسعة من ليلة افتتاح معرض الفن الديني في باهيا.. الساعة المطلوبة لبداية الحزن.

بلـــغ دون ماكسيميليانو فون غرودن نهاية الطريق إلى الجلجلة، أو لنقل بداية المعـــرض، وبـــدا بقية إنسان، جثة تمشي إلى القبر، كان هناك في الأسفل، تماسك مـــبدياً القوة، وهزّ بصدره ولكن القلب لم يستجب، قلبه في الوجع، وتؤلمه عيناه لشدة جفافهما.

كـــان ذلـــك عندما نظر، ولم يصدق، لا، لم يكن ممكناً ما لاح له أنه رآه. حدّق بإمعان، هناك في النقطة التي قال لميرابو سامبويو إنه كان سيضع عليها تمثال القديسة بربارة، أم الرعد، عند مدخل المعرض، وهناك كانت في الحقيقة، القديسة الرائعة موضوعة على الأرض، دون إطار، ودون مذبح، مساوية لشخص حي، لي ولـــك. بـــدا الأمر مستحيلاً، كان عليه أن يخز نفسه ليصدق بما كانت تراه عيناه المغـــرورقتان بالدمـــوع. ولكنه لم يعد متعجباً، لقد بدا له طبيعياً أن تقوم القديسة بربارة، أم الرعد بالابتسام وأن تغمزه بعينها، معيدة إياه من بعيد إلى هذه الأراضي السيئة التي لا حول لها ولا قوة، من باهيا.

ركع دون ماكسيميليانو على ركبتيه، ومجّد الرب، ثم تمدّد عند قدمي القديسة وقـــبل طـــرف معطـــف الرعود. كان يبدو أكثر كأنه ابن أويا في إظهار الطاعة والتفضيل.

عـــندما، مـــع ذلك، محاطاً بكاميرات التلفزيون ولاقطات الإذاعات، ظهر السيد وزير التربية والثقافة عند الباب الموصل إلى المعرض، ودون ماكسيميليانو فون غرودن، مديـــر متحف الفنون المقدسة، كان ينتظره، بكليته، قرب القديسة التي كانوا يعتبرونها مختفية ومنقولة إلى أوروبا. بكليته، حيوياً، مبتسماً، وفي صوته همسة من اعتزاز:

– في حـــضور السيد وزير التربية والثقافة، والسيد حاكم الولاية، وصاحب النـــيافة الكارديـــنال، وباسم الموقّر عميد الجامعة الفدرالية في باهيا – وأخذ وضعاً مخـــتلفاً، ورفع صوته – وبمباركة القديسة بربارة، أم الرعد، أعلن مفتوحاً معرض الفنون الدينية في باهيا.

ســـجلت لاقطـــات الصوت كلماته، ونقلت كاميرات التلفزيون عبر الأقمار الصناعية، وللايين البرازيليين، راهب الرداء الأبيض، الكامل، الأخ الأعلم في المادة وفي علـــم الآثار والمتاحف، الأكثر علماً، وجمالاً، قرب حاميته وحارسته، التمثال الشهير.. ثم أظهروه لاحقاً يوقّع للوجهاء نسخاً من كتابه الذي كتبه عن القديسة بربارة، أم الرعد، محدداً إياها، ومعطياً إياها شهادة ولادة، والتاريخ الأكيد، واسم الأب، والنحات ذا الأصابع المأكولة بالبرص، الخلاسي الإلهي.

المجد لله في الأعالي! سبت الهاليلويا بدأ في التاسعة وعشر دقائق من يوم الجمعة العظيمة.

ساراڤا... ساراڤا... ساراڤا
وداعاً: إني أفارقكم...

بريد القراء

بريد القراء، هذا الابتكار في مادة الرواية، هو صفحات يردّ بها الكاتب على أسئلة الذين أخضعوا أنفسهم للمعاقبة بمرافقة التحولات في العقدة، وعذابات الشخوص - وكذلك عذابات الكاتب الذي، هو الآن، إمعاناً في الأذى، يعاني آلام القُطان المبرحة.

لم يشر عمل على الإطلاق من كم التعليقات الصحفية ما أثاره هذا العمل الخيالي، الإبداعي. فهذه، في كل الأحوال، هي رواية باهيانية، وكونها كذلك فهي منتبهة للصرخة الأخيرة، للتجديد الأدبي، ومنفتحة على الانفتاح الفكري الذي تتنكبه البيروستريكا. لقد انتهت أزمنة النخبوية، والبيروقراطية، هاراشو.

ذائع عجَزُ الكاتب عن الابتكار والتجديد.. تجديد الكتابة التي تصيب القارئ بالصدمة، وتثوير البنية، بنية تصفح الرواية، وتعميق الاستيطان الفرويدي لدى الكائنات المحكومة بالحياة بإرادات القدر، وتقديم الحب كأنه زيغ وضلال، وأن تكون قراءة ما يكتب صعبة، وفي أن يكون عصرياً ومزعجاً.. إن عجزاً كهذا يأكل من لحم الكاتب، ينهش أحشاءه، ويشعر أيام شيخوخته بالمرارة، ولياليه بالضحالة.. فهل يكون بريد القراء هذا، ضحالة إضافية؟

إنه يستجيب لفضول ومطالبات القراء الذين شهدوا، متضامنين، على الجهد المثابر، اليومي، في مسودة محاولة الإنجاز، حتى الأخير، للعهد بأن يروي ليمتع القارئ، ويمتع نفسه أيضاً، ويغير مقاصد النظرية، ويحسن العالم. إنها لشجاعة لا تعادلها شجاعة من كاتب متقدم في السن وصاحب معارك خاسرة، ولم يستطع حتى الآن أن يجعل النقد الأدبي يتمتع، حتى الشعور باللذة، بقراءة رسائله الطويلة، ولغته النادرة، وأفكاره الفارغة، وسوقيته.

مـن لـيس مـوافقاً على الابتكار ليس مجبراً على قراءة هذه الصفحات التي ستتوالى، إذ إن الرواية، في الحقيقة، انتهت في الصفحة السابقة، وأما صفحات بريد القـراء هذه فإنها تخدم فقط حذف التسعة للإبقاء على الواحد الأحد وهو: نتيجة الحبكة.

الوقع

إيجابي جداً، مخلد للذكر، الوقع الوطني، مع الأصدقاء الإسبان، لمعرض الفنون الدينـية في باهيا، الخلط ملط، والكتاب المولود كلاسيكياً بقلم دون ماكسيميليانو فون غرودن عن تمثال القديسة بربارة، أم الرعد.

دون ماكسيميليانو يمشي كأنه لا يتسع لنفسه، يبدّد الوقت وهو يدور، حول مجده الشخصي، في دورة طاووس، ويجب كتابة أبو الوشي بدلاً من طاووس: كان يـتطاوس حول الدير، كلمة مع روك صانع الإطارات، وأخرى مع زو كامبوس، النحات في الخشب، وهو يجر وراءه جبته البيضاء في حدائق المتحف.. قافزاً خلفه، فـإن نيليـتو، مـلاك الكـاروبين، يحمـل إليه كتاب الصلاة البلاجدوى، دون ماكسيميليانو يستطيع الاستغناء عن قراءته: مرَّ بين أزهار اللؤلؤية وحشيشة الملاك؛ إنه راعي الصور والملائكة، وعلى هذه الصورة نتركه، متمتعاً بالحياة.

وخصـصت الـصحافة أعمـدة، وعناوين كبيرة، وبذرت من الصور ما لا يحـصى، وحملـت الـصفات اللغوية المعاني الأكثر لمعاناً فيما هو متعلق بالمعرض والكتاب. بخصوص اختفاء القديسة، فهو مسلسل أيقظ المدينة خلال ثمان وأربعين ساعة، ووضع السكان أمام إثارة مسلسل تلفزيوني، والرأي الشائع أن كلٍ شيء لم يـتعدَّ كونه انقلاباً عبقرياً لإنجاح الحدث والتوقيع، وقد تمّ تخطيطه وتنفيذه، بدقة ودهـاء، علـى يد دون ماكسيميليانو، وبتعاون نشيط من الصحفي غيدو غييرا، المزورين اللائقين واحدهما بالآخر.

بعـيداً عـن تكذيب الشائعة، فإن غيدو يحتوي نفسه ضاحكاً بطرف فمه، وبعينـيه النذلتين عيني ببغاء متهتك: الببغاء يأكل الذرة، وأنثى الببغاء تعاني الجوع. أما جوزي بربرت دي كاسترو فإنه لا يبدو أنثى ببغاء، بل يذكر أكثر ببغاء أبيض يمكـن تعليمه: ارتاح، منتصراً. وبإمكانه العودة إلى تحرير أتاردي، ومواجهة أستاذ

يدعـــى جورج كلمون، معقود اللسان، فمرَّ بيده على رأسه. ومرة أخرى، ودون اللجـــوء إلى الإشـــارة، فإن صحيفة الأستاذ سيمويس أعطت الخبر الأكيد، والنبأ الـــصحيح. في ســـاعة وصول القديسة، كان محقق أتاردي الصحفي هناك ليسجل الحدث ويخبر بدقة.

يتـــرك جانباً موضوع المزاحمة بين وسائل الإعلام الصحفية المكتوبة، ويكتفي بتذكـــر كمـــية المقـــالات المـــوقعة بأسماء شهيرة. في بلاط الفنون، فإن أنطونيو سيليستينو، ودون سبب وجيه، غنى الأناشيد للمعرض: "مشهد مثير عملاق للغنى الـــذي لا يقـــاس للفـــن الديني الغزير والمحفوظ في باهيا". وفي المقال نفسه أضرم الحماس بالنعوت التبجيلية والإطراءات لكتاب دون ماكسيميليانو. إنه – عمل أدبي كـــبير عـــن التمثال البرازيلي، بفضل الجهد المضني للأستاذ العالمي، وهو يجلي كل غموض عن الأشخاص الذين كانوا يحيطون بتمثال القديسة بربارة، أم الرعد، كما أنـــه يحسم نهائياً، بالحجج التي لا تقبل الدحض، المسألة الكبرى لصانع التمثال. إن باهيا تستطيع أن تهنئ نفسها: نحن نمتلك إحدى أجمل الأعمال التي ابتدعها العبقري إليجادينيو.

في افتتاحـــية "وردة الـــرياح"، الجهالـــة اليومية بالنثر الجميل، فإن أودريكو تافـــاريس لم يبع بالمفرق التصفيق للمعرض؛ أطرى على المشهد، ولكنه حافظ على شـــيء مـــن الحـــيادية فيما هو متعلق بإليجادينيو.. تأييد المعطية أمر جيد، ولكن التأكيد، كما كان يفعل دون ماكسيميليانو فون غرودن، على أن العمل الفني هو لإليجادينـــيو، فخسارة كبرى. ومما لا شك فيه أن الأستاذ أودريكو لا يزال يحمل حسرة.

صـــاعقاً كان مقال كلاريغال دو برادو فالاديرس، عضو التجمع الدولي للـــنقاد الفنـــيين: مـــتوقداً وطويلاً، مليئاً بالاستشهادات بشتى اللغات، وعلى الأخـــص بالألمانية، وكان يضع دون ماكسيميليانو على قمم القمر.. قبل أي شيء، فإن الطرح فيما هو متعلق بصاحب العمل، فإنه هو، كلاريغال، قد ألمح إليه سابقاً، في دراسته الكوزمولوجية لتمثال القديسة بربارة، أم الرعد. ووضع مـــسألة صاحب العمل في موضعها، فقد كتب: إذا كانت عمل فنان آخر، فلا بـــدّ مـــن أن يكون هذا الآخر تلميذاً لإليجادينيو.. ثلاثة نقاد فنيين باهيانيين،

واحد ولد في البرتغال، وآخر في ولاية برنامبوكو، ووحده كلاريغال ولد هناك في ضوء النهار، والثلاثة حكموا بالعدل على مدير المتحف، وباركوه بزيت البركة، مع بخور المديح.

إن التكريس لم يقتصر على التصفيق المحلي لغلاداريس، سيليستينو. والشاعر تافاريس، بل امتدّ في طول البلاد وعرضها وكان له وقع عبر البحار. وإن مقال جيلبرتو فريري جاء حدثاً فليس بالإمكان البدء بالحديث عن مقال آخر. فقد تمّ نشره في صحيفة برنامبوكو، وأبرق النص إلى الريو، وساوباولو، وفروتاليزا وفي صحيفة دي نوتيسياس اليومية، في باهيا، وترجم إلى الإسبانية، ونشر في أعمدة النبلاء الإسبانية، ومعلم ريسيفي، دفع ثمن التصفيق، اشترى ونسب إليه طروحات مدير متحف الفنون المقدسة صاحب النيافة فون غرودن، وأعطى إليجادينيو قيمته. وإذ كشف عما لم يكن أحد يعرفه، لكون الأمر مكتشفاً منه للطبعة الجديدة من الدليل التاريخي والعاطفي لولاية ريسيفي: فقط في ريسيفي كانت ثلاثة أعمال هي: القديس جورجيس، والقديس بينيديتو، وقديسة سيدة الآلام، والأعمال الثلاثة أصلية لإليجادينيو. القديس جورجميس كان يخص مجموعة كارنيرو لياو، والقديس بينيديتو، الحذلقة الوحيدة، كان موجوداً في مقر جيلبرتو الكبير، معلمنا جميعاً.

بييترو بردي، في جريدة اشتادو دي ساوباولو، دون أن يقدّم الإطراءات لكتاب دون ماكسيميليانو، فقد دحض تأكيد الباحث وبشكل حاسم. إي إليجادينيو، ولا نصف إليجادينيو! التواريخ غير صحيحة، وأقل من ذلك خصائص النحت نفسه، وليست وإن للراهب أغوستينيو دا بييدادي وحتى للخلاسي أنطونيو فرنسيسكو ليشبونة ابن مستعمر برتغالي وعبدة زنجية.

أما المقال الذي جاء فريداً في الموضوع، واحتل صفحة كاملة في جريدة أوغلويو، في ريو دي جانيرو، للكاتب أوتو لارا ريسيندي الذي يعود في أصله إلى ميناس جيرايس، وعضو الأكاديمية البرازيلية، فهو يفنّد أصل، ومبدع القديسة بربارة، أم الرعد. إن كتاب الراهب لا يعدو كونه كومة من الترهات، وفقاً لقول ريسيندي. ومع كل الاحترام الواجب للخطاط النبيل، التوضيح دون خوف من الخطأ أو الظلم، إن مقاله كان نهاية التقليعة، ونتيجة كره الأجانب والحسد، والمقال الوحيد السلبي حقاً بين الكتابات عن المعرض – وعن كتاب دون ماكسيميليانو

فون غرودن. هل قرأ صاحب المقال، أو تصفح، في الأقل، الكتاب؟ لا يبدو الأمر كذلك.

إليجادينيو لنا

كان يمكن عنونة التهكم الذي انفجر به غضب ريسيندي دون شفقة أو رحمة على خبير المتاحف، إن أنكر عليه حقه بالخبز والماء، معتبراً إياه مغامراً ودجالاً، "بالعمل الموظف للمصالح الضيقة". مختبئاً في ظل الموقف الوطني المعبّر عنه في حملة: "النفط نفطنا"، والمؤكدة من جديد في مظاهرة سكان سانتو أمارو "القديسة قديستنا"، فإن المقال ينمّ عن شوفينية ضيقة تنكر وجود أعمال فنية لإليجادينيو خارج ولاية ميناس جيراس، وعلى أنها ليست تلك الأعمال القليلة المسجلة في وثائق متحف أوروبريتو. وإلى جانب ذلك كان ريسيندي قد كتب أن الفن الديني في باهيا لا يعدو كونه إرثاً كاذباً في متحف الدير.

غير مكتفين بسرقة منفذ ميناس جيرايس إلى البحر، فإن الباهيانيين قرروا الاستيلاء على أمجاد الميناجيراسيين. ولن يتأخروا في القول، متكلمين عن عبقرية أوروبرتيو، ومستندين إلى كتاب الراهب غرودن؛ إن الفنان ولد في كاشويرا، وانتسب إلى سلك رهبنة في سانتو أمارو دا بوريفيكاسياو.. لا يريد الباهيانيون المستعمرون غير هذا. ألم يكتب السيد جيمس أمادو أن غيمارايس روزا كان روائياً باهيانياً أكثر منه ميناجيراسياً؟ إنحراف فوق انحراف.

إن خيبة الأمل التي سببها مقال الأكاديمي لارا ريسيندي تمّت مكافأته باستلام "تتويج القديسة بربارة" الهاربة من مشغل أنطونيو فرنسيسكو ليشبونة، والتي عثر عليها في باهيا، وهذه كتابة عن قصيدة لكارلوس دروموند دي أندرادي، أرسلت إلى دون ماكسيميليانو كتعبير عن شكر لهدية النسخة من الطبقة الأنيقة لكتابه الرائع. والآن، يا أوتو؟

والآن بغية الإقفال بمفتاح من ذهب على هذا الاستشهاد المختصر بالتحقيقات، والافتتاحيات، والمقالات التي نتجت عن المعرض والكتاب، لا بدّ من الكلام عن المقابلة والتحقيق مع فرناندو أسيس باتشيكو المبعوث الخاص للصحافة البرتغالية. هكذا كان قد أعلنه دون ماكسيميليانو في تجمع يوم الأربعاء، بمدة

قـصيرة قبل أن يبدأ الارتباك. في المقابلة، ولدى عرض الأفكار عليه، والتأكيدات الجسورة، فإن الشخص الأخاذ، باتشيكو، خط جانبية رأس رائعة لمدير المتحف: "إن ماكسيميليانو يعترف بعمر خمس وخمسين سنة، خمسة عشرة منها عاشها في باهيا، ولكن طلاقة اللسان والملعنة ما زالتا تعملان مستمرتين" كتب المراسل باللغة اللوزيتانية البرتغالية. و لم يقتصر الأمر على ذلك بل أضاف: عن مذكرات الحب مع القديسة بربارة، أم الرعد، نتج كتاب، مجازي التعبير، نقيه، مع إضافة آه، بالتأكيد وقد تمتع دون ماكسيميليانو بقراءته.

أما ما هو متعلق بالتحقيق، فقد وصف بنثر جميل، احتفالي، في زحمة من التفاصيل، اختفاء القديسة، واليومين من الشغب اللذين عاشهما سكان السلفادور. مع وصف فني للمدينة الثائرة بسبب نبأ سرقة التمثال، ملك الشعب. وأخبر عن الغداء في ميركادو، وحلقة السامبا، وكرنفال الفرنسيين، وكورورو جاسيرا دو أودو أويا.

سخر بقساوة من نظريات رجال الشرطة، الإقليمية والفدرالية، واعتبرها إثباتات فارغة، كذبتها الأحداث اللاحقة. عقيد مدعٍ، قاسٍ يتقنع بقناع المثقف: إن التمثال نقل إلى أوروبا، قال. وشاب ثرثار، تافه، غارق في ادعاء المعرفة: من سرق التمثال هو قس سانتو أمارو نفسه، قال.. سخيفان مرحان، وهما لا بدّ من أن يكونا في طور الإقالة في هذه الساعة.

لقد التبس الأمر على شاعر كويمبرا الشهير لدى إعفائهما من المسؤولية وطردهما. لأن العقيد المفوض في الشرطة الفدرالية استمر في كشف المخطط الخبيث للمعارضين، من القردة وأهل العباءة الدينية. وقال إن التمثال إذا لم يكن قد نقل إلى أوروبا فسبب ذلك هو تحرك الشرطة الفدرالية. وفيوليتا الريّس وإذ وجدت نفسها مطاردة، وأنه كان ممكناً اعتقالها في المطار، فإنها تخلت عن أخذ التمثال من معبد سانبنتو. أما سكرتير الأمن الذي يحوز على تقارير المفوض باريرينيا، والمصاب بالبرد ريبوليتو، فإنه أشار بإصبعه إلى الدير، وبالمناسبة كان المقر الرئيسي في سانتو أمارو دا بوريفيكاساياو في الأديرة، فإن القس والرهبان يخططون ويسيرون السرقات المزدادة يوماً بعد يوم لممتلكات المقرات الدينية والأبرشيات. إن قس سانتو أمارو لدى شعوره بأنه سيكشف، تراجع ثم جهّز خدعة الاحتجاج.

يوم الأورونكو: أو إعطاء مانيلا اسم أوريشا

كـثيرون هم ذوو الفضول لمعرفة أخبار مانيلا، وعديدة هي الأسئلة في هذا الـشأن. ومن الذي لا يرغب في معرفة مصير مركب الأياونس الذي رفع مشكاته من ميناء غانتويس؟

في طـرق أيوكا، أبحر في أعماق البحر، من ميناء إلى ميناء، وفي المياه المنسابة من الذاكرة المنطفئة كما لو كانت مهمة محتقرة في جسد الوطن: تعرجات وأعماق سحيقة، أنغام مستعادة، حركات، مشاعر، ورمال صحراء، وأوراق غابة متناثرة، تـشريف، وسـحر.. كان المركب يعود من الرحلة اليومية محملاً بالآثار المتبقية، والألـوان، والأنغـام، والأصداء، والعلامات، والجواهر والخشاخيش، أشياء جميلة وسيئة تكون أمة، وكان الأياونس يحبوها على أرض "جورا أولورا" المقدسة. كانوا يتكاسـلون في الـولادة مـن جديد ولكنهم كانوا يولدون، ويجلسون القديس، ويتعلمون اللهجات العامية، والخبب والجري، كأهم قطيع من الجياد الفتية: مطايا. إن مانيلا وروحها في أعمال يانسان.

رأسـها محلـوق بسكين إيفون، باب عريض في الدخول، ضيق في الخروج. تعلمـت مانـيلا الأناشـيد، سبعة لكل قديس في الأقل، وضربات فرقة الطبول الأفـريقية المخـتلفة، من الطبل إلى الطبلة، ومن الطن - طن إلى الأداروم، خلال السبعة عشر يوماً من الملاحة المتواصلة، قبل أن تقرر الأم مينينا يوم الأورونكو.

الـيوم الأمجـد والأكثر احتفالاً، يوم إعطاء الاسم، عندما يانسان في مركب غانـتويس المزدحم، قفزت أخيراً، ودارت كلها في الهواء معلنة، دفعة واحدة، اسم المولودة الجديدة: أويا مانيلا، أوشالا - جيلديتي المجيد، يانسان.. أداجيزا القديرة، ورافقوا مسيرة التحلي:

الاسـم يسمع وينسى، ولا يكرر أبداً ولا يزخرفه أحد، وفقط الأم والابنة، "إيـاه" و"إياو" تعرفان لفظه. إن اسم يانسان - مانيلا أعلن بصرخة مدوية، سمع ونـسي في عيد كبير رائع. في يوم العيد، وبينما ميرو يضحك ملء فمه، ذهب في التاكـسي ليأتي بجيلديتي وأداجيزا وجاء بهما في السفرة نفسها؛ إنهما العمتان وقد جاءتـا بكل حيويتهما. وبقدر ما كرهتا بعضهما بعضاً سابقاً، أصبحتا متحابتين الآن وتبدوان أختين مخصبتين من مبيض واحد.. أداجيزا، مروضة، جذلة، متحررة

مـــن القرف، ومن أوجاع الرأس والكاهن المرشد، ذاك، انقلبت رأساً على عقب، ودون أن تتخلـــى عـــن كونها سيدة أصبحت شخصاً مساوياً للآخرين. ودون أن تتخلى عن كاثوليكيتها، أصبحت فرساً رائعة لفارس، في حلقة القديسين. أداجيزا أم السرج.

ومـــن يـــرغب في معـــرفة المزيد من هذه المواضيع من القداسة، والفودون، والكوندومبلـــيه، والماكومبا، وعن الرائعات، والكابوكلوس والأوريشاس، فعليه أن يتدبـــر مـــبلغاً من المال، ويبحر إلى باهيا، عاصمة الحلم الكبرى. ويذهب إلى بيت قـــديس، أو إلى أرض واســـعة، مفـــتوحة، أو إلى إينجينيو فيليو، أشي يا ناسو، غانـــتويس، أشي يا ماسي، سنترو كروز، أشي دو أوبو، الأليتو، كوندومبليه دو بورتاو بيجي دي لوشوسي، وكابوكلو بيدرا بريتا في بيلاو دي براتا، أو أرض أمة الجيجـــي، وكلها موجودة في باهيا، وهناك سيتم الترحيب به أينما ذهب، وبسعة صدر وأناقة: إذا كان الراغب قادماً بسلام فإنه يستطيع الدخول.

ومـــن كـــان طيب التحية المسائية استطاع أن يرى، خبباً أو تجديفاً، الجمال والحرية. وإذا كان صاحب بركة فسيرى أبعد، وسوف يلهو مع الأوريشاس. ففي هـــذه المعابد الفقيرة، المضطهدة حتى أمس يحافظ سليلو العبيد على الرقص والغناء الممـــنوعين، وتشتري نفسها الذاكرة المحكومة. إن حبيبات الأوريشاس سيدات من باهـــيا، وكـــل واحدة أكثر هيبة وجمالاً وعلماً، أميرات وملكات، إنهن الأياوس أمهات الشعب.

وســـواء كان الزائر غنياً أو فقيراً، زنجياً أو أبيضَ، شاباً أو عجوزاً، مثقفاً أو أمياً، فأهلاً به ما دام آتياً: بسلام، وهو يستطيع أن يشارك في الكوندومبليه، حيث الآلهة والرجال متساوون، يغنون ويرقصون للأُخوة الإنسانية.

ارتـــدت مانيلا معطف الرعود الذي يعود إلى القديسة بربارة، ورفعت رمز يانسان. أويا كان قد أعطاها الاسم ومن سمعه فقد نسيه.

المطوّب

يؤسفنا أن نعلم العقداء الإقطاعيين، وأصحاب الأراضي الواسعة غير المسيّجة والمحمـــية، والـــتي لا خطوط ترسيم لها، وسادة الكانتونات، والمراعي الانتخابية،

وفيالق العبيد، وسياسيي "تعالوا إلينا"، وإلى آمري القتلة، وآباء الفقراء، يؤسفنا، يا سادتي، أن نعلمكم أن واحداً من أكثر المحترفين الحذقين في القتل، هو زي دو ليريو، من حملة البنادق ذوي الشهرة العابرة للولاية، أبي التسديد الذي لا يخطئ، قد أطلق النار: قتل، إذ ترك مهنته إلى الأبد.

ست طلقات منطلقة وضائعة. خمس منها على رقبة الأب، وواحدة على صدره ليموت عزيزاً. إنذار من الله، بواسطة الأب سيسرو روما باتيستا، شفيع الداخل البرازيلي، ومن حيث كان الصعلوك الممتطي الحمار واحداً من اثني عشر رسولاً. لقد دعا زي دو ليريو إلى العقاب. وكان قد أخذ يوصي الأغنياء بالتخلي عن ملكيات الأراضي، ويدعو الفقراء للانتفاضة النهائية، وينصح بإهمال العمل وممارسة الصلاة.

وتمكّن من أن يجمع زمرة معقولة من المتعصبين، باللعنة والنباح، وكانوا قد أخذوا ينادونه بالقديس يوسف دو ليريو برانكو، ويطلبون منه البركة، ويسألونه القيام بالعجائب فيأتي بها. وعندما طلبوا منه طعاماً ليقتلوا الجوع، فقد نصحهم بغزو المراعي وذبح بعض رؤوس الماشية لوقعة دسمة. وشربوا من النبع.

واعتقلته الشرطة العسكرية بأوامر من قيادة الجيش التي تدخلت ضد الانحراف، وقاموا بجلده مع وضعه في قراب، واتهموه بالاشتراكية الخطيرة وحاكموه بتهمة تحريض الجماهير الفلاحية على البلبلة، وحتى إنهم قالوا له إنه ماركسي – لينيني – وأرسلوه مقيداً في قطار ينقل المجرمين ليقضي عقوبته في جزيرة فرناندو دي نورونيا. وفي الجزيرة يعيش بسلام، مصلياً لله العلي القدير، ويستأنس في الشبكة مع إينديا مومي، زوجته، التي جاءت لتبقى بصحبته، وهو في انتظار أن تنفخ الأبواق ليوم القيامة. زي دو ليريو، محترف حاذق، ورجل صالح.

طلب مصادقة

على ضوء القمر بدراً، الرائع، المسمر منارة لإيتابويا، سرقت باتريسيا قبلة من القس أبيلاردو كالفاو. قبلة على الشفاه كان لها طعم الجريمة والرحيق المصنوع في البيت.

كـــان الأب أبيلاردو كالفاو قد أخبرها بأنه قرّر إطالة إقامته في المدينة لبضعة أيـــام، منتهـــزاً الفرصـــة للاستماع إلى محاضرات دون بيدرو كازالداليغا، المنوّر الأسطوري. مطران وشاعر بريلازيا دو أراغوايا، حول الإصلاح الزراعي والرعي. وفي محاضــراته المقتــصرة على دائرة مغلقة على غير القس والإكليركيين، في بيت ســيادته، في بيدرا دو سال، فإن دون كازالداليغا روى سيرة عمله التبشيري ضد الــبؤس، بمحاولة منه لتعديل ملكية الأرض. وقد حصل دون تيموتيو على الموافقة على تسجيل قس بياسافا لحضور المحاضرة. وإذ اهتزت للخبر، فإن باتريسيا طوقت رقبــته بذراعــيها وانطلقت القبلة: قبلة حقيقية، في الفم، وليس ملامسة عابرة من شفتين خائفتين.

اقــشعر بــدن القس الجنوبي، الكثيف الشعر، الفحل بالولادة، البطل العتيد، العفــيف بالموجب الذي التزم به عند أسفل المذبح: ولكنهم نسوا حين طوبوه أن ينتزعوا خصيتيه، وهذا النسيان تناقض مناقبي ومادي، ضد الجدلية. وحين تمكّن من اســتعادة توازنه، بثمن دفع ثمنه الكثير من قوة الإرادة، رغماً عنه، فإن القس أعلن بــصوت عالٍ، لكي تسمع وتتصرف بنتيجته، الحقيقة المرة والتي، لعدم الوقوع في التجربة، كان يرددها لنفسه، في كل لحظة، خلال الثماني والأربعين ساعة الأخيرة، كنشيد لا يتغير:

– إن الكاهن لا يستطيع أن يتزوج يا باتريسيا.

التعجب غطّى بالضباب جانبية باتريسيا، البهيجة حين تصبح مقمرة، وبشعر الهــندية الــسابل، والعينين الزرقاويين، عيني البيضاء، والشفتين المعججتين، شفتي الزنجية:

– ومن تكلم عن الزواج؟

قل لي، يا أب أبيلاردو كالفاو، قل لي ولتقل لي نذورات العزوبية التي نذرتها في عملــية الــتطويب: من تكلم عن الزواج؟ الحياة، حباً، سهلة وبسيطة، ورفقة طيــبة، عــندما نفــتح أعيننا لنراها بوضوح ونحرّر قلوبنا من العقد والوضاعات والــسخافات. هيا بنا، يا حبي، أفرغ من رأسك المكلل، خيوط العنكبوت، وتخلّ عــن الأحكــام، وواجه الواقع. لا تجعل من نفسك مغلقاً، أصمَّ، أثْوَل، بريئاً، ولا يفيدك أن تهرب من الموضوع، وتتكلم عن شيء آخر، فكن رجلاً.

تلك القصة عن عزوبية الكهنة التي تناقشونها كثيراً، مقترحين حلولاً جذرية، وتغـــييراً في الـــنظام الكنـــسي، وحكماً على معصومية البابا من الخطأ، فإن ذلك المسلسل التلفزيوني قد حلّ هنا منذ زمن طويل، ودون ضرورة اللجوء إلى اللاهوت والتدلـــيس: إن الحل البرازيلي قد فرض نفسه. إن جوزي ألينكا، ابن إيراسيما، يا ابنة عمي، كان ابن كاهن، ألا تعلمين؟ إذاً فليكن معلوماً لديك.

إني لا أطلبك للزواج، ولا أطلب منك أن تتخلى عن ردائك الكهنوتي الذي تـــستعمله نـــادراً، وأن تكـــفّ عن أن تكون كاهناً. أعرف أن النذور تمنعك عن الـــزواج، وأنـــك به تخسر الحق في ممارسة الكهنوت الذي هو المحرك لحياتك: إن الزواج، يا أبتِ الجميل، كان أمراً لم يمرّ قط في ذهني. إني أطلب مصادقتك.

راعـــي كَنيسة، رسول في أراضي البؤس، إن رسوليتك تخدم الأكثر فقراً من الفقـــراء، والمـــشردين، والذين لا أرض لهم، والعبيد. وأنت لا تريد أن تتخلى عن التـــزامك، والمسيح معلمك، ورايتك ناصرية. إذاً، ارفع رايتك عالياً وشرف تعاليم المعلـــم، لمـــاذا علـــيك أن تهمل رسالتك؟ لم أطلب منك ذلك أبداً، إني غنمة في قطـــيعك، غـــنمة زنجية، عنـــز القمم تقفز فوق الصخور للحصول على الأشواك اليابـــسة. إني أدعـــم معـــركتك: إن الأرض لمن يعمل فيها، وإني إلى جانبك في الخندق.

عـــش قائلاً إن نذر العفة لدى الكهنة هو زائدة دودية، قروسطية، وعمل سياســـي قامت به الكنيسة القديمة التي كانت تخدم الأغنياء، وهي اليوم مختلفة. في يـــوم، أكثـــر أو أقـــل، فإن مجمعاً دينياً تقدمياً سوف يهدم هذه السخافة، وعـــندها لن يكون الحب خطيئة، ولا مميتاً، ولا خطأ عرضياً، بل سيكون نعمة الله. إن الكهـــنة الـــبرازيليين لم ينتظـــروا انعقاد مجموع ديني ثوري، بل حلوا المـــشكلة، دون أطـــروحات لاهوتية، ودون العودة إلى أنوار مفكري العقيدة، ولكـــن بوعي وشجاعة وبالطريقة التي يحبها الله. إن الله يغمض عينيه ويبتسم، فهـــو لم يرفع قط صوته للحكم عليهم، وهو يستقبلهم بصدره عندما يموتون، وهم دائماً برائحة القداسة.

إني أطلب منك فقط أن تحبني ولا شيء آخر. أنا هنا، أرتدي القمر والنجوم، مملحـــة بملح الأمواج، وتفح مني رائحة البحر، ووجهي مرطّب، وقلبي مطلق للقفز

بخفقـــان متعب لكثرة الانتظار، وأنا هنا أطلب يد صديق، في طور الصبا. أريد أن أكـــون صديقتك، صاحبة القس، وأتحول إلى بغلة - بلا - رأس، وحمارة كاهن، عشيقة، امرأة غاب.

أريد أن أحبل منك، أريد أن ألد ولدك في داخل بياسافا فوق الدم المراق بأمر مـــن السيد الإقطاعي والعقيد. للكلام عن ذلك، هل تعلم أنهم يريدون أن يقتلوك؟ هـــل تعلـــم أن جواوزينيو كوستا استأجر قاتلاً في برنامبوكو ليرسلك إلى أرض المـــسبلة أقدامهم؟ إنها أويا من أنقذتك، بطلب مني، فقد مسحت العقوبة وكتبت مكانها كلمة حب. اشتريت حياتك، ودفعت من أجلها ثمن عنـــزة.

الحب ليس إهانة، ولا يسيء إلى الله، وليس سوءاً أو شيئاً بشعاً وقذراً، وليس خطيئة أو لعنة. تعال، يا جميلي، سوف تنتهي من هذه التفاهة. سوف تكون كاهناً أفـــضل وأكثر رجولة، كاهناً لا يأخذ عليك أحد مأخذاً، بعد أن تتعلم طعم قبلتي، وأن تهتـــز بـــين ذراعي، وتسمع تنهدات حبـــي. عندما أكون بين يديك تنضج تفاحتا صدري، وبعد أن تتذوق العسل المصفى من إبريق بطني، وتريح رأسك على صدري، تعال، إلهي الصغير، يا ناصري، فسأطلبك.

إذا كنت لا تريد أن تأتي، وإذا رفضت أن تمنحني يد العشيق، إذا كنت أصم وأعمى لا تريد أن تسمع وترى، إذا كنت حماراً وجاهلاً إلى هذا الحد، وإذا كنت تفضل أحلام الصور العارية، والتلوث في الظلمة، والقذر والبشع، وإذا كنت نسخة جنوبـــية أو سرتونية عن الأب جوزي أنطونيو هرنانديز، وكتائبياً، فأنا مفارقة لك ولا أريد أن أراك بعد اليوم. لقد اتصلوا بي من باريس يدعونني إلى عيد باهيا على القناة 2. سيكون هناك عيد بلا حدود.

هـــل تريدني أن أذهب للاحتراق بين أيدي الفرنسيين أم تريدني أن أبقى في باهـــيا لألـــتهم عذريتك يا جميلي؟ قرّر دفعة واحدة، إني أطلبك للمصاحبة. هل تعطيني يدك؟

في حديقـــة العشاق، باتريسيا دا سيلفا فالسيلبرغ، باتريسيا الأزهار، النعجة الـــزنجية في قطيع الله، عنـــز يانسان، ختمت حديثها، وأفرغت كيسها، وسرقت قـــبلة أخرى من الأب أبيلاردو كالفاو، قس بياسافا، قبلة أخرى في الفم، باللسان والأسنان الأمامية، مرطبة برائحة البحر، و لم ينتهيا.

قس بكليته، يا جدتي، بنعمة الله. في البعيد، وبالتأكيد في بحيرة أياييتي المظلمة، جـوقة مـن الملائكـة تنشد الهاليلويا على أنغام الكمنجة والشبابة. موسيقى توم جوبين. رجل بكليته، يا جدتي.

السفر والمسافرات

في تـركيبة هذا التقرير، الظرفية الواسعة، كنا قد أشرنا في أكثر من مجال - وهنا لا بدّ من التعبير عن شكرنا - إلى صفحة "المجتمع" التي تشرف "جولي" على تحريـرها، "جوليتا إيسينسي" الصفحة ذات القماشة الجيدة، المطلعة والمقروءة... كـل ما يحدث في عالم الاحتفالات في الأوساط الراقية وكواليس الثقافة، والأخبار الساخنة، والأنباء الطازجة، ورنين أجراس، وطبخات تآمرية، كلها تجد لها تسجيلاً وتعليقاً في المنطقة الودية من صفحة جولي.

ومـسؤولية التحرير أنبأت، بسرور وبمسحة من الغيرة، عن سفر المجموعة الأنيقة من السواح المتمولين، في رحلة سياحية بحرية إلى الكاريبـي، على متن سـفينة إيطالية، فخمة. وفي لائحة المحظوظين سلطت الأضواء على الشخصين الأكثر حيوية، وهما المتميزتان، المعروفتان والمقدرتان لدينا، والغاية في الأناقة.. الأولى أوليمبـيا دي كاسترو، الطائرة، المرتدية رداء البحارة، بزة من مستوى رفعـتها وجسارتها، والثانية صديقتها الملازمة لها باستمرار السيدة ديانا تيليس دوس أنـزويس أي كارابوسا، أو السيدة سيلفيا إزميرالدا لدى إطلاق النفير، المحرقة بتنورتها القصيرة وقميصها المختصر مع صورة القديسة بربارة، أم الرعد، مطبوعة بالألوان، هدية من المكتبي شافيس: ولا يمكن نزعها. وإذ إنها قد شفيت مـن الانهيار العصبي الذي أدى بها إلى المستشفى، فإنها قد عادت لتكون الفرح بعينه.

كانـتا مسافرتين عزباوين، وشيء واحد فقط يؤسف له. إن رجل الأعمال التنفـيذي إستيريو دي كاسترو لم يكن قادراً على الابتعاد عن إدارة شركة البناء وتـسليم الأعمـال المنجـزة، والأعمال المتعددة، والاتصال بالوزراء، والعمداء، والسيناته يين، والعقداء... وكان عليه أن يدفع حسابات عدة في نهاية الشهر، وأن يـوزع البخشيش، ويستلم مبالغ التمويل، وكل ذلك وسط مزاحمين كاسرين. أما

صاحب الاستحقاق القاضي، بالإضافة إلى مشاركته في المعركة - ضد انحراف الأحداث، فقد وجد نفسه منهمكاً في التحقيق في عملية استيضاح الغموض المتأتي من تزوير توقيعه. فيا لهما من زوجتين مسكينتين، متعاونتين، ميتتين شوقاً إلى زوجيهما، محاولتين قتل الشوق بين أذرع السواح، وضباط الحدود البحرية، والشباب المنطلقين في الجولة السياحية، ومن كانتا تفضلانه، القبطان الثاني الذي كان موضع نزاع بينهما.

ومن خلال أخبار المجتمع، لجولي، تمّت معرفة استلام نيلدا سبنسر دعوة الشرف التي التمست فيها القناة 2 حضور الدعوة للتعاون في اختيار وترتيب مشاهد برنامج "لوغران إيشيكييه"، الباهياني. إن جاك شانسيل يريدها أن تكون معه في حفلة الليلة الأولى من البث... وطارت ليندا سبنسر حاملة معها احتياطياً من الدموع لتذرفها في حمى التأثير لدى سماعها ورؤيتها في التسجيلات التلفزيونية الفرنسية، الموسيقى الباهيانية، والعادات، وسامبا الدوران، والكابويرا أنغولا، والكوندومبليه، والزواج، والناس البسيطة، والحشد الشعبي في الكرنفال، والحياة القاسية والموجعة: أغنية باهيا.

لن تسافر وحيدة. لقد أوكلت إليها السيدة إيليو دورا كوستا أن ترعى ابنتها مرلين، وأن لينوكا التي ما تزال صغيرة، ومكافأتها في عيد ميلادها الخامس عشر كانت تلك السفرة للدراسة في أوروبا، خلال شهر تملأ نفسها فيه بالثقافة.. وقد توقعت جولي أن لينوكا، التعبير المقلق لسلطة الفتوة، سوف تفوز بالحد الأقصى من الاستفادة في الموسوعة الواسعة: متاحف، محاضرات، ودرس سريع عن الحضارة الفرنسية في السوربون، وحفلات موسيقية، ومسارح، وكنيسة نوتردام، واللابين أجيل، واللوفر، والأوبرا، وفندق غراندباليه وملهى كريزي هورس.

ووفقاً لما تمّت معرفته، لا من خلال أخبار المجتمع، لجولي، بل على ألسنة الثرثارين الخالدين، فإن الصغيرة لينوكا، ما كادت تصل إلى باريس، في رغبة منها في الاحتفال بربيعها الخامس عشر، حتى تخلت عن رفقة نيلدا التي وافقت عليها الأخيرة والحمد لله، لأنها غير موهوبة للقبول بمن يحمي نصفها الأسفل، وأياً يكن، فإنها وجدت نفسها منهمكة بالتفاصيل النهائية لإخراج برنامج شانسيل.. ودعتها لينوكا واعدة بالاتصال الهاتفي.

ذهبت لينوكا للإقامة في الطابق السادس من "إيل سان لويس"، إذ كانت قد جاءت بالعنوان مع الدولارات والصكوك السياحية موضوعة معاً تحت زنار الحرير الـــذي خاطـــته لهـــا السيدة أليودورا، وفوق جلدها، استقبلتها زمرة من الفتيات الفـــرحات، من جنسيات مختلفة: آنسات جميلات، لا يزيد عمر أية واحدة منهن علـــى خمـــسة عـــشر عاماً، ربيعيات. استقبلن لينوكا بمنتهى اللطف، "وعلمنها" الطـــابقين المكـــونين للـــشقة، درجة درجة: الأدوات الموسيقية، وأقنية التسجيل، والرســـوم، والكتب؛ والغرسة الخضراء الأولى، وشراشف الموسيقي الذي كان في ســـفر ويمكـــن أن يعود في أية لحظة: إن حياة الفنان مشقة، وإذا كان فناناً كبيراً فالمستحسن هو عدم الكلام.

كانت الصبيات يشغلن أنفسهن مستأنسات يصنعن تاجاً من الزهور لإعلانه خطيـــباً لـــدى عودته: الراعي اليوناني. كن بمجموعهن ست عشرة فتاة ويدعين: بينـــيديكت، نادجـــا، نادين، فيرا فيرونيكي، فاسو اليونانية، أنا، رشيدة، والزنجية بونـــزا، فالينتينا، أليكساندرا، رينيه، ريميديوس الإسبانية، أولاً أي ماريا العجائب السبع، ولون النحاس.

الشفاء

في إيليه أشيه إيياه أوغون، خلال أربعين يوماً من البقاء في غرفة النوم الأنيقة، فإن أداجيزا منحت نفسها سبعة أعوام من الراحة، ومن الواجبات التي أنستها إياها العقدة الدينية. دخلت إلى الغرفة "أياو" فخرجت "إيبومين".

خـــرجت مغـــسولة ومصنوعة من جديد، وعندما عادت إلى "جادة السلام علـــيك يـــا مريم"، استقبلت بالترحاب، حماس مفرح أبدته الجيرة المحتفلة بالعيد. مآكـــل ومـــشارب، والموســـيقى على أعلاها من جهاز أسطوانات ألينا والرقيب ديوليـــندو: ومارست داميانا النـــزق في صناعة الحلويات، وحصل الأستاذ جوان باتيستا من دائرة علاقاته المتميزة، على نبيذ أبيض وأحمر، إسباني، وأخضر، برتغالي، وجيريـــد، ومانـــزنيلا، وفـــودكا وطنية، وويسكي باراغوانو من أفضل الماركات الاســـكتدلندية المـــسجلة. وكان الغناء والرقص أمام البيوت، سهروا حتى الفجر، ولكن حوالى منتصف الليل فإن دادا ودانيلو انسحبا معلنين أنهما ذاهبان ليرتاحا.

لم يتعـــبا.. لقد نفخت يانسان النار على أجزاء أداجيزا وخلال الأربعين يوماً مـــن التأكيد حملت قرني الثور معلقين في زنارها: مثير أكثر فعالية مباشرة من أي شـــيء آخـــر. أحرقت أداجيزا نفسها، وفي تلك الليلة من التآخي مع سكان المحلة فإنها عرفت في الفراش أول مرة الرعشة، وفي النهاية أغمي عليها بسبب التكرار. لم يـــستغل دانيلو الوضع.. عطشانَ وجائعاً، فإنه لم يروِ عطشه بشرب الإناء كاملاً، ولم يشأ أن يقضي على الجوع بالتهام الجزر.. قررا العودة إلى مورو دي ساوباولو للاحـــتفال بمرور عشرين سنة على زواجهما، في شهر عسل جديد. لم تكن المرة الأولى إلا شـــكلية – شـــهر عسل – شهر بصل – فعندما أكل أمير ملاعب كرة القدم السابق، زهرة زوجته العذراء، وكسر القفل بضربة مطرقة قوية، فإن المتزمتة عادت إلى برودها بعد قليل.

لقد تخلت عن الطهرية ولكنها لم تفعل ذلك دفعة واحدة، فقد حافظت على بعض الحيلة في التعامل مع الحب الذي كان يزيد نعمتها ورغبتها. لقد استمرت في كونها سيدة مسترسلة بطلب الأذونات في الفراش، وتخلت أيام الآحاد مع جيلديتي ولكـــنها توقفت عن الاعتراف ولم تعد تلتقي الأب جوزي أنطونيو هرناندز. تعبد ميرو عبادة، والاحتفال السنوي بطلب يد مانيلا للزواج أصبح تاريخاً مميزاً. ولم يبقَ إلا تفـــصيل أخـــير واحد قبل أن يستقل دادا والأمير المركب ليذهبا إلى مورو دي ســـاوباولو: لقد شفيت أداجيزا من وجع الرأس، ولم يكن دانيلو أقل تحسناً منها: لقـــد حـــسن بشكل واضح من مشكلة معدته: فلم يعد يضرط علناً إلا بين حين وآخر.

العودة

نجاح مطلق، ولا يمكن أن يفوقه نجاح، هو معرض الفنون الدينية: زوار لا يحـــصون، وعبارات حماسة طازجة في أقوال الحضور، ووقع لا حدود له، كما تمّـــت معرفته. دام المعرض شهراً كاملاً، ولكن تمثال القديسة بربارة، أم الرعد، بقـــي بعد ذلك أسبوعاً طويلاً في دير القديسة تريزا، في مشاغل المتحف، هدفاً لاهـــتمامات خاصة من معيدتها ليانا غوميز سيلفيرا، ذات الشهرة الكبيرة بمثل ذلك الاهتمام.

الحريص مات عجوزاً: غير مكترث، فإن الأب تيو ذا العلاقات التي استمرت قوية مع دون ماكسيميليانو فون غرودن، وتحت علامات من عدم الاستلطاف، والشكوك، صبر على بقاء التمثال وذهب ليعود به شخصياً. كان عليه أن يصبر طيلة يومين، بين الصلوات والشتائم، لأن مدير المتحف سافر بصورة مفاجئة، ووحده يستطيع أن يوقع الأمر بإعادة التمثال.

ولكن لكل شيء يومه. وهكذا، في صبيحة يوم أحد، مشمسة وعليلة النسيم، فإن دون ماكسيميليانو والموظف إديميلسون، الملاك الماركسي وصاحب الرؤية، وإذ أعيد إلى مهمات المساعدة، حملا التمثال في كومبي المتحف إلى رامبا دو ميركادو، حيث كان راسياً "المبحر بلا ميناء". تنكب المعلم مانويل وماريا كلارا مسؤولية إعادته بحراً، ووضعاه فوق المحمل في مؤخرة المركب الشراعي. مجاملاً، فإن دون ماكسيميليانو قد اعتذر من كاهن سانتو أمارو الذي لم يكن أقل مدينية: اعذرني على التصرف، فأنا، هكذا، من أنا. لا تعتذر، التمس دون ماكسيميليانو: لم يكن يحسب حساباً لعدم التفاهم، والخداعات، والإيحاءات السيئة، وكان بإمكانه أن يفهمه ويبررها. تصافح الاثنان، الكاهن ودون ماكسيميليانو. في صندوق المتحف الحديدي، المقفل بستة مفاتيح، فإن دون ماكسيميليانو احتفظ بالوثيقة الموقعة بيد الأب تيو، وهي تشهد على أنه استلم بحالة جيدة ومحافظة تمثال القديسة بربارة، أم الرعد، التي كانت معارة إلى متحف الفنون المقدسة: أمر بالتحقق من توقيع الكاهن.

صحفيان رافقا التمثال إلى سانتو أمارو: غيدو غييرا من صحيفة "دي نوتيسياس" اليومية، وجوزي بربرت دي كاسترو، من صحيفة "أتاردي" مع المصورين الصحفيين الخاصين، جيرفازيو فيليو وفافا... وتشابه وصف الرحلة لدى المحققين الصحفيين اللامعين، وكل واحد بأسلوبه، لدى التوقف عند منعطف النهر ولدى إنزال التمثال في سانتو أمارو. لقد تمّت الرحلة بهدوء، واستحق التوقف أسهماً نارية وخطابة تبجيلية، أما الإنزال فقد كان بتألق خاتمة مهرجان.

من ميناء باهيا، فإن المركب "المبحر بلا ميناء"، خرج تواكبه مراكب عديدة حتى نهر باراغواسو. هناك لدى لقاء النهر بالبحر عند باب ريكونكافو، فإن المراكب توقفت. وانطلقت الأسهم النارية معلنةً العودة السعيدة، واستعملوا لذلك

مكـــبر صـــوت قديم هو أنطونيو برازيليرو، صاحب صوت معرض القديسة حنة، الناظم الأخير في هذا الموجز من الشعر المنظوم، فقد بجل الطواف تمجيداً للقديسة: ظفر القديسة بربارة، أم الرعد، في قصور دلتا الشعب. وقد هرعت الأسماك أفواجاً لتـــسمعه، وســـاحرات النهر انطلقن مرتديات الزهور، وطارت القوافي مع نسيم الصباح.

في مجـــرى النهر، كانت المواكبة مهمة صعبة وتضحية من أصحاب المراكب الـــشراعية الذين جاؤوا من مرافئ ريكونكافو، "محلقين". على عنق التمثال، عقد أخـــوية "سيدة الموت الهنيء": كانت عجوزات كاشويرا ينتظرن قلقات، في ميناء سانتو أمارو. كانت القديسة بربارة، أم الرعد تبدو راضية عن العودة إلى مذبحها، وتبتسم حين تسمع ماريا كلارا في أغنيات الحب، وكانت الرعشة تصل إلى يدي المعلم مانويل الحارتين. الحمد لله!

وفي ســـانتو أمـــارو كان الإنزال حدثاً مكرساً، فقد احتفل السكان بانتصار الشعب، وهزيمة السفلة الذين حاولوا أن يسرقوا ملكية المدينة، والتي أصبحت الآن أثمن، لأنها، كما هو مثبت ومبرهن عليه، وكما يمكن قراءته في الكتاب، فإن تمثال القديسة بربارة، أم الرعد، تمّ عمله بيدي إليجادينيو، وبتوصية من الكاهن، ولتكون بـــنوع خـــاص مقدســـة في سانتو أمارو دا بوريفيكاسياو.. لقد رافقت الجماهير المـــوكب وتـــسابقت على حمل محمل القديسة، وفي الطليعة السيدة كانو، والسيد جوزي فيلوزو، والدا الأطفال الصغار. عيد الغطاس!

وإذ وضعت على مذبحها المتواضع في المقر العام للأبرشية، فهناك يبقى التمثال المتنازع عليه والذي اختفى وأعطى باختفائه الناس ما يتكلمون عنه. في رأي الأب تـــيو، كـــان يجب ألا يغادر مكانه، هناك. لقد كلّفه الأمر عملاً وكلمات كبيرة لاستعادتها: الشهيرة، الوحيدة، الأصلية، قديسة بربارة، أم الرعد.

النشرة

الأصـــلية، الوحيدة؟ يمكن أن يكون الجواب نعم، ويمكن أن يكون لا. عند أبواب المكتبات، وفي أماكن اللقاء والمحادثة الطيبة التي لم تعد موجودة، تمّ الحديث همـــساً عـــن نـــشرة موجزة عن القديسة بربارة، أم الرعد، مع صورة ملونة، بين

المـــثقفين عـــن نـــشرة مخصـــصة للقديـــسة بربارة، أم الرعد، لحي جامعة أونيفر سلينمزكيلوبادي در ريليجيوسن كونست، كان قد تمّ طبعها حديثاً في ألمانيا. (بيبر فيرلاغ، ميونشن).

النشرة، دقيقة، مختصرة، تنشد المدائح لروعة التمثال، وتقول إنه ذو قيمة فنية عالية، وقيمة مدهشة في السوق التجارية المتخصصة، وتشير النشرة إلى كتاب دون ماكسيميليانو فون غرودن، وإلى الأطروحة التي بالاستناد إليها يكون تمثال بربارة، أم الـــرعد من صنع النحات إليجادينيو. وتنتهي النشرة مؤكدة أن التحفة الأصلية هـــي جـــزء من مقتنيات متحف الفنون الدينية في جامعة باهيا الفدرالية. ونسخة عـــنها، هـــناك، هـــي موضوع إرث قومي، وعبادة عامة في مقر سانتو أمارو دا بوريفيكاسياو.

مـــع هـــذه الإفـــادة المذهلة، الألمانية، التي تستدعي الشك، وتبعث الجدال، وتغـــذي استقالات مقنعة، وتنشط الأحاديث الخطابية، نصل إلى نهاية القصة، ولم يعد لدينا ما نقوله سوى: إلى اللقاء... "أورفوار". مترجلاً عن متن الحمار البطيء، ذلـــك الحمـــار نفـــسه الراقص، عند المفرق الذي تتداخل فيه الطرقات، وتمتزج الوجـــوه، أقـــدم الـــضحية الواجبة لايشو: مع زجاجة كاشاسا ونصف دزينة من السيجار الرخيص.

لارويـــيه! أقول: الخلاص، وجوقة المحبين تجيب: لاوس ديو! أشيه، أيها الناس الطيبون، فأنا أغادركم، وإلى رؤية المزيد.

انتهت

فــــي ميــــنـاء دي سيليستين، في باريس، من أيار/مايو إلى تشرين الأول/أكتوبــر 1987، ومــــن شباط/فبراير إلى تموز/يوليو 1988.
في باهيا، في آب/أغسطس 1988.

كتب للمترجم

- غبار الهزيمة، مجموعة أحاديث، بيروت.
- الرؤساء، ألغاز وأسرار، سياسة، بيروت.
- صهوة البراق، رواية، بغداد 1992.
- الميناء الأمين، رواية، بغداد 1995.
- الحركة الكردية في تركيا: إلى أين؟ عمان 1997.
- تريزا باتيستا تعبة من الحرب، رواية جورجي أمارو، ترجمة عن البرتغالية، بغداد.
- توكايا غراندي، رواية جورجي أمارو، ترجمة عن البرتغالية، بيروت.
- بوليفيا والبارود في الحلق، دراسة سياسية: كيافيناتو، ترجمة عن البرتغالية، بغداد.
- رقعة الشطرنج والرجل العاري، فرناندو سابينو، ترجمة عن البرتغالية، بغداد – القاهرة.
- فمك المقمر، مجموعة قصص لكارلوس دروموند دي أندرادي.
- المتخلف العقلي الكبير، رواية فرناندو سابينو، ترجمة عن البرتغالية، تونس.

هذه هي الحكاية الصغيرة عن أدالجيزا ومانيلا وبعض سليلي عشق الإسباني فرنسيسكو روميرو بيريزإي بيريز، مع أندريزا دا أنونسياساو، الرائعة أندريزا بنت يانسان، الخلاسية الفاحمة. وفيها توصف، لكي تخدم مثالاً يحتذى، وإنذاراً؛ أحداث هي بلا شك غير متوقعة، وفضولية، وقعت في مدينة باهيا - وفي أي مكان آخر لا يمكنها أن تقع.

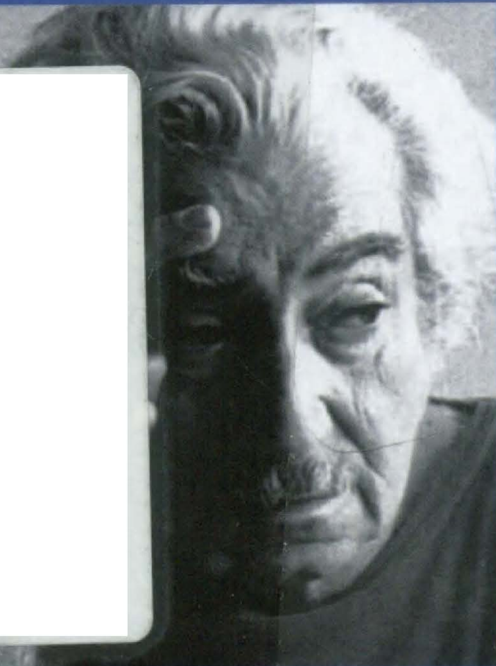
إن أهمية التأريخ هي أهمية نسبية ولكن، هنا، يستحق الأمر معرفة أن كل شيء قد حدث في زمن قصير مدته ثمان وأربعون ساعة، ولكنه طويل بالحياة التي واكبته، وذلك في أواخر الستينيات أو في أوائل السبعينيات تقريباً. لم يتم التفتيش عن تفسير لها، لأن الحكاية تُروى ولا تُفسَّر.

إنه مشروع رواية أُعلن عنه منذ حوالى العشرين عاماً، وتحت عنوان حرب الأوهام، ولكن، فقط الآن، صيف وخريف ١٩٨٧، وفي ربيع وصيف ١٩٨٨، في باريس وضعت الهيكل على الورقة. وبينما أكتبها، تمتّعت فإذا تمتّع بقراءتها أحد أكثر مني، فسأكون سعيداً بذلك.

ج. أمادو

يعتبر الكاتب والروائي البرازيلي جورجي أمادو أحد أهم كتّاب البرازيل، بل أحد أهم كتّاب أميركا اللاتينية وأوسعهم شهرة في العالم.

ولد أمادو في مقاطعة باهيا في البرازيل عام ١٩١٢ وتوفي فيها عام ٢٠٠١. وقد انخرط خلال حياته المديدة والحافلة في السياسة والأدب والنضال الحزبي فذاق طعم التشرد والنفي والسجن، لكنه أخلص للكتابة وكرّس لها نفسه حتى رحيله.



وقد انحاز في أدبه إلى جانب الفقراء والمسحوقين واتّصفت كتاباته بالطابع الشاعري الذي تغلب عليه أجواء الأسطورة وبطولات البسطاء من الناس في ولاية باهيا مسقط رأسه.

وقد نشر أمادو أكثر من أربعين كتاباً وترجمت معظم أعماله إلى أكثر من ثلاثين لغة بما فيها العربية.


ISBN 978-614-432-326-7
9 786144 323267